التدبر والبيان

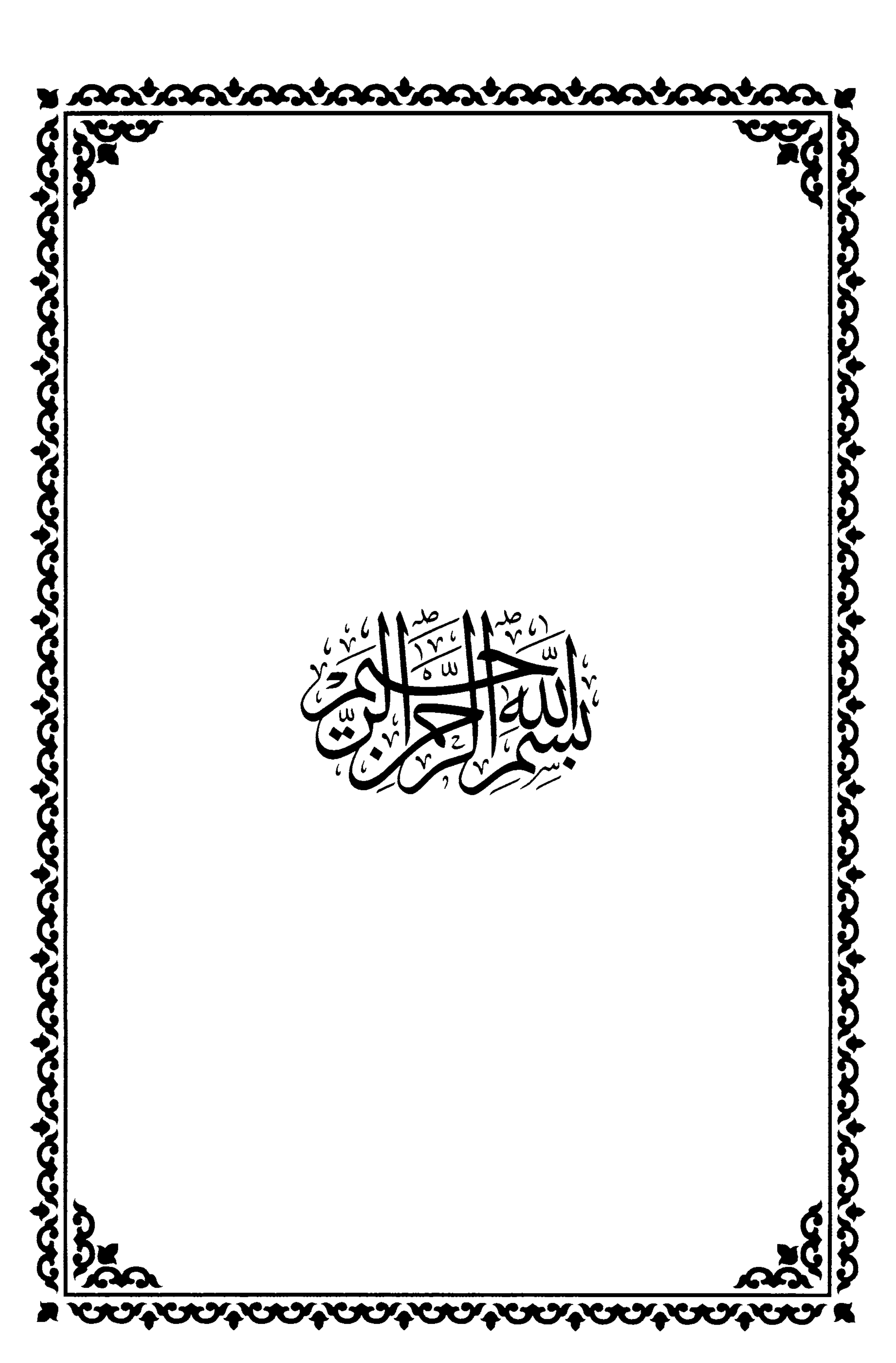
في

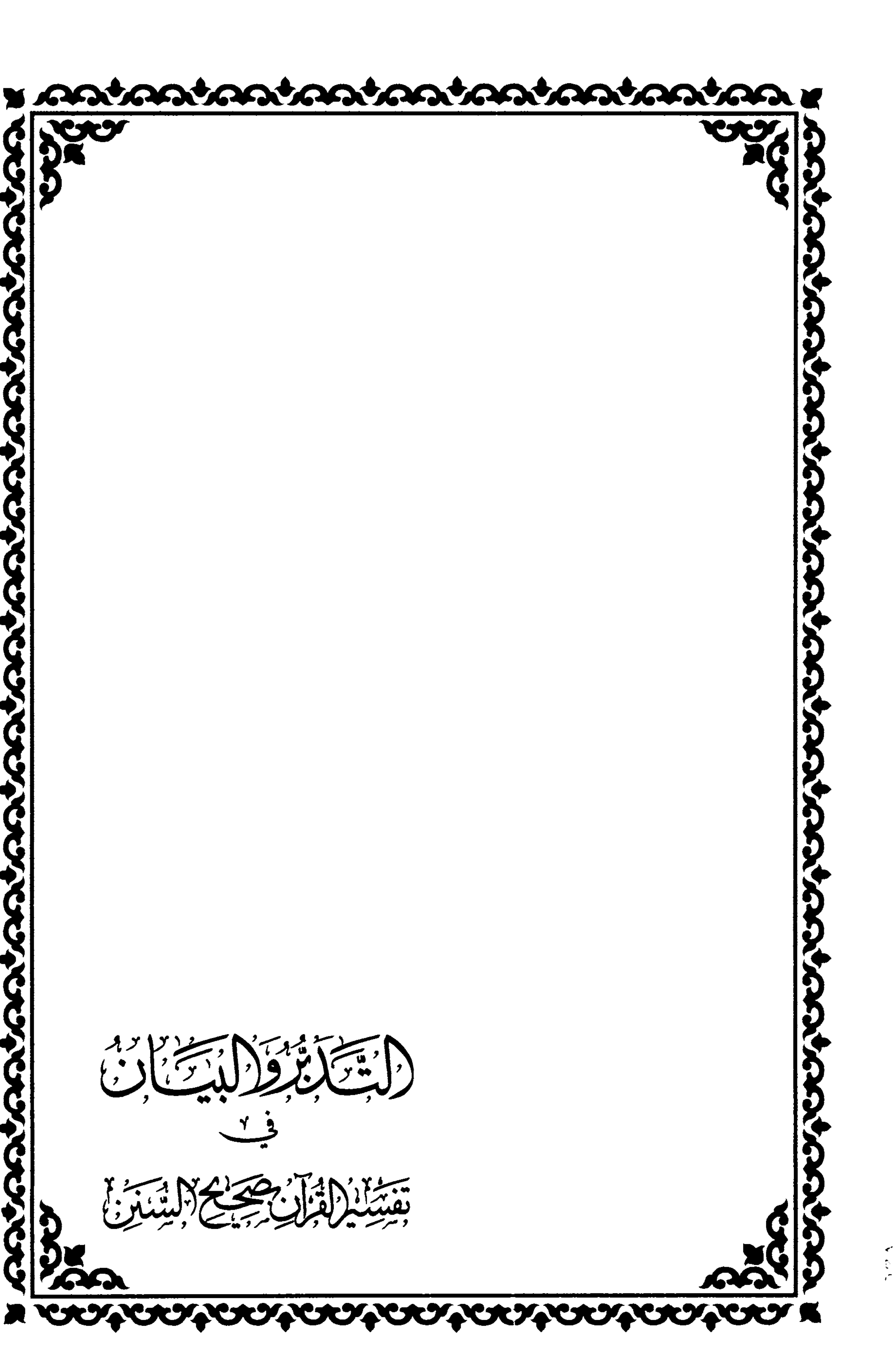
تفسير القرآن بصحيح السنن

تأليف الأستاذ الدكتور
أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد السادس والعشرون

العنكبوت - السجدة


بسم الله الرحمن الرحيم


التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 — عدد الصفحات (40 مجلداً)

Size 17 x 24 cm — قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. — سنة الطباعة

Printed in : Lebanon — بلد الطباعة : لبنـــان

Edition : 1st — الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ ـ ١٤٧ ـ ٣٣ ـ ٩٩٥٤ ـ ٩٧٨



سورة العنكبوت

قال القاسمي: «سميت بها لاشتمالها على آية ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾[1] الآية، المشير إن من اعتمد على قوة الأصنام وحفظها عن العذاب كالعنكبوت، اعتمدت على قوة بيتها التي لا تحتمل مس أدنى الحشرات والرياح، وحفظها عن الحر والبرد. وهذا أتم في الدعوة إلى التوحيد الذي هو أعظم مقاصد القرآن. أفاده المهايمي»[2].

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «افتتاح هذه السورة بالحروف المقطعة يؤذن بأن من أغراضها تحدي المشركين بالإتيان بمثل سورة منه كما بينا في سورة البقرة وجدال المشركين في أن القرآن نزل من عند اللّه هو الأصل فيما حدث بين المسلمين والمشركين من الأحداث المعبر عنها بالفتنة في قوله هنا: ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[3]. فتعين أن أول أغراض هذه السورة تثبيت المسلمين الذين فتنهم المشركون وصدوهم عن الإسلام أو عن الهجرة مع من هاجروا. ووعد اللّه بنصر المؤمنين وخذل أهل الشرك وأنصارهم وملقنيهم من أهل الكتاب.

والأمر بمجافاة المشركين والابتعاد منهم ولو كانوا أقرب القرابة. ووجوب صبر المؤمنين على أذى المشركين، وأن لهم في سعة الأرض ما ينجيهم من أذى أهل الشرك. ومجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن ما عدا الظالمين منهم للمسلمين. وأمر النبي ﷺ بالثبات على إبلاغ القرآن وشرائع الإسلام. والتأسي في

---

(١) العنكبوت: الآية (٤١).

(٢) محاسن التأويل (١٣/ ١٣٥).

(٣) العنكبوت: الآية (٢).

ذلك بأحوال الأمم التي جاءتها الرسل، وأن محمدا ﷺ جاء بمثل ما جاءوا به. وما تخلل أخبار من ذكر فيها من الرسل من العبر. والاستدلال على أن القرآن منزل من عند اللّه بدليل أمية من أنزل عليه ﷺ. وتذكير المشركين بنعم اللّه عليهم ليقلعوا عن عبادة ما سواه. وإلزامهم بإثبات وحدانيته بأنهم يعترفون بأنه خالق من في السماوات ومن في الأرض. والاستدلال على البعث بالنظر في بدء الخلق وهو أعجب من إعادته. وإثبات الجزاء على الأعمال. وتوعد المشركين بالعذاب الذي يأتيهم بغتة وهم يتهكمون باستعجاله. وضرب المثل لاتخاذ المشركين أولياء من دون اللّه بمثل وهي بيت العنكبوت»[١].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٠٠-٢٠١).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «والمعنى: أن الناس لا يتركون دون فتنة: أي ابتلاء واختبار، لأجل قولهم: آمنَّا، بل إذا قالوا آمنا فتنوا: أي امتحنوا واختبروا بأنواع الابتلاء، حتى يتبين بذلك الابتلاء الصادق في قوله آمنَّا من غير الصادق.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبينًا في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَآءُ وَالضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[1] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾[3] وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[4] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله هنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ الآية. وقد بينت السنة الثابتة أن هذا الابتلاء المذكور في هذه الآية يبتلى به المؤمنون على قدر

---

(١) البقرة: الآية (٢١٤).
(٢) آل عمران: الآية (١٤٢).
(٣) محمد: الآية (٣١).
(٤) آل عمران: الآية (١٧٩).
(٥) آل عمران: الآية (١٥٤).
(٦) التوبة: الآية (١٦).

ما عندهم من الإيمان، كقوله ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل**»[(١)][(٢)].

قال ابن عطية: «نزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هي سيرة اللَّه تعالى في عباده اختبارا للمؤمنين، وفتنة ليعلم الصادق ويرى ثواب اللَّه له، ويعلم الكاذب ويرى عقابه إياه.

قال القاضي أبو محمد: وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب وفي هذه الجماعة فهي بمعناها باقية في أمة محمد ﷺ، موجود حكمها بقية الدهر؛ وذلك أن الفتنة من اللَّه تعالى والاختبار باق في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك، وإذا اعتبر أيضًا كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن»[(٣)].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن تمام حكمته، وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال: (إنه مؤمن) وادعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ولكن سنته تعالى وعادته في الأولين وفي هذه الأمة، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة، فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق، وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر اللَّه به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دل ذلك على صدق إيمانه وصحته.

ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكا وريبا، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدفه عن الواجبات، دل ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.

---

(١) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه: الآية.

(٢) أضواء البيان (٦/ ٤٦١-٤٦٢).

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ٣٠٥).

والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا اللَّه، فمستقل ومستكثر، فنسأل اللَّه تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكير، يخرج خبثها وطيبها.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ أي: أحسب الذين همهم فعل السيئات وارتكاب الجنايات، أن أعمالهم ستهمل، وأن اللَّه سيغفل عنهم، أو يفوتونه، فلذلك أقدموا عليها، وسهل عليهم عملها؟ ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء حكمهم، فإنه حكم جائر، لتضمنه إنكار قدرة اللَّه وحكمته، وأن لديهم قدرة يمتنعون بها من عقاب اللَّه، وهم أضعف شيء وأعجزه»[(١)].

قلت: وأنت ترى رحمك اللَّه اتفاق هؤلاء العلماء والمفسرين على فهم هذه الآيات، وأن الابتلاء سنة ماضية يميز اللَّه بها الخبيث من الطيب، فالطيب تزيده نصاعة وجدة ونشاطًا وثباتًا وإقدامًا على دعوته، وأن الحق تجب نصرته مهما كلف ذلك، ولا يؤقت ذلك بوقت؛ بل نصرة الحق تبقى معه مستمرة حتى يلفظ أنفاسه، وهكذا كانت سيرة الأنبياء والصديقين وأهل العلم المخلصين، وقد ذكرت أخبارهم وسيرهم ومواقفهم في كتابي (موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية).

وأما الخبيث فيجد الابتلاء فرصة للفرار والهروب، ويجعلها عذرا له في التخلي عن الدعوة إلى اللَّه والجهاد في سبيله، كما ذكر اللَّه أخبار ذلك في سورة (آل عمران) في غزوة أحد، وفي سورة (الأحزاب) في غزوة الأحزاب، وفي سورة (التوبة) في غزوة تبوك، وما حصل من مواقف ومواقع في تاريخ الأنبياء، كما ذكر اللَّه عن قوم موسى لما قالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[(٢)]، وقد جربت في هذه المسيرة المباركة الدعوية أمما لا يحصون فوجدت من هذا النوع الكثير والعياذ باللَّه، يرتكسون وينتكسون، والثابتون والحمد للَّه العدد الكثير، صامدون واقفون، لا تزعجهم الرياح بكل أصنافها، رياح الشبهات والشهوات، ورياح الدعايات والتثبيطات. فنرجو اللَّه أن يثبتنا وإخواننا وأن لا يجعل لنا نصيبًا من الصنف الثاني، الذي فر وترك كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ وقال بزعمه: إنه نجا!

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٦-٦٧).

(٢) المائدة: الآية (٢٤).

ولا يدري المسكين أن الموت يأتيه ولو كان في برج مشيد ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1]، والله المستعان.

قال الرازي: «ثم قال تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يعني حكمهم بأنهم يعصون ويخالفون أمر الله ولا يعاقبون حكم سيئ، فإن الحكم الحسن لا يكون إلا حكم العقل أو حكم الشرع، والعقل لا يحكم على الله بذلك فإن الله له أن يفعل ما يريد والشرع حكمه، بخلاف ما قالوه، فحكمهم حكم في غاية السوء والرداءة»[2].

قال ابن القيم: «أفضل العطاء وأجله على الإطلاق الإيمان وجزاؤه وهو لا يتحقق إلا بالامتحان والاختبار قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ فذكر سبحانه في هذه السورة أنه لا بد أن يمتحن خلقه ويفتنهم ليتبين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، ومن يشكره ويعبده ممن يكفره ويعرض عنه ويعبد غيره. وذكر أحوال الممتحنين في العاجل والآجل، وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا وهم الرسل وأتباعهم، وعاقبة أمرهم وما صاروا إليه. وافتتح بالإنكار على من يحسب أنه يتخلص من الامتحان والفتنة في هذه الدار إذا ادعى الإيمان، وأن حكمته سبحانه وشأنه في خلقه يأبى ذلك. وأخبر عن سر هذه الفتنة والمحنة، وهو تبيين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر. وهو سبحانه كان يعلم ذلك قبل وقوعه. ولكن اقتضى عدله وحمده أنه لا يجزي العباد بمجرد علمه فيهم بل بمعلومه إذا وجد وتحقق. والفتنة هي التي أظهرته وأخرجته إلى الوجود، فحينئذ حسن وقوع الجزاء عليه. ثم أنكر سبحانه على من لم يلتزم الإيمان به ومتابعة رسله خوف الفتنة والمحنة التي يمتحن بها رسله وأتباعهم ظنه وحسبانه أنه بإعراضه عن الإيمان وتصديق رسله يتخلص من الفتنة والمحنة، فإن بين يديه من الفتنة والمحنة والعذاب أعظم وأشق مما فر عنه. فإن المكلفين بعد إرسال الرسل إليهم بين أمرين؛ إما أن يقول أحدهم آمنت، وإما أن لا يقول، بل يستمر على

---

(١) النساء: الآية (٧٨).

(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ٣١).

السيئات. فمن قال آمنا امتحنه الرب تعالى وابتلاه لتتحقق بالإيمان حجة إيمانه وثباته عليه، وأنه ليس بإيمان عافية ورخاء فقط بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء. ومن لم يؤمن فلا يحسب أنه يعجز ربه تعالى ويفوته بل هو في قبضته وناصيته بيده، فله من البلاء أعظم مما ابتلى به من قال آمنت. فمن آمن به وبرسله فلا بد أن يبتلى من أعدائه وأعداء رسله بما يؤلمه ويشق عليه. ومن لم يؤمن به وبرسله فلا بد أن يعاقبه فيحصل له من الألم والمشقة أضعاف ألم المؤمنين. فلا بد من حصول الألم لكل نفس مؤمنة أو كافرة، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا أشد ثم ينقطع ويعقبه أعظم اللذة، والكافر يحصل له اللذة والسرور ابتداء ثم ينقطع ويعقبه أعظم الألم والمشقة وهكذا حال الذين يتبعون الشهوات فيلتذون بها ابتداء، ثم تعقبها الآلام بحسب ما نالوه منها. والذين يصبرون عنها يألمون بفقدها ابتداء ثم يعقب ذلك الألم من اللذة والسرور بحسب ما صبروا عنه وتركوه منها»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الصبر والتحمل من أسس الدعوة إلى الله تعالى

* عن خباب بن الأرت قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ -وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة- قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: **كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالميشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

أمشاط الحديد: بفتح الهمزة جمع المشط، وهو ما يمتشط به الشعر، وفيه من المبالغة أن الأمشاط تنفذ من اللحم إلى العظم لحدتها وقوتها.

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٢٠١-٢٠٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٠٩) والبخاري (٦/ ٧٦٨/ ٣٦١٢) وأبو داود (٣/ ١٠٨/ ٢٦٤٩) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٥٠/ ٥٨٩٣) وأخرجه في الصغرى (٨/ ٥٩٢/ ٥٣٣٥) مختصرا.

الميشار: بكسر الميم وسكون التحتانية بهمز وبغير همز. وهو آلة نشر الخشب، تقول: وشرت الخشبة وأشرتها، ويقال فيه بالنون، وهي أشهر في الاستعمال.

صنعاء: يحتمل أن يريد صنعاء اليمن، وبينها وبين حضرموت من اليمن أيضًا مسافة بعيدة، نحو خمسة أيام، ويحتمل أن يريد صنعاء الشام، والمسافة بينهما أبعد بكثير، والأول أقرب، قال ياقوت: هي قرية على باب دمشق عند باب الفراديس، تتصل بالعقيبة. قلت: وسميت باسم من نزلها من أهل صنعاء اليمن[١].

حضرموت: بفتح الحاء المهملة وسكون المعجمة وفتح الراء والميم، اسم قبيلة أيضًا.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قال ابن التين: كان هؤلاء الذين فعل بهم ذلك أنبياء أو أتباعهم، قال: وكان في الصحابة من لو فعل به ذلك لصبر، إلى أن قال: وما زال خلق من الصحابة وأتباعهم فمن بعدهم يؤذون في اللَّه، ولو أخذوا بالرخصة لساغ لهم»[٢].

وقال أيضًا: «**قد كان من قبلكم يؤخذ**» إلخ تسلية لهم وإشارة إلى الصبر حتى تتقضى المدة المقدورة، وإلى ذلك الإشارة بقوله في آخر الحديث «**ولكنكم تستعجلون**»»[٣].

قال الشيخ ابن عثيمين: «وفيه دليل على وجوب الصبر على أذية أعداء المسلمين، وإذا صبر الإنسان ظفر.

فالواجب على الإنسان أن يقابل ما يحصل من أذية الكفار بالصبر والاحتساب وانتظار الفرج، ولا يظنن الأمر ينتهي بسرعة وينتهي بسهولة.

قد يبتلي اللَّه ﷻ المؤمنين بالكفار يؤذونهم وربما يقتلونهم كما قتلوا الأنبياء. اليهود من بني إسرائيل قتلوا الأنبياء الذين هم أعظم من الدعاة وأعظم من المسلمين، فليصبر ولينتظر الفرج ولا يمل ولا يضجر، بل يبقى راسيا كالصخرة، والعاقبة للمتقين، واللَّه تعالى مع الصابرين. فإذا صبر وثابر وسلك الطرق توصل

---

(١) فتح الباري (٦/ ٧٦٨).
(٢) فتح الباري (٧/ ٢١١).
(٣) فتح الباري (١٢/ ٣٩٢).

إلى المقصود ولكن بدون فوضى، وبدون استنفار، وبدون إثارة بطريق منظمة؛ لأن أعداء المسلمين من المنافقين والكفار يمشون على خطا ثابتة منظمة ويحصلون مقصودهم.

أما السطحيون الذين تأخذهم العواطف حتى يثوروا ويستنفروا فإنه قد يفوتهم شيء كثير وربما حصل منهم زلة تفسد كل ما بنوا إن كانوا قد بنوا شيئًا.

لكن المؤمن يصبر ويتئد ويعمل بتؤدة ويوطن نفسه، ويخطط تخطيطا منظما يقضي به على أعداء اللَّه من المنافقين والكفار، ويفوت عليهم الفرص لأنهم يتربصون الدوائر بأهل الخير، يريدون أن يثيروهم حتى إن حصل من بعضهم ما يحصل حينئذ استعلوا عليهم وقالوا هذا الذي نريد وحصل بذلك شر كبير.

فالرسول -عليه الصلاة والسلام- قال لأصحابه اصبروا، فالمؤمن فيمن قبلكم -وأنتم أحق بالصبر منه- كان يعمل به هذا العمل ويصبر فأنتم يا أمة محمد أمة الصبر والإحسان فاصبروا حتى يأتي اللَّه بأمره والعاقبة للمتقين.

فأنت أيها الإنسان لا تسكت عن الشر ولكن اعمل بنظام وبتخطيط وبحسن تصرف، وانتظر الفرج من اللَّه ولا تمل فالدرب طويل، لا سيما إذا كنت في أول الفتنة، فإن القائمين بها سوف يحاولون ما استطاعوا أن يصلوا إلى قمة ما يريدون، فاقطع عليهم السبيل وكن أطول منهم نفسا، وأشد منهم مكرا، فإن هؤلاء الأعداء يمكرون ويمكر اللَّه واللَّه خير الماكرين واللَّه الموفق»(١).

* عن سعد رضي الله عنه قال: **«قلت: يا رسول اللَّه، أيّ الناس أشد بلاءً؟ قال: الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة»**(٢).

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ١٩٢-١٩٣).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٢و١٧٤و١٨٠و١٨٥) والترمذي (٤/ ٥٢٠/ ٢٣٩٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٢/ ٧٤٨١) وابن ماجه (٢/ ١٣٣٤/ ٤٠٢٣)، وابن حبان (الإحسان ٧/ ١٦١/ ٢٩٠١) والحاكم (١/ ٤٠-٤١) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين». كلهم من حديث سعد بن أبي وقاص. وفي الباب عن أبي هريرة وأخت حذيفة بن اليمان.

★ **غريب الحديث:**

الأمثل فالأمثل: أي: الأفضل فالأفضل على ترتيبهم في الفضل[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «**(أشد الناس بلاء)** أي محنة. ويطلق على المنحة، لكن المراد هنا بقرينة السياق المحنة، فإن أصله الاختبار، لكن لما كان اختبار اللَّه تعالى لعباده تارة بالمحنة وتارة بالمنحة، أطلق عليهما. (الأنبياء) المراد بهم ما يشمل الرسل وذلك لتتضاعف أجورهم، وتتكامل فضائلهم ويظهر للناس صبرهم ورضاهم فيقتدى بهم ولئلا يفتتن الناس بدوام صحتهم فيعبدوهم «**ثم الأمثل فالأمثل**» أي الأشرف فالأشرف والأعلى فالأعلى، لأن البلاء في مقابلة النعمة، فمن كانت نعمة اللَّه عليه أكثر فبلاؤه أشد، ولهذا ضوعف حد الحر على العبد، فهم معرضون للمحن والمصائب وطروق المنغصات والمتاعب ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾[٢] وقال بعضهم، جعل مقام المبتلى يلي مقام النبوة ولم يفصل بين بلاء الأبدان وبلاء الأعراض. فيشمل كل ما يتأذى به الإنسان»[٣].

وقال عند قوله ﷺ: «حتى يمشي على ظهر الأرض وليس عليه خطيئة»: «كناية عن سلامته من الذنوب وخلاصه منها، كأنه كان محبوسا فأطلق وخلي سبيله فهو يمشي وما عليه بأس، ومن ظن أن شدة البلاء هوان بالعبد فقد ذهب لبه وعمي قلبه فقد ابتلي من الأكابر ما لا يحصى.

ألا ترى إلى ذبح نبي اللَّه يحيى بن زكريا، وقتل الخلفاء الثلاثة والحسين وابن الزبير وابن جبير، وقد ضرب أبو حنيفة وحبس ومات بالسجن.

وجرد مالك وضرب بالسياط وجذبت يده حتى انخلعت من كتفه.

وضرب أحمد حتى أغمي عليه، وقطع من لحمه وهو حي، وأمر بصلب سفيان فاختفى، ومات البويطي مسجونا في قيوده، ونفي البخاري من بلده إلى غير ذلك مما يطول»[٤].

---

(١) شرح سنن ابن ماجه (٢/ ٤٩٠).
(٢) البقرة: الآية (١٥٥).
(٣) فيض القدير (١/ ٥١٨-٥١٩).
(٤) فيض القدير (١/ ٥١٩).

وقال النووي: «قال العلماء: والحكمة في كون الأنبياء أشد بلاء ثم الأمثل فالأمثل أنهم مخصوصون بكمال الصبر، وصحة الاحتساب، ومعرفة أن ذلك نعمة من اللَّه تعالى ليتم لهم الخير، ويضاعف لهم الأجر، ويظهر صبرهم ورضاهم»[١].

قال ابن القيم: «فإن العاقل اللبيب يرضى أن يكون له أسوة برسل اللَّه وأنبيائه وأوليائه وخاصته من خلقه، فإنهم أشد الخلق امتحانا بالناس، وأذى الناس إليهم أسرع من السيل في الحدور، ويكفي تدبر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم، وشأن نبينا ﷺ وأذى أعدائه له بما لم يؤذه من قبله. وقد قال له ورقة بن نوفل: (لتكذبن ولتخرجن ولتؤذين) وقال له: (ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي)[٢] وهذا مستمر في ورثته كما كان في مورثهم ﷺ أفلا يرضى العبد أن يكون له أسوة بخيار خلق اللَّه، وخواص عباده: الأمثل فالأمثل. ومن أحب معرفة ذلك فليقف على محن العلماء، وأذى الجهال لهم. وقد صنف في ذلك ابن عبد البر كتابا سماه محن العلماء»[٣].

قال القاسمي نقلا عن العز بن عبد السلام: «والفقراء والضعفاء هم الأولياء وأتباع الأنبياء، ولهذه الفوائد الجليلة كان أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل[٤]، نسبوا إلى الجنون والسحر والكهانة واستهزئ بهم وسخر منهم ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾[٥] وقيل لنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[٦]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾[٧]، ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ﴾[٨]

---

(١) شرح مسلم للنووي (١٦/ ١٠٥).

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه: البخاري (١/ ٢٨-٢٩/ ٣) ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٢/ ١٦٠(٢٥٢).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٢٣).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨١) والبخاري (١٠/ ١٣٧/ ٥٦٤٨) ومسلم (٤/ ١٩٩١/ ٢٥٧١) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٧/ ٧٥٠٣) من حديث عبد اللَّه بن مسعود ﷺ.

(٥) الأنعام: الآية (٣٤).

(٦) البقرة: الآية (٢١٤).

(٧) البقرة: الآية (١٥٥).

(٨) آل عمران: الآية (١٨٦).

كالذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وتغربوا عن أوطانهم، وكثر عناهم، واشتد بلاهم، وتكاثر أعداهم. فغلبوا في بعض المواطن، وقتل منهم بأحد[١]، وبئر معونة من قتل[٢]، وشجّ وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه[٣]، وقتل أعزاؤه، ومثل بهم، فشمتت أعداؤه، واغتمّ أولياؤه، وابتلوا يوم الخندق[٤]، وزلزلوا زلزالا شديدًا، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وكانوا في خوف دائم، وعري لازم، وفقر مدقع؛ حتى شدّوا الحجارة على بطونهم من الجوع، ولم يشبع سيد الأولين والآخرين من خبز برّ في يوم مرتين، وأوذي بأنواع الأذية حتى قذفوا أحبّ أهله إليه[٥]، ثم ابتلي في آخر الأمر بمسيلمة[٦]، وطليحة[٧]، والعنسي[٨]، ولقي هو وأصحابه في جيش العسرة ما لقوه[٩]، ومات ودرعه عند يهودي على آصع من شعير[١٠]، ولم تزل الأنبياء

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٤٧٦/ ٤٠٧٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٩) والبخاري (٧/ ٤٩٠/ ٤٠٩٠) ومسلم (٣/ ١٥١١/ ٦٧٧) وأبو داود (٢/ ١٤٣/ ١٤٤٤) والنسائي (٢/ ٥٤٥-٥٤٦/ ١٠٦٩) وابن ماجه (١/ ٣٧٤/ ١١٨٤) مختصرًا عند الثلاثة الآخِرين من حديث أنس ﷺ.

(٣) أخرجه: البخاري (٦/ ١٢٠/ ٢٩١١) ومسلم (٣/ ١٤١٦/ ١٧٩٠) وابن ماجه (٢/ ١١٤٧/ ٣٤٦٤) من حديث سهل بن سعد ﷺ.

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٨٧) والبخاري (٧/ ٤٩٩/ ٤٠٩٩) ومسلم (٣/ ١٤٣١-١٤٣٢/ ١٨٠٥) والترمذي (٥/ ٦٥١/ ٣٨٥٧) والنسائي في الكبرى (٥/ ٨٥/ ٨٣١٧).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ١٩٤-١٩٧) والبخاري (٧/ ٥٤٨-٥٥٢/ ٤١٤١) ومسلم (٤/ ٢١٢٩-٢١٣٨/ ٢٧٧٠) وأبو داود (٥/ ١٠٣-١٠٤/ ٤٧٣٥) مختصرًا، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤١٥-٤١٨/ ١١٣٦٠) من حديث عائشة ﷺ.

(٦) أخرجه: البخاري (٨/ ١١١/ ٤٣٧٣) ومسلم (٤/ ١٧٨٠/ ٢٢٧٣) عن ابن عباس ﷺ.

(٧) قال عنه الذهبي: «طليحة بن خويلد.. البطل الكرار، صاحب رسول الله ﷺ، ومن يضرب بشجاعته المثل، أسلم سنة تسع، ثم ارتد وظلم نفسه، وتنبأ بنجد، وتمت له حروب مع المسلمين، ثم انهزم وخذل، ولحق بآل جفنة الغسانيين بالشام، ثم ارعوى وأسلم وحسن إسلامه لما توفي الصديق.. أبلى يوم نهاوند ثم استشهد ﷺ وسامحه». سير أعلام النبلاء (١/ ٣١٦-٣١٧).

(٨) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٣) والبخاري (٨/ ١١١-١١٢/ ٤٣٧٤) ومسلم (٤/ ١٧٨١/ ٢٢٧٤) والترمذي (٤/ ٤٧٠/ ٢٢٩٢) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٩/ ٧٦٤٩) من حديث ابن عباس عن أبي هريرة ﷺ.

(٩) أخرجه من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ: أحمد (٤/ ٣٩٨) والبخاري (٨/ ١٣٨/ ٤٤١٥) ومسلم (٣/ ١٢٦٨-١٢٧٠/ ١٦٤٩) وأبو داود (٣/ ٥٨٣-٥٨٤/ ٣٢٧٦) والنسائي (٧/ ١٣-١٤/ ٣٧٨٩) وابن ماجه (١/ ٦٨١/ ٢١٠٧).

(١٠) أخرجه أحمد (٦/ ٤٢) والبخاري (٦/ ١٢٣/ ٢٩١٦) ومسلم (٣/ ١٢٢٦/ ١٦٠٣) والنسائي (٧/ ٣٣٢/ ٤٦٢٣) وابن ماجه (٢/ ٨١٥/ ٢٤٣٦) من حديث عائشة ﷺ.

والصالحون يتعهدون بالبلاء الوقت بالوقت، «يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان صلبًا في دينه شدد في بلائه»[١]، «ولقد كان أحدهم يوضع المنشار على مفرقه فلا يصده ذلك عن دينه»[٢] وقال -عليه الصلاة والسلام-: «مثل المؤمن مثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء»[٣] وقال -عليه الصلاة والسلام-: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح، تصرعها مرة وتعدلها مرة حتى تهيج»[٤] فحال الشدة والبلوى مقبلة بالعبد إلى الله ﷻ، وحال العافية والنعماء صارفة للعبد عن الله تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[٥] فلأجل ذلك تقللوا في المآكل والمشارب والمناكح والمجالس والمراكب وغير ذلك، ليكونوا على حالة توجب لهم الرجوع إلى الله تعالى ﷻ والإقبال عليه»[٦].

قال الشيخ الألباني: «فيه دلالة صريحة على أن المؤمن كلما كان أقوى إيمانًا، ازداد ابتلاءً وامتحانًا والعكس بالعكس، ففيها رد على ضعفاء العقول والأحلام الذين يظنون أن المؤمن إذا أصيب ببلاء، كالحبس أو الطرد أو الإقالة من الوظيفة ونحوها أن ذلك دليل على أن المؤمن غير مرضي عند الله تعالى! وهو ظن باطل، فهذا رسول الله ﷺ وهو أفضل البشر، كان أشد الناس -حتى الأنبياء- بلاءً، فالبلاء غالبًا دليل خير، وليس نذير شر، كما يدل على ذلك أيضًا الحديث الآتي من حديث أنس ؓ عن النبي ﷺ قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٨٥) والترمذي (٤/ ٥٢٠/ ٢٣٩٨) وقال: «حسن صحيح». والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٢/ ٧٤٨١) وابن ماجه (٢/ ١٣٣٤/ ٤٠٢٣) وصححه ابن حبان (٧/ ١٦١/ ٢٩٠١ الإحسان) والحاكم (١/ ٤٠-٤١) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين». كلهم من حديث سعد بن أبي وقاص ؓ.

(٢) حديث طويل، أخرجه عن خباب بن الأرت: أحمد (٥/ ١٠٩و١١٠)، والبخاري (٦/ ٧٦٨/ ٣٦١٢)، وأبو داود (٣/ ١٠٨/ ٢٦٤٩)، وأخرجه النسائي (٨/ ٥٩٢/ ٥٣٣٥) دون ذكر موضع الشاهد.

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ؓ: أحمد (٢/ ٢٣٤) والبخاري (١٠/ ١٢٧-١٢٨/ ٥٦٤٤) ومسلم (٤/ ٢١٦٣/ ٢٨٠٩) والترمذي (٥/ ١٣٨-١٣٩/ ٢٨٦٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٥٤) والبخاري (١٠/ ١٢٧/ ٥٦٤٣) ومسلم (٤/ ٢١٦٣/ ٢٨١٠) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥١/ ٧٤٧٩) من حديث كعب بن مالك ؓ.

(٥) يونس: الآية (١٢).

(٦) محاسن التأويل (٢/ ٣٣٦-٣٣٩).

أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السُّخط»[١]. وهذا الحديث يدل على أمر زائد على ما سبق، وهو أن البلاء إنما يكون خيرًا وأن صاحبه يكون محبوبًا عند اللَّه تعالى إذا صبر على بلاء اللَّه تعالى ورضي بقضاء اللَّه ﷻ»[٢].

* عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: «كان أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول اللَّه ﷺ، وأبو بكر وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول اللَّه ﷺ فمنعه اللَّه بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه اللَّه بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلا بلالًا، فإنه هانت عليه نفسه في اللَّه، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحد أحد»[٣].

★ غريب الحديث:

صهروهم: من صَهَرَ، كمنع؛ أي: عذّبوهم.

واتاهم: من المواتاة، وهي الموافقة والمطاوعة.

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الناس إذا أُرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنا، وإما ألا يقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر، فمن قال: آمنا، امتحنه ربه، وابتلاه، وفتنه، والفتنة: الابتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل: آمنا، فلا يحسبْ أنه يعجز اللَّه ويفوته ويسبقه، فإنه إنما يطوي المراحل في يديه.

وكيف يفرّ المرء عنه بذنبه إذا كان تُطوى في يديه المراحلُ

---

(١) أخرجه: الترمذي (٤/ ٥١٩/ ٢٣٩٦) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه» واللفظ له، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٨/ ٤٠٣١).

(٢) الصحيحة (١/ ٢٧٥-٢٧٦/ ١٤٥-١٤٦).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٤٠٤) وابن ماجه (١/ ٥٣/ ١٥٠) وابن حبان (الإحسان ١٥/ ٥٥٨-٥٥٩/ ٧٠٨٣) والحاكم (٣/ ٢٨٤) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

فمن آمن بالرسل وأطاعهم، عاداه أعداؤهم وآذوه، فابتُلي بما يؤلمه وإن لم يُؤمن بهم ولم يُطعهم، عوقب في الدنيا والآخرة، فحصل له ما يُؤلمه، وكان هذا المؤلم له أعظم ألمًا وأدوم من ألم اتباعهم، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمُعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداءً، ثم يصير إلى الألم الدائم. وسئل الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: أيُّما أفضل للرجل، أن يُمكّن أو يُبتلى؟ فقال: لا يُمكّن حتى يُبتلى. والله تعالى ابتلى أولي العزم من الرسل، فلما صبروا مكّنهم. فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة، وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول، فأعقلهم من باع ألمًا مستمرًا عظيمًا، بألم منقطع يسير، وأشقاهم من باع الألم المنقطع اليسير، بالألم العظيم المستمر.

فإن قيل: كيف يختار العاقل هذا؟ قيل: الحامل له على هذا، النقدُ والنسيئة. والنفس موكلةٌ بحبّ العاجلِ ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾[1]، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾[2]. وهذا يحصل لكل أحد، فإن الإنسان مدني بالطبع، لا بد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم، آذوه وعذبوه، وإن وافقهم، حصل له الأذى والعذاب، تارة منهم، وتارة من غيرهم، كمن عنده دِين وتقى حل بين قوم فجّار ظلمة، ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم، أو سكوته عنهم، فإن وافقهم، أو سكت عنهم، سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداءً، لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم، فلا بد أن يُهان ويُعاقب على يد غيرهم، فالحزم كل الحزم في الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية: **«من أرضى الله بسخط الناس، كفاه الله مؤنة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يُغنوا عنه من الله شيئًا»**[3].

ومن تأمل أحوال العالم، رأى هذا كثيرًا فيمن يُعين الرؤساء على أغراضهم

---

(١) القيامة: الآيتان (٢٠و٢١).

(٢) الإنسان: الآية (٢٧).

(٣) أخرجه: الترمذي (٤/ ٥٢٧/ ٢٤١٤) وابن حبان (١/ ٥١٠/ ٢٧٦ الإحسان).

الفاسدة، وفيمن يُعين أهل البدع على بدعهم هربًا من عقوبتهم، فمن هداه اللَّه، وألهمه رُشده، ووقاه شر نفسه، امتنع من الموافقة على فعل المحرّم، وصبر على عدوانهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم، كالمهاجرين، والأنصار، ومن ابتلي من العلماء، والعبّاد، وصالحي الولاة، والتجّار، وغيرهم. .

والمقصود: أن اللَّه سبحانه اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيُظهر بالامتحان طيّبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكراماته، ومن لا يصلح، وليُمحص النفوس التي تصلح له ويخلصها بكير الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه، إلا بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخُبث ما يحتاج خروجه إلى السَّبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار، وإلا ففي كير جهنم، فإذا هُذب العبد ونُقّي، أُذن له في دخول الجنة»[1].

* * *

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٤-١٨).

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، وعمل الصالحات رجاء ما عند اللَّه من الثواب الجزيل، فإن اللَّه سيحقق له رجاءه، ويوفيه عمله كاملا موفورا، فإن ذلك كائن لا محالة؛ لأنه سميع الدعاء، بصير بكل الكائنات؛ ولهذا قال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾»[1].

قال السعدي: «يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل ما هو آت قريب، فتزود للقائه، وسر نحوه، مستصحبا الرجاء، مؤملا الوصول إليه، ولكن، ما كل من يدعي يعطى بدعواه، ولا كل من تمنى يعطى ما تمناه، فإن اللَّه سميع للأصوات، عليم بالنيات، فمن كان صادقا في ذلك أناله ما يرجو، ومن كان كاذبا لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح»[2].

قال عبد الكريم الخطيب: «هو دعوة للمؤمنين إلى ما أعد اللَّه لهم من نعيم، وتطمين لقلوبهم بما وعدهم به من مغفرة ورضوان، فهم لهذا الوعد يعملون، وعلى رجاء لقاء ربهم يجاهدون، ويصبرون على ما يلقون من أذى وبلاء.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍۚ﴾ توكيد لتحقيق وعد اللَّه، وأنه آت لا شك فيه، ولكن في الوقت الموقوت له، ولهذا جاء النظم بلفظ (أجل) بدلا من اللفظ الذي يقتضيه سياق النظم وهو (اللقاء). وذلك للإشعار بأن هذا الوعد له أجل محدود عند

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٧٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٨).

الله، وأنه متى جاء الأجل التقى المؤمنون بما وعدهم الله به.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ السميع لما يقول المؤمنون بألسنتهم، العليم بما انعقد في القلوب من إيمان يصدقه العمل»[١].

قال ابن القيم: «لما كان الألم لا محيص منه ألبتة عزى الله -سبحانه- من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾ فضرب لمدة هذا الألم أجلا لا بد أن يأتي وهو يوم لقائه فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمل من الألم من أجله وفي مرضاته وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم في الله ولله وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه ووليه على تحمل مشقة الألم العاجل بل ربما غيبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به ولهذا سأل النبي ﷺ ربه الشوق إلى لقائه فقال في الدعاء الذي رواه أحمد وابن حبان: «**اللهم إني أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين**»[٢].

فالشوق يحمل المشتاق على الجد في السير إلى محبوبه ويقرب عليه الطريق ويطوي له البعيد ويهون عليه الآلام والمشاق وهو من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده ولكن لهذه النعمة أقوال وأعمال هما السبب الذي تنال به والله سبحانه سميع لتلك الأقوال عليم بتلك الأفعال وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة ويشكرها ويعرف قدرها ويحب المنعم عليه فتصلح عنده هذه النعمة ويصلح بها كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾[٣]»[٤].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (١٠/ ٤٠٤).
(٢) سيأتي تخريجه في سورة القيامة.
(٣) الأنعام: الآية (٥٣).
(٤) زاد المعاد (٣/ ١٦-١٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾، كقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾[1] أي: من عمل صالحا فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن اللَّه غني عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل واحد منهم، ما زاد ذلك في ملكه شيئا؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾.

قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد، وما ضرب يوما من الدهر بسيف.

ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من إحسانه وبره بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾[2]، وقال هاهنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾»[3].

قال السعدي: ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ نفسه وشيطانه، وعدوه الكافر، ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، لم يأمرهم به لينتفع به، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه عليهم.

---

(١) فصلت: الآية (٤٦).

(٢) النساء: الآية (٤٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٧٤).

وقد علم أن الأوامر والنواهي يحتاج المكلف فيها إلى جهاد، لأن نفسه تتثاقل بطبعها عن الخير، وشيطانه ينهاه عنه، وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه كما ينبغي، وكل هذه معارضات تحتاج إلى مجاهدات وسعي شديد»[1].

قال المراغي: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ أي: والذين آمنوا بالله ورسوله وصح إيمانهم حين ابتلائهم، فلم يرتدوا عنه بأذى المشركين لهم، وعملوا صالح الأعمال، فأدوا فرائضه وقاموا بها حق القيام، فواسوا البائس الملهوف، وأغاثوا المظلوم، وقدموا لوطنهم ما هو شديد الحاجة إليه، فرأبوا صدعه، وسدوا ثغره، وكانوا للمؤمنين سندا ومعينا، حتى يصيروا كالبنيان يشد بعضه بعضًا، لنكفرن عنهم سيئاتهم التي فرطت منهم في شركهم أو صدرت منهم لماما في إيمانهم وندموا على ما اجترحوه منها، ولنثيبنهم على صالح أعمالهم حين إسلامهم أحسن ما كانوا يعملون، فنقبل القليل من الحسنات، ونثيب على الواحدة منها عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ونجزي على السيئة بمثلها، أو نعفو عنها. ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾[2]»[3].

قال ابن القيم: «بلا سبحانه الممتحنين فيه بأن ذلك الابتلاء آجلًا ثم ينقطع وضرب لأهله أجلا للقائه يسليهم به ويشكر نفوسهم ويهون عليهم أثقاله فقال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾ فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه، وأجل لقاء المبتلي سبحانه وإثباته، هان عليه ما هو فيه وخف عليه حمله. ثم لما كان ذلك لا يحصل إلا بمجاهدة للنفس وللشيطان ولبني جنسه، وكان العامل إذا علم أن ثمرة علمه وتعبه تعود عليه وحده لا يشركه فيها غيره، كان أتم اجتهادا وأوفر سعيا، فقال تعالى: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَلَمِينَ ۝﴾ وأيضًا فلا يتوهم متوهم أن منفعة هذه المجاهدة والصبر والاحتمال تعود على الله سبحانه، فإنه غني عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه عليهم؛ بل أمرهم بما يعود نفعه

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٨).

(٢) النساء: الآية (٤٠).

(٣) تفسير المراغي (٢٠/ ١١٥-١١٦).

ومصلحته عليهم في معاشهم ومعادهم، ونهاهم عما تعود مضرته وعتيه عليهم في معاشهم ومعادهم. فكانت ثمرة هذا الابتلاء والامتحان مختصة بهم. واقتضت حكمته أن نصب ذلك سببا مفضيا إلى تميز الخبيث من الطيب، والشقي من الغوي، ومن يصلح له ممن لا يصلح، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾[1] فابتلاهم سبحانه بإرسال الرسل إليهم، بأوامره ونواهيه واختياره. فامتاز برسله طيبهم من خبيثهم، وجيدهم من رديئهم. فوقع الثواب والعقاب على معلوم أظهره ذلك الابتلاء والامتحان. ثم لما كان الممتحن لا بد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به وعده سبحانه أن يتجاوز له عن ذلك ويكفره عنه لأنه لما أمر به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله»[2].

* * *

(١) آل عمران: الآية (١٧٩).

(٢) شفاء العليل (٢/ ٢٠٣-٢٠٤).

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرا عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[1].

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما، في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما في دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، لا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إليَّ يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب؛ أي: حبا دينيا؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾»[2].

قال القاسمي: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي: أمرناه أمرا مؤكدا بإيلاء والديه فعلا ذا حسن عظيم ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ أي: في الشرك، إذا حملاك عليه. ومعنى ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا علم لك بإلهيته. قال القاضي: عبر عن نفيها بنفي العلم بها، للإيذان بأن ما لا يعلم صحته، لا يجوز

(١) الإسراء: الآيتان (٢٣و٢٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٧٤-٢٧٥).

اتباعه، وإن لم يعلم بطلانه. فكيف بما علم بطلانه؟ ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلي مرجع من آمن منكم ومن أشرك. فأجازيكم حق جزائكم. فيه التحذير من متابعتهما على الشرك والحث على الثبات والاستقامة في الدين، بذكر المرجع والوعيد»[1].

قال الرازي: «في قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ دليل على أن متابعتهم في الكفر لا يجوز، وذلك لأن الإحسان بالوالدين وجب بأمر اللَّه تعالى، فلو ترك العبد عبادة اللَّه تعالى بقول الوالدين لترك طاعة اللَّه تعالى فلا ينقاد لما وصاه به فلا يحسن إلى الوالدين، فاتباع العبد أبويه لأجل الإحسان إليهما يفضي إلى ترك الإحسان إليهما، وما يفضي وجوده إلى عدمه باطل فالاتباع باطل، وأما إذا امتنع من الشرك بقي على الطاعة، والإحسان إليهما من الطاعة، فيأتي به، فترك هذا الإحسان صورة يفضي إلى الإحسان حقيقة»[2].

قال الزمخشري: «نبه بنهيه عن طاعتهما إذا أراداه على ما ذكره على أن كل حق وإن عظم ساقط إذا جاء حق اللَّه وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ثم قال: إلي مرجع من آمن منكم ومن أشرك فأجازيكم حق جزائكم. وفيه شيئان:

أحدهما: أن الجزاء إلي فلا تحدث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما ولا تحرمهما برك ومعروفك في الدنيا كما أني لا أمنعهما رزقي.

والثاني: التحذير من متابعتهما على الشرك والحث على الثبات والاستقامة في الدين بذكر المرجع والوعيد»[3].

قلت: والعناية بالآباء والأمهات أمر فطري تجده النفوس الطيبة، ويتلذذ الابن بطاعة أبويه، ويعتبرها من سعادته، وقد أكثر اللَّه في القرآن الوصاية بالأبوين، فاجتمع الأمر الشرعي والفطري والعقلي.

ومع الأسف تنكر الناس لهذه الأصول، وائتسوا بالغرب الكافر الذي يتخبط في كل أموره، والسعادة مسلوبة عنه، فلا عرض مصون، ولا عشيرة ولا قرابة، ولا مال من طريق الحلال . . . ومن تشبه بقوم فهو منهم. فالتنكر للآباء والأمهات، وإلقاؤهم

(١) محاسن التأويل (١٣/ ١٣٨-١٣٩).
(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ٣٦-٣٧).
(٣) الكشاف (٣/ ٤٤٦-٤٤٧).

في دور العجزة كالكلاب؛ أمر محزن ومخزٍ في بلاد الإسلام، فما كان ينتظر أن تصل الحالة إلى ما نسمع ونقرأ في الجرائد والمجلات، والأمر يتردى من يوم إلى آخر، وكما يقال: من زرع شيئًا حصده، فهذه نتيجة أبناء المدارس الذين لا يتعلمون ما ينفعهم ويتعلمون ما يضرهم. واللَّه المستعان.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كون طاعة الوالدين مقرونة بطاعة اللَّه تعالى ما لم يأمرا بشرك أو بمعصية

* عن مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال: أنزلت فيّ أربع آيات فذكر قصة، فقالت أم سعد: أليس قد أمر اللَّه بالبر؟ واللَّه لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها، فنزلت هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية»[1].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وصية اللَّه تعالى بمبرة الوالدين المشركين، والإحسان إليهما وإن كانا كافرين، وحريصين على حمل الولد على الكفر. يدل دلالة قاطعة على عظيم حرمة الآباء، وتأكد حقوقهم»[2].

قال المباركفوري: «إذا لم تجز طاعة الأبوين في هذا المطلب مع المجاهدة منهما له؛ فعدم جوازها مع مجرد الطلب بدون مجاهدة منهما أولى، ويلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصي اللَّه سبحانه فلا طاعة لهما فيما هو معصية الله»[3].

* عن أبي عمرو الشيباني يقول: أخبرنا صاحب هذه الدار -وأومأ بيده إلى دار عبد الله- قال: «سألت النبي ﷺ: أيّ العمل أحب إلى اللَّه ﷻ؟ قال: **الصلاة على وقتها**. قال: ثم أي؟ قال: **ثم بر الوالدين**. قال: ثم أي؟ قال: **الجهاد في سبيل اللَّه** - قال: حدثني بهن، ولو استزدته لزادني»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٨١، ١٨٦) ومسلم (٤/ ١٨٧٧/ ١٧٤٨) والترمذي (٥/ ٣١٩/ ٣١٨٩) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) المفهم (٦/ ٢٨٢).

(٣) تحفة الأحوذي (٩/ ٣٦).

(٤) أخرجه: البخاري (١٠/ ٤٩٠/ ٥٩٧٠) واللفظ له، ومسلم (١/ ٩٠/ ٨٥١٣٩) والترمذي (٤/ ٢٧٣-٢٧٤/ ١٨٩٨) والنسائي (١/ ٣١٨-٣١٩/ ٦٠٩-٦١٠).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «بر الوالدين هو القيام بحقوقهما والتزام طاعتهما، والرفق بهما، والتذلل لهما، ومراعاة الأدب معهما في حياتهما، والترحم عليهما، والاستغفار لهما بعد موتهما، وإيصال ما أمكنه من الخير والأجر لهما»[١].

قال الحافظ: «اقتضت الآية الوصية بالوالدين والأمر بطاعتهما ولو كانا كافرين، إلا إذا أمرا بالشرك فتجب معصيتهما في ذلك، ففيها بيان ما أجمل في غيرها، وكذا في حديث الباب، من الأمر ببرهما»[٢].

قال ابن بطال: «قال الطبري: معنى حديث ابن مسعود أن الصلاة المفروضة وبر الوالدين والجهاد في سبيل اللَّه أفضل الأعمال بعد الإيمان باللَّه ورسوله، وذلك أن من ضيع الصلاة المفروضة، حتى خرج وقتها لغير عذر فقدرته مع خفة مؤنتها، وعظم فضلها، فهو لا شك لغيرها من أمر الدين والإسلام أشد تضييعا، وبه أشد تهاونًا واستخفافًا، وكذلك من ترك بر والديه وضيع حقوقهما مع عظيم حقهما عليه بتربيتهما إياه، وتقطعهما عليه، ورفقهما به صغيرا، وإحسانهما إليه كثيرا، وخالف أمر اللَّه ووصيته إياه فيهما، فهو لغير ذلك من حقوق اللَّه أشد تضييعا، وكذلك من ترك جهاد أعداء اللَّه، وخالف أمره في قتالهم مع كفرهم باللَّه ومناصبتهم أنبياءه وأولياءه للحرب، فهو لجهاد من دونهم من فساق أهل التوحيد ومحاربة من سواهم من أهل الزيغ والنفاق أشد تركًا، فهذه الأمور الثلاثة تجمع المحافظة عليهن الدلالة لمن حافظهن أنه محافظ على ما سواهن، ويجمع تضييعهن الدلالة على تضييع ما سواهن من أمر الدين والإسلام، فلذلك خصهن ﷺ بأنهن أفضل الأعمال»[٣].

وقال الحافظ: «قال ابن بزيزة: الذي يقتضيه النظر تقديم الجهاد على جميع أعمال البدن؛ لأن فيه بذل النفس، إلا أن الصبر على المحافظة على الصلوات، وأدائها في أوقاتها، والمحافظة على بر الوالدين، أمر لازم متكرر دائم، لا يصبر على مراقبة أمر اللَّه فيه إلا الصديقون. واللَّه أعلم»[٤].

* * *

---

(١) المفهم (١/ ٢٧٩).
(٢) فتح الباري (١٠/ ٤٩١).
(٣) شرح صحيح البخاري (٥/ ٦).
(٤) فتح الباري (٢/ ١٣).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فتنة: الفتنة: الابتلاء والاختبار. من فتنت الفضة: إذا أدخلتها النار لِيَتَمَيَّزَ جيدها من رديئها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «يعني أن من الناس من يقول: آمنا باللَّه بلسانه، فإذا أوذي في الله: أي آذاه الكفار إيذاءهم للمسلمين جعل فتنة الناس صارفة له عن الدين إلى الردة، والعياذ باللَّه، كعذاب اللَّه فإنه صارف رادع عن الكفر والمعاصي. ومعنى فتنة الناس: الأذى الذي يصيبه من الكفار، وإيذاء الكفار للمؤمنين من أنواع الابتلاء الذي هو الفتنة، وهذا قال به غير واحد.

وعليه فمعنى الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ﴾ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن المنافقين الذين يقولون: آمنا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، إذا حصل للمسلمين من الكفار أذى، وهم معهم جعلوا فتنة الناس: أي أذاهم، كعذاب اللَّه وأنه إن جاء نصر من اللَّه لعباده المؤمنين، فنصرهم على الكفار،

---

(١) الحج: الآية (١١).

وهزموهم وغنموا منهم الغنائم. قال أولئك المنافقون: ألم نكن معكم، يعنون: أنهم مع المؤمنين ومن جملتهم، يريدون أخذ نصيبهم من الغنائم.

وهذا المعنى جاء في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾[2] وقد قدمنا طرفا من هذا في سورة النساء.

وقد بين تعالى أنهم كاذبون في قولهم: إنا كنا معكم، وبين أنه عالم بما تخفي صدورهم من الكفر والنفاق بقوله: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾»[3].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت الإيمان في قلوبهم بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم فارتدوا عن الإسلام ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله وكذا قال غيره من علماء السلف وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾[4] ثم قال ﷻ: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد وفتح ومغانم ليقولن هؤلاء لكم: إنا كنا معكم أي إخوانكم في الدين كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[5] وقال تعالى

---

(١) النساء: الآية (١٤١).

(٢) النساء: الآيتان (٧٢و٧٣).

(٣) أضواء البيان (٦/ ٤٦٢-٤٦٣).

(٤) الحج: الآيتان (١١و١٢).

(٥) المائدة: الآية (٥٢).

أي: أنا والمحق.

المسألة الثانية: قوله: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ هو في معنى قوله: ﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى﴾[١] غير أن المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين والمراد ههنا الذين لم يصبروا عليها فقال هناك: ﴿وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى﴾ وقال ههنا: ﴿أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ ولم يقل في سبيل اللَّه واللطيفة فيه أن اللَّه أراد بيان شرف المؤمن الصابر وخسة المنافق الكافر فقال هناك أوذي المؤمن في سبيل اللَّه ليترك سبيله ولم يتركه، وأوذي المنافق الكافر فترك اللَّه بنفسه، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم إن بلغ الإيذاء إلى حد الإكراه، ويكون قلبه مطمئنا بالإيمان فلا يترك اللَّه، ومع هذا لم يفعله بل ترك اللَّه بالكلية، والمؤمن أوذي ولم يترك سبيل اللَّه بل أظهر كلمتي الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ قال الزمخشري: جعل فتنة الناس صارفة عن الإيمان كما أن عذاب اللَّه صارف عن الكفر، وقيل جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب اللَّه، وبالجملة معناه أنهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب اللَّه الأليم الدائم حتى ترددوا في الأمر، وقالوا إن آمنا نتعرض للتأذي من الناس وإن تركنا الإيمان نتعرض لما توعدنا به محمد -عليه الصلاة والسلام-، واختاروا الاحتراز عن التأذي العاجل ولا يكون التردد إلا عند التساوي ومن أين إلى أين تعذيب الناس لا يكون شديدا، ولا يكون مديدا لأن العذاب إن كان شديدا كعذاب النار وغيره يموت الإنسان في الحال فلا يدوم التعذيب، وإن كان مديدا كالحبس والحصر لا يكون شديدا وعذاب اللَّه شديد وزمانه مديد، وأيضًا عذاب الناس له دافع وعذاب اللَّه ماله من دافع، وأيضًا عذاب الناس عليه ثواب عظيم، وعذاب اللَّه بعده عذاب أليم، والمشقة إذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولا تعد عذابا كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذابا.

المسألة الرابعة: قال: ﴿فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل عذاب الناس لأن فعل العبد ابتلاء وامتحان من اللَّه وفتنته تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الإيمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحانا وهذا إشارة إلى أن الصبر على البلية

(١) آل عمران: الآية (١٩٥).

الصادرة ابتلاء وامتحانا من الإنسان كالصبر على العبادات.

المسألة الخامسة: لو قال قائل هذا يقتضي منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه، لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه احترازا عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب اللَّه، فنقول ليس كذلك، لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله؛ لأن عذاب اللَّه يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا، وهذا المؤمن المكره لم يجعل فتنة الناس كعذاب اللَّه، بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا، بل في باطنه الإيمان، ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ﴾ يعني دأب المنافق أنه إن رأى اليد للكافر أظهر ما أضمر وأظهر المعية وادعى التبعية»[1].

قال المراغي: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: ومن الناس فريق يقول: آمنا باللَّه وأقررنا بوحدانيته، فإذا آذاه المشركون لأجل إيمانه، جعل فتنة الناس في الدنيا كعذاب اللَّه في الآخرة، فارتد عن إيمانه، ورجع إلى كفره، وكان يمكنه أن يصبر على الأذى، ويجعل قلبه مطمئنا بالإيمان، ولكنه جعل فتنة الناس صارفة له عن الإيمان، كما أن عذاب اللَّه صارف للمؤمنين عن الكفر، وعذاب الناس له دافع، وعذاب اللَّه ليس له دافع، وعذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم، وعذاب اللَّه بعده العقاب الأليم، والمشقة إذا كانت مستتبعة للراحة العظيمة تطيب النفس لها ولا تعدها عذابا.

قال الزجاج: ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذى في اللَّه. أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه وأبو ليلى[2] عن أنس قال: قال ﷺ: «**لقد أوذيت في اللَّه وما يؤذى أحد، ولقد أخفت في اللَّه، وما يخاف أحد، ولقد أتت علي ثالثة، وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ما وارى إبط بلال**»[3].

وخلاصة ذلك: إن من الناس من يدعون الإيمان بألسنتهم، فإذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة اللَّه تعالى منهم، فارتدوا عن الإسلام،

---

(١) التفسير الكبير (٢٥/ ٣٨-٤٠).

(٢) هكذا بالأصل ولعل صوابه «أبو يعلى».

(٣) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه الآية.

ورجعوا إلى الكفر الذي كان متغلغلا في حنايا ضلوعهم وشغاف قلوبهم. ونحو الآية قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾[1].

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: ولئن جاء نصر قريب من لدى ربك بالفتح والمغانم ليقولن هؤلاء المنافقون: إنا كنا معكم إخوانا في الدين ننصركم على أعدائكم، وهم كاذبون فيما يدعون. ونحو الآية قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

ثم توعدهم وذكر أنه عليم بما في صدورهم، لا يخفى عليه شيء من أمرهم فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أوليس اللّٰه أعلم بما في قلوب المنافقين وما تكنه صدورهم، وإن أظهروا لكم الموافقة على الإيمان، فكيف يخادعون من لا تخفى عليه خافية، ولا يستتر عنه سر؟

ثم ذكر أن هذه الفتنة إنما هي ابتلاء واختبار من اللّٰه، ليستبين صادق الإيمان من المنافق، الذي لا يتجاوز الإيمان طرف لسانه، ولا يعدوه إلى قلبه فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ أي: وليختبرن اللّٰه عباده بالسراء والضراء، ليميز صادق الإيمان من المنافق، من يطيع اللّٰه في كل حال فيصبر على اللأواء إذا مسته، ويعدها اختبارا له، وأنه سيثاب عليها إذا هو فوض الأمر فيها إليه، ومن يعصيه إذا حزبه الأمر، واشتد به الخطب، ولا يجد الصبر إلى قلبه سبيلًا. ونحو الآية قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ وقوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾»[3].

قال ابن القيم: «ذكر سبحانه حال من دخل في الإيمان على ضعف عزم، وقلة صبر، وعدم ثبات على المحنة والابتلاء، وأنه إذا أوذي في اللّٰه كما جرت به سنة اللّٰه واقتضت حكمته من ابتلاء أوليائه بأعدائه، وتسليطهم عليهم بأنواع المكاره

---

(١) الحج: الآية (١١).

(٢) النساء: الآية (١٤١).

(٣) تفسير المراغي (٢٠/ ١١٩-١٢٠).

والأذى لم يصبر على ذلك، وجزع منه وفر منه ومن أسبابه، كما يفر من عذاب اللَّه، فجعل فتنة الناس له على الإيمان وطاعة رسله كعذاب اللَّه لمن يعذبه على الشرك ومخالفة رسله. وهذا يدل على عدم البصيرة وأن الإيمان لم يدخل قلبه، ولا ذاق حلاوته حتى سوى بين عذاب اللَّه له على الإيمان باللَّه ورسوله، وبين عذاب اللَّه لمن لم يؤمن به وبرسله. وهذا حال من يعبد اللَّه على حرف واحد، لم ترسخ قدمه في الإيمان وعبادة اللَّه فهو من المفتونين المعذبين وإن فر من عذاب الناس له على الإيمان. ثم ذكر حال هذا عند نصرة المؤمنين، وأنهم إذا نصروا لجأ إليهم وقال كنت معكم واللَّه سبحانه يعلم من قلبه خلاف قوله»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين من وجوه الأذى

* كتب معاوية إلى عائشة أم المؤمنين ﵂ أن اكتبي إلي كتابًا توصيني فيه، ولا تكثري عليّ، فكتبت عائشة ﵂ إلى معاوية: سلام عليك. أما بعد: فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من التمس رضاء اللَّه بسخط الناس كفاه اللَّه مؤنة الناس، ومن التمس رضاء الناس بسخط اللَّه وكله اللَّه إلى الناس**»، والسلام عليك(٢).

★ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام: «وهذا من أعظم الفقه في الدين.. فإن من أرضى اللَّه بسخطهم كان قد اتقاه: وكان عبده الصالح واللَّه يتولى الصالحين، وهو كافٍ عبده ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(٣). فاللَّه يكفيه مؤنة الناس بلا ريب، وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد لا يحصل ذلك، لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض وإذا تبين لهم العاقبة، ومن أرضى الناس بسخط اللَّه لم يغنوا عنه من اللَّه شيئًا، كالظالم الذي يعض على يده يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ

(١) شفاء العليل (٢/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٢) أخرجه: الترمذي (٤/ ٥٢٧/ ٢٤١٤) وصححه ابن حبان (١/ ٥١٠/ ٢٧٦ الإحسان).

(٣) الطلاق: الآيتان (٢و٣).

ﵟٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ﵞ[(١)] وأما كون حامده ينقلب ذامًا، فهذا يقع كثيرًا، ويحصل في العاقبة، فإن العاقبة للتقوى، لا يحصل ابتداءً عند أهوائهم وهو سبحانه أعلم»[(٢)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومما يجب أن يعلم أنه لا يسوغ في العقل ولا الدين طلب رضى المخلوقين لوجهين:

أحدهما: أن هذا غير ممكن. كما قال الشافعي رضي الله عنه: رضى الناس غاية لا تدرك. فعليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه، ودع ما سواه ولا تعانه.

والثاني: أنا مأمورون بأن نتحرى رضى اللَّه ورسوله، كما قال تعالى: ﵟوَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُﵞ[(٣)]. وعلينا أن نخاف اللَّه فلا نخاف أحدًا إلا اللَّه كما قال تعالى: ﵟفَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَﵞ[(٤)] وقال: ﵟفَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِﵞ[(٥)] وقال: ﵟفَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِﵞ[(٦)]، ﵟوَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِﵞ[(٧)]. فعلينا أن نخاف اللَّه، ونتقيه في الناس، فلا نظلمهم بقلوبنا، ولا بجوارحنا، ونؤدي إليهم حقوقهم بقلوبنا وجوارحنا، ولا نخافهم في اللَّه فنترك ما أمر اللَّه به ورسوله خيفة منهم.

ومن لزم هذه الطريقة كانت العاقبة له كما كتبت عائشة إلى معاوية: «**أما بعد؛ فإنه من التمس رضى الناس بسخط اللَّه سخط اللَّه عليه، وأسخط عليه الناس، وعاد حامده من الناس ذامًا. ومن التمس رضى اللَّه بسخط الناس رضي اللَّه عنه، وأرضى عنه الناس**». فالمؤمن لا تكون فكرته وقصده إلا رضى ربه، واجتناب سخطه والعاقبة له؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله»[(٨)].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «وإنما يحمل الإنسان على إرضاء الخلق بسخط الخالق هو الخوف منهم، فلو كان خوفه خالصًا لله لما أرضاهم بسخطه، فإن العبيد فقراء عاجزون لا قدرة لهم على نفع ولا ضر البتة، وما بهم من نعمة فمن

---

(١) الفرقان: الآيتان (٢٧و٢٨).
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٥٢).
(٣) التوبة: الآية (٦٢).
(٤) آل عمران: الآية (١٧٥).
(٥) المائدة: الآية (٤٤).
(٦) النحل: الآية (٥١).
(٧) البقرة: الآية (٤١).
(٨) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٣٢-٢٣٣).

اللَّه، فكيف يحسن بالموحد المخلص أن يؤثر رضاهم على رضاء رب العالمين الذي له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، ومنه الخير كله، وإليه يُرجع الأمر كله، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. وقد أخبر تعالى أن ذلك من صفات المنافقين في قوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾[1] وما أحسن ما قيل:

إذا صحّ منكَ الودّ يا غاية المنى ... فكلُّ الذي فوق التراب ترابُ

قال ابن رجب: فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب، فهو تراب، فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يرضي التراب بسخط الملك الوهاب؟ إن هذا لشيء عجاب.

وفي الحديث عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على رضى اللَّه، وأن العقوبة قد تكون في الدين عياذًا باللَّه من ذلك. فإن المصيبة في الأديان أعظم من المصيبة في الأموال والأبدان. وفيه شدة الخوف على عقوبات الذنوب، لا سيما في الدين، فإن كثيرًا من الناس يفعل المعاصي ويستهين ولا يرى أثرًا لعقوبتها، ولا يدري المسكين بم أُصيب فقد تكون عقوبته في قلبه، كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾[2]. اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك، لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[3].

* عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لقد أخفت في اللَّه وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في اللَّه وما يُؤذى أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال**»[4].

★ غريب الحديث:

يواريه: أي: يستره ويغطيه.

---

(١) الحشر: الآية (١٣). (٢) التوبة: الآية (٧٧).

(٣) تيسير العزيز الحميد (ص٥٠٦ - ٥٠٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٨٦) والترمذي (٤/ ٥٥٦/ ٢٤٧٢) وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه (١/ ٥٤/ ١٥١) وصححه ابن حبان (١٤/ ٥١٥-٥١٦/ ٦٥٦٠ الإحسان).

★ **فوائد الحديث:**

قال القاري: «فائدة التقييد بالجملة الحالية في الجملتين[١] أن أمرهما صعب في تينك الحالتين، فإن البلية إذا عمت طابت، وخلاصة المعنى أنه حكاية حال لا شكاية بال؛ بل تحدث بالنعمة، وتوفيق بالصبر على المحنة، إلى أن تنتهي إلى المنحة، على ما تقتضيه المحبة، وتسلية للأمة لإزالة ما قد يصيبهم من الغمة؛ أي: كنت وحيدًا في ابتداء إظهاري للدين فخوفني في ذلك وآذاني الكفار الملاعين، ولم يكن معي أحد حينئذٍ يوافقني في تحمل الأذى إلا مساعد المولى ومعاونة الرفيق الأعلى، ثم بين أنه كان مع ذلك كله في قلة الزاد وعدم الاستعداد بقوله: «**ولقد أتت..**» الحديث.. والمعنى أن بلالًا كان رفيقي في ذلك الوقت، وما كان لنا من الطعام إلا شيء قليل بقدر ما يأخذه بلال تحت إبطه، ولم يكن لنا ظرف نضع الطعام فيه»[٢].

قوله: «**في الله**»:

قال ابن القيم: «هذا يفهم منه معنيان:

أحدهما: أن ذلك في مرضاته وطاعته وسبيله، وهذا فيما يفعله الإنسان باختياره؛ كما في الحديث: «**تعلمت فيك العلم**»[٣].

والثاني: أنه بسببه وبجهته حصل ذلك، وهذا فيما يصيبه بعد اختياره، وغالبًا ما يأتي قولهم ذلك في اللَّه في هذا المعنى، فتأمل قوله ﷺ: «**ولقد أُوذيت في الله**»، وقول خُبيب: «**وذلك في ذات الإله**»، وقول عبد اللَّه بن حرام: «**حتى أقتل فيك**» وكذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾[٤]، فإنه يترتب عليه الأذى فيه سبحانه. وليست (في) ههنا للظرفية ولا لمجرد السببية وإن كانت السببية هي أصلها، فانظر إلى قوله: «**في نفس المؤمن مائة من الإبل**»[٥]، وقوله: «**دخلت امرأة النار في هرة**»[٦]، كيف تجد فيه معنى زائدًا على السببية. وليست (في) للوعاء في جميع معانيها، فقولك:

---

(١) يشير إلى قوله: «ولا يخاف أحد»، وقوله: «وما يؤذى أحد».

(٢) المرقاة (٩/ ١٠٥-١٠٦) بتصرف.

(٣) جزء من حديث أبي هريرة ﷺ في الثلاثة الذين تسعر بهم النار، أخرجه: مسلم (٣/ ١٥١٣-١٥١٤/ ١٩٠٥).

(٤) العنكبوت: الآية (٦٩).

(٥) أخرجه: النسائي (٨/ ٤٣٠/ ٤٨٧٢) وابن حبان (١٤/ ٥٠٧/ ٦٥٥٩ الإحسان) والحاكم (١/ ٣٩٧).

(٦) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٢) والبخاري (٦/ ٤٣٨/ ٣٣١٨) ومسلم (٤/ ١٧٦٠/ ٢٢٤٢).

فعلت هذا في مرضاتك، فيه معنى زائد على قوله: فعلته لمرضاتك، وأنت إذا قلت: أوذيتُ في اللَّه، لا يقوم مقام هذا اللفظ كقولك: أوذيت لله، ولا بسبب اللَّه، وإذا فهم المعنى طوي حكم العبارة.

والمقصود: أن الصبر في اللَّه إن أريدَ به هذا المعنى فهو حق، وإن أريد به معنى خارج عن الصبر على أقضيته، وعلى أوامره، وعن نواهيه وله وبه لم يحصل، فالصابر في اللَّه كالمجاهد في اللَّه، والجهاد فيه لا يخرج عن معنى الجهاد به وله، واللَّه الموفق»[1].

قلت: مما تقدم من كلام أهل العلم وفحوله في الصبر على الأذى وتحمله؛ نستفيد أن الصبر على الأذى وتحمله هو منهج النبيين والصديقين وأهل العلم الراسخين، الذين اتضحت لهم محاسن الإسلام وأن مآلهم إلى اللَّه تعالى؛ فإن الصبر إذا اجتمع مع اليقين أعطى نتيجة الإمامة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[2].

وإذا جرد الداعية الخوف من اللَّه زالت عنه كل الهموم، وطردت عنه كل الوساوس، وانفرد بخالقه الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. ومن انفرد باللَّه حماه، وهو أهل لذلك، الذي لا يغلب ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. غير أنه ينبغي أن نعلم أن هذه العقيدة الطيبة المباركة، وهي تجريد الخوف للَّه، والصبر على كل ما يصيب الداعية؛ فلا يوقعه ذلك في التهور وعدم الاحتياط مما قد يصيبه، فيحفظ عليه لسانه، ويحتاط من كل عدو له، فيستعمل معه كل الأساليب التي يعتقد أنها تنجيه منه، فيسالمه في وقت المسالمة، ويداريه في وقت المداراة، ويواجهه في وقت المواجهة المناسبة. فكل وقت له ما يناسبه من القوة والضعف، والضعيف لا ينبغي له أن يوقع نفسه في المهالك بدعوى أنه يخاف من اللَّه، فمن كمال خوف اللَّه الأخذ بالأسباب التي شرعها اللَّه لعباده، فالنبي ﷺ أخذ كل الاحتياطات في هجرته، ومنذ أمر بالهجرة وإلى أن وصل إلى المدينة وهو في خوف مستمر من العدو، فأخذ النبي ﷺ كل الاحتياطات في سفرته؛ فأخذ

---

(١) عدة الصابرين (ص٨٢ - ٨٣).

(٢) السجدة: الآية (٢٤).

الدليل الذي يعرف الطريق، وأخذ الرواحل والزاد، واختفى في الغار فأمن بذلك من مكر المشركين؛ الذين عملوا كل الأسباب الممكنة للوصول إليه ﷺ، ولكن اللَّه حماه منهم بفضله، ثم بالأسباب التي أخذها ﷺ.

وكل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كان هذا منهاجهم، كما حصل لنبي اللَّه موسى عليه السلام لما نصحه الرجل فخرج خائفًا يترقب، حتى وصل إلى العبد الصالح وقال له: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1]. وهكذا عيسى لما أرادوا قتله، وإبراهيم عليه السلام لما أراد عدو اللَّه الوقوع بزوجته، وكذلك فعل مع قومه لما قال لهم: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾[2]، والأمثلة في هذا كثيرة جدًّا. فالاحتياط والأخذ بالأسباب هو من كمال الخوف من اللَّه، وكذا قول اللَّه ﷻ لمريم: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[3] وقوله ﷺ: «**لو توكلتم على اللَّه حق توكله لرزقتم كما يرزُق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»[4]. ولو أردنا الاستطراد في ذكر الأمثلة لكتبنا في ذلك مجلدًا كبيرًا، واللَّه المستعان.

* * *

(١) القصص: الآية (٢٥).

(٢) الصافات: الآية (٨٩).

(٣) مريم: الآية (٢٥).

(٤) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أحمد (١/ ٣٠)، والترمذي (٤/ ٤٩٥/ ٢٣٤٤) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٣٨٩/ ١١٨٠٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٤/ ٤١٦٤)، وابن حبان (٢/ ٥٠٩/ ٧٣٠)(الإحسان)، والحاكم (٤/ ٣١٨) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وسكت عنه الذهبي في التلخيص.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

★ غريب الآية:

أثقالهم: جمع ثقل، وهو الحمل الثقيل. والمراد هنا: الذنوب والآثام.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك، تحذير المؤمنين من الاغترار بهم والوقوع في مكرهم، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ فاتركوا دينكم أو بعضه، واتبعونا في ديننا، فإننا نضمن لكم الأمر ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ وهذا الأمر ليس بأيديهم، فلهذا قال: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير. فهذا التحمل، ولو رضي به صاحبه، فإنه لا يفيد شيئًا، فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1].

ولما كان قوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ قد يتوهم منه أيضًا، أن الكفار الداعين إلى كفرهم -ونحوهم ممن دعا إلى باطله- ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبوه، دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسببين فيه، قال محترزا عن هذا الوهم ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي: أثقال ذنوبهم التي عملوها ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي الذنوب التي حصلت بسببهم ومن جرائهم، فالذنب الذي فعله التابع، لكل من التابع والمتبوع حصة منه حصلت، هذا لأنه فعله وباشره، والمتبوع لأنه تسبب في

---

(١) النجم: الآية (٣٨).

فعله ودعا إليه، كما أن الحسنة إذا فعلها التابع له أجرها بالمباشرة، وللداعي أجره بالتسبب. ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من الشر وتزيينه، [وقولهم]: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾»[١].

قال المراغي: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ أي: وقال الكافرون من قريش لمن آمن منهم واتبعوا الهدى: ارجعوا إلى ديننا الذي كنتم عليه، واسلكوا طريقنا، وإن كانت عليكم آثام فعلينا تبعتها وهي في رقابنا، كما يقول القائل: افعل هذا وخطيئتك في رقبتي.

فرد اللَّه عليهم كذبهم بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: وإنهم لا يحملون ذنوبهم يوم القيامة فإن أحدا لا يحمل وزر أحد كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾[٢] وقال: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾[٣].

ثم أكد ما سبق وقرره بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ فيما قالوه إنهم يحملون عنهم الخطايا، قال صاحب الكشاف: وترى المتسمين بالإسلام من يستن بأولئك فيقول لصاحبه إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم: افعل هذا وإثمه في عنقي، وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفة العامة وجهلتهم. اهـ

وبعد أن بين دعم منفعة كلامهم لمخاطبيهم، بين ما يستتبعه ذلك القول من المضرة لأنفسهم فقال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أي: وليحملن الدعاة إلى الكفر والضلال يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزارا أخرى، بما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئًا كما جاء في الآية الأخرى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٤] وفي الصحيح: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلال كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئا»**[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٧١-٧٢).
(٢) فاطر: الآية (١٨).
(٣) المعارج: الآيتان (١٠و١١).
(٤) النحل: الآية (٢٥).
(٥) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه الآية.

ثم ذكر أنهم يوم القيامة يسألون على افترائهم على ربهم فقال: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: وليسألن حينئذ سؤال توبيخ وتقريع عما كانوا يكذبونه في الدنيا بوعد من أضلوهم بالأباطيل، وقولهم لهم: ﴿اتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيمن سن شركا أو بدعة فعليه وزرها ووزر من عمل بها

* عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «من دعا إلى هدى كان له مثل أجور متابعيه، أو إلى ضلالة كان عليه مثل آثام تابعيه، سواء كان ذلك الهدى والضلالة هو الذي ابتدأه، أم كان مسبوقا إليه، وسواء كان ذلك تعليم علم، أو عبادة، أو أدب، أو غير ذلك»[3].

قال المناوي: «ضمير الجمع في أجورهم وآثامهم يعود لمن باعتبار المعنى، فإن قيل إذا دعا واحد جمعا إلى ضلالة فاتبعوه، لزم كون السيئة واحدة وهي الدعوة، مع أن هنا آثاما كثيرة. قلنا تلك الدعوة في المعنى متعددة لأن دعوى الجمع دفعة دعوة لكل من أجابها. فإن قيل كيف التوبة مما تولد وليس من فعله، والمرء إنما يتوب مما فعله اختيارا قلنا يحصل بالندم ودفعه عن الغير ما أمكن»[4].

قال ابن القيم: «أخبر ﷺ أن المنتسب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر من اهتدى به والمنتسب إلى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضل به لأن هذا بذل قدرته في هداية الناس، وهذا بذل قدرته في ضلالهم، فنزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التام.

---

(١) تفسير المراغي (٢٠/ ١٢١-١٢٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٧) ومسلم (٤/ ٢٠٦٠/ ٢٦٧٤) وأبو داود (٥/ ١٥-١٦/ ٤٦٠٩) والترمذي (٥/ ٤٢/ ٢٦٧٤) وابن ماجه (١/ ٧٥/ ٢٠٦).

(٣) شرح مسلم (١٦/ ١٨٥).

(٤) فيض القدير (٦/ ١٢٥).

وهذه قاعدة الشريعة كما هو مذكور في غير هذا الموضع، قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهذا يدل على أن من دعا الأمة إلى غير سنة رسول الله ﷺ فهو عدوه حقًّا؛ لأنه قطع وصول أجر من اهتدى بسنته إليه، وهذا من أعظم معاداته، نعوذ بالله من الخذلان»[2].

قلت: ومما يلفت النظر؛ هذه الكلمة من الإمام ابن القيم رحمه الله: «وهذا يدل على أن من دعا الأمة إلى غير سنة رسول الله ﷺ فهو عدوه حقًّا»، وعلل ابن القيم رحمه الله ذلك بقوله: «لأنه قطع وصول أجر من اهتدى بسنته إليه. وهذا من أعظم معاداته». فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تعظيم ابن القيم رحمه الله لسنة رسول الله ﷺ. وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه كل مسلم يشهد للنبي ﷺ بالرسالة، فالعلم التفصيلي للشريعة الإسلامية هو سنة رسول الله ﷺ، فبها فسر القرآن، وبها قام أصول الفقه، وهي الفقه في الدين، فمن دعا الناس إلى غير سنة رسول الله ﷺ فقد قطعهم عن كتاب الله؛ لأن كتاب الله متوقف في فهمه على سنة رسول الله، ولا يقطع الطريق على كتاب الله إلا عدو الله، ولهذا تجد في عصور التاريخ الذين انحرفوا عن السنة، وحملوا ألوية البدعة؛ كانوا في حقيقتهم أعداء لله ولرسوله، فإذا جاء في السنة: افعلوا؛ قالوا هم: لا تفعلوا. وإذا جاء: لا تفعلوا؛ قالوا هم: افعلوا. فهم مناقضون لسنة رسول الله ﷺ مناقضة واضحة في باب الأصول والفروع، فلهذا الذي يتتبع أحوالهم واحدًا واحدًا لا يستغرب ما قاله العلامة ابن القيم رحمه الله.

* عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تُقتلُ نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل»**[3].

★ غريب الحديث:

كفل: بكسر الكاف وإسكان الفاء وهو النصيب والجزء.

---

(١) النحل: الآية (٢٥). (٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٥١).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٣-٤٣٠-٤٣٣) والبخاري (٦/ ٤٤٨/ ٣٣٣٥) ومسلم (٣/ ١٣٠٣-١٣٠٤/ ١٦٧٧) والترمذي (٥/ ٤١/ ٢٦٧٣) والنسائي (٧/ ٩٤/ ٣٩٩٦) وابن ماجه (٢/ ٨٧٣/ ٢٦١٦)، كلهم من طرق عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ.. فذكره.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «هذا الحديث من قواعد الإسلام، وهو: أن كل من ابتدع شيئًا من الشر كان عليه مثل وزر كل من اقتدى به في ذلك العمل مثل عمله إلى يوم القيامة، ومثله من ابتدع شيئًا من الخير كان له مثل أجر كل من يعمل به إلى يوم القيامة، وهو موافق للحديث الصحيح: «**من سن سنة حسنة ومن سن سنة سيئة**»»[1].

قال الحافظ: «قال المهلب: هذا الباب والذي قبله في معنى التحذير من الضلال، واجتناب البدع ومحدثات الأمور في الدين، والنهي عن مخالفة سبيل المؤمنين انتهى. ووجه التحذير أن الذي يحدث البدعة قد يتهاون بها لخفة أمرها في أول الأمر، ولا يشعر بما يترتب عليها من المفسدة، وهو أن يلحقه إثم من عمل بها من بعده، ولو لم يكن هو عمل بها بل لكونه كان الأصل في إحداثها»[2].

قال المازري: «هذا الحديث أصل في أن المعونة على ما لا يحل لا تحل، وقال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[3] وقد جعل الدال على الخير كفاعله وهكذا الدال على الشر كفاعله. ولعل القتل إنما كان في الناس على جهة التعليم فأخذه واحد عن واحد عن آخر حتى ينتهي إلى ابن آدم الأول. وهكذا التعليم في البدع والضلالات يكون على معلمها الأول كفل منها. وهكذا على قياسه يكون للمعلم الأول للهدى والحقائق نصيب من الأجر»[4].

قال القرطبي: «وقوله: «**لأنه أول من سن القتل**» نص على تعليل ذلك الأمر؛ لأنه لما كان أول من قتل كان قتله ذلك تنبيها لمن أتى بعده، وتعليما له. فمن قتل كأنه اقتدى به في ذلك، فكان عليه من وزره. وهذا جار في الخير والشر، كما قد نص عليه النبي ﷺ في الحديث المتقدم بقوله: «**من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»[5] وبهذا الاعتبار يكون على إبليس كفل من معصية كل من عصى بالسجود؛ لأنه أول من عصى به. وهذا واللَّه أعلم ما لم يتب

---

(١) شرح مسلم (١١/ ١٣٨).
(٢) الفتح (١٣/ ٣٧٤).
(٣) المائدة: الآية (٢).
(٤) المعلم بفوائد مسلم (٢/ ٢٥٠).
(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٥٨-٣٥٩) ومسلم (٢/ ٧٠٤-٧٠٥/ ١٠١٧) والترمذي (٥/ ٤٢/ ٢٦٧٥) والنسائي (٥/ ٧٩-٨٠/ ٢٥٥٣) وابن ماجه (١/ ٧٤/ ٢٠٣) مختصرا. كلهم من حديث جرير بن عبد اللَّه ﷺ.

ذلك القاتل الأول من تلك المعصية، لأن آدم عليه السلام أول من خالف في أكل ما نهي عنه، ولا يكون عليه شيء من أوزار من عصى بأكل ما نهي عنه، ولا شربه ممن بعده بالإجماع، لأن آدم عليه السلام تاب من ذلك، وتاب اللَّه عليه، فصار كأن لم يجن، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له واللَّه تعالى أعلم»[١].

* * *

(١) المفهم (٥/ ٤١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الطوفان: الماء الكثير الغامر، المغرق. وهو في الأصل: كل حادثة تحيط بالإنسان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه تسلية من اللَّه تعالى لعبده ورسوله محمد صلوات اللَّه وسلامه عليه، يخبره عن نوح ﷺ: أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى اللَّه ليلا ونهارا، وسرا وجهارا، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فرارا عن الحق، وإعراضا عنه وتكذيبا له، وما آمن معه منهم إلا قليل؛ ولهذا قال: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار، فأنت -يا محمد- لا تأسف على من كفر بك من قومك، ولا تحزن عليهم؛ فإن اللَّه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وبيده الأمر وإليه ترجع الأمور، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾[1]، واعلم أن اللَّه سيظهرك وينصرك ويؤيدك، ويذل عدوك، ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين»[2].

قال المراغي: «بعد أن ذكر افتتان المؤمنين بأذى الكفار، وأرشد إلى أن من قبلهم من الأمم قد فتنوا، أعقبه بتفصيل من فتنوا من الأنبياء، كنوح وإبراهيم وهود ولوط وشعيب تسلية له ﷺ، فقد ابتلوا بما أصابهم من المكاره، وصبروا عليها،

---

(١) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٧٧-٢٧٨).

فليكن ذلك قدوة للمؤمنين .

وقد بدأ بذكر أبي الأنبياء نوح عليه السلام ؛ فذكر أنه مكث في قومه ألف سنة يدعوهم إلى اللَّه ليلا ونهارا سرا وجهرا ، وما زادهم ذلك إلا فرارا من الحق ، وإعراضا عنه ، وتكذيبا له ، وما آمن معه إلا قليل منهم ، فأنزل اللَّه عليهم الطوفان فأهلكهم وهم مستمرون في الظلم ، لم يتأثروا بما سمعوا من نوح من الآيات ، ولم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصي هذه المدة ، فأنجى اللَّه نوحا ومن معه ممن ركب السفينة من أتباعه ، وكانت تلك السفينة عبرة وموعظة أمدا طويلا مدة بقائها على جبل الجودي ، ينظر إليها الناس ، وترشدهم إلى نعمته على خلقه بالنجاة من الطوفان ، كما قال : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾[1]»[2] .

قال الرازي : «ما الفائدة في ذكر مدة لبثه؟ نقول : كان النبي ﷺ يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الإسلام ، وإصرارهم على الكفر ، فقال إن نوحا لبث ألف سنة تقريبا في الدعاء ولم يؤمن من قومه إلا قليل ، وصبر وما ضجر فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك ، وأيضًا كان الكفار يغترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ، ومع ذلك ما نجوا ، فبهذا المقدار من التأخير لا ينبغي أن يغتروا فإن العذاب يلحقهم»[3] .

قال ابن عطية : «وقوله تعالى : ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ يقتضي أنه أخذ قومه فقط ، وقد اختلف في ذلك فقالت فرقة : إنما غرق في الطوفان طائفة من الأرض وهي المختصة بقوم نوح ، وقالت فرقة : هي الجمهور : إنما غرقت المعمورة كلها .

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو ظاهر الأمر لاتخاذه السفينة ولبعثه الطير يرتاد زوال الماء ولغير ذلك من الدلائل ، وبقي أن يعترض هذا بأن يقال كيف غرق الجميع والرسالة إلى البعض ، فالوجه في ذلك أن يقال : إن اختصاص نبي بأمة ليس هو بأن لا يهدي غيرها ولا يدعوها إلى توحيد اللَّه تعالى ، وإنما هو بأن لا يؤخذ بقتال

---

(١) الحاقة : الآيتان (١١و١٢).

(٢) تفسير المراغي (٢٠/ ١٢٣).

(٣) التفسير الكبير (٢٥/ ٤٢).

غيرها ولا ببث العبادات فيهم، لكن إذا كانت نبوة قائمة هذه المدة الطويلة، والناس حولها يعبدون الأوثان، ولم يكن الناس يومئذ كثيرا بحكم القرب من آدم، فلا محالة أن دعاءه إلى توحيد اللَّه كان قد بلغ الكل، فنالهم الغرق لإعراضهم وتماديهم»[1].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ فيه إشارة إلى لطيفة؛ وهي أن اللَّه لا يعذب على مجرد وجود الظلم، وإلا لعذب من ظلم وتاب، فإن الظلم وجد منه، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم، فقوله: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ يعني أهلكهم وهم على ظلمهم، ولو كانوا تركوه لما أهلكهم»[2].

* * *

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٣١٠).

(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ٤٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

إفكا: أي: كذبًا وزورًا. والمراد: ما ينحتونه من أصنام.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء: أنه دعا قومه إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم، لا مسدي لها غيره، فقال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة والخوف، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة.

ثم أخبرهم أن الأصنام التي يعبدونها والأوثان، لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء، سميتموها آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلكم.. وهي لا تملك لكم رزقا، ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ وهذا أبلغ في الحصر، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾[1]، ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾[2]، ولهذا قال:

---

(١) الفاتحة: الآية (٥).

(٢) التحريم: الآية (١١).

﴿فَٱبْتَغُواْ﴾ أي: فاطلبوا ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: لا عند غيره، فإن غيره لا يملك شيئًا، ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ أي: كلوا من رزقه واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم، ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله.

وقوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أي: فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ يعني: إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره اللَّه تعالى به من الرسالة، واللَّه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ قال: يعزي نبيه. وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول، واعترض بهذا إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾[1]. وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضًا.

والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام لقومه يحتج عليهم لإثبات المعاد، لقوله بعد هذا كله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾، واللَّه أعلم»[2].

قال الرازي: «وقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ إشارة إلى التوحيد؛ لأن التوحيد إثبات الإله ونفي غيره فقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إشارة إلى الإثبات، وقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ إشارة إلى نفي الغير؛ لأن من يشرك مع الملك غيره في ملكه يكون قد أتى بأعظم الجرائم، ويمكن أن يقال: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إشارة إلى الإتيان بالواجبات، وقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ إشارة إلى الامتناع عن المحرمات ويدخل في الأول الاعتراف باللَّه، وفي الثاني الامتناع من الشرك، ثم قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني عبادة اللَّه وتقواه خير، والأمر كذلك لأن خلاف عبادة اللَّه تعالى تعطيل، وخلاف تقواه تشريك، وكلاهما شر عقلا واعتبارا»[3].

وقال أيضًا: «قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ ذكر بطلان مذهبهم بأبلغ الوجوه، وذلك لأن المعبود إنما يعبد لأحد أمور، إما لكونه مستحقا للعبادة بذاته؛ كالعبد يخدم سيده الذي اشتراه، سواء أطعمه من الجوع أو

(١) العنكبوت: الآية (٢٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٧٩-٢٨٠).
(٣) التفسير الكبير (٢٥/ ٤٤).

منعه من الهجوع، وإما لكونه نافعا في الحال؛ كمن يخدم غيره لخير يوصله إليه كالمستخدم بأجرة، وإما لكونه نافعا في المستقبل كمن يخدم غيره متوقعا منه أمرا في المستقبل، وإما لكونه خائفا منه. فقال إبراهيم: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ إشارة إلى أنها لا تستحق العبادة لذاتها، لكونها أوثانا لا شرف لها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إشارة إلى عدم المنفعة في الحال وفي المآل، وهذا لأن النفع، إما في الوجود، وإما في البقاء لكن ليس منهم نفع في الوجود، لأن وجودهم منكم حيث تخلقونها وتنحتونها، ولا نفع في البقاء لأن ذلك بالرزق، وليس منهم ذلك، ثم بين أن ذلك كله حاصل من اللَّه فقال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ فقوله: ﴿ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى استحقاق عبوديته لذاته وقوله: ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ إشارة إلى حصول النفع منه عاجلًا وآجلًا»[1].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٥/ ٤٥).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن الخليل ﷺ، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق اللَّه إياهم، بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورا، ثم وجدوا وصاروا أناسا سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته؛ فإنه سهل عليه يسير لديه.

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق اللَّه الأشياء: السموات وما فيها من الكواكب النيرة: الثوابت، والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن، فيكون؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[١].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ

(١) الروم: الآية (٢٧).

﴿ٱلۡآخِرَةَۚ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦﴾[2].

وقوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي: هو الحاكم المتصرف، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فله الخلق والأمر، مهما فعل فعدل؛ لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن: «**إن اللَّه لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم**»[3]. ولهذا قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ أي: ترجعون يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ أي: لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، وكل شيء خائف منه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي: جحدوها وكفروا بالمعاد، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ أي: لا نصيب لهم فيها، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: موجع في الدنيا والآخرة»[4].

قال المراغي: «بعد أن أقام الأدلة على الوحدانية ثم الرسالة بقوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[5] شرع يبين الأصل الثالث وهو البعث والنشور، وقد قلنا فيما سلف: إن هذه الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها من بعض في الذكر الإلهي، فأينما تجد أصلين منها تجد الثالث.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩﴾ أرشد إبراهيم خليل الرحمن قومه إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في

---

(١) فصلت: الآية (٥٣). (٢) الطور: الآيتان (٣٥و٣٦).

(٣) طرف من حديث أخرجه: أحمد (٥/ ١٨٥، ١٨٩) وأبو داود (٥/ ٧٥/ ٤٦٩٩) وابن ماجه (١/ ٢٩-٣٠/ ٧٧) وابن حبان (٢/ ٥٠٥-٥٠٦/ ٧٢٧ الإحسان) كلهم من حديث أبي بن كعب ﷺ.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٨٠-٢٨١). (٥) العنكبوت: الآية (١٨).

أنفسهم من خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورا، ثم إعطائهم السمع والبصر والأفئدة، وتصرفهم في الحياة إلى حين، ثم موتهم بعد ذلك، والذي بدأ هذا قادر على أن يعيده، بل هو أهون عليه كما قال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[(١)].

وخلاصة هذا: أنتم قد علمتم ذلك فكيف تنكرون الإعادة وهي أهون عليه؟ وبعد أن ساق هذا الدليل المشاهد في الأنفس، أرشد إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ أي: سيروا في الأرض وشاهدوا السماوات وما فيها من الكواكب النيرة. ثوابتها وسياراتها، والأرض وما فيها من جبال ومهاد، وبراري وقفار، وأشجار وثمار، وأنهار وبحار، فكل ذلك شاهد على حدوثها في أنفسها وعلى وجود صانعها الذي يقول للشيء كن فيكون.

أو ليس من فعل هذا بقادر على أن ينشئه نشأة أخرى، ويوجده مرة ثانية وهو القادر على كل شيء؟ وشبيه بالآية قوله في الآية الأخرى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[(٢)] ولما أقام الدليل على الإعادة رتب عليها ما سيكون بعدها فقال: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يعذب من يشاء منكم ومن غيركم في الدنيا والآخرة بعدله في حكمه بحسب سننه في خلقه، ويرحم من يشاء بفضله ورحمته، فهو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي: وإليه تردون بعد موتكم، والمراد أنه إن تأخر ذلك عنكم فلا تظنوا أنه قد فات، فإنه إليه إيابكم، وعليه حسابكم، وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: إنه تعالى لا يعجزه أحد من أهل سماواته ولا أرضه، بل هو القاهر فوق عباده، فكل شيء فقير إليه، فلو صعد إلى السماكين[(٣)]، أو هبط إلى موضع السموك[(٤)] في الماء ما خرج من

---

(١) الروم: الآية (٢٧). (٢) فصلت: الآية (٥٣).

(٣) السماكان: نجمان نيران، أحدهما السماك الأعزل، والآخر السماك الرامح.

(٤) السموك: جمع سمكة وهي الحوت، فتجمع على سُموك وسِماك.

قبضته وما استطاع الهرب منه.

ولما بين أنه مقدور عليهم جميعًا لا يفلتون منه، ذكر أنه لا يستطيع أحد نصرهم فقال: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: وماكان لكم أيها الناس ولي يلي أموركم، ويحرسكم من أن يصيبكم بلاء أرضي أو سماوي، ولا نصير يدفع عذاب اللَّه عنكم إن قدر لكم.

ولما قرر التوحيد والبعث هدد من خالفهما وتوعده فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: والذين كفروا بالدلائل التي نصبها سبحانه في الكون دالة على توحيده، والدلائل التي أنزلها على رسله مرشدة إلى ذلك، وجحدوا لقاءه والورود إليه يوم تقوم الساعة، أولئك لا أمل لهم في رحمته، لأنهم لم يخافوا عقابه، ولم يرجوا ثوابه، ولهم عذاب مؤلم موجع في الدنيا والآخرة. ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(١)»(٢).

قال ابن عاشور: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ اعتراض انتقالي من الإنكار عليهم ترك الاستدلال بما هو بمرأى منهم، إلى إرشادهم للاستدلال بما هو بعيد عنهم من أحوال إيجاد المخلوقات وتعاقب الأمم وخلف بعضها عن بعض، فإن تعود الناس بما بين أيديهم يصرف عقولهم عن التأمل فيما وراء ذلك من دلائل دقائقها على ما تدل عليه، فلذلك أمر اللَّه رسوله أن يدعوهم إلى السير في الأرض ليشاهدوا آثار خلق اللَّه الأشياء من عدم فيوقنوا أن إعادتها بعد زوالها ليس بأعجب من ابتداء صنعها.

وإنما أمر بالسير في الأرض لأن السير يدني إلى الرائي مشاهدات جمة من مختلف الأرضين؛ بجبالها وأنهارها ومحوياتها، ويمر به على منازل الأمم حاضرها وبائدها، فيرى كثيرا من أشياء وأحوال لم يعتد رؤية أمثالها، فإذا شاهد ذلك جال نظر فكره في تكوينها بعد العدم جولانا لم يكن يخطر له ببال حينما كان

(١) يوسف: الآية (٨٧).

(٢) تفسير المراغي (٢٠/ ١٢٦-١٢٨).

يشاهد أمثال تلك المخلوقات في ديار قومه، لأنه لما نشأ فيها من زمن الطفولة فما بعده قبل حدوث التفكير في عقله، اعتاد أن يمر ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها حتى إذا شاهد أمثالها مما كان غائبا عن بصره جالت في نفسه فكرة الاستدلال، فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل، فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة. وجيء في جانب بدء الخلق بالفعل الماضي لأن السائر ليس له من قرار في طريقه فندر أن يشهد حدوث بدء مخلوقات، ولكنه يشهد مخلوقات مبدوءة من قبل فيفطن إلى أن الذي أوجدها إنما أوجدها بعد أن لم تكن وأنه قادر على إيجاد أمثالها فهو بالأحرى قادر على إعادتها بعد عدمها.

والاستدلال بالأفعال التي مضت أمكن لأن للشيء المتقرر تحققا محسوسا.

وجيء في هذا الاستدلال بفعل النظر؛ لأن إدراك ما خلقه اللَّه حاصل بطريق البصر وهو بفعل النظر أولى وأشهر لينتقل منه إلى إدراك أنه ينشىء النشأة الآخرة»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٣٠).

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم، ودفعهم الحق بالباطل: أنه ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان، ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان، وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم، ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾[1]، وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة، وحوطوا حولها، ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لها لهب إلى عنان السماء: ولم توقد نار قط أعظم منها، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق، ثم قذفوا به فيها، فجعلها اللَّه عليه بردا وسلاما، وخرج منها سالما بعد ما مكث فيها أياما. ولهذا وأمثاله جعله اللَّه للناس إماما. فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، وسخا بولده للقربان، وجعل ماله للضيفان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان.

وقوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾ أي: سلمه منها، بأن جعلها عليه بردا وسلاما، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ يقول لقومه مقرعا لهم وموبخا على سوء صنيعهم، في

(١) الصافات: الآيتان (٩٧و٩٨).

عبادتهم الأوثان: إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا، صداقة وألفة منكم، بعضكم لبعض في الحياة الدنيا. وهذا على قراءة من نصب ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾، على أنه مفعول له، وأما على قراءة الرفع فمعناه: إنما اتخاذكم هذا يحصل لكم المودة في الدنيا فقط ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ينعكس هذا الحال، فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضة وشنآنا، ف ﴿يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ﴾ أي: تتجاحدون ما كان بينكم، ﴿وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ أي: يلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾[2]، وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضًا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار، وما لكم من ناصر ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذاب اللَّه. وهذا حال الكافرين، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك»[3].

قال الرازي: «قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضًا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾ لما خرج إبراهيم من النار عاد إلى عذل الكفار وبيان فساد ما هم عليه، وقال إذا بينت لكم فساد مذهبكم وما كان لكم جواب ولا ترجعون عنه، فليس هذا إلا تقليدا، فإن بين بعضكم وبعض مودة فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه في السيرة والطريقة أو بينكم وبين آبائكم مودة فورثتموهم وأخذتم مقالتهم ولزمتم ضلالتهم وجهالتهم فقوله: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ يعني ليس بدليل أصلا وفيه وجه آخر وهو تحقيق دقيق، وهو أن يقال قوله: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ أي: مودة بين الأوثان وبين عبدتها، وتلك المودة هي أن الإنسان مشتمل على جسم وعقل، ولجسمه لذات جسمانية ولعقله لذات عقلية، ثم إن من غلبت فيه الجسمية لا يلتفت إلى اللذات العقلية، ومن غلبت عليه العقلية لا يلتفت إلى اللذات الجسمانية، كالمجنون إذا

---

(١) الأعراف: الآية (٣٨).

(٢) الزخرف: الآية (٦٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٨١).

احتاج إلى قضاء حاجة من أكل أو شرب أو إراقة ماء، وهو بين قوم من الأكابر في مجمع يحصل ما فيه لذة جسمه من الأكل وإراقة الماء وغيرهما، ولا يلتفت إلى اللذة العقلية من حسن السيرة وحمد الأوصاف ومكرمة الأخلاق. والعاقل يحمل الألم الجسماني ويحصل اللذة العقلية، حتى لو غلبت قوته الدافعة على قوته الماسكة وخرج منه ريح أو قطرة ماء يكاد يموت من الخجالة والألم العقلي. إذا ثبت هذا فهم كانوا قليلي العقل غلبت الجسمية عليهم.. ورأوا الأجسام المناسبة للغالب فيهم مزينة بجواهر فودوها. فاتخاذهم الأوثان كان مودة بينهم وبين الأوثان، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ يعني يوم يزول عمى القلوب وتتبين الأمور للبيب والغفول يكفر بعضكم ببعض، ويعلم فساد ما كان عليه فيقول العابد ما هذا معبودي، ويقول المعبود ما هؤلاء عبدتي ويلعن بعضكم بعضًا، ويقول هذا لذاك أنت أوقعتني في العذاب حيث عبدتني، ويقول ذاك لهذا أنت أوقعتني فيه حيث أضللتني بعبادتك، ويريد كل واحد أن يبعد صاحبه باللعن ولا يتباعدون، بل هم مجتمعون في النار كما كانوا مجتمعين في هذه الدار كما قال تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ يعني ليس تلك النار مثل ناركم التي أنجى اللَّه منها إبراهيم ونصره، فأنتم في النار ولا ناصر لكم»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والناس إذا تعاونوا على الإثم والعدوان أبغض بعضهم بعضًا، وإن كانوا فعلوه بتراضيهم، قال طاووس: «ما اجتمع رجلان على غير ذات اللَّه إلا تفرقا عن تقال». وقال الخليل ﷺ: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ وهؤلاء لا يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضًا لمجرد كونه عصى الله؛ بل لما حصل له بمشاركته ومعاونته من الضرر وقال تعالى عن أهل الجنة التي أصبحت كالصريم: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ۝٣٠﴾[2] أي يلوم بعضهم بعضًا وقال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾[3] فالمخالة إذا كانت على غير مصلحة

(١) التفسير الكبير (٢٥/ ٥٤-٥٥).
(٢) القلم: الآية (٣٠).
(٣) الزخرف: الآية (٦٧).

الاثنين كانت عاقبتها عداوة، وإنما تكون على مصلحتها إذا كانت في ذات اللَّه، فكل منهما وإن بذل للآخر إعانة على ما يطلبه، واستعان به بإذنه فيما يطلبه، فهذا التراضي لا اعتبار به، بل يعود تباغضا وتعاديا وتلاعنا، وكل منهما يقول للآخر: لولا أنت ما فعلت أنا وحدي هذا، فهلاكي كان مني ومنك. والرب لا يمنعهما من التباغض والتعادي والتلاعن، فلو كان أحدهما ظالما للآخر فيه لنهى عن ذلك، ويقول كل منهما للآخر: أنت لأجل غرضك أوقعتني في هذا»[1].

قال ابن القيم: «هذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندما، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾[2] وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[3] وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ وهذا شأن كل مشتركين في غرض، يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامة وحزنا وألما، وانقلبت تلك المودة بغضا ولعنة وذما من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزنا وعذابا، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيه، إذا أخذوا وعوقبوا. فكل متساعدين على باطل، متوادين عليه: لا بد أن تنقلب مودتهما بغضا وعداوة»[4].

قلت: ما أشار إليه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العلاقة بين الناس؛ إشارة جيدة؛ فالمشركون في الدفاع عن الباطل لا يقر لهم قرار، ولا تستقر لهم أحوال، فهم مذبذبون مضطربون، همهم مصالحهم ومطامعهم وشهواتهم وأهواؤهم، فإذا انتهت مهماتهم الخسيسة انقلبت علاقتهم الحميمة إلى عداوة بغيضة، وهذا أمر لا ينكره إلا مكابر معاند، فأهل الباطل في كل زمان أضحوكة لكل عاقل، فلهذا تجد أهل الباطل دائمًا يعتضدون بالحكام الفسقة أهل الجور والظلم، الذين

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٢٨-١٢٩).
(٢) الفرقان: الآيات (٢٧-٢٩).
(٣) الزخرف: الآية (٦٧).
(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٥٥).

يؤيدونهم على باطلهم وينصرونهم؛ لأنهم ومن معهم من جنود الشيطان، يخدمون مصالح إبليس، فلا يتورعون عن أية موبقة، وأهونها البدع والضلالات، وتضليل الأمة بكل وسائل التضليل، ويلمعون باطلهم بأنواع من التزويق حتى لا تفتضح مؤامراتهم، فهم متآمرون على الأمة، يسعون في الأرض بالفساد، وكل من رأوا فيه علامة خير أو إصلاح نبذوه ووصفوه بكل أنواع القذع حتى يخلو لهم الجو، وينفردوا بالفريسة، ويقتسموا الأمة، ويأكلوا خيراتها الحسية والمعنوية. فاللهم عليك بهم، وأذقهم بأسك، وأرح الأمة من شرهم؛ فإنهم لا يعجزونك.

* * *

قوله تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين به، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية»[١].

قال القاسمي: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ أي: صدق إبراهيم فيما دعاه إليه ﴿لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ أي: من أرض قومي ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: لا إلى غيره؛ بل إلى عبادته، وإقامة شعائر دينه، والقيام بدعوة الخلق إلى الحق من شرعه وتوحيده»[٢].

قال الرازي: «لما بالغ إبراهيم في الإرشاد ولم يهتد قومه، وحصل اليأس الكلي حيث رأى القوم الآية الكبرى ولم يؤمنوا وجبت المهاجرة، لأن الهادي إذا هدى قومه ولم ينتفعوا فبقاؤه فيهم مفسدة؛ لأنه إن دام على الإرشاد كان اشتغالا بما لا ينتفع به مع علمه، فيصير كمن يقول للحجر صدق وهو عبث، أو يسكت والسكوت دليل الرضا، فيقال بأنه صار منا ورضي بأفعالنا، وإذا لم يبق للإقامة وجه وجبت المهاجرة»[٣].

قال السعدي: «أي: لم يزل إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- يدعو قومه، وهم مستمرون على عنادهم، إلا أنه آمن له بدعوته لوط، الذي نبأه اللَّه، وأرسله إلى قومه كما سيأتي ذكره.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئا: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: هاجر أرض السوء، ومهاجر إلى الأرض المباركة، وهي الشام، ﴿إِنَّهُۥ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٨٢).

(٢) محاسن التأويل (١٣/ ١٤٧).

(٣) التفسير الكبير (٢٥/ ٥٦).

﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الذي له القوة، وهو يقدر على هدايتكم، ولكنه حكيم ما اقتضت حكمته ذلك، ولما اعتزلهم وفارقهم، وهم بحالهم، لم يذكر اللَّه عنهم أنه أهلكهم بعذاب، بل ذكر اعتزاله إياهم، وهجرته من بين أظهرهم.

فأما ما يذكر في الإسرائيليات، أن اللَّه تعالى فتح على قومه باب البعوض، فشرب دماءهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن آخرهم، فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعي، ولم يوجد، فلو كان اللَّه استأصلهم بالعذاب لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة، ولكن لعل من أسرار ذلك، أن الخليل ﷺ من أرحم الخلق وأفضلهم وأحلمهم وأجلهم، فلم يدع على قومه كما دعا غيره، ولم يكن اللَّه ليجري عليهم بسببه عذابا عاما.

ومما يدل على ذلك، أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه، واللَّه أعلم بالحال»[1].

قال عبد الكريم الخطيب: «كانت بين لوط وإبراهيم تلك القرابة، وليس التي لا تنفصم أبدا، وهي النسب الذي جمعهما على الإيمان باللَّه، فكان لوط من الذين استجابوا لإبراهيم وآمنوا باللَّه، فهذا الإيمان هو جامعة النسب بينهما. وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾ أي: استجاب له، ولهذا عدى الفعل بحرف الجر اللام، فإن الإيمان بكذا غير الإيمان لكذا، إذ أن الإيمان بالشيء هو اعتقاده وتيقنه كالإيمان باللَّه والإيمان بالبعث والجزاء والجنة والنار، أما الإيمان للشيء فهو الإقبال عليه والاستجابة له قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[2] فالاستجابة إقبال على اللَّه، والإيمان ثقة باللَّه، واستيقان من صفات الكمال المتصف بها سبحانه.

وفي قول لوط: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ إشارة إلى ما يقتضيه الإيمان باللَّه من ابتلاء بضروب من الشدائد والمحن. والهجرة إلى اللَّه هي الاتجاه إليه سبحانه، والانخلاع عن كل ما يعوق مسيرة المؤمن على طريق الإيمان، حيث يتخطى المؤمن المهاجر إلى اللَّه كل ما يعترض طريقه من أهل ومال ووطن، وحيث لا يلتفت إلى ما يصيبه في نفسه من ضر وأذى ولو كان الموت راصدا له.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٨٠-٨١).
(٢) البقرة: الآية (١٨٦).

وفي هذا إشارة للمؤمنين الذين كانوا تحت يد قريش يسامون الخسف، ويتجرعون كؤوس البلاء مترحة. إنهم في هجرة إلى اللّٰه وإن لم يهاجروا من بلدهم ولم يخرجوا من ديارهم، وإنهم لفي هجرة إلى اللّٰه إن هم خرجوا من ديارهم وهاجروا من بلدهم.

فالمؤمن باللّٰه إيمانا حقًّا في هجرة إلى اللّٰه دائما، ما دام قائما على طريق الحق والخير، يهجر كل منكر ويجتنب كل فاحشة، وفي الحديث: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى اللّٰه عنه**»[١] وقد كانت هجرة لوط إلى ربه هجرة مباركة، إذ التقى على طريقه إلى اللّٰه بالنبوة، فكان من المصطفين الأخيار من عباد اللّٰه المكرمين»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قصة هجرة إبراهيم عليه السلام وما فيها من الآيات والعبر

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة، فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك -أو جبار من الجبابرة. فقيل: دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء. فأرسل إليه أن يا إبراهيم، من هذه التي معك؟ قال: أختي. ثم رجع إليها، فقال: لا تكذبي حديثي، فإني أخبرتهم أنك أختي، واللّٰه إن على الأرض من مؤمن غيري وغيرك. فأرسل بها إليه فقام إليها، فقامت توضأ وتصلي فقالت: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر. فغط حتى ركض برجله**- قال الأعرج: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: إن أبا هريرة قال: **قالت: اللهم إن يمت يقال: هي قتلته. فأرسل ثم قام إليها فقامت توضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي هذا الكافر، فغط حتى ركض برجله. قال عبد الرحمن: قال أبو سلمة: قال أبو هريرة: فقالت: اللهم إن يمت فيقال هي قتلته،**

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٣)، والبخاري (١١/ ٣٨٣/ ٦٤٨٤)، ومسلم (١/ ٦٥/ ٤٠)، وأبو داود (٣/ ٩/ ٢٤٨١)، والنسائي (٨/ ٤٧٩/ ٥٠١١) من حديث عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) التفسير القرآني للقرآن (١٠/ ٤٢٥-٤٢٦).

فأرسل في الثانية أو في الثالثة فقال: والله ما أرسلتم إلي إلا شيطانًا، أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها آجر، فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام، فقالت: أشعرت أن الله كبت الكافر وأخدم وليدة»[١].

★ **غريب الحديث:**

الغط: العصر الشديد والكبس.

آجر: بهمزة ممدودة بدل الهاء وجيم مفتوحة يعني هاجر.

كبت: بفتح الكاف والموحدة بعدها مثناة؛ أي: أخزاه. وقيل: رده خائبًا، وقيل: أحزنه، وقيل: صرفه، وقيل: أذله.

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**والله إن على الأرض من مؤمن غيري وغيرك**»: قال الحافظ ابن حجر: «يشكل عليه كون لوط كان معه كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ ويمكن أن يُجاب بأن مراده بالأرض الأرض التي وقع له فيها ما وقع ولم يكن معه لوط إذ ذاك»[٢].

قال ابن بطال: «قال المهلب: . . فيه: إجابة الدعوة بإخلاص النية، وكفاية الله -جل ثناؤه وتقدست أسماؤه- لمن أخلصها بما يكون نوعا من الآيات، وزيادة في الإيمان، وتقوية عل التصديق والتسليم والتوكل»[٣].

قال الحافظ: «فيه ابتلاء الصالحين لرفع درجاتهم»[٤].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٠٣-٤٠٤) والبخاري (٤/ ٥١٦-٥١٧/ ٢٢١٧) ومسلم (٤/ ١٨٤٠-١٨٤١/ ٢٣٧١) وأبو داود (٢/ ٦٥٩-٦٦٠/ ٢٢١٢) والترمذي (٥/ ٣٠٠-٣٠١/ ٣١٦٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٥/ ٩٧-٩٨-٩٩/ ٨٣٧٣-٨٣٧٤-٨٣٧٥)، كلهم من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) فتح الباري (٦/ ٤٨٤).

(٣) شرح البخاري (٦/ ٣٤٣).

(٤) فتح الباري (٦/ ٤٨٦).

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾[1] أي: إنه لما فارق قومه أقر اللَّه عينه بوجود ولد صالح نبي وولد له ولد صالح نبي في حياة جده. وكذلك قال الله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ﴾[2] أي: زيادة، كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[3] أي: ويولد لهذا الولد ولد في حياتكما، تقر به أعينكما. وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن، وثبتت به السنة النبوية، قال الله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾[4]، وفي الصحيحين: «**إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم**»[5].

فأما ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، قال: «هما ولدا إبراهيم». فمعناه: أن ولد الولد بمنزلة الولد؛ فإن هذا أمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس.

---

(١) مريم: الآية (٤٩).
(٢) الأنبياء: الآية (٧٢).
(٣) هود: الآية (٧١).
(٤) البقرة: الآية (١٣٣).
(٥) لفظ الحديث الذي في الصحيحين هو: «**قيل: يا رسول الله: من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم. فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فيوسف نبي اللَّه ابن نبي اللَّه ابن خليل الله**» أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤١) والبخاري (٦/ ٤٧٧/ ٣٣٥٣) ومسلم (٤/ ١٨٤٦-١٨٤٧/ ٢٣٧٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٧/ ١١٢٤٩) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأما لفظ الحديث الذي ذكره الحافظ ابن كثير فقد أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٢) والترمذي (٥/ ٢٧٣-٢٧٤/ ٣١١٦) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٩/ ١١٢٥٤) والحاكم (٢/ ٣٤٦-٣٤٧).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، هذه خلعة سنية عظيمة، مع اتخاذ الله إياه خليلا، وجعله للناس إماما، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم ﷺ، إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام في ملئهم مبشرا بالنبي العربي القرشي الهاشمي، خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم، عليهم السلام: ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه، عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، فكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾[1]؛ أي: قام بجميع ما أمر به، وكمل طاعة ربه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾[2]»[3].

قال الرازي: «إن إبراهيم ﷺ لما أتى ببيان التوحيد أولا دفع الله عنه عذاب الدنيا وهو عذاب النار، ولما أتى به مرة بعد مرة مع إصرار القوم على التكذيب وإضرارهم به بالتعذيب، أعطاه الجزاء الآخر، وهو الثواب العاجل وعدده عليه بقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وفي الآية لطيفة: وهي أن الله بدل جميع أحوال إبراهيم في الدنيا بأضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار، وكان وحيدا فريدا، فبدل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته، ولما كان أولا قومه وأقاربه القريبة ضالين مضلين من جملتهم آزر، بدل الله أقاربه بأقارب مهتدين هادين، وهم ذريته

(١) النجم: الآية (٣٧).
(٢) النحل: الآيات (١٢٠-١٢٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٨٤-٢٨٥).

الذين جعل اللَّه فيهم النبوة والكتاب، وكان أولا لا جاه له ولا مال وهما غاية اللذة الدنيوية، آتاه اللَّه أجره من المال والجاه، فكثر ماله حتى كان له من المواشي ما علم اللَّه عدده . .

وأما الجاه فصار بحيث يقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم القيامة، فصار معروفا بشيخ المرسلين بعد أن كان خاملا، حتى قال قائلهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[1] وهذا الكلام لا يقال إلا في مجهول بين الناس، ثم إن اللَّه تعالى قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ يعني ليس له هذا في الدنيا فحسب كما يكون لمن قدم له ثواب حسناته، أو أملى له استدراجا ليكثر من سيئاته بل هذا له عجالة وله في الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وهو كونه من الصالحين، فإن كون العبد صالحا أعلى مراتبه، لما بينا أن الصالح هو الباقي على ما ينبغي، يقال الطعام بعد صالح، أي هو باق على ما ينبغي، ومن بقي على ما ينبغي لا يكون في عذاب، ويكون له كل ما يريد من حسن ثواب»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه أتى إبراهيم أجره أي جزاء عمله في الدنيا، وإنه في الآخرة أيضًا من الصالحين.

وقال بعض أهل العلم: المراد بأجره في الدنيا: الثناء الحسن عليه في دار الدنيا من جميع أهل الملل على اختلافهم إلى كفار ومؤمنين. والثناء الحسن المذكور، هو لسان الصدق في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[4] وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ لا يخفى أن الصلاح في الدنيا يظهر بالأعمال الحسنة، وسائر الطاعات، وأنه في الآخرة يظهر بالجزاء الحسن، وقد أثنى اللَّه في هذه الآية الكريمة على نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقد أثنى على إبراهيم أيضًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾[5] وقوله تعالى:

---

(١) الأنبياء: الآية (٦٠).
(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ٥٧).
(٣) الشعراء: الآية (٨٤).
(٤) مريم: الآية (٥٠).
(٥) البقرة: الآية (١٢٤).

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾[1]»[2].

قلت: هذه المرتبة التي نالها أبو الأنبياء إبراهيم ﷺ؛ كانت بسبب تحقيقه للتوحيد ودعوته إليه. وقد ذكر اللَّه أخباره في القرآن، وبين مواقفه العقدية، وأنه كان أمة قانتًا للَّه حنيفًا وما كان من المشركين. والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كلهم على منهاجه؛ لكنه تميز بما ذكره اللَّه عنه من صلابته في الدعوة إلى التوحيد، وسعة علمه، وطول نفسه، وشمول دعوته، ولم يترك أحدًا تبلغه دعوته إلا دعاه، فدعا والده، ودعا ابن أخيه. وأما قومه فكان له معهم ما ذكر اللَّه من تحطيمه لأصنامهم ومحاجته لهم، فعاندوا وكابروا، وأرادوا إحراقه وإبادته، لكن اللَّه رد كيدهم في نحورهم، ونجاه من مكرهم، وقال الله: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾[3].

فالداعية إلى التوحيد مهما تكالب عليه الأعداء؛ فإن اللَّه حافظه ومنجيه من كيدهم. ودعوة لا توحيد فيها لا خير فيها، وهي كماء البحر لا يروي عطشان، ولا تحرث به أرض. فالداعية إلى اللَّه ينبغي أن يقتدي بأبي الحنفاء، فيكون أساس دعوته تصفية التوحيد من أدران الشرك وتلاعب المشركين المبتدعين. فنرجو اللَّه أن يجعلنا على منهاجه، وأن يكلأنا برعايته، ويحفظنا بعنايته، إنه سميع مجيب.

* * *

---

(١) النحل: الآيات (١٢٠-١٢٢).

(٢) أضواء البيان (٦/ ٤٦٥).

(٣) الأنبياء: الآيتان (٦٩و٧٠).

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

★ غريب الآية:

ناديكم: النادي: المجلس الذي يجتمع فيه القوم للتشاور. ومنه دار الندوة بمكة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن نبيه لوط عليه السلام، إنه أنكر على قومه سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في إتيانهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم. وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذبون رسوله ويخالفونه ويقطعون السبيل؛ أي: يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئًا من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضًا في الملأ قاله مجاهد. ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون؛ قالته عائشة، رضي الله عنها، والقاسم. ومن قائل: كانوا يناطحون بين الكباش، ويناقرون بين الديوك، وكل ذلك كان يصدر عنهم، وكانوا شرا من ذلك.. وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم؛ ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾»[١].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٨٥-٢٨٦).

قال الرازي: «ههنا مسائل:

الأولى: قال إبراهيم لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وقال عن لوط ههنا أنه قال لقومه: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ فنقول لما ذكر اللَّه لوطا عند ذكر إبراهيم، وكان لوط في زمان إبراهيم لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالتوحيد، مع أن الرسول لا بد من أن يقول ذلك. فنقول حكاية لوط وغيرها ههنا ذكرها اللَّه على سبيل الاختصار، فاقتصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة، ولم يذكر عنه الأمر بالتوحيد وإن كان قاله في موضع آخر حيث قال: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[1] لأن ذلك كان قد أتى به إبراهيم وسبقه فصار كالمختص به ولوط يبلغ ذلك عن إبراهيم. وأما المنع من عمل قوم لوط كان مختصا بلوط، فإن إبراهيم لم يظهر ذلك في زمنه ولم يمنعهم منه، فذكر كل واحد بما اختص به وسبق به غيره.

المسألة الثانية: لم سمى ذلك الفعل فاحشة؟ فنقول الفاحشة هو القبيح الظاهر قبحه، ثم إن الشهوة والغضب صفتا قبح لولا مصلحة ما كان يخلقهما اللَّه في الإنسان، فمصلحة الشهوة الفرجية هي بقاء النوع بتوليد الشخص، وهذه المصلحة لا تحصل إلا بوجود الولد وبقائه بعد الأب، فإنه لو وجد ومات قبل الأب كان يفنى النوع بفناء القرن الأول، لكن الزنا قضاء شهوة ولا يفضي إلى بقاء النوع، لأنا بينا أن البناء بالوجود وبقاء الولد بعد الأب، لكن الزنا وإن كان يفضي إلى وجود الولد ولكن لا يفضي إلى بقائه، لأن المياه إذا اشتبهت لا يعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والإنفاق عليه فيضيع ويهلك، فلا يحصل مصلحة البقاء، فإذن الزنا شهوة قبيحة خالية عن المصلحة التي لأجلها خلقت، فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لا تستره المصلحة فهو فاحشة، وإذا كان الزنا فاحشة مع أنه يفضي إلى وجود الولد ولكن لا يفضي إلى بقائه، فاللواطة التي لا تفضي إلى وجوده أولى بأن تكون فاحشة»[2].

قال ابن عاشور: «وفي قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تشديد في الإنكار عليهم في أنهم الذين سنوا هذه الفاحشة السيئة للناس وكانت لا تخطر لأحد ببال، وإن كثيرا من المفاسد تكون الناس في غفلة عن ارتكابها لعدم الاعتياد بها،

---

(١) الأعراف: الآية (٥٩).

(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ٥٨-٥٩).

حتى إذا أقدم أحد على فعلها وشوهد ذلك منه تنبهت الأذهان إليها وتعلقت الشهوات بها.. والأمر في ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ للتعجيز وهو يقتضي أنه أنذرهم العذاب في أثناء دعوته. ولم يتقدم ذكر ذلك في قصة لوط فيما مضى لكن الإنذار من شؤون دعوة الرسل.

وأراد بالنصر عقاب المكذبين ليريهم صدق ما أبلغهم من رسالة اللَّه.

ووصفهم بـ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ لأنهم يفسدون أنفسهم بشناعات أعمالهم ويفسدون الناس بحملهم على الفواحش وتدريبهم بها، وفي هذا الوصف تمهيد للإجابة بالنصر لأن اللَّه لا يحب المفسدين»[1].

قال الرازي: «واعلم أن نبيًّا من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم، كما قال نوح: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ۝٢٧﴾[2] يعني المصلحة إما فيهم حالا أو بسببهم مآلا ولا مصلحة فيهم، فإنهم يضلون في الحال وفي المآل فإنهم يوصون الأولاد من صغرهم بالامتناع من الاتباع، فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون في الحال واشتغلوا بما لا يرجى معه منهم ولد صالح يعبد اللَّه، بطلت المصلحة حالا ومآلا، فعدمهم صار خيرًا، فطلب العذاب»[3].

قال أحمد بن عبد الرحمن البنا: «جعل اللَّه مكان تلك البلاد بحرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأرض المتاخمة بفنائها لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة اللَّه تعالى وعظمته في انتقامه، ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه، وقيل في ذلك عبرة وعظة لمن يتشبهون بقوم لوط في زماننا ويعملون كعملهم وقد ورد في الحديث: «**ومن تشبه بقوم فهو منهم**»[4] وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه كما قال بعضهم: (فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد) فالعاقل اللبيب من خاف مقام ربه ونهى النفس عن

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٤١).

(٢) نوح: الآية (٢٧).

(٣) التفسير الكبير (٢٥/ ٦٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٠) وأبو داود (٤/ ٣١٤/ ٤٠٣١) من حديث عبد اللَّه بن عمر، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٣٣٣).

الهوى وانقاد لما أمره اللَّه به وامتثل ما أرشده إليه رسول اللَّه ﷺ من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال، وإياه أن يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[١] نسأله تعالى الهداية والسداد والسلوك بنا إلى سبيل الرشاد»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير النبي ﷺ للآية

* عن أم هانئ ﵄ عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ قال: «**كانوا يَخْذِفون أهل الأرض ويسخرون منهم**»[٣].

* عن عبد اللَّه بن مغفل ﵁ قال: نهى رسول اللَّه ﷺ عن الخذف. وقال: «**إنه لا يقتل الصيد، ولا ينكأ العدو، وإنه يفقأ العين، ويكسر السن**»[٤].

★ **غريب الحديثين:**

الخذف: بخاء معجمة وآخره فاء؛ أي: يرمي بحصاة أو نواة بين سبابتيه أو بين الإبهام والسبابة، أو على ظاهر الوسطى وباطن الإبهام، وقال ابن فارس: خذفت الحصاة: رميتها بين أصبعيك، وقيل في حصى الخذف: أن يجعل الحصاة بين السبابة من اليمنى والإبهام من اليسرى ثم يقذفها بالسبابة من اليمين، وقال ابن سيده: خذف بالشيء يخذف: فارسي، وخص بعضهم به الحصى، قال: والمخذفة التي يوضع فيها الحجر ويرمى بها الطير، ويطلق على المقلاع أيضًا قاله في الصحاح[٥].

ينكأ: بفتح الياء وبالهمز في آخره، والاسم النكاية بالكسر إذا قتلت وأثخنت.

---

(١) هود: الآية (٨٣). (٢) الفتح الرباني (٢٠/ ٦٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٤١و٤٢٤) والترمذي (٥/ ٣١٩/ ٣١٩٠) وقال: «هذا حديث حسن»، والحاكم (٢/ ٤٠٩) وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» وقال الذهبي: «على شرط البخاري ومسلم».

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٦) والبخاري (١٠/ ٧٣٢/ ٦٢٢٠) ومسلم (٣/ ١٥٤٧/ ١٩٥٤) وأبو داود (٥/ ٤٢٠-٤٢١/ ٥٢٧٠) والنسائي (٨/ ٤١٧/ ٤٨٣٠) وابن ماجه (١/ ٨/ ١٧).

(٥) فتح الباري (٩/ ٧٥٨).

★ **فوائد الحديثين:**

قال القاضي عياض: «نهى النبي ﷺ عنه إذ لم يره من آلات الحرب فيتمرن به التمرن الجائز في رمي السهام، ولا من آلات الصيد فينتفع بذلك، لأنه إنما يرض فقتله موقوذ كما تقدم في السرقة، فلم يكن فيه منفعة، ولم يكن اللهو به مباحا، مع ما يخشى من عقباه من كسر السن وفقء العين»[١].

قال النووي: «في هذا الحديث النهي عن الخذف، لأنه لا مصلحة فيه، ويخاف مفسدته، ويلتحق به كل ما شاركه في هذا»[٢].

* * *

---

(١) الإكمال (٦/ ٣٩٣).

(٢) شرح مسلم (١٣/ ٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ذرعًا: أي: طاقة ووسعًا.

رجزًا: عذابًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما استنصر لوط ﷺ الله عليهم، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم ﷺ، في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى أنه لا همة لهم إلى الطعام نكرهم، وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة -وكانت حاضرة- فتعجبت من ذلك، كما تقدم بيانه في سورة هود والحجر. فلما جاءت إبراهيم بالبشرى، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يدافع لعلهم ينظرون، لعل الله أن يهديهم، ولما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ﴾، ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: من الهالكين؛ لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم. ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان، فلما رآهم كذلك، ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: اهتم بأمرهم، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم،

ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة. ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم. وأرسل اللَّه عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ أي: واضحة، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، كما قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[1]»[2].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ﴾ خبر مستعمل في التذكير بسنة اللَّه مع رسله من الإنجاء من العذاب الذي يحل بأقوامهم. فهو من التعريض للملائكة بتخصيص لوط ممن شملتهم القرية في حكم الإهلاك، ولوط وإن لم يكن من أهل القرية بالأصالة إلا أن كونه بينهم يقتضي الخشية عليه من أن يشمله الإهلاك. ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ﴾ بحرف الظرفية ولم يقل: إن منها.

وجواب الملائكة إبراهيم بأنهم أعلم بمن فيها يريدون أنهم أعلم منه بأحوال من في القرية، فهو جواب عما اقتضاه تعريضه بالتذكير بإنجاء لوط، أي نحن أعلم منك باستحقاق لوط النجاة عند اللَّه، واستحقاق غيره العذاب، فإن الملائكة لا يسبقون اللَّه بالقول وهم بأمره يعملون، وكان جوابهم مطمئنا إبراهيم. فالمراد من علمهم بمن في القرية؛ علمهم باختلاف أحوال أهلها، المرتب عليها استحقاق العذاب، أو الكرامة بالنجاة.

وإنما كان الملائكة أعلم من إبراهيم بذلك؛ لأن علمهم سابق على علمه، ولأنه علم يقين ملقى من وحي اللَّه فيما سخر له أولئك الملائكة، إذ كان إبراهيم لم يوح اللَّه إليه بشيء في ذلك، ولأنه علم تفصيلي لا إجمالي، وعمومي لا خصوصي. فلأجل هذا الأخير أجابوا بـ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ﴾»[3].

* * *

---

(١) الصافات: الآيتان (١٣٧و١٣٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٨٦-٢٨٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٤٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لا تعثوا: لا تفسدوا. يقال: عثي يعثى، وعثا يعثو بمعنى أفسد أشد الإفساد.

الرجفة: الزلزلة والحركة العظيمة. وأصل الرجف: الحركة والاضطراب الشديد. وقيل: المراد بالرجفة هنا الصيحة، لأنها تزلزل قلوبهم.

جاثمين: جمع جاثم، والجثوم: البروك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب ﷺ، أنه أنذر قومه أهل مدين، فأمرهم بعبادة اللّه وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس اللّه ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾.

قال ابن جرير: قال بعضهم: معناه: واخشوا اليوم الآخر، وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[1].

ثم نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم باللّه ورسوله، فأهلكهم اللّه برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها. وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم. وقد تقدمت قصتهم مبسوطة في سورة «الأعراف، وهود، والشعراء».

---

(١) الممتحنة: الآية (٦).

وقوله: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، قال قتادة: ميتين. وقال غيره: قد ألقي بعضهم على بعض»[1].

قال ابن عاشور: «وقد أشير في قصة إبراهيم ولوط إلى ما له تعلق بالغرض المسوق فيه، وهو المصابرة على إبلاغ الرسالة، والصبر على أذى الكافرين، ونصر اللَّه إياهما، وتعذيب الكافرين وإنجاء المؤمنين»[2].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حاصبًا: الحاصب: الريح القوية التي تقتلع الحصباء، وهي الحجارة الصغيرة.

خسفنا: الخسف: سوخ الأرض بما عليها. يقال: خسفه الله وخسف به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: واذكروا أيها القوم عادا وثمود، ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ﴾ خرابها وخلاؤها منهم بوقائعنا بهم، وحلول سطوتنا بجميعهم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يقول: وحسن لهم الشيطان كفرهم بالله، وتكذيبهم رسله ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يقول: فردهم بتزيينه لهم، ما زين لهم من الكفر عن سبيل الله، التي هي الإيمان به ورسله، وما جاءوهم به من عند ربهم ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ يقول: وكانوا مستبصرين في ضلالتهم، معجبين بها، يحسبون أنهم على هدى وصواب، وهم على الضلال»[1].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك معناه

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ١٤٩-١٥٠).

لهم بصيرة في كفرهم، وإعجاب به وإصرار عليه فذمهم بذلك، وقيل لهم بصيرة في أن الرسالة والآيات حق لكنهم كانوا مع ذلك يكفرون عنادا ويردهم الضلال إلى مجاهله ومتالفه، فيجري هذا مجرى قوله تعالى في غيرهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[1]، وتزيين الشيطان هو بالوسواس ومناجاة ضمائر الناس، وتزيين اللّه تعالى الشيء هو بالاختراع وخلق محبته والتلبس به في نفس العبد»[2].

قال ابن عاشور: «والمعنى: أنهم كانوا أهل بصائر أي عقول فلا عذر لهم في صدهم عن السبيل. وفي هذه الجملة اقتضاء أن ضلال عاد كان ضلالا ناشئا عن فساد اعتقادهم وكفرهم المتأصل فيهم والموروث عن آبائهم وأنهم لم ينجوا من عذاب اللّه لأنهم كانوا يستطيعون النظر في دلائل الوحدانية وصدق رسلهم»[3].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، فأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود، وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح، وكانوا يسكنون الحجر قريبا من وادي القرى. وكانت العرب تعرف مساكنهما جيدا، وتمر عليها كثيرا. وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة. وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران باللّه ورسوله.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي: كانت عقوبته بما يناسبه، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، وهم عاد، وذلك أنهم قالوا: من أشد منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب جدا، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عنان السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدنا بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وهم ثمود، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة، من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة، مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي اللّه صالحا ومن آمن معه، وتوعدوهم

---

(١) النمل: الآية (١٤).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٣١٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٤٩).

بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا، وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحا، وفرح ومرح وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف اللَّه به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ﴾، وهم فرعون ووزيره هامان، وجنوده عن آخرهم، أغرقوا في صبيحة واحدة، فلم ينج منهم مخبر، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: فيما فعل بهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم.

وهذا الذي ذكرناه ظاهر سياق الآية، وهو من باب اللف والنشر، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة، ثم قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي: من هؤلاء المذكورين، وإنما نبهت على هذا لأنه قد روي أن ابن جريج قال: قال ابن عباس في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، قال: قوم لوط. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ﴾، قال: قوم نوح»[1].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولم يكن اللَّه ليهلك هؤلاء الأمم الذين أهلكهم بذنوب غيرهم، فيظلمهم بإهلاكه إياهم بغير استحقاق، بل إنما أهلكهم بذنوبهم، وكفرهم بربهم، وجحودهم نعمه عليهم، مع تتابع إحسانه عليهم، وكثرة أياديه عندهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتصرفهم في نعم ربهم، وتقلبهم في آلائه وعبادتهم غيره، ومعصيتهم من أنعم عليهم»[2].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٨٧-٢٨٨).
(٢) جامع البيان (٢٠/ ١٥٢).

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

★ غريب الآية:

أوهن: أضعف. والوهن: الضعف.

العنكبوت: جمعها: عناكب. دويبة من رتبة العنكبيات لها أربعة أزواج من الأرجل، تنسج نسيجا رقيقا مهلهلا تصيد به طعامها، مؤنثة وقد تذكر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه اللَّه تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون اللَّه، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئًا، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون اللَّه أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، لقوتها وثباتها.

ثم قال تعالى متوعدا لمن عبد غيره وأشرك به: إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم.

ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه»[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٨٨-٢٨٩).

قال الرازي: «لما بين اللَّه تعالى أنه أهلك من أشرك عاجلا وعذب من كذب آجلا، ولم ينفعه في الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده، مثل اتخاذه ذلك معبودا باتخاذ العنكبوت بيتا لا يجير آويا ولا يريح ثاويا، وفي الآية لطائف نذكرها في مسائل:

المسألة الأولى: ما الحكمة في اختيار هذا المثل من بين سائر الأمثال؟ فنقول فيه وجوه:

الأول: أن البيت ينبغي أن يكون له أمور: حائط حائل، وسقف مظل، وباب يغلق، وأمور ينتفع بها ويرتفق، وإن لم يكن كذلك فلا بد من أحد أمرين. إما حائط حائل يمنع من البرد وإما سقف مظل يدفع عنه الحر، فإن لم يحصل منهما شيء فهو كالبيداء ليس ببيت، لكن بيت العنكبوت لا يجنها ولا يكنها، وكذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار، فإن لم تجتمع هذه الأمور فلا أقل من دفع ضر أو جر نفع، فإن من لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة إليه سواء، فإذن كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معاني البيت شيء، كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الأوثان أولياء من معاني الأولياء شيء.

الثاني: هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فإن البيت من الحجر يفيد الاستظلال، ويدفع أيضًا الهواء والماء والنار والتراب، والبيت من الخشب يفيد الاستظلال، ويدفع الحر والبرد ولا يدفع الهواء القوي ولا الماء ولا النار، والخباء الذي هو بيت من الشعر أو الخيمة التي هي من ثوب إن كان لا يدفع شيئًا يظل ويدفع حر الشمس، لكن بيت العنكبوت لا يظل، فإن الشمس بشعاعها تنفذ فيه، فكذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الأمر في الغير، فإن لم يكن كذلك فيكون نافذ الأمر في العابد، فإن لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد فيه لكن معبودهم تحت تسخيرهم، إن أرادوا أجلوه وإن أحبوا أذلوه.

الثالث: أدنى مراتب البيت أنه إن لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق، لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت، فإن العنكبوت لو دام في زاوية مدة لا يقصد ولا يخرج منها، فإذا نسج على نفسه واتخذ بيتا يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه، والمسح بالمسوح الخشنة، المؤذية لجسم العنكبوت، فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغي أن يستحق الثواب، فإن لم يستحقه

فلا أقل من أن لا يستحق بسببها العذاب، والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب.

المسألة الثانية: مثل اللَّه اتخاذهم الأوثان أولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتا، ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين أحدهما: أن نسجه فيه فائدة له، لولاه لما حصل، وهو اصطيادها الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم منه، واتخاذهم الأوثان وإن كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا، لكن يفوتهم ما هو أعظم منها، وهو الدار الآخرة التي هي خير وأبقى. فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت. الوجه الثاني: هو أن نسجه مفيد لكن اتخاذها ذلك بيتا أمر باطل، فكذلك هم لو اتخذوا الأوثان دلائل على وجود اللَّه وصفات كماله وبراهين على نعوت إكرامه وأوصاف جلاله لكان حكمة، لكنهم اتخذوها أولياء كجعل العنكبوت النسج بيتا وكلاهما باطل.

المسألة الثالثة: كما أن هذا المثل صحيح في الأول فهو صحيح في الآخر، فإن بيت العنكبوت إذا هبت ريح لا يرى منه عين ولا أثر، بل يصير هباء منثورا، فكذلك أعمالهم للأوثان كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[1]»[2].

قال ابن القيم: «ذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياءهم أضعف منهم، فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتا، وهو من أوهن البيوت وأضعفها، وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون اللَّه أولياء فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفا كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾[4] وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾[5] فهذه أربعة

---

(١) الفرقان: الآية (٢٣).
(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ٦٨-٦٩).
(٣) مريم: الآيتان (٨١و٨٢).
(٤) يس: الآيتان (٧٤و٧٥).
(٥) هود: الآية (١٠١).

مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون اللَّه وليا يتعزز به ويتكبر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده، وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده.

فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؟

فالجواب أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا، فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزا وقدرة، فكان الأمر بخلاف ما ظنوه»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عقل الأمثال عن النبي ﷺ

* عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «عقلت عن رسول اللَّه ﷺ ألف مثل»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر واللَّه أعلم»[3].

وقال رحمه الله أيضًا بعد أن ذكر مجموعة من الأمثال التي وردت في السنة: «قالوا فهذه وأمثالها من الأمثال التي ضربها رسول اللَّه ﷺ لتقريب المراد وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به، فإنه قد

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٥٤-١٥٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٠٣)، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٦٤) وقال: «رواه أحمد وإسناده حسن». قلت: ورجال الإسناد كلهم ثقات خلا ابن لهيعة وهو سيئ الحفظ وقد اختلط إلا أن إسحاق بن عيسى قد روى عنه قبل الاختلاط كما نص على ذلك الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

(٣) بدائع الفوائد (٤/ ٩).

يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير؛ ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد ولا ينكره، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنى ظهورا ووضوحا، فالأمثال شواهد المعنى المراد، ومزكية له، فهي كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، وهي خاصة العقل ولبه وثمرته»[1].

* * *

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٣٩-٢٤٠).

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: هو تعالى المنفرد بخلق السماوات، على علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها، وكل ذلك خلقه بالحق؛ أي: لم يخلقها عبثا ولا سدى، ولا لغير فائدة، وإنما خلقها، ليقوم أمره وشرعه، ولتتم نعمته على عباده، وليروا من حكمته وقهره وتدبيره، ما يدلهم على أنه وحده معبودهم ومحبوبهم وإلههم. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ على كثير من المطالب الإيمانية، إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عيانا»[(١)].

قال الرازي: «لما أمر الخلق بالإيمان وأظهر الحق بالبرهان، ولم يأت الكفار بما أمرهم به، وقص عليهم قصصا فيها عبر، وأنذرهم على كفرهم بإهلاك من غبر، وبين ضعف دليلهم بالتمثيل، ولم يهتدوا بذلك إلى سواء السبيل، وحصل يأس الناس عنهم سلى المؤمنين بقوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

يعني إن لم يؤمنوا هم لا يورث كفرهم شكا في صحة دينكم، ولا يؤثر شكهم في قوة يقينكم، فإن خلق اللّٰه السموات والأرض بالحق للمؤمنين بيان ظاهر، وبرهان باهر، وإن لم يؤمن به على وجه الأرض كافر، وفي الآية مسألة يتبين بها تفسير الآية، وهي أن اللّٰه تعالى كيف خص الآية في خلق السموات والأرض بالمؤمنين مع أن في خلقهما آية لكل عاقل كما قال اللّٰه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[(٢)] وقال اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٩٠).

(٢) لقمان: الآية (٢٥).

وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى أن قال: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1] فنقول خلق السموات والأرض آية لكل عاقل وخلقهما بالحق آية للمؤمنين فحسب، وبيانه من حيث النقل والعقل، أما النقل فقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] أخرج أكثر الناس عن العلم يكون خلقهما بالحق، مع أنه أثبت علم الكل بأنه خلقهما حيث قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وأما العقل فهو أن العاقل أول ما ينظر إلى خلق السموات والأرض ويعلم أن لهما خالقا وهو اللَّه ثم من يهديه اللَّه لا يقطع النظر عنهما عند مجرد ذلك، بل يقول إنه خلقهما متقنا محكما وهو المراد بقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، لأن ما لا يكون على وجه الإحكام يفسد ويبطل فيكون باطلا، وإذا علم أنه خلقهما متقنا يقول إنه قادر كامل حيث خلق، وعالم علمه شامل حيث أتقن، فيقول لا يعزب عن علمه أجزاء الموجودات في الأرض ولا في السماوات، ولا يعجز عن جمعها كما جمع أجزاء الكائنات والمبدعات، فيجوز بعث من في القبور وبعثة الرسول، ويعلم وحدانية اللَّه لأنه لو كان أكثر من واحد لفسدتا ولبطلتا وهما بالحق موجودان فيحصل له الإيمان بتمامه، من خلق ما خلقه على أحسن نظامه»[3].

* * *

(١) البقرة: الآية (١٦٤).

(٢) الدخان: الآية (٣٩).

(٣) التفسير الكبير (٢٥/ ٧١-٧٢).

قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد تقي الدين الهلالي: «أمر اللَّه سبحانه نبيه محمدا بتلاوة القرآن وبيانه للناس كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] وأمره باتباعه في قوله سبحانه: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[2] وأمره بالتمسك به في قوله: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[3] وأمره بالحكم به في قوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾[4] وأمر الناس كلهم باتباع القرآن فقال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[5] واتباع القرآن مع بيان الرسول ﷺ وهو السنة، شرط في سعادة الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه كان شقيا في الدنيا والآخرة إذا بلغه وقامت عليه الحجة، وهناك أمور كثيرة تحول دون اتباعه، منها: الجهل، والغفلة، وعدم الإيمان أو ضعفه، ومنها اتباع الرؤساء المضلين، ومنها التقليد والمذهب، واتخاذ الطرائق المضلة، ورفقاء السوء، والأحزاب الناكبة عن الصراط المستقيم. فالسعيد الموفق هو الذي يرضى بالغربة، ويتمسك بالقرآن والسنة، ويأمر أهله بذلك كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ﴾[6] ولا يبالي بضلال الناس، لو بقي وحده والهدى بيد الله»[7].

---

(١) النحل: الآية (٤٤).
(٢) الأنعام: الآية (١٠٦).
(٣) الزخرف: الآيتان (٤٣و٤٤).
(٤) المائدة: الآية (٤٩).
(٥) الأعراف: الآية (٣).
(٦) طه: الآية (١٣٢).
(٧) سبيل الرشاد (٣/ ٢١٢-٢١٣).

قال السعدي: «يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته اتباعه، بامتثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أن إقامة الدين كلها داخلة في تلاوة الكتاب. فيكون قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لفضل الصلاة وشرفها، وآثارها الجميلة، وهي ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فالفحشاء: كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشتهيها النفوس.

والمنكر: كل معصية تنكرها العقول والفطر.

ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تنعدم رغبته في الشر، فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصد الصلاة وثمراتها»[1].

قال ابن عاشور: «بعد أن ضرب اللَّه للناس المثل بالأمم السالفة جاء بالحجة المبينة فساد معتقد المشركين، ونوه بصحة عقائد المؤمنين، بمنتهى البيان الذي ليس وراءه مطلب، أقبل على رسوله بالخطاب الذي يزيد تثبيته على نشر الدعوة، وملازمة الشرائع، وإعلان كلمة اللَّه بذلك، وما فيه زيادة صلاح المؤمنين الذين انتفعوا بدلائل الوحدانية. وما الرسول -عليه الصلاة والسلام- إلا قدوة للمؤمنين وسيدهم، فأمره أمر لهم كما دل عليه التذييل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ بصيغة جمع المخاطبين كقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[2] فأمره بتلاوة القرآن إذ ما فرط فيه من شيء من الإرشاد.

وحذف متعلق فعل ﴿ٱتْلُ﴾ ليعم التلاوة على المسلمين وعلى المشركين. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٩١). (٢) هود: الآية (١١٢).

(٣) النمل: الآيتان (٩١و٩٢).

وأمره بإقامة الصلاة لأن الصلاة عمل عظيم، وهذا الأمر يشمل الأمة فقد تكرر الأمر بإقامة الصلاة في آيات كثيرة.

وعلل الأمر بإقامة الصلاة بالإشارة إلى ما فيها من الصلاح النفساني فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، فموقع ﴿إِنَّ﴾ هنا موقع فاء التعليل، ولا شك أن هذا التعليل موجه إلى الأمة لأن النبي ﷺ معصوم من الفحشاء والمنكر، فاقتصر على تعليل الأمر بإقامة الصلاة دون تعليل الأمر بتلاوة القرآن، لما في هذا الصلاح الذي جعله اللَّه في الصلاة من سر إلهي لا يهتدي إليه الناس إلا بإرشاد منه تعالى؛ فأخبر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والمقصود أنها تنهى المصلي.. ثم الناس في الانتهاء متفاوتون، وهذا المعنى من النهي عن الفحشاء والمنكر؛ هو من حكمة جعل الصلوات موزعة على أوقات من النهار والليل، ليتجدد التذكير وتتعاقب المواعظ، وبمقدار تكرر ذلك تزداد خواطر التقوى في النفوس، وتتباعد النفس من العصيان حتى تصير التقوى ملكة لها. ووراء ذلك خاصية إلهية جعلها اللَّه في الصلاة يكون بها تيسير الانتهاء عن الفحشاء والمنكر»[1].

هذا وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ على أقوال ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «قيل: المعنى أنكم في الصلاة تذكرون اللَّه وهو ذاكر من ذكره، ولذكر اللَّه تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه. وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبي الدرداء وابن مسعود - رضي الله عنهم.

وذكر ابن أبي الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: هو قول اللَّه تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[2] فذكر اللَّه تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه.

وقال ابن زيد وقتادة: معناه: ولذكر اللَّه أكبر من كل شيء. وقيل لسلمان: أيّ الأعمال أفضل؟ فقال: «**أما تقرأ القرآن؟!** ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾». ويشهد لهذا حديث أبي الدرداء المتقدم: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير**

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٥٧-٢٦٠).

(٢) البقرة: الآية (١٥٢).

لكم من إنفاق الذهب والورِق»[١] الحديث .

وكان شيخ الإسلام أبو العباس -قدس اللَّه روحه- يقول: الصحيح أن معنى الآية أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر: فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر اللَّه تعالى، ولما فيها من ذكر اللَّه أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس أنه سئل: أيّ العمل أفضل؟ قال: ذكر اللَّه أكبر. وفي السنن عن عائشة ﵂ عن النبي ﷺ قال: «**إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر اللَّه تعالى**» رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح[٢]»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الصلاة

* عن أبي هريرة ﵁ قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن فلانًا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق فقال: **إنه سينهاه ما تقول**»[٤].

★ فوائد الحديث:

قال الإمام الطحاوي: «تأملنا هذا الحديث فوجدنا اللَّه قد قال في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ أي: أنها تنهى عن أضدادها، إذ كان أهلها يأتونها على الأحوال التي أمروا أن يأتوا بها عليها، من الطهارة لها، ومن ستر العورة عندها، ومن الخشوع لها، وتوفيتها ما يجب أن توفاه، وكان اللَّه ﷻ قد وعد أهلها بما في الآية التي تلونا، فكانت السرقة ضدا لها وهي تنهى عن أضدادها ويرد اللَّه ﷻ أهلها إليها، وينفي عنهم أضدادها حتى يوفيهم ثوابها،

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٩٥) والترمذي (٥/ ٤٢٨-٤٢٩/ ٣٣٧٧) وابن ماجه (٢/ ١٢٤٥/ ٣٧٩٠) والحاكم (١/ ٤٩٦) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٦٤) وأبو داود (٢/ ٤٤٧/ ١٨٨٨) والترمذي (٣/ ٢٤٦/ ٩٠٢) وقال: «حديث حسن صحيح» وابن خزيمة (٤/ ٢٧٩/ ٢٨٨٢).

(٣) الوابل الصيب (ص١٦٠ - ١٦١).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٤٧) وابن حبان (الإحسان ٦/ ٣٠٠/ ٢٥٦٠) وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٨٩) وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

وحتى ينزلهم المنزلة التي ينزلها أهلها .

وفي ذلك ما يدل على أنه ﷻ بمنه ولطفه وسعة رحمته يبرئ ذلك السارق مما كان سرق، ويرده إلى أهله حتى يلقاه يوم يلقاه ولا تبعة قبله تمنعه من دخول جنته بمنه وقدرته . والله نسأله التوفيق وأن يجعلنا وإياكم من أهل المنزلة التي أنزلها أهل الصلاة المقبولة . وصلى الله على محمد النبي وعلى آله وسلم تسليما كثيرا»[1] .

قال الشيخ الألباني: «فأنت ترى أن النبي ﷺ أخبر أن هذا الرجل سينتهي عن السرقة بسبب صلاته إذا كانت على الوجه الأكمل طبعا ؛ كالخشوع فيها ، والتدبر في قراءتها . . ولذلك قال عبد الحق الإشبيلي في «التهجد» (ق٢٤/ ١) : يريد ﷺ أن المصلي على الحقيقة ، المحافظ على صلاته ، الملازم لها ؛ تنهاه صلاته عن ارتكاب المحارم ، والوقوع في المحارم»[2] .

* * *

(١) شرح مشكل الآثار (٥/ ٣٠٠-٣٠١/ ٢٠٥٦).

(٢) الضعيفة (١/ ٥٨).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال المراغي: «بعد أن بين سبحانه طريق إرشاد المشركين وجدالهم بالخشن من القول، والمبالغة في تسفيه آرائهم وتوهين شبههم بنحو قوله: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾[1] وقوله: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾[2] إلى أشباه ذلك. أردف هذا ذكر طريق إرشاد أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بأن يسلك معهم طريق الحجاج بالحسنى، ولا يسفه آراءهم، ولا ينسب إلى الضلال آباءهم.

ذاك أن المشركين جاءوا بالمنكر من القول ونسبوا إلى اللَّه ما لاينبغي من الشريك والولد، أما أهل الكتاب فقد اعترفوا باللَّه وأنبيائه، لكنهم أنكروا نبوة محمد ﷺ وقالوا إن شريعتهم باقية على وجه الدهر لا تنسخ بشريعة أخرى، فينبغي إقناع مثل هؤلاء بالحسن من القول، ولفت أنظارهم إلى الأدلة الباهرة الدالة على نبوته وصدق رسالته بما يكون لهم فيه مقنع، وبما لو تأملوا فيه وصلوا إلى الصواب، وأدركوا الأمر على الوجه الحق، إلا من ظلموا منهم وعاندوا ولم يقبلوا النصح والإرشاد، فاستعملوا معهم الغلظة في القول، والأسلوب الجاف في الحديث، لعلهم يثوبون إلى رشدهم، ويتأملون فيما يقنعهم من الحجج والبراهين.

ثم أمر رسوله أن يقول لهم: آمنا بالذي أنزل إلينا من القرآن، وأنزل إليكم من التوراة والإنجيل، وإن إلهنا وإلهكم واحد، ونحن مطيعون له.

---

(١) البقرة: الآية (١٨).

(٢) الأعراف: الآية (١٧٩).

ثم ذكر أن من أهل الكتاب من يؤمن بالقرآن، كما أن من أهل مكة من يؤمن به، وما يجحد به إلا من توغل في الكفر، وعدم حسن التأمل والفكر، إذ لا ريب في صدق رسوله، وأن كتابه منزل من عند ربه، فإن رجلا أميا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يتعلم العلم، ولم يدارس إنسانا مدى حياته، يأتي بهذه الحكم والأحكام، وجميل الآداب، ومكارم الأخلاق، مما لم يكن له مثيل في محيط نشأ به، ولا في بلد كان يأويه -لمن أكبر الأدلة على أنه ليس من عند بشر، بل أوتيه من لدن حكيم خبير»[١].

قال القاسمي: «لما بين تعالى طريقة إرشاد المشركين، ونفع من انتفع، وحصول اليأس ممن امتنع، بين طريقة إرشاد أهل الكتاب بقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي بالخصلة التي هي أحسن. وهي اللين والأناة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أي بالاعتداء، بأن أفحشوا في المقال وأقذعوا في الجدال، فلا حرج في مقابلتهم بالعنف، لتنكبهم عن جادة اللطف. وهذا كما قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾[٢] وهذه الآية أصل في آداب المناظرة والجدل ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي مطيعون له خاصة. وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله»[٣].

قال ابن كثير: «قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف.

وقال آخرون: بل هي باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝١٢٥﴾[٤]، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾[٥]. وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد.

---

(١) تفسير المراغي (٢١/ ٤).
(٢) النساء: الآية (١٤٨).
(٣) محاسن التأويل (١٣/ ١٥٣-١٥٤).
(٤) النحل: الآية (١٢٥).
(٥) طه: الآية (٤٤).

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم، قال اللّه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾[١].

قال جابر: أمرنا من خالف كتاب اللّه أن نضربه بالسيف.

قال مجاهد: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ يعني: أهل الحرب، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية.

وقوله: ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾؛ يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقا، ولا على تصديقه، فلعله أن يكون باطلًا ولكن نؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط وهو أن يكون منزلا لا مبدلا ولا مؤولا.. ثم ليعلم أن أكثر ما يحدثون به غالبه كذب وبهتان؛ لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل، وما أقل الصدق فيه، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحا»[٢].

قال ابن جرير: «عنى بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾: إلا الذين امتنعوا من أداء الجزية، ونصبوا دونها الحرب.

فإن قال قائل: أو غير ظالم من أهل الكتاب إلا من لم يؤد الجزية؟ قيل: إن جميعهم، وإن كانوا لأنفسهم بكفرهم باللّه، وتكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ، ظلمة، فإنه لم يعن بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾. ظلم أنفسهم. وإنما عنى به: إلا الذين ظلموا منهم أهل الإيمان باللّه ورسوله محمد ﷺ، فإن أولئك جادلوهم بالقتال.

وإنما قلنا: ذلك أولى الأقوال فيه بالصواب؛ لأن اللّه -تعالى ذكره- أذن للمؤمنين بجدال ظلمة أهل الكتاب، بغير الذي هو أحسن بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ فمعلوم إذ كان قد أذن لهم في جدالهم، أن الذين لم يؤذن لهم في جدالهم

---

(١) الحديد: الآية (٢٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٩٢-٢٩٣).

إلا بالتي هي أحسن، غير الذين أذن لهم بذلك فيهم، وأنهم غير المؤمن؛ لأن المؤمن منهم غير جائز جداله إلا في غير الحق، لأنه إذا جاء بغير الحق، فقد صار في معنى الظلمة في الذي خالف فيه الحق، فإذ كان ذلك كذلك، تبين أن لا معنى لقول من قال: عنى بقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أهل الإيمان منهم، وكذلك لا معنى لقول من قال: نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال، وزعم أنها منسوخة؛ لأنه لا خبر بذلك يقطع العذر، ولا دلالة على صحته من فطرة وعقل.

وقد بينا في غير موضع من كتابنا، أنه لا يجوز أن يحكم على حكم اللَّه في كتابه بأنه منسوخ إلا بحجة يجب التسليم لها، من خبر أو عقل.

وقوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره- للمؤمنين به وبرسوله، الذين نهاهم أن يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن: إذا حدثكم أهل الكتاب أيها القوم عن كتبهم، وأخبروكم عنها بما يمكن ويجوز أن يكونوا فيه صادقين، وأن يكونوا فيه كاذبين، ولم تعلموا أمرهم وحالهم في ذلك، فقولوا لهم ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ مما في التوراة والإنجيل، ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ يقول: ومعبودنا ومعبودكم واحد ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ يقول: ونحن له خاضعون متذللون بالطاعة فيما أمرنا ونهانا»[1].

قال ابن عاشور: «جعل الخيار للنبيء ﷺ في مجادلة المشركين بين أن يجادلهم بالحسنى كما اقتضته آية سورة النحل، وبين أن يجادلهم بالشدة كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[2]، فإن الإغلاظ شامل لجميع المعاملات، ومنها المجادلات، ولا يختص بخصوص الجهاد، فإن الجهاد كله إغلاظ، فلا يكون عطف الإغلاظ على الجهاد إلا إغلاظا غير الجهاد.

ووجه الوصاية بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب، أن أهل الكتاب مؤمنون باللَّه غير مشركين به، فهم متأهلون لقبول الحجة، غير مظنون بهم المكابرة، ولأن آداب دينهم وكتابهم أكسبتهم معرفة طريق المجادلة فينبغي الاقتصار في مجادلتهم على

---

(١) جامع البيان (٢١/ ٢-٣).

(٢) التوبة: الآية (٧٣).

بيان الحجة دون إغلاظ، حذرا من تنفيرهم، بخلاف المشركين فقد ظهر من تصلبهم وصلفهم وجلافتهم ما أيأس من إقناعهم بالحجة النظرية، وعين أن يعاملوا بالغلظة وأن يبالغ في تهجين دينهم، وتفظيع طريقتهم؛ لأن ذلك أقرب نجوعا لهم وهكذا ينبغي أن يكون الحال في ابتداء مجادلة أهل الكتاب، وبقدر ما يسمح به رجاء الاهتداء من طريق اللين، فإن هم قابلوا الحسنى بضدها انتقل الحكم إلى الاستثناء الذي في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾. و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ هم الذين كابروا وأظهروا العداء للنبيء ﷺ وللمسلمين وأبوا أن يتلقوا الدعوة فهؤلاء ظلموا النبي ﷺ والمسلمين حسدا وبغضا على أن جاء الإسلام بنسخ شريعتهم، وجعلوا يكيدون للنبيء ﷺ ونشأ منهم المنافقون وكل هذا ظلم واعتداء»[1].

وقال أيضًا: «وعطف ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ إلى آخر الآية تعليم لمقدمة المجادلة بالتي هي أحسن. وهذا مما يسمى تحرير محل النزاع، وتقريب شقة الخلاف. وذلك تأصيل طرق الإلزام في المناظرة، وهو أن يقال قد اتفقنا على كذا وكذا، فلنحتج على ما عدا ذلك، فإن ما أمروا بقوله هنا مما اتفق عليه الفريقان فينبغي أن يكون هو السبيل إلى الوفاق وليس هو بداخل في حيز المجادلة؛ لأن المجادلة تقع في موضع الاختلاف، ولأن ما أمروا بقوله هنا هو إخبار عما يعتقده المسلمون، وإنما تكون المجادلة فيما يعتقده أهل الكتاب مما يخالف عقائد المسلمين مثل قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾[2]»[3].

قال ابن العربي: «ليست منسوخة، وإنما هي مخصوصة؛ لأن النبي عليه السلام بعث باللسان يقاتل به في الله، ثم أمره الله بالسيف واللسان، حتى قامت الحجة على الخلق لله، وتبين العناد، وبلغت القدرة غايتها عشرة أعوام متصلة، فمن قدر عليه قتل، ومن امتنع بقي الجدال في حقه؛ ولكن بما يحسن من الأدلة، ويجمل من

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٦-٧).

(٢) آل عمران: الآيات (٦٥-٦٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٧).

الكلام، بأن يكون منك للخصم تمكين، وفي خطابك له لين، وأن تستعمل من الأدلة أظهرها، وأنورها، وإذا لم يفهم المجادل أعاد عليه الحجة وكررها، كما فعل الخليل مع الكافر حين قال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾[1].

فقال له الكافر: أنا أحيي وأميت، فحسن الجدال، ونقل إلى أبين منه بالاستدلال.

وقال: إن اللَّه يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب.

وهو انتقال من حق إلى حق أظهر منه، ومن دليل إلى دليل أبين منه وأنور»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل

* عن أبي هريرة قال: «**بينا نحن في المسجد خرج رسول اللَّه ﷺ فقال**: انطلقوا إلى يهود، فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس، فقام النبي ﷺ فناداهم فقال: **يا معشر يهود، أسلموا تسلموا**. فقالوا: بلغت يا أبا القاسم. قال: فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: **ذلك أريد، أسلموا تسلموا**. فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم. فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: **ذلك أريد**. ثم قالها الثالثة فقال: **اعلموا أنما الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئًا فليبعه، وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله**»[3].

⋆ غريب الحديث:

بيت المِدراس: بكسر الميم وآخره مهملة: مِفعال، من الدرس، والمراد به كبير اليهود، ونسب البيت إليه لأنه هو الذي كان صاحب دراسة كتبهم؛ أي: قراءتها[4].

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٨).

(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٤٨٧-١٤٨٨).

(٣) أخرجه: البخاري (١٣/ ٣١٤/ ٧٣٤٨) ومسلم (٣/ ١٣٨٧/ ١٧٦٥) وأبو داود (٣/ ٤٠٣-٤٠٤/ ٣٠٠٣) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢١٠/ ٨٦٨٧).

(٤) فتح الباري (١٢/ ٣٩٣).

★ **فوائد الحديث:**

هذا الحديث بوّب عليه البخاري في كتاب «الاعتصام»: «باب ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾».

قال العيني: «مطابقته للترجمة من حيث إنه ﷺ بلغ اليهود ودعاهم إلى الإسلام «**فقالوا: بلغت**»، ولم يذعنوا لطاعته فبالغ في تبليغهم وكرره، وهذه مجادلة بالتي هي أحسن»[١].

وقال ابن بطال: «أما حديث أبي هريرة فموضع الترجمة منه أن اليهود لما بلغهم النبي ﷺ ما لزمهم العمل به والإيمان بموجبه قالوا له: «**قد بلغت يا أبا القاسم**»، رادّين لأمره في عرضه عليهم الإيمان، فبالغ في تبليغهم، وقال: «**ذلك أريد**». ومن روى «**ذلك أريد**» بمعنى: أريد بذلك بيانًا بتكرير التبليغ، وهذه مجادلة من النبي ﷺ لأهل الكتاب بالتي هي أحسن»[٢].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا باللَّه وما أنزل.. الآية**»[٣].

* عن ابن أبي نملة الأنصاري، عن أبيه أنه بينما هو جالس عند رسول اللَّه ﷺ وعنده رجل من اليهود مر بجنازة، فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ فقال النبي ﷺ: اللَّه أعلم. فقال اليهودي: إنها تتكلم، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا باللَّه ورسله، فإن كان باطلًا لم تصدقوه، وإن كان حقًّا لم تكذبوه**»[٤].

★ **فوائد الحديثين:**

قال العيني: «قوله: «**لا تصدقوا..**» إلى آخره؛ يعني: إذا كان ما يخبرونكم به

---

(١) عمدة القاري (١٦/ ٥٥٣) بتصرف يسير. (٢) شرح البخاري (١٠/ ٣٧٧-٣٧٨).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٢١٥-٢١٦/ ٤٤٨٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٦/ ١١٣٨٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٣٦) وأبو داود (٤/ ٥٩/ ٣٦٤٤)، وابن حبان (الإحسان ١٤/ ١٥١-١٥٢/ ٦٢٥٧)، كلهم من طرق عن ابن شهاب، أن نملة بن أبي نملة الأنصاري حدثه أن أبا نملة أخبره أنه بينما هو جالس عند رسول اللَّه ﷺ جاء رجل من اليهود.. فذكره. وللقسم الأول من الحديث شاهد من حديث أبي هريرة في الصحيح، وقد سبق والحمد لله.

محتملًا لئلا يكون في نفس الأمر صدقًا فتكذبوه، أو كذبًا فتصدقوه فتقعوا في الحرج، ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه. وقال الخطابي: هذا الحديث أصل في وجوب التوقف عما يشكل من الأمور، فلا يقضي عليه بصحة أو بطلان ولا بتحليل أو تحريم، وقد أمرنا أن نؤمن بالكتب المنزلة على الأنبياء ﷺ، إلا أنه لا سبيل لنا إلى أن نعلم صحيح ما يحكونه عن تلك الكتب من سقيمه، فنتوقف فلا نصدقهم لئلا نكون شركاء معهم فيما حرفوه منه، ولا نكذبهم فلعله يكون صحيحًا فنكون منكرين لما أمرنا أن نؤمن به، وعلى هذا كان يتوقف السلف عن بعض ما أشكل عليهم وتعليقهم القول فيه كما سئل عثمان رضي الله عنه، عن الجمع بين الأختين في ملك اليمين، فقال: أحلتهما آية وحرمتهما آية، وكما سئل ابن عمر عن رجل نذر أن يصوم كل اثنين، فوافق ذلك اليوم يوم عيد، فقال: أمر الله بالوفاء بالنذر ونهى النبي ﷺ عن صوم يوم العيد، فهذا مذهب من يسلك طريق الورع وإن كان غيرهم قد اجتهدوا واعتبروا الأصول فرجحوا أحد المذهبين على الآخر، وكل على ما ينويه من الخير ويؤمه من الصلاح مشكور»[1].

قال ابن أبي جمرة: «هل النهي عام في كل ما يدعونه في كتبهم وغيرها من الشهادات أو هل هو خاص بما يدعونه في كتبهم لا غير؟ محتمل الوجهين معا، لكن تمام الحديث يقتضي أن المراد به ما يدعونه في كتبهم، لأنه ﷺ قال بعد النهي: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ يعني به التوراة والإنجيل، كأنه قد صح بأخبار القرآن إن الكتابين التوراة والإنجيل أنزلا عليهم وأنهم قد غيروا فيهما وبدلوا فإذا قرؤوا فيها شيئًا وادعوا أنه من التوراة أو الإنجيل احتمل أن يكون ذلك حقا؛ لأنهم لم يبدلوا الكتاب كله وإنما بدلوا بعضه، واحتمل أن يكون ذلك مما بدلوه وغيروه، فلما أن احتمل الوجهين معا منع ﷺ التصديق لهم حذرا من أن ينسب لله تعالى ما لم يقله، ومنع التكذيب حذرا من أن يكذب بكلام الله تعالى إذا كان ما قالوه حقًّا وبه يستدل مالك رحمه الله على القول بسد الذريعة وقد منع الفقهاء تصديقهم مرة واحدة كان ذلك في كتبهم أو غيرها، مع أن الحديث قد لا يخلو من

(١) عمدة القاري (١٢/ ٤٢٩-٤٣٠).

الإشارة إلى ذلك، ووجه المنع من تصديقهم في كل ما يأتون به أنه لما أن أخلوا بالأصل وهو دينهم وكتابهم الذي أنزل عليهم فكذبوا فيه وخالفوا الحق فكيف يصدقون في غيره. فإن حملنا الحديث على العموم من غير تقييد على ما ذهب إليه بعض الفقهاء فلا بحث، وإن حملناه على الخصوص لقوله ﷺ: «**وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم**» كان البحث ما ذكرناه، فحصل من كلا الوجهين العموم، لعدم صدقهم على الإطلاق. وهذا هو الحكم وعليه عمل السلف. وقد جاء اليوم بعض الناس فاتخذوهم أصدقاء، وكلفوهم الأشغال وائتمنوهم عليها، فإنا لله وإنا إليه راجعون في الأخذ بضد هذا الأمر الجلي»[١].

قلت: ما ذكره الإمام ابن أبي جمرة وحذر منه من استخدام الكفار في بعض المهام؛ كان هذا الأمر في زمانه، وأما في زماننا فقد دخل الكفار إلى بلاد المسلمين بقوة السلاح والعدة والعدد، واستولوا على بلاد المسلمين شرقًا وغربًا، وأخذوا من خيرات البلاد الإسلامية ما تقووا به على الاستيلاء عليهم في كل وقت، فملئوا خزائنهم بخيرات المسلمين، وادخروا ما استطاعوا أن يدخروه، وأسسوا المدارس، وبنوا الجامعات التي تخدم أهدافهم، فتربت الأجيال على مناهجهم، وكادت تنقرض الهوية الإسلامية، فلولا أن الله حفظ دينه بقيام بعض الدعاة والمصلحين الذين يذبون عن الإسلام والتوحيد، وينادون بالرجعة إلى الإسلام، ويبينون أخطار العدو الغاشم؛ لفسدت الأرض، كما قال تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾[٢]، ففساده في الأرض لا نهاية له؛ حيث استمرأ الناس الموبقات، وأصبح تغيير المنكر من الأمر العسير، ومن نادى بالإصلاح ألصقت به كل التهم، والكلام على هذا الوباء طويل؛ فإنه عم وطم، وأصبح كما قال الرسول ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ**»[٣]، والله المستعان.

وقد تقدم شرح الحديث عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾.. الآية (٧٩) من سورة (البقرة).

---

(١) بهجة النفوس (٣/ ٧٦). (٢) البقرة: الآية (٢٠٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٨٩)، ومسلم (١/ ١٣٠/ ١٤٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٩-١٣٢٠/ ٣٩٨٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله ﷺ أحدث، تقرؤونه محضًا لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، لا والله ما رأينا منهم رجلًا يسألكم عن الذي أنزل عليكم»(١).

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد أضلوا أنفسهم، فتكذبون بحق أو تصدقون بباطل، وإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا في قلبه تالية تدعوه إلى الله وكتابه»(٢).

★ فوائد الحديثين:

قال ابن بطال: «قال المهلب: إنما هو في الشرائع لا تسألوهم عن شرعهم فيما لا نعرفه من شرعنا لنعمل به؛ لأن شرعنا مكتفٍ بنفسه وما لا نص فيه عندنا ففي النظر والاستدلال ما يقوم الشرع منه.

وأما سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا، وما جاء به نبينا ﷺ من الأخبار عن الأمم السالفة فلم ننه عنه.

فإن قيل: فقد أمر الله رسوله بسؤال أهل الكتاب فقال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾(٣).

قيل: ليس هذا بمفسد لما تقدم من النهي عن سؤالهم؛ لأنه ﷺ لم يكن شاكًا ولا مرتابًا، وقال أهل التأويل: الخطاب للنبي ﷺ والمراد به: غيره من الشكاك كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾(٤) وتقديره: إن كنت أيها السامع في شك مما أنزلنا على نبينا. كقولهم: إن كنت ابني فبرني. وهو يعلم أنه ابنه.

فإن قيل: فإذا كان المراد بالخطاب غير النبي ﷺ فكيف يجوز سؤال الذين

---

(١) أخرجه: البخاري (١٣/ ٤١١-٤١٢/ ٧٣٦٣).

(٢) أخرجه: ابن أبي شيبة (٥/ ٣١٣/ ٢٦٤٢٤) وعبدالرزاق (١٠/ ٣١٢-٣١٣/ ١٩٢١٢) وابن جرير (٢١/ ٣) وذكره ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤١٢) وقال: «سنده حسن».

(٣) يونس: الآية (٩٤).

(٤) الطلاق: الآية (١).

يقرؤون الكتاب مع جحدهم النبوة؟

ففيه قولان: أحدهما: «سل من آمن من أهل الكتاب كابن سلام، وكعب الأحبار». عن ابن عباس والضحاك، ومجاهد وابن زيد.

الثاني: سلهم عن صفة النبي ﷺ المبشر به في كتبهم، ثم انظر ما يوافق تلك الصفة»[1].

وقد تقدم شرح الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.. الآية (٧٩) من سورة البقرة.

* عن حميد بن عبد الرحمن أنه: «**سمع معاوية يحدث رهطًا من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا -مع ذلك- لنبلو عليه الكذب**»[2].

★ فوائد الحديث:

قوله: «**لنبلو عليه الكذب**»: قال الحافظ: «أي: يقع بعض ما يخبرنا عنه بخلاف ما يخبرنا به، قال ابن التين: وهذا نحو قول ابن عباس في حق كعب المذكور: بدل من قبله فوقع في الكذب، قال: والمراد بالمحدثين: أنداد كعب ممن كان من أهل الكتاب وأسلم فكان يحدث عنهم، وكذا من نظر في كتبهم فحدث عما فيها، قال: ولعلهم كانوا مثل كعب إلا أن كعبًا كان أشد منهم بصيرة وأعرف بما يتوقاه، وقال ابن حبان في «كتاب الثقات»: أراد معاوية أنه يخطئ أحيانًا فيما يخبر به ولم يرد أنه كان كذابًا، وقال غيره: الضمير في قوله: «**لنبلو عليه**» للكتاب لا لكعب، وإنما يقع في كتابهم الكذب لكونهم بدلوه وحرفوه، وقال عياض: يصح عوده على الكتاب ويصح عوده على كعب وعلى حديثه، وإن لم يقصد الكذب ويتعمده إذ لا يشترط في مسمى الكذب التعمد بل هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه، وليس فيه تجريح لكعب بالكذب، وقال ابن الجوزي: المعنى أن بعض الذي يخبر به كعب عن أهل الكتاب يكون كذبًا لا أنه يتعمد الكذب وإلا فقد كان كعب من

---

(١) شرح البخاري (١٠/ ٣٩١-٣٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٣/ ٤١١/ ٧٣٦١).

أخيار الأحبار»[1].

وقال ابن كثير: «معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد؛ لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة؛ لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة، ومع ذلك وقرب العهد، وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة لا يعلمها إلا اللَّه، ومن منحه اللَّه علمًا بذلك، كلٌّ بحسبه، ولله الحمد والمنة»[2].

* * *

(١) فتح الباري (١٣/ ٤١٣).
(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٠١).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال ابن جرير: يقول اللّه تعالى: كما أنزلنا الكتب على من قبلك -يا محمد- من الرسل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب.

وهذا الذي قاله حسن ومناسبة وارتباط جيد.

وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء، كعبد اللّه بن سلام، وسلمان الفارسي، وأشباههما.

وقوله: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾، يعني العرب من قريش وغيرهم، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل، وهيهات.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾؛ أي: قد لبثت في قومك -يا محمد- ومن قبل أن تأتي بهذا القرآن عمرا لا تقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب. وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الآية[1]. وهكذا كان صلوات اللّه وسلامه عليه إلى يوم

(١) الأعراف: الآية (١٥٧).

القيامة، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم. ومن زعم من متأخري الفقهاء، كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه ﷺ، كتب يوم الحديبية: «**هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله**» فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري: «**ثم أخذ فكتب**»: وهذه محمولة على الرواية الأخرى: «**ثم أمر فكتب**». ولهذا اشتد النكير بين فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجي، وتبرؤوا منه، وأنشدوا في ذلك أقوالا وخطبوا به في محافلهم. وإنما أراد الرجل أعني الباجي، فيما يظهر عنه أنه كتب ذلك على وجه المعجزة، لا أنه كان يحسن الكتابة، كما قال -عليه الصلاة والسلام- إخبارا عن الدجال: «**مكتوب بين عينيه كافر**» وفي رواية: «**ك ف ر، يقرؤها كل مؤمن**»[1]، وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة، فضعيف لا أصل له؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟﴾ أي: تقرأ ﴿مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ لتأكيد النفي، ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ تأكيد أيضًا، وخرج مخرج الغالب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[2].

وقوله: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول: إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾[3]، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾[4]، وقال هاهنا: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق، أمرا ونهيا وخبرا، يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظا وتلاوة وتفسيرا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾[5]. . واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابا ولا تخطه بيمينك، آيات بينات في

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٣و٢٧٦) والبخاري (١٣/ ٤٨٠/ ٧٤٠٨) ومسلم (٤/ ٢٢٤٨/ ٢٩٣٣) وأبو داود (٤/ ٤٩٤/ ٤٣١٦) والترمذي (٤/ ٤٤٧/ ٢٢٤٥) وقال: «حسن صحيح».

(٢) الأنعام: الآية (٣٨). (٣) الفرقان: الآية (٥).

(٤) الفرقان: الآية (٦). (٥) القمر: الآية (١٧).

صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب. ونقله عن قتادة، وابن جريج. وحكى الأول عن الحسن فقط.

قلت: وهو الذي رواه العوفي عن عبد اللَّه بن عباس، وقاله الضحاك، وهو الأظهر، واللَّه أعلم.

وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون؛ أي: المعتدون المكابرون، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾[(١)]»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضائل القرآن وأنه أعظم الآيات التي أوتيها النبي ﷺ

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه اللَّه إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»[(٣)].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «قوله: «**وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه اللَّه إلي**» أي: أن معجزتي التي تحديت بها الوحي الذي أنزل علي وهو القرآن لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح. وليس المراد حصر معجزاته فيه، ولا أنه لم يؤت من المعجزات ما أوتي من تقدَّمه، بل المراد أنه المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره؛ لأن كل نبي أُعطي معجزة خاصة به، لم يعطها بعينها غيره تحدى بها قومه. وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه، كما كان السحر فاشيًا عند فرعون فجاءه موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة، لكنها تلقفت ما صنعوا، ولم يقع ذلك بعينه لغيره، وكذلك إحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، لكون الأطباء

---

(١) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧). (٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٩٤-٢٩٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤١-٤٥١) والبخاري (٩/ ٣/ ٤٩٨١) ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٠/ ١١١٢٩).

والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور، فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه، ولهذا لما كان العرب الذين بعث فيهم النبي ﷺ في الغاية من البلاغة جاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة مثله، فلم يقدروا على ذلك. وقيل: المراد أن القرآن ليس له مثل لا صورة ولا حقيقة بخلاف غيره من المعجزات فإنها لا تخلو عن مثل. وقيل: المراد أن كل نبي أعطى من المعجزات ما كان مثله لمن كان قبله صورة أو حقيقة، والقرآن لم يؤت أحد قبله مثله فلهذا أردفه بقوله: «**فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا**» وقيل: المراد أن الذي أوتيته لا يتطرق إليه تخييل، وإنما هو كلام معجز لا يقدر أحد أن يأتي بما يتخيل منه التشبيه به، بخلاف غيره فإنه قد يقع في معجزاتهم ما يقدر الساحر أن يخيل شبهه فيحتاج من يميز بينهما إلى نظر، والنظر عرضة للخطأ، فقد يخطئ الناظر فيظن تساويهما. وقيل: المراد أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه. وهذا أقوى المحتملات، وتكميله في الذي بعده. وقيل: المعنى أن المعجزات الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر، لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرا. قلت: ويمكن نظم هذه الأقوال كلها في كلام واحد؛ فإن محصلها لا ينافي بعضه بعضًا.

قوله: «**فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**» رتّب هذا الكلام على ما تقدم من معجزة القرآن المستمرة؛ لكثرة فائدته، وعموم نفعه؛ لاشتماله على الدعوة والحجة والإخبار بما سيكون، فعمّ نفعه من حضر ومن غاب ومن وجد ومن سيوجد، فحَسُن ترتيب الرَّجْوى المذكورة على ذلك. وهذه الرجوى قد تحققت، فإنه أكثر الأنبياء تبعًا. . وقد جمع بعضهم إعجاز القرآن في أربعة أشياء:

أحدها: حسن تأليفه، والتئام كلمه مع الإيجاز والبلاغة.

ثانيها: صورة سياقه وأسلوبه المخالف لأساليب كلام أهل البلاغة من العرب نظمًا ونثرًا، حتى حارت فيه عقولهم، ولم يهتدوا إلى الإتيان بشيء مثله، مع توفر

دواعيهم على تحصيل ذلك، وتقريعه لهم على العجز عنه.

ثالثها: ما اشتمل عليه من الإخبار عما مضى من أحوال الأمم السالفة والشرائع الداثرة، مما كان لا يعلم منه بعضه إلا النادر من أهل الكتاب.

رابعها: الإخبار بما سيأتي من الكوائن التي وقع بعضها في العصر النبوي، وبعضها بعده.

ومن غير هذه الأربعة آيات وردت بتعجيز قوم في قضايا أنهم لا يفعلونها، فعجزوا عنها مع توفر دواعيهم على تكذيبه، كتمني اليهود الموت، ومنها الروعة التي تحصل لسامعه، ومنها أن قارئه لا يمل من ترداده، وسامعه لا يمجه، ولا يزداد بكثرة التكرار إلا طراوة ولذاذة، ومنها أنه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، ومنها جمعُهُ لعلوم ومعارف لا تنقضي عجائبها ولا تنتهي فوائدها»[1].

* عن عياض بن حمار أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**يقول اللَّه تعالى: إني مبتليك، ومبتلٍ بك، ومنزل عليك كتابًا لا يغسله الماء تقرؤه نائمًا ويقظانَ**»[2].

* عن عقبة بن عامر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لو كان القرآن في إهاب ما أحرقته النار**»[3].

★ فوائد الحديثين:

قال ابن كثير: «أي: لو غسل الماءُ المحلَّ المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل؛ لأنه قد جاء في الحديث الآخر -إشارة إلى حديث عقبة-: «**لو كان القرآن في إهاب ما أحرقته النار**»، ولأنه محفوظ في الصدور مُيَسَّر على الألسنة، مهيمن

---

(١) الفتح (٩/ ٨-٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٦٢) ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦-٢٧/ ٨٠٧٠-٨٠٧١).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٥١-١٥٥) والطبراني (١٧/ ٣٠٨/ ٨٥٠) وأبو يعلى (٣/ ٢٨٤/ ١٧٤٥) والدارمي (٢/ ٤٣٠). قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٥٨): «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وفيه ابن لهيعة وفيه خلاف.. اهـ».

وله شاهد من حديث عصمة بن مالك عند الطبراني (١٧/ ١٨٦/ ٤٩٨). قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٥٨): «رواه الطبراني وفيه الفضل بن المختار وهو ضعيف». وبه حسنه الشيخ الألباني في 'صحيح الجامع' (ح: ٥٢٨٢).

على القلوب، معجز لفظًا ومعنىً. ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة: أناجيلهم في صدورهم»[١].

وهذا -يقول القاسمي-: «من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز، وكونه محفوظًا في الصدور يتلوه أكثر الأمة ظاهرًا، بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن معجزات، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف»[٢].

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤١٧).
(٢) محاسن التأويل (١٣/ ١٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَاتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات -يعنون- ترشدهم إلى أن محمدا رسول اللَّه كما جاء صالح بناقته، قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَاتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: إنما أمر ذلك إلى اللَّه، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَاتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ﴾[١].

وقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنما بعثت نذيرا لكم بين النذارة فعلي أن أبلغكم رسالة اللَّه و﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾[٣].

ثم قال تعالى مبينا كثرة جهلهم، وسخافة عقلهم، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ

(١) الإسراء: الآية (٥٩).

(٢) الكهف: الآية (١٧).

(٣) البقرة: الآية (٢٧٢).

عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم، الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحدا من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى.. ثم قال تعالى: قل: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه، بأنه أرسلني، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم مني، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1]، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات، والدلائل القاطعات.

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: لا تخفى عليه خافية. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلوا، ويقابلهم على ما صنعوا، من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسل اللَّه مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، سيجازيهم على ذلك، إنه حكيم عليم»[2].

قال السعدي: «أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عينوها، كما قال اللَّه عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾[3] الآيات. فتعيين الآيات ليس عندهم، ولا عند الرسول ﷺ، فإن في ذلك تدابير مع اللَّه، وأنه لو كان كذا، وينبغي أن يكون كذا، وليس لأحد من الأمر شيء.

ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إن شاء أنزلها أو منعها ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة.

وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل، فإذا حصل المقصود -بأي طريق- كان

---

(١) الحاقة: الآيات (٤٤-٤٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٩٦-٢٩٧).

(٣) الإسراء: الآية (٩٠).

اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظلما وجورا، وتكبرا على اللَّه وعلى الحق.

بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات، ويكون في قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحق إلا بها، كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فآمنوا، لا لأنه حق، بل لتلك الآيات. فأي فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الفرضي؟

ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعالى طريقه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البينات، والدلالات الباهرات، شيء كثير، فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرده وهو أمي، من أكبر الآيات على صدقه.

ثم عجزهم عن معارضته، وتحديه إياهم آية أخرى، ثم ظهوره، وبروزه جهرا علانية، يتلى عليهم، ويقال: هو من عند اللَّه، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قل فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يخفه، ولم يثن ذلك عزمه، بل خرج به على رءوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي، فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟

ثم إخباره عن قصص الأولين، وأنباء السابقين والغيوب المتقدمة والمتأخرة، مع مطابقته للواقع.

ثم هيمنته على الكتب المتقدمة، وتصحيحه للصحيح، ونفي ما أدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل، في أمره ونهيه، فما أمر بشيء فقال العقل "ليته لم يأمر به» ولا نهى عن شيء فقال العقل: «ليته لم ينه عنه» بل هو مطابق للعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول ثم مسايرة إرشاداته وهدايته وأحكامه لكل حال وكل زمان بحيث لا تصلح الأمور إلا به.

فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق، فلا كفى اللَّه من لم يكفه القرآن، ولا شفى اللَّه من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى، فإنه رحمة له وخير، فلذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك لما يحصل فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ فأنا قد استشهدته، فإن كنت كاذبا، أحل

بي ما به تعتبرون، وإن كان إنما يؤيدني وينصرني وييسر لي الأمور، فلتكفكم هذه الشهادة الجليلة من اللَّه، فإن وقع في قلوبكم أن شهادته -وأنتم لم تسمعوه ولم تروه- لا تكفي دليلا فإنه ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن جملة معلوماته حالي وحالكم، ومقالي لكم. فلو كنت متقولا عليه، مع علمه بذلك، وقدرته على عقوبتي، لكان قدحا في علمه وقدرته وحكمته كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾[1].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث هم خسروا الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة»[2].

قال ابن عاشور: «أشار قوله: ﴿يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ وما بعده إلى خمس مزايا للقرآن على غيره من المعجزات.

المزية الأولى: ما أشار إليه قوله: ﴿يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ من انتشار إعجازه وعمومه في المجامع والآفاق والأزمان المختلفة؛ بحيث لا يختص بإدراك إعجازه فريق خاص في زمن خاص، شأن المعجزات المشهودة؛ مثل عصا موسى وناقة صالح وبرء الأكمه، فهو يتلى، ومن ضمن تلاوته الآيات التي تحدت الناس بمعارضته وسجلت عليهم عجزهم عن المعارضة من قبل محاولتهم إياها، فكان كما قال فهو معجزة باقية والمعجزات الأخرى معجزات زائلة.

المزية الثانية: كونه مما يتلى، فإن ذلك أرفع من كون المعجزات الأخرى أحوالا مرئية؛ لأن إدراك المتلو إدراك عقلي فكري وهو أعلى من المدركات الحسية فكانت معجزة القرآن أليق بما يستقبل من عصور العلم التي تهيأت إليها الإنسانية.

المزية الثالثة: ما أشار إليه قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً﴾ فإنها واردة مورد التعليل للتعجيب من عدم اكتفائهم بالكتاب. وفي التعليل تتميم لما اقتضاه التعبير

---

(١) الحاقة: الآيات (٤٤-٤٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٩٧-١٠٠).

بالكتاب وبـ ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، فالإشارة بـ (ذلك) إلى (الكتاب) ليستحضر بصفاته كلها وللتنويه به بما تقتضيه الإشارة من التعظيم. وتنكير (رحمةً) للتعظيم، أي لا يقادر قدرها. فالكتاب المتلو مشتمل على ما هو رحمة لهم اشتمال الظرف على المظروف؛ لأنه يشتمل على إقامة الشريعة وهي رحمة وصلاح للناس في دنياهم، فالقرآن مع كونه معجزة دالة على صدق الرسول ﷺ ومرشدة إلى تصديقه مثل غيره من المعجزات، وهو أيضًا وسيلة علم وتشريع وآداب للمتلو عليهم، وبذلك فضل غيره من المعجزات التي لا تفيد إلا تصديق الرسول الآتي بها.

المزية الرابعة: ما أشار إليه قوله: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ فإن القرآن مشتمل على مواعظ ونذر وتعريف بعواقب الأعمال، وإعداد إلى الحياة الثانية، ونحو ذلك مما هو تذكير بما في تذكره خير الدارين، وبذلك فضل غيره من المعجزات الصامتة التي لا تفيد أزيد من كون الآتية على يديه صادقا.

المزية الخامسة: أن كون القرآن كتابا متلوا مستطاعا إدراك خصائصه لكل عربي، ولكل من حذق العربية من غير العرب مثل أيمة العربية، يبعده عن مشابهة نفثات السحرة والطلاسم، فلا يستطيع طاعن أن يزعم أنه تخيلات كما قال قوم فرعون لموسى: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾[1] وقال تعالى حكاية عن المشركين حين رأوا معجزة انشقاق القمر: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝﴾[2]، فأشار قوله: ﴿يُعْرِضُواْ﴾ إلى أن ذلك القول صدر عنهم في معجزة مرئية.

وعلق بالرحمة والذكرى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ للإشارة إلى أن تلك منافع من القرآن زائدة على ما في المعجزات الأخرى من المنفعة التي هي منفعة الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ.

فهذه مزايا عظيمة لمعجزة القرآن حاصلة في حضرة الرسول ﷺ وغيبته ومستقلة عن الحاجة إلى بيانه وتكميله بالدعوة وبتكريرها.

واستحضار المؤمنين بعنوان: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دون أن يقال: للمؤمنين، لما في لفظ قوم من الإيماء إلى أن الإيمان من مقومات قوميتهم، أي لقوم شعارهم أن

(١) الزخرف: الآية (٤٩).

(٢) القمر: الآية (٢).

يؤمنوا، يعني لقوم شعارهم النظر والإنصاف فإذا قامت لهم دلائل الإيمان آمنوا ولم يكابروا ظلما وعلوا، فالفعل مراد به الحال القريبة من الاستقبال. وفيه تعريض بالذين لم يكتفوا بمعجزته واقترحوا آيات أخرى لا نسبة بينه وبينها»[1].

قال ابن القيم: «القرآن العظيم قد اجتمع فيه مالم يجتمع في غيره فإنه هو الدعوة والحجة، وهو الدليل والمدلول عليه، وهو الشاهد والمشهود له، وهو الحكم والدليل، وهو الدعوة والبينة. قال اللَّه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[2] أي من ربه وهو القرآن وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٥٢﴾ فأخبر سبحانه أن الكتاب الذي أنزله على رسوله يكفي عن كل آية. ففيه الحجة والدلالة على أنه من اللَّه، وأن اللَّه سبحانه أرسل به رسوله. وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة، وينجيه من العذاب، ثم قال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ «فإذا كان اللَّه سبحانه عالما بجميع الأشياء؛ كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلها، فإنها شهادة بعلم تام، محيط بالمشهود به. فيكون الشاهد به أعدل الشهداء وأصدقهم. وهو سبحانه يذكر علمه عند شهادته، وقدرته وملكه عند مجازاته، وحكمته عند خلقه وأمره، ورحمته عند ذكر إرسال رسوله، وحلمه عند ذكر ذنوب عباده ومعاصيهم، وسمعه عند ذكر دعائهم، ومسألته وعزته وعلمه عند قضائه وقدره»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن القرآن والسنة أنزلهما اللَّه تعالى للحكم بهما والاهتداء بهما

* عن أبي هريرة ﷺ أنه كان يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «لم يأذن اللَّه لشيء ما

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٥-١٦).
(٢) هود: الآية (١٧).
(٣) مدارج السالكين (٣/ ٤٦٩).

أذن لنبي أن يتغنى بالقرآن». وقال صاحب له: يريد يجهر به[1].

★ **فوائد الحديث:**

هذا الحديث ذكره الإمام البخاري في «كتاب فضائل القرآن» باب (من لم يتغن بالقرآن وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

قال الحافظ: «قوله: وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أشار بهذه الآية إلى ترجيح تفسير ابن عيينة: يتغنى يستغني، كما سيأتي في هذا الباب عنه، وأخرجه أبو داود عن ابن عيينة ووكيع جميعًا، وقد بين إسحاق بن راهويه عن ابن عيينة أنه استغناء خاص، وكذا قال أحمد عن وكيع: يستغني به عن أخبار الأمم الماضية، وقد أخرج الطبري وغيره من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال: جاء ناس من المسلمين بكتب وقد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبي ﷺ: «**كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم**»، فنزل: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾. وقد خفي وجه مناسبة تلاوة هذه الآية هنا على كثير من الناس كابن كثير فنفى أن يكون لذكرها وجه، على أن ابن بطال مع تقدمه قد أشار إلى المناسبة فقال: قال أهل التأويل في هذه الآية: فذكر أثر يحيى بن جعدة مختصرًا قال: فالمراد بالآية الاستغناء عن أخبار الأمم الماضية، وليس المراد الاستغناء الذي هو ضد الفقر، قال: وإتباع البخاري الترجمة بالآية يدل على أنه يذهب إلى ذلك، وقال ابن التين: يفهم من الترجمة أن المراد بالتغني الاستغناء، لكونه أتبعه الآية التي تتضمن الإنكار على من لم يستغن بالقرآن عن غيره، فحمله على الاكتفاء به، وعدم الافتقار إلى غيره وحمله على ضد الفقر من جملة ذلك. . وقال ابن الجوزي: اختلفوا في معنى قوله يتغنى على أربعة أقوال: أحدها تحسين الصوت، والثاني الاستغناء، والثالث التحزن قاله الشافعي، والرابع التشاغل به. تقول العرب تغنى بالمكان أقام به. . وفي الجملة ما فسر به ابن عيينة ليس بمدفوع، وإن كانت ظواهر الأخبار ترجح أن المراد تحسين الصوت، ويؤيده قوله: «**يجهر به**» فإنها إن كانت مرفوعة

---

(١) أخرجه: البخاري (٩/ ٦٨/ ٥٠٢٣و٥٠٢٤) ومسلم (١/ ٥٤٥/ ٧٩٢) والنسائي (٢/ ٥٢٢/ ١٠١٦-١٠١٧) وأخرجه في الكبرى (٥/ ٢٢/ ٨٠٥٢-٨٠٥٣).

قامت الحجة، وإن كانت غير مرفوعة فالراوي أعرف بمعنى الخبر من غيره ولا سيما إذا كان فقيها. وقد جزم الحليمي بأنها من قول أبي هريرة.. والحاصل أنه يمكن الجمع بين أكثر التأويلات المذكورة وهو أنه يحسن به صوته جاهرا به مترنما على طريق التحزن، مستغنيا به عن غيره من الأخبار، طالبا به غنى النفس، راجيا به غنى اليد، وقد نظمت ذلك في بيتين:

تغن بالقرآن حسن به الصو ... ت حزينا جاهرا رنم

واستغن عن كتب الألى طالبا ... غنى يد والنفس ثم الزم»[1].

* عن جابر بن عبد الله: «أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه النبي ﷺ فغضب، فقال: **أمتهوّكون فيها يا بن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني**»[2].

★ **غريب الحديث:**

أمتهوّكون: التهوُّك كالتهوُّر، وهو الوقوع في الأمر بغير رَوِيّة. المُتهوِّك: الذي يقع في كل أمر. وقيل: هو التحيُّر.

★ **فوائد الحديث:**

نقل الحافظ ابن حجر عن الشيخ بدر الدين الزركشي في مسألة الأخذ عن أهل الكتاب وعن كتبهم قوله: «ولا خلاف أنهم حرفوا وبدلوا، والاشتغال بنظرها وكتابتها لا يجوز بالإجماع، وقد غضب ﷺ حين رأى مع عمر صحيفة فيها شيء من التوراة، وقال: لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي ولولا أنه معصية ما غضب فيه. قلت -أي الحافظ ابن حجر-: إن ثبت الإجماع فلا كلام فيه وقد قيده

---

(١) فتح الباري (٩/ ٨٤-٨٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٨٧) وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٢-٣١٣/ ٢٦٤٢١) والدارمي (١/ ١١٥-١١٦) وابن أبي عاصم (٥٠). وفي سنده مجالد، قال فيه ابن حجر في التقريب: «ليس بالقوي» وقد تغير في آخر عمره. وللحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن، انظرها في الإرواء (ح ١٥٨٩).

بالاشتغال بكتابتها ونظرها، فإن أراد من يتشاغل بذلك دون غيره فلا يحصل المطلوب؛ لأنه يفهم أنه لو تشاغل بذلك مع تشاغله بغيره جاز وإن أراد مطلق التشاغل فهو محل النظر. . وفي استدلاله على عدم الجواز الذي ادعى الإجماع فيه بقصة عمر نظر أيضًا. . والذي يظهر أن كراهية ذلك للتنزيه لا للتحريم، والأولى في هذه المسألة التفرقة بين من لم يتمكن ويصر من الراسخين في الإيمان فلا يجوز له النظر في شيء من ذلك، بخلاف الراسخ فيجوز له؛ ولا سيما عند الاحتياج إلى الرد على المخالف، ويدل على ذلك نقل الأئمة قديما وحديثا من التوراة، وإلزامهم اليهود بالتصديق بمحمد ﷺ بما يستخرجونه من كتابهم، ولولا اعتقادهم جواز النظر فيه، لما فعلوه وتواردوا عليه، وأما استدلاله للتحريم بما ورد من الغضب ودعواه أنه لو لم يكن معصية ما غضب منه؛ فهو معترض بأنه قد يغضب من فعل المكروه، ومن فعل ما هو خلاف الأولى إذا صدر ممن لا يليق منه ذلك، كغضبه من تطويل معاذ صلاة الصبح بالقراءة، وقد يغضب ممن يقع منه تقصير في فهم الأمر الواضح، مثل الذي سأل عن لقطة الإبل»[(١)].

قال ابن القيم: «توفي رسول اللَّه ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علما وعلمهم كل شيء حتى آداب التخلي، وآداب الجماع والنوم والقيام والقعود، والأكل والشرب، والركوب والنزول، والسفر والإقامة، والصمت والكلام، والعزلة والخلطة، والغنى والفقر، والصحة والمرض، وجميع أحكام الحياة والموت، ووصف لهم العرش والكرسي، والملائكة والجن، والنار والجنة، ويوم القيامة وما فيه حتى كأنه رأي عين، وعرفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف، حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله، وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم وما جرى عليهم معهم، حتى كأنهم كانوا بينهم، وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرفه نبي لأمته قبله، وعرفهم ﷺ من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن، ما لم يعرف به نبي غيره، وكذلك عرفهم ﷺ أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع فرق أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة من

---

(١) الفتح (١٣/ ٦٤٢-٦٤٣).

بعده، اللهم إلا إلى من يبلغه إياه ويبينه ويوضح منه ما خفي عليه، وكذلك عرفهم ﷺ من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق النصر والظفر ما لو علموه وعقلوه ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبدًا، وكذلك عرفهم ﷺ من مكايد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها، وما يتحرزون به من كيده ومكره، وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه، وكذلك عرفهم ﷺ من أحوال نفوسهم وأوصافها ودسائسها وكمائنها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه، وكذلك عرفهم ﷺ من أمور معايشهم ما لو علموه وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته، ولم يحوجهم اللَّه إلى أحد سواه فكيف يظن أن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها، أوإلى قياس أوحقيقة أومعقول خارج عنها؟ ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على من ظن ذلك، وقلة نصيبه من الفهم الذي وفق اللَّه له أصحاب نبيه الذين اكتفوا بما جاء به، واستغنوا به عما ما سواه، وفتحوا به القلوب والبلاد، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا، وهو عهدنا إليكم وقد كان عمر رضي الله عنه يمنع من الحديث عن رسول اللَّه ﷺ خشية أن يشتغل الناس به عن القرآن، فكيف لو رأى اشتغال الناس بآرائهم وزبد أفكارهم وزبالة أذهانهم عن القرآن والحديث؟! فاللَّه المستعان.

وقد قال اللَّه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[2] وكيف يشفي ما في الصدور كتاب لا يفي هو وما تبينه السنة بعشر معشار الشريعة؟ أم كيف يشفي ما في الصدور كتاب يستفاد منه اليقين في مسألة واحدة من مسائل معرفة اللَّه وأسمائه وصفاته وأفعاله؟ أوعامتها ظواهر لفظية دلالتها موقوفة على انتفاء عشرة أمور لا يعلم انتفاؤها، سبحانك هذا بهتان عظيم!

وياللَّه العجب كيف كان الصحابة والتابعون قبل وضع هذه القوانين التي أتى اللَّه بنيانها من القواعد، وقبل استخراج هذه الآراء والمقاييس والأوضاع؟ أهل كانوا مهتدين مكتفين بالنصوص أم كانوا على خلاف ذلك حتى جاء المتأخرون فكانوا

(١) النحل: الآية (٨٩). (٢) يونس: الآية (٥٧).

أعلم منهم وأهدى وأضبط للشريعة منهم وأعلم باللَّه وأسمائه وصفاته وما يجب له وما يمتنع عليه منهم؟ فواللَّه لأن يلقى اللَّه عبده بكل ذنب ما خلا الإشراك، خير من أن يلقاه بهذا الظن الفاسد والاعتقاد الباطل»[١].

* * *

(١) إعلام الموقعين (٤/ ٣٧٥-٣٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بغتة: فجأة. يقال: بَغَتَهُ الأمرُ يَبْغَتُهُ بَغْتًا، وباغَتَهُ مُباغَتَةً؛ أي: فَاجَأَهُ مُفَاجَأَةً. قال الشاعر:

وكيف يفرّ المرء عنه بذنبه ... إذا كان تُطوى في يديه المراحلُ
ولكنهم ماتوا ولم أَدْرِ بَغْتَةً ... وأَفْظَعُ شَيْءٍ حينَ يَفْجَؤُكَ البَغْتُ

يغشاهم: يجللهم ويغطيهم. من التغشية: وهي الستر والتغطية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم، وبأس الله أن يحل عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[1]، وقال هاهنا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريبا سريعا كما استعجلوه.

ثم قال: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: يستعجلون بالعذاب، وهو واقع بهم لا محالة..

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[2]، وقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ

(١) الأنفال: الآية (٣٢).
(٢) الأعراف: الآية (٤١).

ظُلَلٌۚ﴾[١]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾[٢]، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذاب الحسي.

وقوله: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، تهديد وتقريع وتوبيخ، وهذا عذاب معنوي على النفوس، كقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[٣]، وقال ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[٤]»[٥].

قال ابن عاشور: «عطف على جملة: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[٦] استقصاء في الرد على شبهاتهم وإبطالا لتعلات إعراضهم الناشىء عن المكابرة، وهم يخيلون أنهم إنما أعرضوا لعدم اقتناعهم بآية صدق الرسول ﷺ.

ومناسبة وقوعه هذا أنه لما ذكر كفرهم بالله وكان النبي -عليه الصلاة والسلام- ينذرهم على ذلك بالعذاب، وكانوا يستعجلونه به، ذكر توركهم عليه عقب ذكر الكفر. واستعجال العذاب: طلب تعجيله وهو العذاب الذي توعدوا به. وقصدهم من ذلك الاستخفاف بالوعيد. . والمعنى: لولا الأجل المعين لحلول العذاب بهم لجاءهم العذاب عاجلا؛ لأن كفرهم يستحق تعجيل عقابهم، ولكن أراد الله تأخيره لحكم علمها، منها إمهالهم ليؤمن منهم من آمن بعد الوعيد، وليعلموا أن الله لا يستفزه استعجالهم العذاب؛ لأنه حكيم لا يخالف ما قدره بحكمته، حليم يمهل عباده. فالمعنى: لولا أجل مسمى لجاءهم العذاب في وقت طلبهم تعجيله، ثم أنذرهم بأنه آتيهم بغتة وأن إتيانه محقق لما دل عليه لام القسم ونون التوكيد وذلك عند حلول الأجل المقدر له. وقد حل بهم عذاب يوم بدر بغتة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ﴾[٧] فاستأصل صناديدهم يومئذ وسقط في أيديهم.

وإذ قد كان الله أعد لهم عذابا أعظم من عذاب يوم بدر وهو عذاب جهنم الذي

---

(١) الزمر: الآية (١٦).
(٢) الأنبياء: الآية (٣٩).
(٣) القمر: الآيتان (٤٨و٤٩).
(٤) الطور: الآيات (١٣-١٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٩٧-٢٩٨).
(٦) العنكبوت: الآية (٥٠).
(٧) الأنفال: الآية (٤٢).

يعم جميعهم أعقب إنذارهم بعذاب يوم بدر بإنذارهم بالعذاب الأعظم. وأعيد لأجله ذكر استعجالهم بالعذاب معترضا بين المتعاطفين إيماء إلى أن ذلك جواب استعجالهم، فإنهم استعجلوا العذاب فأنذروا بعذابين، أحدهما أعجل من الآخر. وفي إعادة: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ تهديد وإنذار بأخذهم، فجملة: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ معطوفة على جملة: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ فهما عذابان كما هو مقتضى ظاهر العطف. والإحاطة كناية عن عدم إفلاتهم منها»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢١/١٨-١٩).

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾

★ غريب الآية:

غرفًا: جمع غرفة: وهي الدرجة الرفيعة في الجنة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «نادى اللَّه -جل وعلا- عباده المؤمنين، وأكد لهم أن أرضه واسعة، وأمرهم أن يعبدوه وحده دون غيره، كما دل عليه تقديم المعمول الذي هو إياي، كما بيناه في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[1].

والمعنى: أنهم إن كانوا في أرض لا يقدرون فيها على إقامة دينهم، أو يصيبهم فيها أذى الكفار، فإن أرض ربهم واسعة فليهاجروا إلى موضع منها يقدرون فيه على إقامة دينهم، ويسلمون فيه من أذى الكفار، كما فعل رسول اللَّه ﷺ والمسلمون.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[3]»[4].

---

(١) الفاتحة: الآية (٥).
(٢) النساء: الآية (٩٧).
(٣) الزمر: الآية (١٠).
(٤) أضواء البيان (٦/ ٤٦٩).

قال ابن كثير: «هذا أمر من اللَّه لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين، إلى أرض اللَّه الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا اللَّه ويعبدوه كما أمرهم؛ ولهذا قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦﴾.. ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة، ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا هناك خير المنزلين، أصحمة النجاشي ملك الحبشة، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، آواهم وأيدهم بنصره، وجعلهم سيوما ببلاده. ثم بعد ذلك هاجر رسول اللَّه ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة ثم قال: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧﴾ أي: أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة اللَّه وحيث أمركم اللَّه، فهو خير لكم، فإن الموت لا بد منه، ولا محيد عنه، ثم إلى اللَّه المرجع، فمن كان مطيعا له جازاه أفضل الجزاء، ووافاه أتم الثواب؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار، على اختلاف أصنافها، من ماء وخمر، وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ أي: ماكثين فيها أبدا لا يبغون عنها حولا ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾: نعمت هذه الغرف أجرا على أعمال المؤمنين.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي: على دينهم، وهاجروا إلى اللَّه، ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء، ابتغاء وجه اللَّه، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده.. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، في أحوالهم كلها، في دينهم ودنياهم.

ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار؛ ولهذا قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ أي: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تؤخر شيئًا لغد، ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ أي: اللَّه يقيض لها رزقها على ضعفها، وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه، حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء والحيتان في الماء، قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾[1].. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

---

(١) هود: الآية (٦).

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم»[١].

قال القاسمي: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ هذا خطاب لمن لم تمكنه عبادته تعالى وحده في أرضه، لإيذائه في اللَّه واضطهاده في جانبه، أن يهاجر عنها إلى بلد ما، يقدر أنه فيه أسلم قلبا، وأصح دينا، وآمن نفسا. وأن يتجنب المقام في بلده على تلك الحالة، كيلا يفتنه الكافرون. أو يعرض نفسه للتهلكة، وقد جعل له منها مخرج. وكون أرض اللَّه واسعة، مذكور للدلالة على المقدر، وهو كالتوطئة لما بعده. لأنها مع سعتها وإمكان التفسح فيها، لا ينبغي الإقامة بأرض لا يتيسر بها للمرء ما يريده كما قيل: وكل مكان ينبت العز طيب.

وقال آخر:

إذا كان أصلي من تراب فكلها بلادي وكل العالمين أقاربي

.. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ تحريض على العبادة وإخلاص الدين بتذكير الموت والرجعى. أو تسلية للمهاجر إلى اللَّه، وتشجيع له بأن لا يثبطه عن هجرته خوف الموت بسببها، فلا المقام بأرضه يدفعه، ولا هجرته عنه تمنعه. وفيه استعارة بديعة لتشبيه الموت بأمر كريه الطعم مره، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين. وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ثم أشار تعالى إلى كفالته لمن هاجر إليه، من الفقر والضيعة، بقوله سبحانه ﴿وَكَأَيِّن﴾ أي: وكم ﴿مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي يقيض لها رزقها على ضعفها، ويرزقكم مع قوتكم واجتهادكم. فهو الميسر والمسهل لكل مخلوق من رزقه ما يصلحه. فلا يختص رزقه ببقعة دون أخرى، بل خيره عام وفضله شامل لخلقه، حيث كانوا وأنى وجدوا. وقد ظهر مصداق كفالته تعالى لأولئك المهاجرين، بما وسع عليهم وبسط لهم من طيب الرزق ورغد العيش وسيادة البلاد في سائر الأمصار»[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٩٩-٣٠١).

(٢) محاسن التأويل (١٣/ ١٥٩-١٦١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جزاء الأعمال الصالحات

* عن أبي مالك الأشعري أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن في الجنة غرفًا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، أعدها اللَّه لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام وتابع الصيام وأقام الصلاة والناس نيام**»[1].

تقدم الكلام على هذا الحديث في سورة الفرقان، الآية (٧٦).

* * *

(١) أخرجه: عبد الرزاق (١١/ ٤١٨-٤١٩/ ٢٠٨٨٣). ومن طريقه أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٣) والطبراني (٣/ ٣٤٢/ ٣٤٦٦)، قال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٩٢): «رواه أحمد ورجاله ثقات»، وقال في (١٠/ ٤١٩-٤٢٠): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عبد اللَّه بن معانق ووثقه ابن حبان». اهـ. وقال في (٢/ ٢٥٤): «رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات»، وابن حبان (الإحسان ٢/ ٢٦٢/ ٥٠٩) وصححه، والبيهقي (٤/ ٣٠٠-٣٠١)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٤٠-٤١/ ٩٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾

★ **غريب الآية:**

يؤفكون: يصرفون عن وجه الصواب إلى الخطإ. ومنه المؤتفكات: وهي الرياح المصروفات عن مهابها. ورجل مأفوك: أي مصروف العقل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مقررا أنه لا إله إلا هو؛ لأن المشركين -الذين يعبدون معه غيره- معترفون أنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كلا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلم يعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيرا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك»»[1].

قال السعدي: «هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، فأنت لو سألتهم من خلق السماوات

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٠١).

والأرض، ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وحده، ولاعترفوا بعجز الأوثان ومن عبدوه مع اللَّه عن شيء من ذلك.

فاعجب لإفكهم وكذبهم، وعدولهم إلى من أقروا بعجزه، وأنه لا يستحق أن يدبر شيئًا، وسجل عليهم عدم العقل، وأنهم السفهاء، ضعفاء الأحلام، فهل تجد أضعف عقلا وأقل بصيرة، ممن أتى إلى حجر، أو قبر ونحوه، وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص، وصافي العبودية، وأشركه مع الرب، الخالق الرازق، النافع الضار. وقل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون، ليحذره الموفقون.

وقل: الحمد لله، الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، وبسط الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغي لهم»[1].

قال ابن عاشور: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لما اتضحت الحجة على المشركين بأن اللَّه منفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، ولزم من ذلك أن ليس لأصنامهم شرك في هذه الأفعال التي هي أصول نظام ما على الأرض من الموجودات. فكان ذلك موجبا لإبطال شركهم بما لا يستطيعون إنكاره ولا تأويله، بعد أن قرعت أسماعهم دلائله، وهم واجمون لا يبدون تكذيبا، فلزم من ذلك صدق الرسول -عليه الصلاة والسلام- فيما دعاهم إليه. وكذبهم فيما تطاولوا به عليه في أمر اللَّه ورسوله بأن يحمده على أن نصره بالحجة نصرا يؤذن بأنه سينصره بالقوة.

وتلك نعمة عظيمة تستحق أن يحمد اللَّه عليها إذ هو الذي لقنها رسوله ﷺ بكتابه وما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان.

فهذا الحمد المأمور به متعلقه محذوف تقديره: الحمد لله على ذلك. وهو الحجج المتقدمة، وليس خاصا بحجة إنزال الماء من السماء، وكذلك شأن القيود الواردة بعد جمل متعددة أن ترجع إلى جميعها، وكذلك ترجع معها متعلقاتها -

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٠٤-١٠٥).

بكسر اللام- وقرينة المقام كنار على علم، ألا ترى أن كل حجة من تلك الحجج تستأهل أن يحمد اللَّه على إقامتها، فلا تختص بالحمد حجة إنزال المطر فقد قال تعالى في سورة لقمان: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] فلذلك لا يجعل قوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ اعتراضًا.

و﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إضراب انتقال من حمد اللَّه على وضوح الحجج إلى ذم المشركين بأن أكثرهم لا يتفطنون لنهوض تلك الحجج الواضحة فكأنهم لا عقل لهم؛ لأن وضوح الحجج يقتضي أن يفطن لنتائجها كل ذي مسكة من عقل. فنزلوا منزلة من لا عقول لهم. وإنما أسند عدم العقل إلى أكثرهم دون جميعهم؛ لأن من عقلائهم وأهل الفطن منهم من وضحت له تلك الحجج فمنهم من آمنوا، ومنهم من أصروا على الكفر عنادًا»[2].

* * *

---

(١) لقمان: الآية (٢٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/٢٩-٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ التي يتمتع منها هؤلاء المشركون ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ يقول: إلا تعليل النفوس بما تلتذ به، ثم هو منقض عن قريب، لا بقاء له ولا دوام ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ يقول: وإن الدار الآخرة لفيها الحياة الدائمة التي لا زوال لها ولا انقطاع ولا موت معها.. وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يقول: لو كان هؤلاء المشركون يعلمون أن ذلك كذلك، لقصروا عن تكذيبهم بالله، وإشراكهم غيره في عبادته، ولكنهم لا يعلمون ذلك.

والقول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: فإذا ركب هؤلاء المشركون السفينة في البحر، فخافوا الغرق والهلاك فيه ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يقول: أخلصوا لله عند الشدة التي نزلت بهم التوحيد، وأفردوا له الطاعة، وأذعنوا له بالعبودة، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم، ولكن بالله الذي خلقهم ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ يقول: فلما خلصهم مما كانوا فيه وسلمهم، فصاروا إلى البر، إذا هم يجعلون مع الله شريكا في عبادتهم، ويدعون الآلهة والأوثان معه أربابا»[1].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك، التزهيد في الدنيا والتشويق للأخرى، فقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ في الحقيقة ﴿إِلَّا لَهْوٌ

(١) جامع البيان (٢١/ ١٢-١٣).

وَلَعِبٌۚ﴾ تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل اللَّه فيها من الزينة واللذات، والشهوات الخالبة للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المبطلة الباطلة، ثم تزول سريعًا، وتنقضي جميعًا، ولم يحصل منها محبها إلا على الندم والخسران.

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ﴾ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجودا فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذة، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المآكل، والمشارب، والمناكح، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب، فدل ذلك على أن الذين يعلمون، لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا، لما يعلمونه من حالة الدارين.

ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله، في حال الشدة، عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك، يتركون وقتذاك أندادهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى من أخلصوا له الدعاء إلى البر، أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال عنهم مشقة.

فهلا أخلصوا لله الدعاء في حال الرخاء والشدة، واليسر والعسر، ليكونوا مؤمنين حقا، مستحقين ثوابه، مندفعا عنهم عقابه.

ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم، بالنجاة من البحر، ليكون عاقبته الكفر بما آتيناهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا تمتعهم في الدنيا، الذي هو كتمتع الأنعام، ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة، شدة الأسف وأليم العقوبة»[1].

قال ابن القيم: «يحتمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ﴾ معنيين:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٠٥-١٠٧).

أحدهما : أن حياة الآخرة هي الحياة؛ لأنها لا تنغيص فيها ولا نفاد لها ؛ أي : لا يشوبها ما يشوب الحياة في هذه الدار ، فيكون الحيوان مصدرا على هذا .

الثاني : أن يكون المعنى أنها الدار التي لا تفنى ولا تنقطع ولا تبيد كما يفنى الأحياء في هذه الدنيا ، فهي أحق بهذا الاسم من الحيوان الذي يفنى ويموت»[١] .

* * *

(١) حادي الأرواح (ص٨٨ - ٨٩).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يتخطف: التخطف: أخذ الشيء بسرعة. ومنه اختطاف الطير لصيده.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى ممتنا على قريش فيما أحلهم من حرمه، الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والبادي، ومن دخله كان آمنا، فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضًا ويقتل بعضهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾»[(١)].

وقوله: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه الأصنام والأنداد، و﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[(٢)]، وكفروا بنبي اللّه وعبده ورسوله، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله، وألا يشركوا به، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقاتلوه وأخرجوه من بين ظهرهم؛ ولهذا سلبهم اللّه ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدر، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح اللّه على رسوله مكة، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي: لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على اللّه فقال: إن اللّه أوحى إليه، ولم يوح إليه شيء.

---

(١) قريش: الآيات (١-٤).

(٢) إبراهيم: الآية (٢٨).

ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل اللّه. وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر، والثاني مكذب؛ ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾»[1].

قال المراغي: «بعد أن ذكر أن المشركين حين يشتد بهم الخوف إذا ركبوا في الفلك ونحوه لجؤوا إلى اللّه وحده مخلصين له العبادة، ذكر هنا أنهم حين الأمن كما إذا كانوا في حصنهم الحصين وهو مكة التي يأمن من دخلها من الشرور والأذى يكفرون به ويعبدون معه سواه، وتلك حال من التناقض لا يرضاها لنفسه عاقل، فإن دعاءهم إياه حال الخوف مع الإخلاص ما كان إلا ليقينهم بأن نعمة النجاة منه لا من سواه، فكيف يكفرون به حين الأمن، وهم يوقنون بأن الأصنام حين الخوف لا تجديهم فتيلا ولا قطميرا؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أي أو لم ير هؤلاء المشركون من قريش ما خصصناهم به من النعمة دون سائر عبادنا، فأسكناهم بلدا حرمنا على الناس أن يدخلوه لغارة أو حرب، وآمنا من سكنه من القتل والسبي والناس من حولهم يقتلون ويسبون في كل حين، فيشكرونا على ذلك، ويزدجروا عن كفرهم بنا وإشراكهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

والخلاصة إنه تعالى يمتن على قريش بما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن دخله كان آمنا، فهم في أمن عظيم، والأعراب حولهم نهب مقسم، يقتل بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا، ثم هم مع ذلك يكفرون به، ويعبدون معه سواه. ونحو الآية قوله: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾.

ثم بين أن العقل كان يقضي بشكرهم على هذه النعمة، لكنهم كفروا بها، وما جنحوا إلى مرضاة ربهم فقال: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، وبدلوا نعمة اللّه كفرا، وأحلوا قومهم دار البوار، فكفروا بنبي اللّه وعبده ورسوله.

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٠٢-٣٠٣).

والخلاصة إنه كان من حق شكرهم له على هذه النعم إخلاص العبادة له، وألا يشركوا به، وأن يصدقوا برسوله، ويعظموه ويوقروه، لكنهم كذبوه فقاتلوه وأخرجوه من بين أظهرهم، ومن ثم سلبهم اللَّه ما كان أنعم به عليهم، بقتل من قتل منهم ببدر، وأسر من أسر، حتى قطع دابرهم يوم الفتح، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم. ولما استنارت الحجة، وظهر الدليل، ولم يكن لهم فيه مقنع، بين أنهم قوم ظلمة مفترون وضعوا الأمور في غير مواضعها بكذبهم على اللَّه، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ أي ومن أظلم ممن كذبوا على اللَّه، بأن زعموا أن له شريكا، وأنهم إذا فعلوا فاحشة قالوا: إن اللَّه أمرنا بها، واللَّه لا يأمر بالفحشاء، وكذبوا بالكتاب حين مجيئه، دون أن يتأملوا فيه أو يتوقفوا بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه.

وفي هذا من تسفيه آرائهم وتقبيح طرائقهم ما لا يخفى. ثم بين سوء مغبة أعمالهم بطريق الاستفهام التقريري، وهو أبلغ في إثبات المطلوب، فقال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي ألا يستوجب هؤلاء الكافرون من أهل مكة الثواء في جهنم، فقد افتروا على اللَّه الكذب، فكذبوا بالكتاب لما جاءهم بلا تريث ولا تلبث؟

والخلاصة: أن مثوى هؤلاء وأشباههم جهنم وبئس المصير»[1].

قال ابن عاشور: «لما أوفاهم ما يستأهلونه من تشنيع أحوالهم وسوء انتظام شؤونهم جاء في عقبه بتذييل يجمعها في أنها افتراء على اللَّه وتكذيب بالحق، ثم جزاهم الجزاء الأوفى اللائق بحالهم وهو أن النار مثواهم. وافتتح تشخيص حالهم بالاستفهام عن وجود فريق هم أظلم من هؤلاء الذين افتروا على اللَّه وكذبوا بالحق توجيها لأذهان السامعين نحو البحث هل يجدون أظلم منهم حتى إذا أجادوا التأمل واستقروا مظان الظلمة واستعرضوا أصنافهم تيقنوا أن ليس ثمة ظلم أشد من ظلم هؤلاء.

وإنما كانوا أشد الظالمين ظلما لأن الظلم الاعتداء على أحد بمنعه من حقه وأشد من المنع أن يمنعه مستحقه ويعطيه من لا يستحقه، وأن يلصق بأحد ما هو بريء منه. ثم إن الاستحقاق وعدمه قد يثبتان بحكم العوائد، وقد يثبتان بأحكام

(١) تفسير المراغي (٢١/ ٢١-٢٣).

الشرائع، وقد يثبتان بقضايا العقول السليمة وهو أعلى مراتب الثبوت، ومدار أمور أهل الشرك على الافتراء على الله بأن سلبوا عنه ما هو متصف به من صفات الإلهية الثابتة بدلالة العقول، وأثبتوا له ما هو منزه عنه من الصفات والأفعال بدلالة العقول، وعلى تكذيب الرسول ﷺ ونكران دلالة المعجزة التي يقتضيها العقل، وعلى رمي الرسول -عليه الصلاة والسلام- بما هو بريء منه بشهادة العقل والعادة التي عرفوها منه بهتانا وكذبا؛ فكانوا بمجموع الأمرين وضعوا أشياء في مواضع لا يمكن أن تكون مواضعها فكانوا أظلم الناس لأن عدم الإمكان أقوى من عدم الحصول.

وتقييد الافتراء بالحال الموكدة في قوله: ﴿كَذِبًا﴾ لزيادة تفظيع الافتراء لأن اسم الكذب مشتهر القبح في عرف الناس، وإنما اختير الافتراء للدلالة على أنهم يتعمدون الاختلاق تعمدا لا تخالطه شبهة. وتقييد تكذيبهم بالحق بقوله: ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ لإدماج ذم المكذبين بنكران نعمة إرسال الحق إليهم التي لم يقدروها قدرها، وكان شأن العقلاء أن يتطلبوا الحق ويرحلوا في طلبه، وهؤلاء جاءهم الحق بين أيديهم فكذبوا به»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في نعمة الأمن في الحرم

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»**[2].

★ غريب الحديث:

السّويقتين: تثنية سويقة وهي تصغير ساق، وصغرهما لدقتهما ورقتهما وحموشتهما وهي صفة سوق الحبشة غالبًا.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «ولا يعارض هذا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٤-٣٥).

(٢) أخرجه: البخاري (٣/ ٥٧٩/ ١٥٩١)، ومسلم (٤/ ٢٢٣٢/ ٢٩٠٩).

﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[1]، لأن تخريب الكعبة على يدي هذا الحبشي إنما يكون عند خراب الدنيا، ولعل ذلك في الوقت الذي لا يبقى إلا شرار الخلق، فيكون حرمًا آمنًا مع بقاء الدين وأهله، فإذا ذهبوا ارتفع ذلك المعنى.

قلت: وتحقيق الجواب عن ذلك أنه لا يلزم من قوله تعالى: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أن يكون ذلك دائمًا في كل الأوقات، بل: إذا حصلت له حرمة وأمن في وقت ما، فقد صدق اللفظ وصح المعنى، ولا يعارضه ارتفاع ذلك المعنى في وقت آخر، فإن قيل: فقد قال النبي ﷺ: «**إن اللَّه أحل لي مكة ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها إلى يوم القيامة**»[2]. قلنا: أما الحكم بالحرمة والأمن فلم يرتفع، ولا يرتفع إلى يوم القيامة إذ لم ينسخ ذلك بالإجماع، وأما وقوع الخوف فيها وترك حرمتها فقد وُجد ذلك كثيرًا، ويكفيك بعوث يزيد بن معاوية، وجيوش عبد الملك، وقتال الحجاج لعبداللَّه بن الزبير وغير ذلك مما جرى لها، وما فُعل فيها من إحراق الكعبة ورميها بحجارة المنجنيق»[3].

قال الحافظ: «قيل: هذا الحديث يخالف قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾، ولأن اللَّه حبس عن مكة الفيل ولم يمكن أصحابه من تخريب الكعبة ولم تكن إذ ذاك قبلة، فكيف يسلط عليها الحبشة بعد أن صارت قبلة للمسلمين؟ وأجيب بأن ذلك محمول على أنه يقع في آخر الزمان قرب قيام الساعة حيث لا يبقى في الأرض أحد يقول اللَّه اللَّه كما ثبت في صحيح مسلم: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: اللَّه الله**»[4] ولهذا وقع في رواية سعيد بن سمعان «**لا يعمر بعده أبدًا**»[5] وقد وقع قبل ذلك فيه من القتال وغزو أهل الشام له في زمن يزيد بن معاوية

---

(١) العنكبوت: الآية (٦٧).

(٢) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٨) والبخاري (١/ ٢٧٣-٢٧٤/ ١١٢) ومسلم (٢/ ٩٨٨/ ١٣٥٥) وأبو داود (٢/ ٥١٨-٥٢٠/ ٢٠١٧) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٣٤-٤٣٥/ ٥٨٥٥) كلهم من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) المفهم (٧/ ٢٤٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٧) ومسلم (١/ ١٣١/ ١٤٨) والترمذي (٤/ ٤٢٦-٤٢٧/ ٢٢٠٧) كلهم من حديث أنس ﷺ.

(٥) جزء من حديث رواه أبو هريرة ﷺ أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩١) وابن حبان (١٥/ ٢٣٩/ ٦٨٢٧ الإحسان) والحاكم (٤/ ٤٥٢-٤٥٣) وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، قال الذهبي: «ما خرجا لابن سمعان شيئا، ولا روى عنه ابن أبي ذئب وقد تكلم فيه». قال الشيخ أحمد شاكر: «فأما أن=

ثم من بعده في وقائع كثيرة من أعظمها وقعة القرامطة بعد الثلاثمائة فقتلوا من المسلمين في المطاف من لا يحصى كثرة وقلعوا الحجر الأسود فحولوه إلى بلادهم ثم أعادوه بعد مدة طويلة، ثم غزي مرارًا بعد ذلك، كل ذلك لا يعارض قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ لأن ذلك إنما وقع بأيدي المسلمين فهو مطابق لقوله ﷺ: «**ولن يستحل هذا البيت إلا أهله**»[1]، فوقع ما أخبر به النبي ﷺ، وهو من علامات نبوته، وليس في الآية ما يدل على استمرار الأمن المذكور فيها. والله أعلم»[2].

* * *

= الشيخين لم يرويا لابن سمعان شيئا، فهذا حق، وأما أنه تكلم فيه فإنه لا قيمة له؛ لأن الذي تكلم فيه هو الأزدي وحده. وهو ينفرد بتضعيف الكثير من الرواة دون حجة ولا نقل صحيح. ويكفي ما ذكرنا ممن وثق ابن سمعان، وأن البخاري وابن أبي حاتم لم يذكرا فيه جرحا». (المسند ١٥/ ٣٥-٣٦).

(١) هو جزء من حديث أبي هريرة السابق.

(٢) فتح الباري (٣/ ٥٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والذين قاتلوا هؤلاء المفترين على اللَّه كذبًا من كفار قريش، المكذبين بالحق لما جاءهم فينا، مبتغين بقتالهم علو كلمتنا، ونصرة ديننا ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ يقول: لنوفقنهم لإصابة الطريق المستقيمة، وذلك إصابة دين اللَّه الذي هو الإسلام الذي بعث اللَّه به محمدا ﷺ. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يقول: وإن اللَّه لمع من أحسن من خلقه، فجاهد فيه أهل الشرك، مصدقا رسوله فيما جاء به من عند اللَّه بالعون له، والنصرة على من جاهد من أعدائه»[1].

قال السعدي: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ وهم الذين هاجروا في سبيل اللَّه، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته، ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم محسنون.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بالعون والنصر والهداية. دل هذا، على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه اللَّه ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل اللَّه، بل هو أحد نوعي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين»[2].

---

(١) جامع البيان (٢١/ ١٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٠٨).

قال عبد الكريم الخطيب: «بهذه الآية الكريمة تختم السورة، فيلتقي ختامها مع بدئها، ولقد بدئت السورة بإيذان المؤمنين بالابتلاء، وملاقاة الفتن على طريق الإيمان، وأن استمساك المؤمن بإيمانه يقتضيه جهادًا وتضحية، بالنفس والمال والأهل والولد والوطن، وكما يقول سبحانه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ كما يقول سبحانه في آية أخرى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾[1].

وهذا الختام الذي ختمت به السورة هو وعد كريم من اللَّه سبحانه وتعالى للمؤمنين الذين يجاهدون في سبيل اللَّه، ويحتملون ما يلقاهم على طريق الجهاد من ضر وأذى أن يهديهم اللَّه، ويثبت أقدامهم على سبيله؛ لأنهم سعوا إلى اللَّه فتلقاهم اللَّه بإمداد عونه، وتأييده ونصره، فكان لهم الغلب، وكانت لهم العزة في الدنيا، وجنات النعيم في الآخرة.

وفي قوله تعالى: ﴿جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ إشارة إلى هذا الجهاد الذي يجاهده المؤمن، وأنه جهاد لله، وفي سبيل اللَّه وإعزاز دينه، ونصر كلمته، واللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ ومعنى الجهاد في اللَّه الجهاد في كل ما هو لله مما جعله حمى له جل شأنه.

وفي توكيد الفعل ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ توكيد لوعد اللَّه وأنه وعد أوجبه اللَّه سبحانه على نفسه كما يقول: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تطمين لقلوب المؤمنين، وإشعار لهم بأن اللَّه معهم، بعزته وقوته وسلطانه، ومن كان اللَّه معه فهو في أمان من أن يذل أو يهون ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3].

وفي وصف المجاهدين في سبيل اللَّه بأنهم محسنون، إشارة إلى أن الجهاد في جميع صوره هو إحسان، وأن المجاهد محسن؛ لأنه طريق الإحسان، ويسلك مسالكه على حين أن غير المجاهد مسيء؛ لأنه يركب مراكب الضلال، ويهيم في أودية الباطل. فحيثما كان الإنسان مع اللَّه سبحانه وتعالى فهو في جهاد، فإذا قهر المرء أهواء نفسه ووساوس شيطانه فهو مع اللَّه وفي جهاد في اللَّه، وإذا قال المرء

(١) آل عمران: الآية (١٨٦). (٢) الروم: الآية (٤٧). (٣) المجادلة: الآية (٢٢).

كلمة الحق ورد باطلًا وسفه بها ضلالًا فهو مع اللَّه وفي جهاد في اللَّه، وإذا حمل المرء سلاحه ودخل الحرب تحت راية المجاهدين فهو مع اللَّه وفي جهاد في اللَّه.

إن سبل الجهاد كثيرة وميادينه متعددة، بالقول وبالعمل، باللسان وبالسيف، ولعل هذا هو السر في جمع السبيل في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ فهناك أكثر من سبيل يصل به المؤمن إلى الله؛ لأنها جميعها قائمة على الحق والعدل والإحسان»[1].

* * *

(١) التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٤٧٠-٤٧١).



سورة الروم

قال القاسمي: «قال المهايمي: سميت بها لاشتمال قصتها على معجزة تفيد للمؤمنين فرحًا عظيمًا، بعد ترح يسير. فتبطل شماتة أعدائهم. وتدل على أن عاقبة الأمر لهم. وهذا من أعظم مقاصد القرآن»[1].

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «أول أغراض هذه السورة سبب نزولها على ما سر المشركين من تغلب الفرس على الروم، فقمع اللَّه تعالى تطاول المشركين به وتحداهم بأن العاقبة للروم في الغلب على الفرس بعد سنين قليلة. ثم تطرق من ذلك إلى تجهيل المشركين بأنهم لا تغوص أفهامهم في الاعتبار بالأحداث، ولا في أسباب نهوض وانحدار الأمم من الجانب الرباني، ومن ذلك إهمالهم النظر في الحياة الثانية، ولم يتعظوا بهلاك الأمم السالفة المماثلة لهم في الإشراك باللَّه، وانتقل من ذلك إلى ذكر البعث. واستدل لذلك ولوحدانيته تعالى بدلائل من آيات اللَّه في تكوين نظام العالم ونظام حياة الإنسان. ثم حض النبي ﷺ والمسلمين على التمسك بهذا الدين وأثنى عليه، ونظر بين الفضائل التي يدعو إليها الإسلام وبين حال المشركين ورذائلهم، وضرب أمثالًا لإحياء مختلف الأموات بعد زوال الحياة عنها، ولإحياء الأمم بعد يأس الناس منها، وأمثالًا لحدوث القوة بعد الضعف وبعكس ذلك. وختم ذلك بالعود إلى إثبات البعث، ثم بتثبيت النبي ﷺ ووعده بالنصر. ومن أعظم ما اشتملت عليه التصريح بأن الإسلام دين فطر اللَّه الناس عليه وأن من ابتغى غيره دينا فقد حاول تبديل ما خلق اللَّه وأنى له ذلك»[2].

---

(١) محاسن التأويل (١٣/ ١٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٤٠-٤١).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾

★ غريب الآية:

بضع: البضع: ما بين الثلاثة والعشرة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ما يكون بين الدول المتوازنة. وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة والإنجيل وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس، فكان المسلمون يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس، وكان المشركون -لاشتراكهم والفرس في الشرك- يحبون ظهور الفرس على الروم.

فظهر الفرس على الروم، وغلبوهم غلبا لم يحط بملكهم بل بأدنى أرضهم، ففرح بذلك مشركو مكة وحزن المسلمون، فأخبرهم الله ووعدهم أن الروم ستغلب الفرس.

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ تسع أو ثمان ونحو ذلك مما لا يزيد على العشر، ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس للروم ثم غلبة الروم للفرس كل ذلك بمشيئته وقدره ولهذا قال: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر.

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم يغلب الروم الفرس ويقهرونهم ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ

﴿ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس وإن كان الجميع كفارا، ولكن بعض الشر أهون من بعض، ويحزن يومئذ المشركون.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين حيث قيض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم ما لا يدخل في الحساب.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ فتيقنوا ذلك واجزموا به واعلموا أنه لا بد من وقوعه.

فلما نزلت هذه الآيات التي فيها هذا الوعد صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عينوها، فلما جاء الأجل الذي ضربه اللَّه انتصر الروم على الفرس وأجلوهم عن البلاد التي أخذوها منهم وتحقق وعد اللَّه.

وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها اللَّه قبل وقوعها ووجدت في زمان من أخبرهم اللَّه بها من المسلمين والمشركين. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما وعد اللَّه به حق، فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعده، ويكذبون آياته»(١).

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أية فائدة في ذكره مع أن قوله: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ بعد قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ لا يكون إلا من بعد الغلبة؟ فنقول الفائدة فيه إظهار القدرة وبيان أن ذلك بأمر اللَّه؛ لأن من غلب بعد غلبه لا يكون إلا ضعيفا، فلو كان غلبتهم لشوكتهم لكان الواجب أن يغلبوا قبل غلبهم، فإذا غلبوا بعدما غلبوا، دل على أن ذلك بأمر اللَّه، فذكر من بعد غلبهم ليتفكروا في ضعفهم ويتذكروا أنه ليس بزحفهم، وإنما ذلك بأمر اللَّه تعالى. وقوله: ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ لبيان شدة ضعفهم، أي انتهى ضعفهم إلى أن وصل عدوهم إلى طريق الحجاز وكسروهم وهم في بلادهم، ثم غلبوا حتى وصلوا إلى المدائن وبنوا هناك الرومية لبيان أن هذه الغلبة العظيمة بعد ذلك الضعف العظيم بإذن اللَّه.. قوله تعالى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٠٩-١١١).

﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ قدم المصدر على الفعل حيث قال: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ﴾ وقدم الفعل على المصدر في قوله: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾[1] وذلك لأن المقصود ههنا بيان أن النصرة بيد اللّه إن أراد نصر وإن لم يرد لا ينصر، وليس المقصود النصرة ووقوعها، والمقصود هناك إظهار النعمة عليه بأنه نصره، فالمقصود هناك الفعل ووقوعه فقدم هناك الفعل، ثم بين أن ذلك الفعل مصدره عند اللّه، والمقصود ههنا كون المصدر عند اللّه إن أراد فعل فقدم المصدر.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ذكر من أسمائه هذين الاسمين لأنه إن لم ينصر المحب بل سلط العدو عليه فذلك لعزته وعدم افتقاره، وإن نصر المحب فذلك لرحمته عليه، أو نقول إن نصر اللّه المحب فلعزته واستغنائه عن العدو ورحمته على المحب، وإن لم ينصر المحب فلعزته واستغنائه عن المحب ورحمته في الآخرة واصلة إليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ يعني سيغلبون، وعدهم اللّه وعدًا ووعد اللّه لا خلف فيه، قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون وعده وأنه لا خلف في وعده»[2].

قال القاسمي: «ولا ريب أن ذلك أعظم معجزات القرآن، أعني إخباره عن غيب وقع مصداقه، واستبان للجاحدين من نوره إشراقه. وفي ضمنه أن سائر غيوبه كذلك من ظهور الإسلام على الدين كله، وزهوق الباطل، وعلو الحق، وجعل المستضعفين أئمة، وإيراثهم أرض عدوهم، إلى غير ذلك»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في آية من آيات النبوة في تحقق ما أخبر به النبي ﷺ من غلبة الروم على فارس

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝﴾ قال: غُلبت وغَلبت، قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أهل

(١) الأنفال: الآية (٦٢).

(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ٩٧-٩٨).

(٣) محاسن التأويل (١٣/ ١٦٥-١٦٦).

أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول اللَّه ﷺ، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أما إنهم سيغلبون**» قال: فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلًا، فإن ظهرنا، كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم، كان لكم كذا وكذا. فجعل أجلًا خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال: «**ألا جعلتها إلى دون -قال: أُراه قال: - العشر؟**» -قال: قال سعيد بن جبير: البِضْع: ما دون العشر- ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ قال: يفرحون ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾»[١].

* عن نيار بن مكرم الأسلمي رضي الله عنه قال: «**لما نزلت**: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك قول اللَّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾ فكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل اللَّه تعالى هذه الآية، خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصيح في نواحي مكة: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ قال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارسًا في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى، -وذلك قبل تحريم الرهان- فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل؟ البضع: ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسمّ بيننا وبينك وسطًا تنتهي إليه، قال: فسموا بينهم ست سنين، قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة، ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين؛ لأن اللَّه تعالى قال: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ قال: وأسلم عند

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧٦) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٣٢٠-٣٢١/ ٣١٩٣) وقال: «حديث حسن صحيح غريب»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٦/ ١١٣٨٩)، وصححه الحاكم (٢/ ٤١٠) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

ذلك ناس كثير»[١].

★ **غريب الحديث:**

نراهنك: من المراهنة، وهي عبارة عن الاتفاق على التزام شيء في ظهور أحد أمرين تعارضا في القول أو في الوجود، وادعى فريقان كل واحد منهما والتزموا على ذلك غرمًا، وجعلت كل طائفة فيه رهنًا.

★ **فوائد الحديثين:**

قال النسفي: «هذه آية بينة على صحة نبوته، وأن القرآن من عند الله؛ لأنها إنباء عن علم الغيب وكان ذلك قبل تحريم القمار»[٢].

وقال أيضًا: «أما فرحهم بظهور المسلمين على المشركين فأمر ظاهر لما فيه من عزة الإسلام وظهور الدين وعموم الدعوة، وأما فرحهم بظهور الروم على فارس فلأنهم أهل كتاب، ويقرون بالنبوة في الجملة، فبمقدار هذه المشاركة وقعت المسرة المشاركة على قوم يجحدون الكتاب ويكذبون الرسل، فناهيك بالمسرة بالتصديق بجميع الرسل، والإقرار بجميع الكتب، والامتثال لأمر اللَّه في الجميع»[٣].

قال ابن القيم: «وقوله: «**وذلك قبل تحريم الرهان**» من كلام بعض الرواة، ليس من كلام أبي بكر ولا من كلام النبي..

وقد اختلف أهل العلم في إحكام هذا الحديث ونسخه على قولين:

فادعت طائفة نسخه بنهي النبي عن الغرر والقمار. قالوا: ففي الحديث دلالة على ذلك وهو قوله: «**وذلك قبل تحريم الرهان**». قالوا ويدل على نسخه ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل**»[٤] والسبق بفتح السين والباء، وهو الخطر الذي وقع

---

(١) انفرد به الترمذي (٥/ ٣٢١-٣٢٢/ ٣١٩٤) وقال: «حديث صحيح حسن غريب»، وصححه الحافظ في الفتح (١/ ٧١).

(٢) تفسير النسفي (٣/ ٢٦٦).

(٣) عارضة الأحوذي (١٢/ ٦٩-٧٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٧٤) وأبو داود (٣/ ٦٣-٦٤/ ٢٥٧٤) والترمذي (٤/ ١٧٨/ ١٧٠٠) وحسنه، والنسائي (٦/ ٥٣٥/ ٣٥٨٧) وابن ماجه (٢/ ٩٦٠/ ٢٨٧٨) وصححه ابن حبان (١٠/ ٥٤٤/ ٤٦٩٠ الإحسان) من حديث أبي هريرة ﵁.

عليه الرهان، وإلى هذا القول ذهب أصحاب مالك والشافعي وأحمد.

وادعت طائفة أنه محكم غير منسوخ، وأنه ليس مع مدعي نسخه حجة يتعين المصير إليها، قالوا: والرهان لم يحرم جملة؛ فإن النبي ﷺ راهن في تسبيق الخيل كما تقدم، وإنما الرهان المحرم؛ الرهان على الباطل الذي لا منفعة فيه في الدين، وأما الرهان على ما فيه ظهور أعلام الإسلام وأدلته وبراهينه كما قد راهن عليه الصديق، فهو من أحق الحق، وهو أولى بالجواز من الرهان على النضال وسباق الخيل والإبل، إذ تأثير هذا في الدين أقوى؛ لأن الدين قام بالحجة والبرهان، وبالسيف والسنان، والمقصد الأول إقامته بالحجة، والسيف منفذ. قالوا: وإذا كان الشارع قد أباح الرهان في الرمي والمسابقة بالخيل والإبل، لما في ذلك من التحريض على تعلم الفروسية وإعداد القوة للجهاد؛ فجواز ذلك في المسابقة والمبادرة إلى العلم والحجة التي بها تفتح القلوب ويعز الإسلام وتظهر أعلامه أولى وأحرى، وإلى هذا ذهب أصحاب أبي حنيفة وشيخ الإسلام ابن تيمية. قال أرباب هذا القول: والقمار المحرم هو أكل المال بالباطل، فكيف يلحق به أكله بالحق، قالوا: والصديق لم يقامر قط في جاهلية ولا إسلام، ولا أقر رسول الله ﷺ على قمار فضلا عن أن يأذن فيه، وهذا تقرير قول الفريقين»[1].

قال شيخ الإسلام: «إذا أخرج ولي الأمر مالا من بيت المال للمسابقين بالنشاب والخيل والإبل، كان ذلك جائزا باتفاق الأئمة. ولو تبرع رجل مسلم ببذل الجعل في ذلك كان مأجورا على ذلك، وكذلك ما يعطيه الرجل لمن يعلمه ذلك هو ممن يثاب عليه، وهذا لأن هذه الأعمال منفعتها عامة للمسلمين، فيجوز بذل العوض من آحاد المسلمين فكان جائزا، وإن أخرجا جميعًا العوض وكان معهما آخر محللا يكافيها كان ذلك جائزا، وإن لم يكن بينهما محلل، فبذل أحدهما شيئًا طابت به نفسه من غير إلزام له أطعم به الجماعة، أو أعطاه للمعلم أو أعطاه لرفيقه؛ كان ذلك جائزا. وأصل هذا أن يعلم أن هذه الأعمال عون على الجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله مقصوده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا»[2].

---

(١) الفروسية (ص٩-١٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٢-٢٣).

قال ابن القيم: «وأما المسابقة بالأقدام؛ فاتفق العلماء على جوازها بلا عوض، واختلفوا هل يجوز بعوض على قولين:

أحدهما: لا يجوز، وهو مذهب أحمد، ومالك ونص عليه الشافعي.

والثاني: يجوز، وهو مذهب أبي حنيفة.

وللشافعية وجهان.

فحجة من منعه حديث أبي هريرة «**لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل**»[١].

وهذا يتعين حمله على أحد معنيين:

إما أن يريد به نفي الجعل؛ أي: لا يجوز الجعل إلا في هذه الثلاثة فيكون نفيا في معنى النهي عن الجعل في غيرها لا عن نفس السباق.

وإما أن يريد به أن لا يجوز المسابقة على غيرها بعوض، فيكون نهيا عن المسابقة بالعوض في غير الثلاثة. فعلى التقدير الأول يكون المنع من الجعل على غير الثلاثة.

وعلى الثاني يكون المنع من العقد المشترط فيه الجعل على غيرها. وعلى التقديرين، فهو مقتض للمنع من الجعل في غيرها.

قالوا: ولأن غير هذه الثلاثة لا يحتاج إليها في الجهاد، كالحاجة إلى الثلاثة، ولا يقوم مقامها، ولا ينفع فيه نفعها، فكانت كأنواع اللعب الذي لا يجوز المراهنة عليه. وحجة من جوز الجعل في ذلك قياس القدم على الحافر والخف؛ فإن كلا منهما مسابقة، فهذا بنفسه وهذا بمركوبه.

قالوا: وكما أن في مسابقة الإبل والخيل تمرينا على الفروسية والشجاعة، فكذلك المسابقة على الأقدام؛ فإن فيها من تمرين البدن على الحركة والخفة والإسراع والنشاط ما هو مطلوب في الجهاد.

قالوا: والحديث يحتمل أن يراد به أن أحق ما بذل فيه السبق هذه الثلاثة، لكمال نفعها وعموم مصلحتها..

قال المانعون: هذا جمع بين ما فرق اللَّه ورسوله بينهما حكما وحقيقة؛ فإن

---

(١) تقدم تخريجه قريبا.

رسول اللَّه أثبت السبق في الثلاثة، ونفاه عما عداها، وهذا يقتضي عدم مساواة ما أثبته لما نفاه في الحكم والحقيقة، فلا يجوز التسوية بينهما . .

فلا يفرق بين ما جمع بينه، ولا يجمع بين ما فرق بينه، فلا بد من إلغاء أحد الأمرين: إما إلغاء ما اعتبرتموه من الجمع بين ما فرق الشارع بينه، أو إلغاء ما اعتبره من الفرق، ولا سبيل إلى الثاني، فتعين الأول.

ثم تبين أن ما ذكرتموه من الجمع ليس بصحيح، فأي فروسية وأي مصلحة للإسلام وأهله وللمجاهدين في مسابقة السعاة على أقدامهم؟! ومتى انكسر بأحدهم عدو، وانتصر به حق، أو تقوت به فئة؟! ومتى بعث بريد على قدميه؟! فأحسن أحوال هذا العمل أن يكون مباحًا، فأما التراهن عليه فلا»[1].

وقال أيضًا: «وأما الصراع فيجوز بلا رهن، ولا يجوز بالرهن عند الجمهور، كمالك وأحمد والشافعي، وجوز بعض أصحابه فعله بالرهان، وهو قول أصحاب أبي حنيفة.

وأما السباحة فلا يجوز بالرهن عند الجمهور، وفي جوازها وجه لأصحاب الشافعي، ولهم في المشابكة بالأيدي وجهان.

والحجة على الجواز والمنع كما تقدم في مسابقة الأقدام سواء، ويلزم من جوزه أن يجوز الرهان على العلاج، إذ لا فرق بينهما؛ فإن العلاج عمل مباح، كالصراع ومسابقة الأقدام . .

وأما المسابقة بين الخيل وهي الحافر المذكور في حديث أبي هريرة، فقصرها أصحاب مالك وأحمد على الخيل، وجوزها أصحاب أبي حنيفة في البغال والحمير والبقر، وللشافعي في البغال والحمير قولان. ثم اختلف أصحابه في مسائل فرعوها على هذين القولين، وهي المسابقة على الفيل والحمام والسفن. ولهم في جواز السباق عليها بالرهن وجهان:

قال من جوز السباق على البغال والحمير: اسم الحافر يتناولهما كتناوله للفرس. وقال الآخرون: لم يرد الشارع بلفظ الحافر، حافر الحمار والبغل، وإنما

---

(١) الفروسية (ص: ١٠-١١).

أراد حافر ما سوبق عليه، وجعل السباق عليه من إعداد القوة لجهاد أعداء اللَّه، فما لحافر البغال والحمير والبقر دخول في ذلك ألبتة ولم يسابق أحد من السلف قط بحمار ولا بغل.

قالوا: والحافر وقع في سياق الإثبات، فلا عموم له. قالوا: ولا يصح قياس الحمار والبغل على الخيل، لما بينهما من الفروق شرعًا وحسًّا ومنفعة، وما سوى اللَّه بين الخيل والحمير قط، لا في سهم الغنيمة، ولا في الغزو، ولا جعل الخير معقودا إلا في نواصيها بالأجر والغنيمة، فما أفسد قياسهما على الخيل التي ظهورها عز وبطونها كنز، وهي معاقل وحصون، والخير معقود بنواصيها، والغنائم ثلثاها لها، وأرواثها وأبوالها في ميزان صاحبها؛ إذا ارتبطها في سبيل اللَّه تعالى.

وأما المسابقة بين الإبل فهي الخف المذكور في حديث أبي هريرة.

والجمهور على اختصاصها بالبعير وجوز بعض الشافعية المسابقة على الفيل بالجعل. قالوا: لأنه ذو خف، فيدخل في الحديث. وقول الجمهور أصح؛ لما تقدم، ولذلك لا يسهم للفيل عند الأئمة الأربعة، وشذ القاضي أبو يعلى من أصحاب أحمد، فقال: يسهم للفيل سهم الهجين. فيكون على الروايتين فيه: هل لهم سهم أو سهمان»[١].

وقال أيضًا: «اتفق العلماء على جواز الرهان في المسابقة على الخيل والإبل والسهام في الجملة، واختلفوا في فصلين:

أحدهما: في الباذل للرهن من هو؟

الثاني: في حكم عود الرهن إلى من يعود؟

فذهب الشافعي وأحمد وأبو حنيفة إلى أن الباذل للرهن يجوز أن يكون أحد المتعاقدين ويجوز أن يكون كلاهما، وأن يكون أجنبيا ثالثا إما الإمام، وإما غيره؛ ولكن إن كان الرهن منهما لم يحل إلا بمحلل، وهو ثالث يدخلانه بينهما، لا يخرج شيئًا، فإن سبقهما أخذ سبقهما، وإن سبقاه معا أحرزا سبقهما، ولم يغرم المحلل شيئًا، وإن سبق المحلل مع أحدهما، اشترك هو والسابق في سبقه. ثم اختلفوا في

---

(١) الفروسية (ص١٢ - ١٣).

أمر آخر في المحلل، وهو أنه: هل يجوز أن يكون المحلل أكثر من واحد أو لا يجوز أن يكون إلا واحدا؟ فظاهر كلامهم أن المحلل يكون كأحد الحزبين: إما واحدا، وإما عددا. وقال أبو الحسن الآمدي من أصحاب أحمد: لا يجوز أكثر من واحد، ولو كانوا مئة؛ لأن الحاجة تندفع به.

قالوا: والعقد بدون المحلل إذا أخرجا معا قمار. ومذهب مالك: أنه إنما يجوز أن يخرج السبق ثالث ليس من المتسابقين: إما الإمام، أو غيره، ولا يجري معهم، فمن سبق منهما أخذ ذلك السبق. فإن جرى معهما الذي أخرج السبق، فلا يخلو: إما أن تكون خيل السباق فرسين أو أكثر. فإن كانتا فرسين، فسبق مخرج السبق، فالسبق طعم لمن حضر، ولا يأخذه السابق. وإن كانت خيلًا كثيرة، وقد سبق مخرج السبق، أعطى سبقه للذي يليه وهو المصلي ولم يأخذه. وفقه ذلك أن سبقه لا يعود إليه بحال، سواء سَبق أو سُبق.

ولا يجوز عنده أن يخرجا معا، لا بمحلل ولا بغير محلل، ولا أن يخرج أحد المتسابقين.

وقد روي عن مالك رواية ثانية: جواز إخراج السبق منهما بمحلل كقول الثلاثة. قال ابن عبد البر: وهذا أجود قوليه، وهو اختيار ابن المواز.

قلت: ولكن أصحابه على خلافه، والمشهور عندهم ما حكيناه عنه أولا. والقول بالمحلل مذهب تلقاه الناس عن سعيد بن المسيب، وأما الصحابة فلا يحفظ عن أحد منهم قط أنه اشترط المحلل، ولا راهن به، مع كثرة تناضلهم ورهانهم، بل المحفوظ عنهم خلافه، كما ذكر عن أبي عبيدة بن الجراح»[1].

ثم استفاض رَحِمَهُ اللَّهُ في ذكر حجج الفريقين ومأخذ الاستدلال من الجانبين.

قال أيضًا: «المغالبات ثلاثة أقسام: قسم محبوب مرضي لله ورسوله، معين على تحصيل محابه، كالسباق بالخيل والإبل، والرمي بالنشاب. وقسم مبغوض مسخوط لله ورسوله، موصل إلى ما يكرهه اللَّه ورسوله، كسائر المغالبات التي توقع العداوة والبغضاء، وتصد عن ذكر اللَّه وعن الصلاة؛ كالنرد والشطرنج وما أشبههما. وقسم ليس بمحبوب لله ولا مسخوط له؛ بل هو مباح لعدم المضرة

---

(١) الفروسية (ص٢٨ - ٣٩).

الراجحة، كالسباق على الأقدام والسباحة، وشيل الأحجار والصراع ونحو ذلك.

فالنوع الأول يشرع مفردا عن الرهن ومع الرهن، ويشرع فيه كل ما كان أدعى إلى تحصيله، فيشرع فيه بذل الرهن من هذا وحده ومن الآخر وحده، ومنهما معا، ومن الأجنبي. وأكل المال به أكل بحق ليس أكلا بباطل، وليس من القمار والميسر في شيء. والنوع الثاني محرم وحده، ومع الرهن، وأكل المال به ميسر وقمار كيف كان، سواء كان من أحدهما أو من كليهما أو من ثالث، وهذا باتفاق المسلمين غير سائغ. فأما إن خلا عن الرهن، فهو أيضًا حرام عند الجمهور؛ نردا كان أو شطرنجا. هذا قول مالك وأصحابه، وأبي حنيفة وأصحابه، وأحمد وأصحابه، وقول جمهور التابعين، ولا يحفظ عن صحابي حله. وقد نص الشافعي على تحريم النرد، وتوقف في تحريم الشطرنج، فلم يجزم بتحريمه، وذكر أنه لم يتبين له تحريمه، ولهذا اختلف أصحابه في الشطرنج، فمنهم من حرمه، ومنهم من كرهه ولم يحرمه، وممن حرمه وبالغ في تقرير تحريمه أبو عبد اللَّه الحليمي. والشافعي نص على تحريم النرد الخالي عن العوض، وتوقف في الشطرنج الخالي عن العوض. فمن أصحابه من طرد توقفه في النرد أيضًا، وقال: إذا خلا عن العوض؛ لم يحرم، كالشطرنج. وهذا محض القياس؛ لأن مفسدة الشطرنج أعظم من مفسدة النرد بكثير، فإذا لم تنهض مفسدة الشطرنج للتحريم فالنرد أولى. ومنهم من طرد نصه في تحريم النرد وعداه إلى الشطرنج. وهذا أصح تخريجا، وأوضح دليلا؛ فإن مفسدة الشطرنج أعظم من مفسدة النرد، وكل ما يدل على تحريم النرد بغير عوض؛ فدلالته على تحريم الشطرنج بطريق أولى. وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي أنه قال: «**من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه**»[١] وفي الموطأ والسنن من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ: «**من لعب بالنرد فقد عصى اللَّه ورسوله**»[٢].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٥٢) ومسلم (٤/ ١٧٧٠/ ٢٢٦٠) وأبو داود (٥/ ٢٣٠-٢٣١/ ٤٩٣٩) وابن ماجه (٢/ ١٢٣٨/ ٣٧٦٣) من حديث بريدة الأسلمي ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٤) وأبو داود (٥/ ٢٣٠/ ٤٩٣٨) وابن ماجه (٢/ ١٢٣٧-١٢٣٨/ ٣٧٦٢) وحسنه الألباني في الإرواء (رقم: ٢٦٧٠).

وسر المسألة وفقهها أن اللَّه سبحانه لماذا حرم الميسر؛ هل هو لأجل ما فيه من المخاطرة المتضمنة لأكل المال بالباطل؟ فعلى هذا، إذا خلا عن العوض لم يكن حراما. فلهذا طرد من طرد ذلك هذا الأصل، وقال: إذا خلا النرد والشطرنج عن العوض، لم يكونا حراما ولكن هذا القول خلاف النص والقياس كما سنذكره. أو حرمه لما يشتمل عليه في نفسه من المفسدة، وإن خلا عن العوض، فتحريمه من جنس تحريم الخمر، فإنه يوقع العداوة والبغضاء ويصد عن ذكر اللَّه وعن الصلاة، وأكل المال فيه عون وذريعة إلى الإقبال عليه واشتغال النفوس به. فإن الداعي حينئذ يقوى من وجهين: من جهة المغالبة، ومن جهة أكل المال، فيكون حراما من الوجهين وهذا المأخذ أصح نصا وقياسا، نعم وأصول الشريعة وتصرفاتها تشهد له بالاعتبار؛ فإن اللَّه سبحانه قال في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾[1] فقرن الميسر بالأنصاب والأزلام والخمر، وأخبر أن الأربعة رجس، وأنها من عمل الشيطان، ثم أمر باجتنابها، وعلق الفلاح باجتنابها، ثم نبه على وجوه المفسدة المقتضية للتحريم فيها، وهي ما يوقعه الشيطان بين أهلها من العداوة والبغضاء، ومن الصد عن ذكر اللَّه وعن الصلاة. وكل أحد يعلم أن هذه المفاسد ناشئة من نفس العمل، لا من مجرد أكل المال به فتعليل التحريم بأنه متضمن لأكل المال بالباطل؛ تعليل بغير الوصف المذكور في النص، وإلغاء للوصف الذي نبه النص عليه وأرشد إليه. وهذا فاسد من الوجهين. يوضحه أن السلف الذين نزل القرآن بلغتهم سموا نفس الفعل ميسرا لا أكل المال به، فقال غير واحد من السلف الشطرنج ميسر العجم. وصنف أبو محمد بن قتيبة كتابا في الميسر، وذكر فيه أنواعه وأصنافه وعدها. ومعلوم أن أكل المال بالميسر قد زاد على كونه ميسرا، ولهذا كان أكل المال به أكلا به بالباطل؛ لأنه أكل بعمل محرم في نفسه، فالمال حرام والعمل حرام، بخلاف أكله بالنوع الأول؛ فإنه أكل بحق، فهو حلال، والعمل طاعة. وأما النوع

---

(١) المائدة: الآيات (٩٠-٩٢).

الثالث وهو المباح، فإنه وإن حرم أكل المال به، فليس لأن في العمل مفسدة في نفسه، وهو حرام، بل لأن تجويز أكل المال به ذريعة إلى اشتغال النفوس به، واتخاذه مكسبا، لا سيما وهو من اللهو واللعب الخفيف على النفوس، فتشتد رغبتها فيه من الوجهين، فأبيح في نفسه؛ لأنه إعانة وإجمام للنفس وراحة لها، وحرم أكل المال به لئلا يتخذ عادة وصناعة ومتجرا، فهذا من حكمة الشريعة ونظرها في المصالح والمفاسد ومقاديرها. يوضح هذا أن اللّٰه سبحانه حرم الخمر قليلها وكثيرها، ما أسكر منها وما لم يسكر؛ لأن قليلها يدعو إلى كثيرها الذي يغير العقل، ويوقع في المفاسد التي يريد الشيطان أن يوقع العباد فيها، ويمنع عن الإصلاح الذي يحبه اللّٰه ورسوله، فتحريم كثيرها من باب تحريم الأسباب الموقعة في الفساد، وتحريم قليلها من باب سد الذرائع.

وإذا تأملت أحوال هذه المغالبات، رأيتها في ذلك كالخمر، قليلها يدعو إلى كثيرها، وكثيرها يصد عن ما يحبه اللّٰه ورسوله، ويوقع فيما يبغضه اللّٰه ورسوله، فلو لم يكن في تحريمها نص لكانت أصول الشريعة وقواعدها وما اشتملت عليه من الحكم والمصالح وعدم الفرق بين المتماثلين توجب تحريم ذلك والنهي عنه، فكيف والنصوص قد دلت على تحريمه؟! فقد اتفق على تحريم ذلك النص والقياس. وقد سمى علي بن أبي طالب الشطرنج تماثيل، فمر بقوم يلعبون بها فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. وقلب الرقعة عليهم. ولا يعلم أحد من الصحابة أحلها، ولا لعب بها، وقد أعاذهم اللّٰه من ذلك، وكل ما نسب إلى أحد منهم من أنه لعب بها كأبي هريرة فافتراء وبهت على الصحابة، ينكره كل عالم بأحوال الصحابة، وكل عارف بالآثار. وكيف يبيح خير القرون وخير الخلق بعد رسول اللّٰه اللعب بشيء صده عن ذكر اللّٰه، وعن الصلاة أعظم من صد الخمر إذا استغرق فيه لاعبه، والواقع شاهد بذلك. وكيف يحرم الشارع النرد ويبيح الشطرنج، وهو يزيد عليه مفسدة بأضعاف مضاعفة؟! وكيف يظن برسول اللّٰه وأصحابه إباحة ميسر العجم وهو أبغض إلى اللّٰه ورسوله من ميسر العرب، بل الشطرنج سلطان أنواع الميسر. وإذا كان اللاعب بالنرد كغامس يده في لحم الخنزير ودمه؛ فكيف بحال اللاعب بالشطرنج؟! وهل هذا إلا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، وإذا كان من لعب بالنرد عاصيا لله ورسوله مع خفة مفسدة

النرد، فكيف يسلب اسم المعصية لله ولرسوله عن صاحب الشطرنج مع عظم مفسدتها، وصدها عن ما يحب اللّٰه ورسوله، وأخذها بفكر لاعبها واشتغال قلبه وجوارحه وضياع عمره ودعاء قليلها إلى كثيرها مثل دعاء قليل الخمر إلى كثيرها ورغبة النفوس فيها بالعوض فوق رغبتها فيها بلا عوض. فلو لم يكن في اللعب فيها مفسدة أصلا غير أنها ذريعة قريبة الإيصال إلى أكل المال الحرام بالقمار، لكان تحريمها متعينا في الشريعة، كيف وفي المفاسد الناشئة من مجرد اللعب بها ما يقتضي تحريمها؟! وكيف يظن بالشريعة أنها تبيح ما يلهي القلب ويشغله أعظم شغل عن مصالح دينه ودنياه، ويورث العداوة والبغضاء بين أربابها، وقليلها يدعو إلى كثيرها ويفعل بالعقل والفكر كما يفعل المسكر وأعظم، ولهذا يصير صاحبها عاكفا عليها كعكوف شارب الخمر على خمره أو أشد، فإنه لا يستحيي ولا يخاف كما يستحيي شارب الخمر، وكلاهما مشبه بالعاكف على الأصنام..

إذا عرف هذا، فاتفق الناس على تحريم أكل العوض في هذا النوع، وعلى تحريم المغالبة فيه بالرهان. واتفقوا على جواز أكل المال بسباق الخيل والإبل والنضال من حيث الجملة، وإن اختلفوا في كيفية الجواز وتفصيله على ما سنذكره. واختلفوا في مسائل هل هي ملحقة بهذا أو هذا، ونحن نذكرها.

المسألة الأولى: اختلفوا في جواز المسابقة على البغال والحمير بعوض، فقال الإمام أحمد ومالك والشافعي في أحد قوليه والزهري لا يجوز ذلك. وقال أبو حنيفة والشافعي في القول الآخر يجوز.

المسألة الثانية: اختلفوا في المسابقة على الحمام والفيل والبقر بعوض. فمنعه أحمد ومالك وأكثر الشافعية. وأجازه أصحاب أبي حنيفة وبعض الشافعية وبعض أصحاب أحمد في الحمام الناقلة للأخبار.

المسألة الثالثة: هل يجوز العوض في المسابقة على الأقدام؟ فمنعه مالك وأحمد والشافعي في المنصوص عنه صريحا. وأجازه الحنفية وبعض الشافعية، وهو مخالف لنص الإمام.

المسألة الرابعة: هل يجوز العوض في المسابقة بالسباحة؟ منعه الأكثرون وجوزه بعض الشافعية والحنفية.

المسألة الخامسة: الصراع. منع أحمد ومالك وبعض أصحاب الشافعي العوض فيه، وهو مقتضى نص الشافعي في منعه العوض في المسابقة بالأقدام، وجوزه بعض أصحابه وأصحاب أبي حنيفة.

المسألة السادسة: المشابكة بالأيدي. لا تجوز بعوض عند الجمهور، وفيها وجه للشافعية بالجواز، ومقتضى مذهب أصحاب أبي حنيفة جوازه؛ فإنهم يجوزوه في الصراع والمسابقة بالأقدام والمغالبة في مسائل العلم.

المسألة السابعة: المسابقة بالسيف والرمح والعمود. منعها بعوض مالك وأحمد. وجوزها أصحاب أبي حنيفة، وللشافعية فيها وجهان.

المسألة الثامنة: المسابقة بالمقاليع على العوض. منعها الجمهور، وللشافعية فيها وجه. ومقتضى مذهب أصحاب أبي حنيفة الجواز.

المسألة التاسعة: المغالبة بشيل الأثقال، كالحجارة والعلاج. فالجمهور لا يجوزون العوض فيها، ومن جوزه على المشابكة والسباحة والصراع والأقدام؛ فمقتضى قوله الجواز هنا، إذ لا فرق.

المسألة العاشرة: المثاقفة. لا تجوز بعوض عند الجمهور. وأباحها بعض الشافعية، وهو مقتضى مذهب أصحاب أبي حنيفة.

المسألة الحادية عشرة: المسابقة على حفظ القرآن والحديث والفقه وغيره من العلوم النافعة، والإصابة في المسائل، هل تجوز بعوض؟ منعه أصحاب مالك وأحمد والشافعي. وجوزه أصحاب أبي حنيفة وشيخنا وحكاه ابن عبد البر عن الشافعي. وهو أولى من الشباك والصراع والسباحة، فمن جوز المسابقة عليها بعوض، فالمسابقة على العلم أولى بالجواز، وهي صورة مراهنة الصديق لكفار قريش على صحة ما أخبرهم به وثبوته، وقد تقدم أنه لم يقم دليل شرعي على نسخه، وأن الصديق أخذ رهنهم بعد تحريم القمار، وأن الدين قيامه بالحجة والجهاد، فإذا جازت المراهنة على آلات الجهاد؛ فهي في العلم أولى بالجواز وهذا القول هو الراجح.

المسألة الثانية عشرة: المسابقة بالسهام على بعد الرمي لا على الإصابة، فأيهما كان أبعد مدى، كان هو الغالب. منعها بالعوض أصحاب أحمد والشافعي.

ويلزم من جوازها في المسابقة بالأقدام والسباحة والمصارعة جوازها هنا، بل هي أولى بالجواز، فإن المقصود بالرمي أمران: البعد والإصابة، فالبعد أحد مقصوديه، والسبق به من جنس السبق بالخيل والإبل. وبكل حال، هو أولى من سائر الصور التي قاسوها على مورد النص بالجواز. وظاهر الحديث يقتضيه؛ فإنه أثبت السبق في النصل كما أثبته في الخف والحافر، هذا يقتضي أن يكون السبق به كالسبق بهما، فأما أن يقال: يقتضي الإصابة دون السبق في الغاية فكلا، وهو في اقتضائهما معا أظهر من الاقتصار على الإصابة فقط. والله أعلم»[1].

* * *

(١) الفروسية (ص٨٣- ٨٩).

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «اعلم أنه يجب على كل مسلم في هذا الزمان: أن يتدبر آية الروم هذه تدبرا كثيرا، ويبين ما دلت عليه لكل من استطاع بيانه له من الناس.

وإيضاح ذلك أن من أعظم فتن آخر الزمان التي ابتلى اللَّه بها ضعاف العقول من المسلمين، شدة إتقان الإفرنج لأعمال الحياة الدنيا ومهارتهم فيها على كثرتها، واختلاف أنواعها مع عجز المسلمين عن ذلك، فظنوا أن من قدر على تلك الأعمال أنه على الحق، وأن من عجز عنها متخلف وليس على الحق، وهذا جهل فاحش، وغلط فادح. وفي هذه الآية الكريمة إيضاح لهذه الفتنة، وتخفيف لشأنها، أنزله اللَّه في كتابه قبل وقوعها بأزمان كثيرة، فسبحان الحكيم الخبير ما أعلمه، وما أعظمه، وما أحسن تعليمه.

فقد أوضح -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن أكثر الناس لا يعلمون، ويدخل فيهم أصحاب هذه العلوم الدنيوية دخولا أوليا، فقد نفى عنهم -جل وعلا- اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل؛ لأنهم لا يعلمون شيئًا عمن خلقهم، فأبرزهم من العدم إلى الوجود، ورَزقهم، وسوف يميتهم، ثم يحييهم، ثم يجازيهم على أعمالهم، ولم يعلموا شيئًا عن مصيرهم الأخير الذي يقيمون فيه إقامة أبدية في عذاب فظيع دائم: ومن غفل عن جميع هذا فليس معدودا من جنس من يعلم كما دلت عليه الآيات القرآنية المذكورة، ثم لما نفى عنهم -جل وعلا- اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل، أثبت لهم نوعا من العلم في غاية الحقارة بالنسبة إلى غيره.

وعاب ذلك النوع من العلم بعيبين عظيمين:

أحدهما: قلته وضيق مجاله؛ لأنه لا يجاوز ظاهرا من الحياة الدنيا، والعلم المقصور على ظاهر من الحياة الدنيا في غاية الحقارة، وضيق المجال بالنسبة إلى العلم بخالق السماوات والأرض -جل وعلا-، والعلم بأوامره ونواهيه، وبما

يقرب عبده منه، وما يبعده منه، وما يخلد في النعيم الأبدي من أعمال الخير والشر.

والثاني منهما: هو دناءة هدف ذلك العلم، وعدم نيل غايته؛ لأنه لا يتجاوز الحياة الدنيا، وهي سريعة الانقطاع والزوال، ويكفيك من تحقير هذا العلم الدنيوي أن أجود أوجه الإعراب في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا﴾ أنه بدل من قوله قبله ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، فهذا العلم كلا علم لحقارته.

قال الزمخشري في الكشاف، وقوله: يعلمون بدل من قوله: لا يعلمون، وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه، ويسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا.

وقوله: ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يفيد أن للدنيا ظاهرا وباطنا فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها، والتنعم بملاذها، وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة، وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهرا واحدا من ظواهرها. و(هم) الثانية يجوز أن يكون مبتدأ، وغافلون خبره، والجملة خبر (هم) الأولى، وأن يكون تكريرا للأولى، و(غافلون): خبر الأولى، وأية كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة، ومقرها، ومحلها وأنها منهم تنبع وإليهم ترجع. انتهى كلام صاحب الكشاف.

وقال غيره: وفي تنكير قوله: (ظاهرا) تقليل لمعلومهم، وتقليله يقربه من النفي، حتى يطابق المبدل منه. اهـ ووجهه ظاهر.

واعلم أن المسلمين يجب عليهم تعلم هذه العلوم الدنيوية، كما أوضحنا ذلك غاية الإيضاح في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾[1] وهذه العلوم الدنيوية التي بينا حقارتها بالنسبة إلى ما غفل عنه أصحابها الكفار، إذا تعلمها المسلمون، وكان كل من تعليمها واستعمالها مطابقا لما أمر اللّه به، على لسان نبيه ﷺ: كانت من أشرف العلوم وأنفعها؛ لأنها يستعان بها على إعلاء كلمة اللّه ومرضاته -جل وعلا-، وإصلاح الدنيا والآخرة، فلا عيب فيها إذن كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[2] فالعمل في إعداد

---

(١) مريم: الآية (٧٨). (٢) الأنفال: الآية (٦٠).

المستطاع من القوة امتثالا لأمر اللَّه تعالى وسعيا في مرضاته، وإعلاء كلمته ليس من جنس علم الكفار الغافلين عن الآخرة كما ترى، والآيات بمثل ذلك كثيرة. والعلم عند اللَّه تعالى»[1].

قال السعدي: «هؤلاء الذين لا يعلمون أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها. وإنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئًا، فهم واقفون مع الأسباب غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها.

﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها، وسعت وأقبلت بها وأدبرت وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي اللَّه ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب.

وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا وأعجبوا بعقولهم ورأوا غيرهم عاجزا عما أقدرهم اللَّه عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رآهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون. نسوا اللَّه فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ولو نظروا إلى ما أعطاهم اللَّه وأقدرهم عليه، من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، وما حرموا من العقل العالي، لعرفوا أن الأمر لله، والحكم له في عباده، وإن هو إلا توفيقه أو خذلانه، ولخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان حتى يصلوا إليه، ويحلوا بساحته.

---

(١) أضواء البيان (٦/ ٤٧٧-٤٧٩).

وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه، لأثمرت الرقي العالي والحياة الطيبة، ولكنها لما بني كثير منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير»[١].

قال المراغي: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كتدبير معايشهم، وإحسان مساكنهم، وتنمية متاجرهم، وتصرفهم في مزارعهم، على النحو الذي يجعلها تزدهر وتفي بحاجة المجتمع. ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ أي: وهم غافلون عن أن النفوس لها بقاء بعد الموت، وأنها ستلبس ثوبا آخر في حياة أخرى، وستنال إذ ذاك جزاء ما قدمت من خير أو شر، ولو لم تكن النفوس تتوقع هذه الحياة لكانت آلام الدنيا ومتاعبها لا تطاق ولا تجد النفوس لاحتمالها سبيلا، وهي ما قبلت تلك الآلام واحتملتها إلا لأنها توقن بسعادة أخرى وراء ما تقاسي من المتاعب في هذه الحياة، ولله در القائل:

ومن البلية أن ترى لك صاحبا في صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة في ماله وإذا يصاب بدينه لم يشعر»[٢].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١١١-١١٣).
(٢) تفسير المراغي (٢١/ ٢٩-٣٠).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾

★ غريب الآية:

أثاروا الأرض: أي قلبوها بالحرث للزراعة والغرس.

السوءى: مؤنث الأسوأ، وهو الأقبح. وهي هنا بمعنى العقوبة البالغة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «لما بين -جل وعلا- أن أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون، ثم ذكر أنهم يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا، وهم غافلون، أنكر عليهم غفلتهم عن الآخرة، مع شدة وضوح أدلتها بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ الآية؛ والتفكر التأمل، والنظر العقلي، وأصله إعمال الفكر، والمتأخرون يقولون الفكر في الاصطلاح: حركة النفس في المعقولات. وأما حركتها في المحسوسات فهو في الاصطلاح: تخييل.

وقال الزمخشري في الكشاف: ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ يحتمل أن يكون ظرفا كأنه قيل: أو لم يحدثوا التفكر في أنفسهم؛ أي: في قلوبهم الفارغة من الفكر، والفكر لا يكون إلا في القلوب، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقولك: اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك، وأن يكون صلة للتفكر كقولك: تفكر في الأمر أجال فيه

فكره، و﴿مَا خَلَقَ﴾ متعلق بالقول المحذوف، معناه: أو لم يتفكروا فيقولوا هذا القول. وقيل معناه: فيعلموا؛ لأن في الكلام دليلا عليه ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ أي: ما خلقها باطلا وعبثا بغير غرض صحيح، وحكمة بالغة، ولا لتبقى خالدة، وإنما خلقها مقرونة بالحق، مصحوبة بالحكمة، وبتقدير أجل مسمى لا بد لها أن تنتهي إليه، وهو قيام الساعة، ووقت الحساب، والثواب، والعقاب.

ألا ترى إلى قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾[1] كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثا، والباء في قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ﴾ مثلها في قولك: دخلت عليه بثياب السفر، واشترى الفرس بسرجه ولجامه، تريد: اشتراه وهو متلبس بالسرج واللجام غير منفك عنهما، وكذلك المعنى: ما خلقها إلا وهي متلبسة بالحق مقترنة به.

فإن قلت: إذا جعلت ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ صلة للتفكر فما معناه؟

قلت: معناه أو لم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات، وهم أعلم وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها، فتدبروا ما أودعها اللَّه ظاهرا وباطنا من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال، وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكم الذي دبر أمرها على الإحسان إحسانا، وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت، والمراد بلقاء ربهم الأجل المسمى. انتهى كلام صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة: من أن خلقه تعالى للسماوات والأرض، وما بينهما لا يصح أن يكون باطلًا ولا عبثًا، بل ما خلقهما إلا بالحق؛ لأنه لو كان خلقهما عبثا لكان ذلك العبث باطلًا ولعبًا، سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، بل ما خلقهما وخلق جميع ما فيهما وما بينهما إلا بالحق، وذلك أنه يخلق فيهما الخلائق، ويكلفهم فيأمرهم وينهاهم ويعدهم ويوعدهم، حتى إذا انتهى الأجل المسمى لذلك بعث الخلائق وجازاهم، فيظهر في المؤمنين صفات رحمته ولطفه وجوده وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، وتظهر في الكافرين صفات عظمته، وشدة

(١) المؤمنون: الآية (١١٥).

بطشه، وعظم نكاله، وشدة عدله وإنصافه، دلت عليه آيات كثيرة من كتاب اللّه كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾(١) فقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ الآية بعد قوله: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يبين ما ذكرنا. وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾(٢) الآية.

فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ بعد قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يوضح ذلك، وقد أوضحه تعالى في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾(٣).

وقد بين -جل وعلا- أن الذين يظنون أنه خلقهما باطلا لا لحكمة الكفار، وهددهم على ذلك الظن الكاذب بالويل من النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾(٤)، وبين -جل وعلا- أنه لو لم يبعث الخلائق ويجازهم، لكان خلقه لهم أولا عبثا، ونزه نفسه عن ذلك العبث سبحانه وتعالى عن كل ما يليق بكماله وجلاله علوا كبيرا، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾(٥).

فهذه الآيات القرآنية تدل على أنه تعالى ما خلق الخلق إلا بالحق، وأنه لا بد باعثهم، ومجازيهم على أعمالهم، وإن كان أكثر الناس لا يعلمون هذا، فكانوا غافلين عن الآخرة كافرين بلقاء ربهم.

وقوله تعالى في الآيات المذكورة ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي: ما بين السماوات والأرض، يدخل فيه السحاب المسخر بين السماء والأرض، والطير صافات، ويقبض بين السماء والأرض والهواء الذي لا غنى للحيوان عن استنشاقه»(٦).

قال ابن كثير: «يقول تعالى منبها على التفكر في مخلوقاته، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ﴾

---

(١) الدخان: الآيات (٣٨-٤٠).
(٢) الحجر: الآية (٨٥).
(٣) النجم: الآية (٣١)
(٤) ص: الآية (٢٧).
(٥) المؤمنون: الآيتان (١١٥و١١٦).
(٦) أضواء البيان (٦/ ٤٧٩-٤٨٢).

يعني به: النظر والتدبر والتأمل لخلق اللَّه الأشياء من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا باطلا بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات، والدلائل الواضحات، من إهلاك من كفر بهم، ونجاة من صدقهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين؛ ولهذا قال: ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم -أيها المبعوث إليهم محمد صلوات اللَّه وسلامه عليه- وأكثر أموالا وأولادا، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكنوا في الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعمارا طوالا فعمروها أكثر منكم. واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم اللَّه بذنوبهم، وما كان لهم من اللَّه من واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس اللَّه، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان اللَّه ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات اللَّه، واستهزؤوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ⑩﴾، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ⑪⑩﴾[١]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾[٢]، وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ﴾[٣].

وعلى هذا تكون السوأى منصوبة مفعولا لأساءوا. وقيل: بل المعنى في ذلك: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي: كانت السوأى عاقبتهم؛ لأنهم كذبوا بآيات اللَّه وكانوا بها يستهزئون. فعلى هذا تكون السوأى منصوبة خبر كان. هذا توجيه

(١) الأنعام: الآية (١١٠).

(٢) الصف: الآية (٥).

(٣) المائدة: الآية (٤٩).

ابن جرير، ونقله عن ابن عباس وقتادة. ورواه ابن أبي حاتم عنهما وعن الضحاك بن مزاحم، وهو الظاهر، والله أعلم»[١].

قال المراغي: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: أولم يتفكر هؤلاء المكذبون بالبعث من قومك في خلق الله لهم ولم يكونوا شيئًا، ثم تصريفهم أحوالًا وتارات حتى صاروا كاملي الخلق، كاملي العقل، فيعلموا أن الذي فعل ذلك قادر أن يعيدهم بعد فنائهم خلقا جديدا، ثم يجازي المحسن منهم بإحسانه، والمسيء منهم بإساءته، لا يظلم أحدا منهم فيعاقبه بدون جرم صدر منه، ولا يحرم أحدا منهم جزاء عمله؛ لأنه العدل الذي لا يجوز، فهو ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالعدل، وإقامة الحق إلى أجل مؤقت مسمى، فإذا حل الأجل أفنى ذلك كله، وبدل الأرض غير الأرض، وبرزوا للحساب جميعًا.

ثم ذكر أن كثيرا من الناس غفلوا عن الآخرة وما فيها من حساب وجزاء فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ لأنهم لم يتفكروا في أنفسهم، ولو تفكروا فيها ودرسوا عجائبها لأيقنوا بلقاء ربهم، وأن معادهم إليه بعد فنائهم. ثم نبههم إلى صدق رسله فيما جاؤوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحة، من إهلاك من جحد نبوتهم، ونجاة من صدقهم فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ أي: أولم يسر هؤلاء المكذبون بالله، الغافلون عن الآخرة، في البلاد التي يسلكونها تجرا، فينظروا إلى آثار الله فيمن كان قبلهم من الأمم المكذبة، كيف كان عاقبة أمرهم في تكذيبهم رسلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة، وحرثوا الأرض وعمروها أكثر ما عمر هؤلاء ثم أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم رسله، وما كان الله بظالم لهم، بعقابه إياهم على تكذيبهم رسله وجحودهم آياته، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بمعصيتهم ربهم.

والخلاصة إنه قد كان لكم فيمن قبلكم من الأمم معتبر ومزدجر، فقد كانوا أكثر

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣١٢-٣١٣).

منكم أموالا وأولادا، ومكنوا في الدنيا تمكينا لم تبلغوا معشاره، وعمروا فيها أعمارا طوالا واستغلوها أكثر من استغلالكم، ولما جاءتهم الرسل بالبينات كذبوهم وفرحوا بما أوتوا فأخذوا بذنوبهم ولم تغن عنهم أموالهم شيئًا، ولم تحل بينهم وبين بأس اللَّه.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ أي: ثم كان العذاب عاقبتهم، أما في الدنيا فلهم البوار والهلاك، وأما في الآخرة فالنار لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون، وما ذاك إلا لأن كذبوا بحجج اللَّه وآياته، وهم أنبياؤه ورسله، وسخروا منهم عنتًا وكبرًا»[1].

* * *

(١) تفسير المراغي (٢١/ ٣١-٣٢).

قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

★ غريب الآية:

يبلس : الإبلاس : اليأس من الخير . وقيل : التحير واليأس . وكل من انقطع عن حجته فقد أبلس .

روضة : الروضة : مستنقع الماء ذو الخضرة والأزهار ، قال الأعشى :

مَا رَوْضَةٌ من رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ   خضراء جاد عليها مُسْبِلٌ هطلُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي : «يخبر تعالى أنه المتفرد بإبداء المخلوقات ثم يعيدهم ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم ليجازيهم بأعمالهم ، ولهذا ذكر جزاء أهل الشر ثم جزاء أهل الخير فقال : ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ويقوم الناس لرب العالمين ، ويردون القيامة عيانا ، يومئذ ﴿يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي : ييأسون من كل خير . وذلك أنهم ما قدموا لذلك اليوم إلا الإجرام وهي الذنوب ، من كفر وشرك ومعاصي ، فلما قدموا أسباب العقاب ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب ، أيسوا وأبلسوا وأفلسوا وضل عنهم ما كانوا يفترونه ، من نفع شركائهم وأنهم يشفعون لهم ، ولهذا قال : ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ﴾ التي عبدوها مع الله ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله ، وتبرأ المعبودون وقالوا : ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾[1] والتعنوا وابتعدوا ، وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر كما

(١) القصص : الآية (٦٣).

افترقت أعمالهم في الدنيا.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آمنوا بقلوبهم وصدقوا ذلك بالأعمال الصالحة ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتهيات، ﴿يُحْبَرُونَ﴾ أي: يسرون وينعمون بالمآكل اللذيذة والأشربة، والحور الحسان والخدم والولدان، والأصوات المطربات والسماع المبهج، والمناظر العجيبة والروائح الطيبة، والفرح والسرور، واللذة والحبور، مما لا يقدر أحد أن يصفه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وجحدوا نعمه وقابلوها بالكفر ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التي جاءتهم بها رسلنا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم، واطلع العذاب الأليم على أفئدتهم، وشوى الحميم وجوههم وقطع أمعاءهم، فأين الفرق بين الفريقين، وأين التساوي بين المنعمين والمعذبين؟»[١].

قال المراغي: «بعد أن بين أن عاقبة المجرمين النار، وكان ذلك يستلزم الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة، بل أقام عليه الدليل بأن أبان أن من خلق الخلق بقدرته وإرادته لا يعجز عن رجعته، ثم بين ما يكون حين الرجوع من إفلاس المجرمين وتحقق بأسهم وحيرتهم، إذ لا تنفعهم شركاؤهم، بل هم يكفرون بهم، ثم ذكر أن الناس حينئذ فريقان: فريق في الجنة وفريق في السعير، فالأولون يمتعون بسرور وحبور، والآخرون يصلون النار دأبا لا يغيبون عنها أبدا.

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: اللّه ينشئ جميع الخلق بقدرته، وهو منفرد بإنشائه من غير شريك ولا ظهير، ثم يعيده خلقا جديدا بعد إفنائه وإعدامه كما بدأه خلقا سويا ولم يك شيئًا، ثم إليه يردون فيحشرون لفصل القضاء بينهم، فيجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

ثم بين ما سيحدث في هذا اليوم من الأهوال للأشقياء، والنعيم والحبور للسعداء فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: ويوم تجيء الساعة التي فيها يفصل اللّه بين خلقه بعد نشرهم من قبورهم وحشرهم إلى موقف الحساب يسكت الذين أشركوا باللّه واجترحوا في الدنيا مساوئ الأعمال، إذ لا يجدون حجة يدفعون بها عن أنفسهم ما يحل بهم من النكال والوبال.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١١٥-١١٦).

ولما كان الساكت قد يغنيه غيره عن الكلام نفى ذلك بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ أي: ولم يكن لهؤلاء المجرمين من شركائهم الذين كانوا يتبعونهم على ما دعوهم إليه من الضلالة شفعاء يستنقذونهم من عذاب اللَّه، وإذ ذاك يستبين لهم جهلهم وخطؤهم إذ قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾(١).

ولما ذكر سبحانه حال الشفعاء معهم ذكر حالهم مع الشفعاء بقوله: ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: وجحدوا ولاية الشركاء وتبرؤوا منهم كما جاء في آية أخرى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾(٢).

ثم بين بعدئذ أن اللَّه يميز الخبيثين من الطيبين فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: ويوم تجيء الساعة التي يحشر فيها الخلق إلى اللَّه يتفرق أهل الإيمان باللَّه وأهل الكفر به؛ فأما أهل الإيمان به فيؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وأما أهل الكفر فيؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، قال قتادة: فرقة واللَّه لا اجتماع بعدها.

ثم بين كيف يكون كل من الفريقين فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: فأما الذين آمنوا باللَّه ورسوله وعملوا بما أمرهم اللَّه به وانتهوا عما نهاهم عنه، فهم في رياض الجنات يمرحون، وبألوان الزهر والسندس الأخضر يتمتعون، ويتلذذون بالسماع والعيش الطيب الهني.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: وأما الذين جحدوا توحيد اللَّه وكذبوا رسله وأنكروا البعث بعد الممات والنشور للدار الآخرة، فأولئك في عذاب اللَّه محضرون لا يغيبون عنه أبدا»(٣).

قال الرازي: «لما ذكر أن عاقبتهم إلى الجحيم وكان في ذلك إشارة إلى الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة فقال: ﴿يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾، يعني من خلق بالقدرة والإرادة لا يعجز عن الرجعة والإعادة فإليه ترجعون، ثم بين ما يكون وقت الرجوع إليه فقال:

---

(١) يونس: الآية (١٨).
(٢) البقرة: الآيتان (١٦٦و١٦٧).
(٣) تفسير المراغي (٢١/ ٣٣-٣٤).

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝﴾ . في ذلك اليوم يتبين إفلاسهم ويتحقق إبلاسهم، والإبلاس يأس مع حيرة، يعني يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس محير لا يأس هو إحدى الراحتين، وهذا لأن الطمع إذا انقطع باليأس فإذا كان المرجو أمرا غير ضروري يستريح الطامع من الانتظار، وإن كان ضروريا بالإبقاء له بوونه ينفطر فؤاده أشد انفطار، ومثل هذا اليأس هو الإبلاس. ولنبين حال المجرم وإبلاسه بمثال، وهو أن نقول مثله مثل من يكون في بستان وحواليه الملاعب والملاهي، ولديه ما يفتخر به ويباهي، فيخبره صادق بمجيء عدو لا يرده راد، ولا يصده صاد، إذا جاءه لا يبلعه ريقا، ولا يترك له إلى الخلاص طريقا، فيتحتم عليه الاشتغال بسلوك طريق الخلاص فيقول له طفل أو مجنون إن هذه الشجرة التي أنت تحتها لها من الخواص دفع الأعادي عمن يكون تحتها، فيقبل ذلك الغافل على استيفائه ملاذه معتمدا على الشجرة بقول ذلك الصبي فيجيئه العدو ويحيط به، فأول ما يريه من الأهوال قلع تلك الشجرة فيبقى متحيرا آيسا، مفتقرا، فكذلك المجرم في دار الدنيا أقبل على استيفاء اللذات وأخبره النبي الصادق بأن اللّٰه يجزيه، ويأتيه عذاب يخزيه، فقال له الشيطان والنفس الأمارة بالسوء إن هذه الأخشاب التي هي الأوثان دافعة عنك كل بأس، وشافعة لك عند خمود الحواس، فاشتغل بما هو فيه واستمر على غيه حتى إذا جاءته الطامة الكبرى فأول ما أرته إلقاء الأصنام في النار، فلا يجد إلى الخلاص من طريق، ويحق عليه عذاب الحريق، فييأس حينئذ أي إياس ويبلس أشد إبلاس. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝﴾ يعني يكفرون بهم ذلك اليوم. ثم بين أمرا آخر يكون في ذلك اليوم وهو الافتراق كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝﴾[1] فكأن هذه الحالة مترتبة على الإبلاس، فكأنه أولا يبلس ثم يميز ويجعل فريق في الجنة وفريق في السعير، وأعاد قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ لأن قيام الساعة أمر هائل فكرره تأكيدا للتخويف، ومنه اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة في الخطب لتذكير أهواله. ثم بين كيفية التفرق فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي

---

(١) يس: الآية (٥٩).

رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ۝١٥﴾ أي: في جنة يسرون بكل مسرة ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ۝١٦﴾ يعني لا غيبة لهم عنه ولا فتور له عنهم كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[1] وقال: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾[2]»[3].

* * *

---

(١) الحج: الآية (٢٢).

(٢) آل عمران: الآية (٨٨).

(٣) التفسير الكبير (٢٥/١٠٢-١٠٣).

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩﴾

★ **غريب الآية:**

عشيًا: العشيُّ: ما بعد الزوال إلى الغروب.

تظهرون: أي: تدخلون في الظهيرة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه. ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو المحمود على ما خلق في السماوات والأرض ثم قال: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ فالعشاء: هو شدة الظلام، والإظهار: قوة الضياء، فسبحان خالق هذا وهذا، فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا كما قال: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾[3] والآيات في هذا كثيرة.. وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة، وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط فإنه يذكر فيها خلقه

---

(١) الشمس: الآيتان (٣و٤).

(٢) الليل: الآيتان (١و٢).

(٣) الضحى: الآيتان (١و٢).

الأشياء وأضدادها، ليدل خلقه على كمال قدرته، فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والحب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وقوله تعالى: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾(٣) ولهذا قال ههنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾»(٤).

قال السعدي: «هذا إخبار عن تنزهه عن السوء والنقص، وتقدسه عن أن يماثله أحد من الخلق، وأمر للعباد أن يسبحوه حين يمسون وحين يصبحون، ووقت العشي ووقت الظهيرة.

فهذه الأوقات الخمسة أوقات الصلوات الخمس، أمر اللَّه عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجب منه كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب كأذكار الصباح والمساء، وأدبار الصلوات، وما يقترن بها من النوافل؛ لأن هذه الأوقات التي اختارها اللَّه لأوقات المفروضات هي أفضل الأوقات، فالتسبيح والتحميد فيها، والعبادة فيها أفضل من غيرها. بل العبادة وإن لم تشتمل على قول «سبحان الله» فإن الإخلاص فيها تنزيه لله بالفعل أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق أحد من الخلق ما يستحقه من الإخلاص والإنابة.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كما يخرج النبات من الأرض الميتة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر، ونحو ذلك.

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ بعكس المذكور ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فينزل عليها

---

(١) يس: الآيتان (٣٣و٣٤).
(٢) الحج: الآيات (٥-٧).
(٣) الأعراف: الآية (٥٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣١٣-٣١٥).

المطر، وهي ميتة هامدة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم.

فهذا دليل قاطع وبرهان ساطع أن الذي أحيا الأرض بعد موتها يحيي الأموات، فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر»[1].

قال ابن القيم: «والرب سبحانه حمده قد ملأ السماوات والأرض وما بينهما وما بعد ذلك. فملأ العالم العلوي والسفلي والدنيا والآخرة، ووسع حمده ما وسع علمه، فله الحمد التام على جميع خلقه. ولا حكم يحكم إلا بحمده، ولا قامت السماوات والأرض إلا بحمده، ولا يتحول شيء في العالم العلوي والسفلي من حال إلى حال إلا بحمده، ولا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار إلا بحمده، كما قال الحسن رحمة اللّٰه عليه: (لقد دخل أهل النار النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلا). وهو سبحانه إنما أنزل الكتاب بحمده، وأرسل الرسل بحمده، وأمات خلقه بحمده، ويحييهم بحمده. ولهذا حمد نفسه على ربوبيته الشاملة لذلك كله ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] وحمد نفسه على إنزال كتبه ف ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾[3] وحمد نفسه على خلق السماوات والأرض ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[4] وحمد نفسه على كمال ملكه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾[5] فحمد ملأ الزمان والمكان والأعيان وعم الأقوال كلها ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾. وكيف لا يحمد على خلقه كله وهو ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[6] وعلى صنعه وقد أتقنه ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[7] وعلى أمره وكله حكمة ورحمة، وعدل ومصلحة، وعلى نهيه وكل ما نهى عنه شر وفساد، وعلى ثوابه وكله رحمة وإحسان، وعلى عقابه وكله عدل وحق. فلله الحمد كله، وله الملك كله، وبيده

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١١٧-١١٨).
(٢) الأنعام: الآية (٤٥).
(٣) الكهف: الآية (١).
(٤) الأنعام: الآية (١).
(٥) سبأ: الآية (١).
(٦) السجدة: الآية (٧).
(٧) النمل: الآية (٨٨).

الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل التسبيح والتحميد والتهليل

* عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة -رضي الله عنهما- أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن اللَّه اصطفى من الكلام أربعًا: سبحان اللَّه، والحمد لله، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر. فمن قال: سبحان اللَّه، كتب اللَّه له عشرين حسنة، أو حَطَّ عنه عشرين سيئة، ومن قال: اللَّه أكبر، فمثل ذلك، ومن قال: لا إله إلا اللَّه، فمثل ذلك، ومن قال: الحمد لله رب العالمين، من قبل نفسه، كُتبت له ثلاثون حسنة، أو حُطّ عنه ثلاثون سيئة**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «قال القاضي البيضاوي: الظاهر أن المراد من الكلام كلام البشر، فإن الثلاث الأُوَل وإن وجدت في القرآن، لكن الرابعة لم توجد فيه، ولا يفضل ما ليس فيه على ما هو فيه.. والموجب لفضلها اشتمالها على جملة أنواع الذكر، من التنزيه، والتحميد، والتمجيد، والتوحيد، ودلالتها على جميع المطالب الإلهية إجمالًا. وهذا النظم وإن لم يتوقف عليه المعنى المقصود؛ لاستقلال كل واحدة من الجمل الأربع، ولذلك جاء في رواية: «**لا يضرك بأيّهنّ بدأتَ**»، لكنه حقيق بأن يراعى؛ لأن الناظر المتدرج في المعارف يعرفه سبحانه أولًا بنعوت الجلال التي هي تنزيه ذاته عما يوجب حاجة أو نقصًا، ثم بصفات الإكرام، وهي الصفات الثبوتية التي بها يستحق الحمد، ثم يعلم أن من هذا شأنه لا يماثله غيره، ولا يستحق الألوهية سواه، فيكشف له من ذلك أنه أكبر، إذ كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم، وإليه ترجعون»[3].

---

(١) شفاء العليل (٢/ ١٥٣-١٥٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢١٠/ ١٠٦٧٦) وصححه الحاكم (١/ ٥١٢) على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٩٠) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح». وأخرجه البخاري معلقا (١١/ ٦٩٤) بلفظ: «**أفضل الكلام أربع سبحان اللَّه، والحمد لله، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر**».

(٣) شرح الطيبي على المشكاة (٦/ ١٨١٨-١٨١٩).

قال القرطبي: «وإنما كانت هذه الكلمات كذلك؛ لأنها تضمنت تنزيهه عن كل ما يستحيل عليه، ووصفه بكل ما يجب له من أوصاف كماله، وانفراده بوحدانيته، واختصاصه بعظمته وقدمه المفهومين من أكبريته»[1].

قال ابن بطال: «قال بعض الناس: هذه الفضائل التي جاءت عن النبي ﷺ: «**من قال سبحان اللَّه وبحمده مائة مرة غفر له**».. وما شاكلها إنما هي لأهل الشرف في الدين، والكمال والطهارة من الجرائم العظام، ولا يظن أن من فعل هذا وأصر على ما شاء من شهواته، وانتهك دين اللَّه وحرماته أنه يلحق بالسابقين المطهرين، وينال منزلتهم في ذلك بحكاية أحرف ليس معها تقى ولا إخلاص، ولا عمل، ما أظلمه لنفسه من يتأول دين اللَّه على هواه»[2].

* * *

(١) المفهم (٥/ ٤٦١).
(٢) شرح البخاري (١٠/ ١٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفراده بالإلهية وكمال عظمته، ونفوذ مشيئته وقوة اقتداره وجميل صنعه وسعة رحمته وإحسانه فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وذلك بخلق أصل النسل آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ وبثكم في أقطار الأرض وأرجائها، ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل وبثكم في أقطار الأرض هو الرب المعبود الملك المحمود والرحيم الودود الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ فأصلكم من تراب، ثم من ماء مهين، ثم تصور فكان علقة، ثم مضغة، ثم صار عظاما، شكله على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحما، ثم نفخ فيه الروح، فإذا هو سميع بصير، ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض ويتكسب ويجمع الأموال، وله فكرة وغور، ودهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه. فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكرة، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١١٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣١٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيما جاء في خلق آدم عليه السلام

* عن أبي موسى قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه - عز وجل - خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك»[1].

★ **غريب الحديث:**

القبضة: هي ملء الكفّ؛ قال في 'النهاية': القبض: الأخذ بجميع الكفّ.

★ **فوائد الحديث:**

تقدمت فوائد الحديث عند الآية ٢ من سورة الأنعام وكذلك عند الآية ١٢ من سورة المؤمنون.

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٠)، وأبو داود (٥/ ٦٧/ ٤٦٩٣)، والترمذي (٥/ ١٨٧-١٨٨/ ٢٩٥٥) وقال: «حسن صحيح»، وابن حبان (الإحسان ١٤/ ٢٩/ ٦١٦٠)، وصححه الحاكم (٢/ ٢٦١-٢٦٢) وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: خلق لكم من جنسكم إناثا يكن لكم أزواجا، ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[(١)] يعني بذلك: حواء، خلقها اللَّه من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر. ولو أنه جعل بني آدم كلهم ذكورا، وجعل إناثهم من جنس آخر إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس. ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة: وهي المحبة، ورحمة: وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾»[(٢)].

قال ابن عاشور: «هذه آية ثانية فيها عظة وتذكير بنظام الناس العام وهو نظام الازدواج وكينونة العائلة وأساس التناسل، وهو نظام عجيب جعله اللَّه مرتكزا في الجبلة لا يشذ عنه إلا الشذاذ.

وهي آية تنطوي على عدة آيات منها: أن جعل للإنسان ناموس التناسل، وأن جعل تناسله بالتزاوج ولم يجعله كتناسل النبات من نفسه، وأن جعل أزواج الإنسان من صنفه ولم يجعلها من صنف آخر لأن التأنس لا يحصل بصنف مخالف، وأن

---

(١) الأعراف: الآية (١٨٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣١٥-٣١٦).

جعل في ذلك التزاوج أنسا بين الزوجين ولم يجعله تزاوجا عنيفا أو مهلكا كتزاوج الضفادع، وأن جعل بين كل زوجين مودة ومحبة؛ فالزوجان يكونان من قبل التزاوج متجاهلين فيصبحان بعد التزاوج متحابين، وأن جعل بينهما رحمة؛ فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة، ولأجل ما ينطوي عليه هذا الدليل ويتبعه من النعم والدلائل جعلت هذه الآية آيات عدة في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وهذه الآية كائنة في خلق جوهر الصنفين من الإنسان: صنف الذكر، وصنف الأنثى، وإيداع نظام الإقبال بينهما في جبلتهما. وذلك من الذاتيات النسبية بين الصنفين. وقد أدمج في الاعتبار بهذه الآية امتنان بنعمة في هذه الآية أشار إليها قوله: ﴿لَكُم﴾ أي: لأجل نفعكم. و﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ متعلق بـ ﴿لَآيَٰتٖ﴾ لما فيه من معنى الدلالة. وجعلت الآيات لقوم يتفكرون لأن التفكر والنظر في تلك الدلائل هو الذي يجلي كنهها ويزيد الناظر بصارة بمنافع أخرى في ضمنها»[1].

قال الخطيب الشربيني: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: على ذلك ﴿أَنۡ خَلَقَ لَكُم﴾ أي: لأجلكم ليبقى نوعكم بالتوالد، وفي تقديم الجار وهو قوله تعالى: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: جنسكم بعد إيجادها من ذات أبيكم آدم عليه السلام ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ إناثا هن شفع لكم دلالة ظاهرة على حرمة التزوج من غير الجنس كالجن، قال البقاعي: والتعبير بالنفس أظهر في كونها من بدن الرجل أي: فخلق حواء من ضلع آدم ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ﴾ مائلين ﴿إِلَيۡهَا﴾ بالشهوة والألفة من قولهم: سكن إليه إذا مال وانقطع واطمأن إليه، ولم يجعلها من غير جنسكم لئلا تنفروا منها، قال ابن عادل: والصحيح أن المراد من جنسكم كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾[2] ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ يعني أن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدها إلى الآخر أي: لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه إليه.

ولما كان المقصود بالسكن لا ينتظم إلا بدوام الألفة قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ﴾ أي: صير بسبب الخلق على هذه الصفة ﴿بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ﴾ أي: معنى من المعاني يوجب

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٧٠-٧١).

(٢) التوبة: الآية (١٢٨).

أن لا يحب أحد من الزوجين أن يصل إلى صاحبه شيء يكرهه ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: معنى يحمل كلا على أن يجتهد للآخر في جلب الخير ودفع الضر، وقيل: المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد تمسكًا بقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ﴾[2].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي تقدم من خلق الأزواج على الحال المذكور وما يتبعه من المنافع ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ أي: دلالات واضحات على قدرة فاعله وحكمته ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: يستعملون أفكارهم على القوانين المحررة ويجتهدون في ذلك فيعلمون ما في ذلك من الحكم»[3].

قال ابن القيم: «جعل خلق الأزواج التي تسكن إليهن الرجال وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون؛ فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة، فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك، دله فكره على أنه الإله الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلهيته وحكمته ورحمته»[4].

* * *

---

(١) مريم: الآية (٢).

(٢) مريم: الآية (٢١).

(٣) السراج المنير (٣/ ٢١٨).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٥٢).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ومن آيات قدرته العظيمة ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلق السماوات في ارتفاعها واتساعها، وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات، والأرض في انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار.

وقوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعني اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى، وهؤلاء كرج، وهؤلاء روم، وهؤلاء إفرنج، وهؤلاء بربر، وهؤلاء تكرور، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالبة، وهؤلاء خزر، وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا اللَّه تعالى من اختلاف لغات بني آدم، واختلاف ألوانهم وهي حلاهم، فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق اللَّه آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان، وأنف وجبين، وفم وخدان، وليس يشبه واحد منهم الآخر؛ بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام، ظاهرا كان أو خفيا، يظهر عند التأمل. كل وجه منهم أسلوب بذاته، وهيئة لا تشبه الأخرى. ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح، لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر»[١].

قال ابن عاشور: «هذه الآية الثالثة وهي آية النظام الأرضي في خلق الأرض بمجموعها وسكانها؛ فخلق السماوات والأرض آية عظيمة مشهودة بما فيها من تصاريف الأجرام السماوية والأرضية، وما هو محل العبرة من أحوالهما المتقارنة المتلازمة كالليل والنهار والفصول، والمتضادة كالعلو والانخفاض.

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣١٦).

وإذ قد كان أشرف ما على الأرض نوع الإنسان، قرن ما في بعض أحواله من الآيات بما في خلق الأرض من الآيات، وخص من أحواله المتخالفة لأنها أشد عبرة إذ كان فيها اختلاف بين أشياء متحدة في الماهية، ولأن هاته الأحوال المختلفة لهذا النوع الواحد نجد أسباب اختلافها من آثار خلق السماوات والأرض، فاختلاف الألسنة سببه القرار بأوطان مختلفة متباعدة، واختلاف الألوان سببه اختلاف الجهات المسكونة من الأرض، واختلاف مسامته أشعة الشمس لها؛ فهي من آثار خلق السماوات والأرض. ولذلك فالظاهر أن المقصود هو آية اختلاف اللغات والألوان، وأن ما تقدمه من خلق السماوات والأرض تمهيد له وإيماء إلى انطواء أسباب الاختلاف في أسرار خلق السماوات والأرض. . واختلاف لغات البشر آية عظيمة؛ فهم مع اتحادهم في النوع كان اختلاف لغاتهم آية دالة على ما كونه اللَّه في غريزة البشر من اختلاف التفكير وتنويع التصرف في وضع اللغات، وتبدل كيفياتها باللهجات والتخفيف والحذف والزيادة بحيث تتغير الأصول المتحدة إلى لغات كثيرة. فلا شك أن اللغة كانت واحدة للبشر حين كانوا في مكان واحد، وما اختلفت اللغات إلا بانتشار قبائل البشر في المواطن المتباعدة، وتطرق التغير إلى لغاتهم تطرقا تدريجيا؛ على أن توسع اللغات بتوسع الحاجة إلى التعبير عن أشياء لم يكن للتعبير عنها حاجة قد أوجب اختلافا في وضع الأسماء لها، فاختلفت اللغات بذلك في جوهرها كما اختلفت فيما كان متفقا عليه بينها باختلاف لهجات النطق، واختلاف التصرف، فكان لاختلاف الألسنة موجبان. فمحل العبرة هو اختلاف اللغات مع اتحاد أصل النوع كقوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾[1] ولما في ذلك الاختلاف من الأسرار المقتضية إياه. . وأما اختلاف ألوان البشر فهو آية أيضًا لأن البشر منحدر من أصل واحد وهو آدم، وله لون واحد لا محالة، ولعله البياض المشوب بحمرة، فلما تعدد نسله جاءت الألوان المختلفة في بشراتهم وذلك الاختلاف معلول لعدة علل أهمها: المواطن المختلفة بالحرارة والبرودة ومنها التوالد من أبوين مختلفي اللون؛ مثل المتولد من أم سوداء وأب أبيض، ومنها

---

(١) الرعد: الآية (٤).

العلل والأمراض التي تؤثر تلوينا في الجلد، ومنها اختلاف الأغذية، ولذلك لم يكن اختلاف ألوان البشر دليلا على اختلاف النوع بل هو نوع واحد.. وجعل ذلك آيات في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ لما علمت من تفاصيل دلائله وعلله أي آيات لجميع الناس، وهو نظير قوله آنفًا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. واللام في قوله: ﴿لِّلْعَالِمِينَ﴾ نظير ما تقدم في الآية قبلها. وجعل ذلك آيات للعالمين لأنه مقرر معلوم لديهم، يمكنهم الشعور بآياته بمجرد التفات الذهن دون إمعان نظر»[1].

قال الخطيب الشربيني: «لما بين تعالى دلائل الأنفس ذكر دلائل الآفاق بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: الدالة على ذلك ﴿خَلْقُ السَّمَاوَاتِ﴾ على علوها وإحكامها ﴿وَالْأَرْضِ﴾ على اتساعها وإتقانها، وقدم السماء على الأرض لأن السماء كالذكر لها.

ولما أشار إلى دلائل الأنفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الأنفس بقوله تعالى: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: لغاتكم من العربية والعجمية وغيرهما، ونغماتكم وهيآتها، فلا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس ولا جهارة ولا شدة ولا رخاوة ولا لكنة ولا فصاحة ولا غير ذلك من صفات النطق وأشكاله وأنتم من نفس واحدة ﴿وَ﴾ اختلاف ﴿أَلْوَانِكُمْ﴾ من أبيض وأسود وأشقر وأسمر وغير ذلك من اختلاف الألوان، وأنتم بنو رجل واحد وهو آدم ﷺ، والحكمة في ذلك أن الإنسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو إليه، وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الإقبال عليه، وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور، وقد يكون بالسمع فخلق اختلاف الأصوات، وأما اللمس والشم والذوق فلا يفيد فائدة في معرفة العدو والصديق فلا يقع التمييز بين كل واحد بشكله وحليته وصورته، ولو اتفقت الصور والأصوات وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت مصالح كثيرة، وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحلية فيروك الخطأ في التمييز بينهما، فسبحان من خلق الخلق على ما أراد وكيف أراد، وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد وتفرعوا من أصل فذ، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا اللَّه

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٧٢-٧٥).

تعالى مختلفون متفاوتون.

ولما كان هذا مع كونه في غاية الوضوح لا يختص بجنس من الخلق دون غيره. قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر العظيم العالي الرتبة في بيانه وظهور برهانه ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: دلالات واضحات جدا على وحدانيته تعالى ﴿لِّلْعَالِمِينَ﴾ أي: ذوي العقول والعلم لا يختص به صنف منهم دون صنف من جن ولا إنس ولا غيرهم، فهذا هو حكمة قوله تعالى هنا للعالمين»[١].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ قد أوضح تعالى في غير هذا الموضع: أن اختلاف ألوان الآدميين واختلاف ألوان الجبال، والثمار، والدواب، والأنعام كل ذلك من آياته الدالة على كمال قدرته، واستحقاقه للعبادة وحده. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ﴾[٢]، واختلاف الألوان المذكورة من غرائب صنعه تعالى وعجائبه، ومن البراهين القاطعة على أنه هو المؤثر -جل وعلا-، وأن إسناد التأثير للطبيعة من أعظم الكفر والضلال»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيمن تكلّم بالفارسية والرطانة

* عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «قلت: يا رسول الله! ذبحنا بهيمة لنا وطحنتُ صاعًا من شعير فتعال أنت ونفر، فصاح النبي ﷺ فقال: **يا أهل الخندق! إن جابرًا قد صنع سورًا فحي هلا بكم**»[٤].

⭑ غريب الحديث:

صنع سورًا: قال الحافظ: هو بضم المهملة وسكون الواو، قال الطبري: السور، بغير همز: الصنيع من الطعام الذي يُدعى إليه، وقيل: الطعام مطلقًا، وهو بالفارسية، وقيل: بالحبشية، وبالهمز: بقية الشيء، والأول هو المراد هنا.

---

(١) السراج المنير (٣/ ٢١٨-٢١٩).

(٢) فاطر: الآيتان (٢٧و٢٨).

(٣) أضواء البيان (٦/ ٤٨٦).

(٤) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٢٥/ ٣٠٧٠) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٦١٠/ ٢٠٣٩).

فحي هلا بكم: هي كلمة استدعاء فيها حثّ؛ أي: هلمّوا مسرعين.

* عن أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت: «أتيتُ رسول اللَّه ﷺ مع أبي وعلي قميص أصفر، قال رسول اللَّه ﷺ: سنه سنه، قال عبد الله: وهي بالحبشية: حسنة، قالت: فذهبتُ ألعب بخاتم النبوة، فزبرني أبي، قال رسول اللَّه ﷺ: دعها، ثم قال رسول اللَّه ﷺ: أَبْلِي وأَخْلِقي، ثم أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي، قال عبد الله: فبقيت حتى ذكر»[1].

★ غريب الحديث:

أبلي وأخلِقي: «أَبْلي»: بفتح الهمزة وسكون الموحدة وكسر اللام: أمرٌ بالإبلاء، وكذا قوله: «أخلِقي» بالمعجمة والقاف أمر بالإخلاق وهما بمعنى، والعرب تطلق ذلك وتريد الدعاء بطول البقاء للمخاطب بذلك؛ أي: أنها تطول حياتها حتى يبلى الثوب ويخلق.

فزبرني أبي: أي: نهرني. والزبر، بزاي وموحدة ساكنة هو الزجر والمنع، وزنه ومعناه.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**أن الحسن بن علي أخذ تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال له النبي ﷺ** بالفارسية: كخ كخ، أما تعرف أنا لا نأكل الصدقة؟»[2].

★ غريب الحديث:

كخ كخ: بفتح الكاف وكسرها وسكون المعجمة مثقلًا ومخفّفًا وبكسر الخاء منونة وغير منونة، فيخرج من ذلك ست لغات، والثانية توكيد للأولى، وهي كلمة تقال لردع الصبي عند تناوله ما يستقذر.

★ فوائد الأحاديث:

قال العيني: «جواز الرطانة بغير العربية؛ لأن الكلام بغير العربية يحتاج

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٦٤-٣٦٥) والبخاري (٦/ ٢٢٥-٢٢٦/ ٣٠٧١) وأبو داود (٤/ ٣١١/ ٤٠٢٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٠٩-٤١٠) والبخاري (٦/ ٢٢٦/ ٣٠٧٢) ومسلم (٢/ ٧٥١/ ١٠٦٩) والنسائي في الكبرى (٥/ ١٩٤/ ٨٦٤٥).

المسلمون إليه للتكلم مع رسل العجم، وقد أمر الشارع زيد بن ثابت بكلام العجم»[١].

قال ابن بطال: «معنى هذا الباب في تأمين المسلمين لأهل الحرب بلسانهم ولغتهم أن ذلك أمان لهم؛ لأن اللَّه تعالى يعلم الألسنة كلها. وأيضًا فإن الكلام بالفارسية يحتاج إليه المسلمون للتكلم به مع رسل العجم. قد أمر النبي عليه السلام زيد بن ثابت أن يتكلم بلسان العجم، ولذلك أدخل البخاري عن الرسول أنه تكلم بألفاظ من الفارسية كانت متعارفة عندهم معلومة وفهمها عنه أصحابه، فالعجم أحرى أن يفهموها إذا خوطبوا بها؛ لأنها لغتهم»[٢].

قال شيخ الإسلام: «وفي الجملة، فالكلمة بعد الكلمة من العجمية، أمرها قريب، وأكثر ما يفعلون ذلك، إما لكون المخاطب أعجميًا، أو قد اعتاد العجمية، يريدون تقريب الأفهام عليه. كما قال النبي ﷺ لأم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص وكانت صغيرة قد ولدت بأرض الحبشة لما هاجر أبوها- فكساها النبي ﷺ خميصة وقال: «**يا أم خالد، هذا سنا**» والسنا بلغة الحبشة: الحسن. . وأما اعتياد الخطاب بغير اللغة العربية التي هي شعار الإسلام ولغة القرآن حتى يصير ذلك عادة للمصر وأهله، أو لأهل الدار، للرجل مع صاحبه، أو لأهل السوق، أو للأمراء، أو لأهل الديوان، أو لأهل الفقه، فلا ريب أن هذا مكروه فإنه من التشبه بالأعاجم وهو مكروه كما تقدم. ولهذا كان المسلمون المتقدمون لما سكنوا أرض الشام ومصر ولغة أهلها رومية، وأرض العراق وخراسان ولغة أهلهما فارسية، وأهل المغرب ولغة أهلها بربرية- عودوا أهل هذه البلاد العربية، حتى غلبت على أهل هذه الأمصار مسلمهم وكافرهم. وهكذا كانت خراسان قديما.

ثم إنهم تساهلوا في أمر اللغة، واعتادوا الخطاب بالفارسية حتى غلبت عليهم وصارت العربية مهجورة عند كثير منهم، ولا ريب أن هذا مكروه. وإنما الطريق الحسن اعتياد الخطاب بالعربية حتى يتلقنها الصغار في المكاتب وفي الدور فيظهر شعار الإسلام وأهله، ويكون ذلك أسهل على أهل الإسلام في فقه معاني الكتاب

---

(١) عمدة القاري (١٠/ ٤٠٣).

(٢) شرح صحيح البخاري (٥/ ٢٣١).

والسنة وكلام السلف، بخلاف من اعتاد لغة ثم أراد أن ينتقل إلى أخرى فإنه يصعب. واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرا قويا بينا، ويؤثر أيضًا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق. وأيضًا فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[1].

قلت: ما أشار إليه شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ من المحافظة على اللغة العربية نابع من كونها لغة القرآن والسنة، والعناية بها عناية بالسلف الصالح إذ هي لغتهم. لكن تأخر الزمان حتى حارب اللغة العربية أهلها في ديارهم وبين ذويهم، وأضحت لغة الكافرِ الغاصبِ اللغةَ المفضلّةَ لديهم، حيث فرضها بقوته وسلاحه، وحاول نسخ اللغة العربية لكي لا يبقى لها ذكر، فكتب المستعمر المناهج بلغته إلا ما ندر. وتستمر الحرب على العربية وتتنوع أساليبها، ومن ذلك تعالي أصوات أهل النعرات القبلية الشعوبية، فمن داع إلى الأمازيغية، ومن داع إلى الكوردية، ومن داع إلى الفارسية، وهكذا..

وبيان ألوان وأشكال الحرب على العربية يحتاج إلى مباحث طويلة بطول الأسى، فلم يأل الكفار جهدًا في الإجهاز على العربية لإدراكهم -أخزاهم الله- أن ذلك هو المسلك للقضاء على كتاب اللّٰه وعلى سنة رسوله ﷺ، حتى إذا قرئ القرآن وتلي الحديث، أضحت آياته وألفاظه طلاسم ورموزًا تحتاج إلى فك وتشفير؛ لبعد الشقة بين الناس ولغتهم الفصيحة. وقد قطع أعداء وخصوم العربية أشواطًا في تحقيق مرامهم هذا، على الرغم من إخفاء المكر والمكايد كما قال ربنا الحق في شأنهم: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[2]، فإلى اللّٰه مشتكى العربية من غربة الزمان، وهو المستعان.

* * *

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٦٨-٤٧٠).

(٢) آل عمران: الآية (١١٨).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «هذه آية رابعة وهي كائنة في أعراض من أعراض الناس لا يخلو عنها أحد من أفرادهم، إلا أنها أعراض مفارقة غير ملازمة، فكانت دون الأعراض التي أقيمت عليها الآية الثالثة ولذلك ذكرت هذه الآية بعدها.

وحالة النوم حالة عجيبة من أحوال الإنسان والحيوان، إذ جعل اللَّه له في نظام أعصاب دماغه قانونا يسترد به قوة مجموعه العصبي بعد أن يعتريه فشل الإعياء من إعمال عقله وجسده، فيعتريه شبه موت يخدر إدراكه ولا يعطل حركات أعضائه الرئيسية، ولكنه يثبطها حتى يبلغ من الزمن مقدارا كافيا لاسترجاع قوته، فيفيق من نومته وتعود إليه حياته كاملة. . والابتغاء من فضل الله: طلب الرزق بالعمل لأن فضل اللَّه الرزق، وجعل هذا كناية عن الهبوب إلى العمل لأن الابتغاء يستلزم الهبوب من النوم، وذلك آية أخرى لأنه نشاط القوة بعد أن خارت وفشلت. ولكون ابتغاء الرزق من خصائص النهار أطلق هنا فلم يقيد بالليل والنهار»[1].

قال الرازي: «لما ذكر بعض العرضيات اللازمة وهو الاختلاف، ذكر الأعراض المفارقة، ومن جملتها النوم بالليل والحركة طلبا للرزق بالنهار، فذكر من اللوازم أمرين، ومن المفارقة أمرين، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قيل أراد به النوم بالليل والنوم بالنهار وهي القيلولة. ثم قال: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾ أي: فيهما، فإن كثيرا ما يكتسب الإنسان بالليل، وقيل: أراد منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار، فلف البعض بالبعض، ويدل عليه آيات أخر. منها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٧٥-٧٦).

فَضْلًا﴾[١] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝﴾[٢] ويكون التقدير هكذا: ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله، فأخر الابتغاء وقرنه في اللفظ بالفعل إشارة إلى أن العبد ينبغي أن لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه، بل يرى كل ذلك من فضل ربه، ولهذا قرن الابتغاء بالفضل في كثير من المواضع، منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[٣] وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٤].

المسألة الثانية: قدم المنام بالليل على الابتغاء بالنهار في الذكر؛ لأن الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون إلا لحاجة، فلا يتعب إلا محتاج في الحال أو خائف من المآل.

المسألة الثالثة: قال: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ وقال من قبل: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقال: ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ فنقول المنام بالليل والابتغاء من فضله يظن الجاهل أو الغافل أنهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم اللَّه فلم يقل آيات للعالمين، ولأن الأمرين الأولين وهو اختلاف الألسنة والألوان من اللوازم، والمنام والابتغاء من الأمور المفارقة، فالنظر إليهما لا يدوم لزوالهما في بعض الأوقات ولا كذلك اختلاف الألسنة والألوان، فإنهما يدومان بدوام الإنسان فجعلهما آيات عامة، وأما قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فاعلم أن من الأشياء ما يعلم من غير تفكر، ومنها ما يكفي فيه مجرد الفكرة، ومنها ما لا يخرج بالفكر بل يحتاج إلى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد إليه، فيفهمه إذا سمعه من ذلك المرشد، ومنها ما يحتاج إلى بعض الناس في تفهمه إلى أمثلة حسية كالأشكال الهندسية، لكن خلق الأزواج لا يقع لأحد أنه بالطبع إلا إذا كان جامد الفكر خامد الذكر، فإذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية، وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد، وقد يحتاج إلى مرشد بغير فكرة، فقال: ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ويجعلون بالهم إلى كلام المرشد»[٥].

قال ابن القيم: «جعل المنام بالليل والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله

---

(١) الإسراء: الآية (١٢).
(٢) النبأ: الآيتان (١٠و١١).
(٣) الجمعة: الآية (١٠).
(٤) النحل: الآية (١٤).
(٥) التفسير الكبير (٢٥/ ١١٣-١١٤).

آيات لقوم يسمعون، وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له، مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم. فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه واستدل بهذه الآية عليه»[١].

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٥٢).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [أي:] تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة، أو صواعق متلفة، وتارة ترجون وميضه وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه؛ ولهذا قال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي: بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[1]. وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[3]. وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إذا اجتهد في اليمين يقول: لا والذي تقوم السماء والأرض بأمره؛ أي: هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسماوات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4].

---

(١) الحج: الآية (٥).

(٢) الحج: الآية (٦٥). (٣) فاطر: الآية (٤١).

(٤) الإسراء: الآية (٥٢).

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾[١]، وقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝﴾[٢]»[٣].

قال المراغي: «بعد أن ذكر ما يعرض للأنفس من الأوصاف ذكر ما يعرض للأكوان والآفاق ونشاهده رأي العين الفينة بعد الفينة، مما فيه العبرة لمن ادكر، ونظر في العوالم نظرة متأمل معتبر في بدائع الأكوان، ليتوصل إلى معرفة مدبرها وخالقها الذي أحسن كل شي خلقه ثم هدى.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي: ومن آياته الدالة على عظيم قدرته أنه يريكم البرق، فتخافون مما فيه من الصواعق، وتطمعون فيما يجلبه من المطر الذي ينزل من السماء، فيحيي الأرض الميتة التي لا زرع فيها ولا شجر.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: إن في ذلك الذي سلف ذكره لبرهانا قاطعا، ودليلا ساطعا، على البعث والنشور، وقيام الساعة، فإن أرضا هامدة لا نبات فيها ولا شجر يجيئها الماء فتهتز وتربو، وتنبت من كل زوج بهيج؛ لهي المثال الواضح، والدليل اللائح، على قدرة من أحياها على إحياء العالم بعد موته، حين يقوم الناس لرب العالمين.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: ومن الحجج الدالة على قدرته على ما يشاء قيام السماء والأرض بلا عمد، بل بإقامته وتدبيره، فالأرض تجري، والسحاب يجري حولها، والهواء تبع لها، وهي القمر والسيارات يجرين حول الشمس، والشمس ولواحقها يجرين حول كواكب أخرى، لا نعلم عنها إلا هذه الآثار العلمية الضئيلة.

وقصارى ذلك إلى إمساك هذه العوالم، وإقامتها وتدبيرها وإحكامها من الآيات التي ترشد إلى إله مدبر لها.

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي: ولا يزال الأمر هكذا حتى

---

(١) النازعات: الآيتان (١٣و١٤).

(٢) يس: الآية (٥٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣١٧).

ينتهي أجل الدنيا، ويختل نظام العالم، فتبدل الأرض غير الأرض، وتدك الجبال دكا، وحينئذ تخرجون من قبوركم سراعا حينما يدعوكم الداعي»[١].

قال ابن القيم: «وجعل إراءتهم البرق وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون. فإن هذه أمور مرئية بالأبصار مشاهدة بالحس، فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته وإمكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم كما أحيى هذه الأرض بعد موتها، وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل فإن الحس دل على الآية، والعقل دل على ما جعلت له آية، فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر، والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور»[٢].

* * *

(١) تفسير المراغي (٢١/ ٣٩-٤٠).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٥٢-٥٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قانتون: مطيعون منقادون لأمره وإرادته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولله من في السماوات والأرض من ملك وجن وإنس عبيد وملك ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ يقول: كل له مطيعون، **فيقول قائل**: وكيف قيل: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ وقد علم أن أكثر الإنس والجن له عاصون؟ فنقول: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فنذكر اختلافهم، ثم نبين الصواب عندنا في ذلك من القول، فقال بعضهم: ذلك كلام مخرجه مخرج العموم، والمراد به الخصوص، ومعناه: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ في الحياة والبقاء والموت، والفناء والبعث والنشور، لا يمتنع عليه شيء من ذلك، وإن عصاه بعضهم في غير ذلك.

حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾.. إلى ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ يقول: مطيعون، يعني الحياة والنشور والموت، وهم عاصون له فيما سوى ذلك من العبادة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ بإقرارهم بأنه ربهم وخالقهم.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾: أي مطيع مقر بأن الله ربه وخالقه.

وقال آخرون: هو على الخصوص، والمعنى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من ملك وعبد مؤمن لله مطيع دون غيرهم.

حدثني يونس. قال: أخبرنا ابن وهب. قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ قال: كل له مطيعون، المطيع: القانت. قال: وليس شيء إلا وهو مطيع،

إلا ابن آدم، وكان أحقهم أن يكون أطوعهم لله. وفي قوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[1].

قال: هذا في الصلاة. لا تتكلموا في الصلاة، كما يتكلم أهل الكتاب في الصلاة. قال: وأهل الكتاب يمشي بعضهم إلى بعض في الصلاة. قال: ويتقابلون في الصلاة، فإذا قيل لهم في ذلك، قالوا: لكي تذهب الشحناء من قلوبنا، تسلم قلوب بعضنا لبعض، فقال الله: وقوموا لله قانتين لا تزولوا كما يزولون. قانتين: لا تتكلموا كما يتكلمون. قال: فأما ما سوى هذا كله في القرآن من القنوت فهو الطاعة، إلا هذه الواحدة.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، القول الذي ذكرناه عن ابن عباس، وهو أن كل من في السماوات والأرض من خلق لله مطيع في تصرفه فيما أراد -تعالى ذكره- ، من حياة وموت، وما أشبه ذلك، وإن عصاه فيما يكسبه بقوله، وفيما له السبيل إلى اختياره وإيثاره على خلافه.

وإنما قلت: ذلك أولى بالصواب في تأويل ذلك؛ لأن العصاة من خلقه فيما لهم السبيل إلى اكتسابه كثير عددهم، وقد أخبر -تعالى ذكره- عن جميعهم أنهم له قانتون، فغير جائز أن يخبر عمن هو عاص أنه له قانت فيما هو له عاص. وإذا كان ذلك كذلك، فالذي فيه عاص هو ما وصفت، والذي هو له قانت ما بينت»[2].

* * *

(١) البقرة: الآية (٢٣٨).

(٢) جامع البيان (٢١/ ٣٤-٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

★ غريب الآية:

أهون: أيسر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ﴾ أي: إعادة الخلق بعد موتهم ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول، فإذا كان قادرا على الابتداء الذي تقرون به كانت قدرته على الإعادة التي هي أهون أولى وأولى.

ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به يعتبر المعتبرون ويتذكر المؤمنون ويستبصر المهتدون ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ وهو كل صفة كمال، والكمال من تلك الصفة والمحبة والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين والذكر الجليل والعبادة منهم. فالمثل الأعلى هو وصفه الأعلى وما ترتب عليه.

ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى، فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات فخالقها أحق بالاتصاف بها على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في المخلوق ينزه عنه فتنزيه الخالق عنه من باب أولى وأحرى.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: له العزة الكاملة والحكمة الواسعة، فبعزته أوجد المخلوقات وأظهر المأمورات، وبحكمته أتقن ما صنعه، وأحسن فيها ما شرعه»[1].

قال المراغي: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ أي: وهو يبدأ الخلق من غير أصل له، فينشئه بعد أن لم يكن شيئًا، ثم يفنيه بعد ذلك، ثم

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٢٢-١٢٣).

يعيده كما بدأه، وذلك أسهل عليه على حسب ما يدور في عقول المخاطبين، من أن من فعل شيئًا مرة كانت الإعادة أسهل عليه. والخلاصة: إن الإعادة أسهل على اللَّه من البدء بالنظر لما يفعله البشر مما يقدرون عليه، فإن إعادة شيء من مادته الأولى أهون عليهم من إيجاده ابتداء، والمراد بذلك التقريب لعقول الجهلة المنكرين للبعث، وإلا فكل الممكنات بالنظر إلى قدرته سواء. وقصارى ذلك أنه أهون عليه بالإضافة إلى أعمالكم، وبالقياس إلى أقداركم. روي عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يقول اللَّه تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ اللَّه ولدا، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد**»[١].

﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: وله الوصف البديع في السماوات والأرض، وهو أنه لا إله إلا هو، ليس كمثله شيء، تعالى عن الشبيه والنظير. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يغلب، الحكيم في تدبير خلقه، وتصريف شؤونه فيما أراد، وفق الحكمة والسداد»[٢].

قال ابن القيم: «وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله سبحانه، فإن قلت قد فهمت هذا وعرفته، فما حقيقة المثل الأعلى؟ قلت: قد أشكل هذا على جماعة من المفسرين واستشكلوا قول السلف فيه؛ فإن ابن عباس وغيره قالوا: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ العذاب والنار ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾[٣] شهادة أن لا إله إلا اللَّه. وقال قتادة: هو الإخلاص والتوحيد. وقال الواحدي: هذا قول المفسرين في هذه الآية، ولا أدري لم قيل للعذاب مثل السوء، وللإخلاص المثل الأعلى، قال: وقال قوم المثل السوء الصفة السوء، من احتياجهم إلى الولد، وكراهتهم للإناث خوف العيلة والعار، ولله المثل الأعلى الصفة العليا من تنزهه وبراءته عن الولد، قال: وهذا قول صحيح، فالمثل كثيرا ما يرد بمعنى الصفة، قاله جماعة من المتقدمين. وقال ابن كيسان: مثل السوء ما ضرب اللَّه للأصنام وعبدتها من

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) تفسير المراغي (٢١/ ٤١-٤٢).

(٣) النحل: الآية (٦٠).

الأمثال، والمثل الأعلى نحو قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾[(١)].

وقال ابن جرير: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ نحو قوله: هو الأطيب والأفضل والأحسن والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره. قلت: المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمي، والخبر عنها وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه، فهاهنا أربعة أمور:

ثبوت الصفات العليا لله سبحانه في نفس الأمر، علمها العباد أو جهلوها، وهذا معنى قول من فسره بالصفة.

الثاني: وجودها في العلم والتصور، وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه، وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشترك فيه غيره معه؛ بل يختص به في قلوبهم كما اختص في ذاته، وهذا معنى قول من قال من المفسرين أهل السماء يعظمونه ويحبونه ويعبدونه، وأهل الأرض يعظمونه ويجلونه، وإن أشرك به من أشرك، وعصاه من عصاه، وجحد صفاته من جحدها، فكل أهل الأرض معظمون له مجلون له خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته وجبروته، قال تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾[(٢)]. فلست تجد أحدا من أوليائه وأعدائه إلا والله أكبر في صدره وأكمل وأعظم من كل سواه.

الثالث: ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها عن النقائص والعيوب والتمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده، والإخلاص له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل؛ كان هذا الحب والإخلاص أقوى. فعبارات السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفات الكمال لله سبحانه ونفي صفات النقص عنه

* عن عمران بن حصين ﷺ قال: «دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم فقال: **اقبلوا البشرى يا بني تميم**، قالوا: قد بشرتنا فأعطنا

(١) النور: الآية (٣٥). (٢) البقرة: الآية (١١٦).
(٣) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٣٢-١٠٣٥).

(مرتين)، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال: **اقبلوا البشرى يا أهل اليمن أن لم يقبلها بنو تميم**، قالوا: قد قبلنا يا رسول اللَّه، قالوا: جئنا نسألك عن هذا الأمر، قال: **كان اللَّه ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض**، فنادى منادٍ: ذهبت ناقتك يا بن الحصين، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب، فواللَّه لوددت أني كنت تركتها»[١].

* عن عمر ﷺ قال: «قام فينا النبي ﷺ مقامًا، فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه»[٢].

★ فوائد الحديثين:

قال ابن حجر: «فيه دلالة على أنه لم يكن شيء غيره لا الماء ولا العرش ولا غيرهما لأن كل ذلك غير اللَّه تعالى، ويكون قوله: **«وكان عرشه على الماء»** معناه أنه خلق الماء سابقًا ثم خلق العرش على الماء، وقد وقع في قصة نافع بن زيد الحميري بلفظ: **«كان عرشه على الماء ثم خلق القلم فقال: اكتب ما هو كائن، ثم خلق السماوات والأرض وما فيهن»** فصرح بترتيب المخلوقات بعد الماء والعرش»[٣].

وقال: «في الحديث جواز السؤال عن مبدأ الأشياء والبحث عن ذلك، وجواز جواب العالم بما يستحضره من ذلك، وعليه الكف إن خشي على السائل ما يدخل على معتقده. وفيه أن جنس الزمان ونوعه حادث، وأن اللَّه أوجد هذه المخلوقات بعد أن لم تكن، لا عن عجز عن ذلك بل مع القدرة»[٤].

وقال أيضًا: «قوله: **«حتى دخل أهل الجنة»** هي غاية قوله: **«أخبرنا»** أي أخبرنا عن مبتدأ الخلق شيئًا بعد شيء إلى أن انتهى الإخبار عن حال الاستقرار في الجنة والنار، ووضع الماضي موضع المضارع مبالغة للتحقق المستفاد من خبر الصادق،

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣١-٤٣٢) والبخاري (٦/ ٣٥١-٣٥٢/ ٣١٩١)، وأخرجه مختصرا: الترمذي (٥/ ٦٨٨-٦٨٩/ ٣٩٥١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٣/ ١١٢٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٣٥٢/ ٣١٩٢). (٣) الفتح (٦/ ٣٥٥).

(٤) الفتح (٦/ ٣٥٦).

وكان السياق يقتضي أن يقول: حتى يدخل، ودل ذلك على أنه أخبر في المجلس الواحد بجميع أحوال المخلوقات منذ ابتدئت إلى أن تفنى، إلى أن تبعث، فشمل ذلك الإخبار عن المبدأ والمعاش والمعاد»[١].

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**قال اللَّه تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ اللَّه ولدًا، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد**»[٢].

⋆ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «الشتم هو الوصف بما يقتضي النقص، ولا شك أن دعوى الولد لله يستلزم الإمكان المستدعي للحدوث، وذلك غاية النقص في حق الباري سبحانه وتعالى، والمراد من الحديث هنا قوله: «**ليس يعيدني كما بدأني**» وهو قول منكري البعث من عباد الأوثان»[٣].

وانظر بقية فوائد الحديث عند الآية **١١٦** من سورة البقرة. وأيضًا عند الآية **١٥** من سورة ق.

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لما قضى اللَّه الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي**»[٤].

⋆ فوائد الحديث:

انظر فوائد هذا الحديث عند الآية **١٢** من سورة الأنعام.

* * *

---

(١) الفتح (٦/ ٣٥٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٣-٣٩٤) والبخاري (٨/ ٩٥٨/ ٤٩٧٤) والنسائي (٤/ ٤١٨/ ٢٠٧٧).

(٣) الفتح (٦/ ٣٥٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٩-٢٦٠) والبخاري (٦/ ٣٥٢/ ٣١٩٤) ومسلم (٤/ ٢١٠٧/ ٢٧٥١) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٧/ ٧٧٥٠) وابن ماجه (٢/ ١٤٣٥/ ٤٢٩٥).

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه اللَّه تعالى للمشركين به، العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له، كما كانوا في تلبيتهم يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم، ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: لا يرتضي أحد منكم أن يكون عبده شريكا له في ماله، فهو وهو فيه على السواء ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخافون أن يقاسموكم الأموال.

قال أبو مجلز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك، وليس له ذاك، كذلك اللَّه لا شريك له. والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذلك، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾[1] أي: من البنات، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، وجعلوها بنات اللَّه، وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، فهم يأنفون من البنات. وجعلوا الملائكة بنات اللَّه، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم، فهذا أغلظ الكفر. وهكذا في هذا

(١) النحل: الآية (٦٢).

المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقه، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك، أن يكون عبده شريكه في ماله، يساويه فيه. ولو شاء لقاسمه عليه، تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا.. ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى، قال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ثم قال تعالى مبينًا أن المشركين إنما عبدوا غيره سفها من أنفسهم وجهلا ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: المشركون ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ أي: في عبادتهم الأنداد بغير علم، ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي: فلا أحد يهديهم إذا كتب اللَّه ضلالهم، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ليس لهم من قدرة اللَّه منقذ ولا مجير، ولا محيد لهم عنه؛ لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن»[1].

قال السعدي: «هذا مثل ضربه اللَّه تعالى لقبح الشرك وتهجينه، مثلا من أنفسكم لا يحتاج إلى حل وترحال وإعمال الجمال.

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم، وترون أنكم وهم فيه على حد سواء.

﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: كالأحرار الشركاء في الحقيقة الذين يخاف من قسمه واختصاص كل شيء بماله؟

ليس الأمر كذلك فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكا لكم فيما رزقكم اللَّه تعالى.

هذا، ولستم الذين خلقتموهم ورزقتموهم وهم أيضًا مماليك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكا من خلقه وتجعلونه بمنزلته، وعديلا له في العبادة وأنتم لا ترضون مساواة مماليككم لكم؟

هذا من أعجب الأشياء، ومن أدل شيء على سفه من اتخذ شريكا مع اللَّه، وأن ما اتخذه باطل مضمحل، ليس مساويا لله ولا له من العبادة شيء.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ بتوضيحها بأمثلتها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الحقائق ويعرفون، وأما من لا يعقل فلو فصلت له الآيات، وبينت له البينات، لم يكن له عقل يبصر به

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣١٩-٣٢٠).

ما تبين، ولا لب يعقل به ما توضح، فأهل العقول والألباب هم الذين يساق إليهم الكلام ويوجه الخطاب.

وإذا علم من هذا المثال أن من اتخذ من دون اللَّه شريكا يعبده ويتوكل عليه في أموره، ليس معه من الحق شيء، فما الذي أوجب له الإقدام على أمر باطل توضح بطلانه وظهر برهانه؟ لقد أوجب لهم ذلك اتباع الهوى فلهذا قال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هويت أنفسهم الناقصة التي ظهر من نقصانها ما تعلق به هواها، أمرا يجزم العقل بفساده، والفطر برده، بغير علم دلهم عليه، ولا برهان قادهم إليه.

﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي: لا تعجبوا من عدم هدايتهم، فإن اللَّه تعالى أضلهم بظلمهم ولا طريق لهداية من أضل الله؛ لأنه ليس أحد معارضا لله أو منازعا له في ملكه. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم، حين تحق عليهم كلمة العذاب، وتنقطع بهم الوصل والأسباب»[1].

قال الرازي: «لما بين الإعادة والقدرة عليها بالمثل بعد الدليلين، بين الوحدانية أيضًا بالمثل بعد الدليل، ومعناه أن يكون له مملوك لا يكون شريكا له في ماله ولا يكون له حرمة مثل حرمة سيده، فكيف يجوز أن يكون عباد اللَّه شركاء له؟ وكيف يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة اللَّه تعالى حتى يعبدوا؟ وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ينبغي أن يكون بين المثل والممثل به مشابهة ما، ثم إن كان بينهما مخالفة فقد يكون مؤكدا لمعنى المثل وقد يكون موهنا له وههنا وجه المشابهة معلوم، وأما المخالفة فموجودة أيضًا وهي مؤكدة وذلك من وجوه:

أحدها: قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني ضرب لكم مثلا من أنفسكم مع حقارتها ونقصانها وعجزها، وقاس نفسه عليكم مع عظمها وكمالها وقدرتها.

وثانيها: قوله: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ يعني عبدكم لكم عليهم ملك اليد وهو طارئ قابل للنقل والزوال، أما النقل فبالبيع وغيره والزوال بالعتق، ومملوك اللَّه لا خروج له من ملك اللَّه بوجه من الوجوه، فإذا لم يجز أن يكون مملوك يمينكم

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٢٣-١٢٥).

شريكا لكم مع أنه يجوز أن يصير مثلكم من جميع الوجوه، بل هو في الحال مثلكم في الآدمية حتى أنكم ليس لكم تصرف في روحه وآدميته بقتل وقطع، وليس لكم منعهم من العبادة وقضاء الحاجة، فكيف يجوز أن يكون مملوك اللَّه الذي هو مملوكه من جميع الوجوه شريكا له.

وثالثها: قوله: ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ يعني الذي لكم هو في الحقيقة ليس لكم بل هو من اللَّه ومن رزقه والذي من اللَّه فهو في الحقيقة له، فإذا لم يجز أن يكون لكم شريك في مالكم من حيث الاسم، فكيف يجوز أن يكون له شريك فيما له من حيث الحقيقة. وقوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: هل أنتم ومماليككم في شيء مما تملكون سواء ليس كذلك فلا يكون لله شريك في شيء مما يملكه، لكن كل شيء فهو لله فما تدعون إلهيته لا يملك شيئًا أصلا ولا مثقال ذرة من خردل، فلا يعبد لعظمته ولا لمنفعة تصل إليكم منه، وأما قولكم هؤلاء شفعاؤنا فليس كذلك؛ لأن المملوك هل له عندكم حرمة كحرمة الأحرار؟ وإذا لم يكن للملوك مع مساواته إياكم في الحقيقة والصفة عندكم حرمة، فكيف يكون حال المماليك الذين لا مساواة بينهم وبين المالك بوجه من الوجوه. وإلى هذا أشار بقوله: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

المسألة الثانية: بهذا نفى جميع وجوه حسن العبادة عن الغير لأن الأغيار إذا لم يصلحوا للشركة فليس لهم ملك ولا ملك، فلا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم، ولا يرتجى منهم منفعة لعدم ملكهم حتى يعبدوا لنفع، وليس لهم قوة وقدرة لأنهم عبيد، والعبد المملوك لا يقدر على شيء فلا تخافوهم كما تخافون أنفسكم، فكيف تخافونهم خوفا أكثر من خوفكم بعضًا من بعض حتى تعبدوهم للخوف. ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: نبينها بالدلائل والبراهين القطعية والأمثلة والمحاكيات الإقناعية لقوم يعقلون، يعني لا يخفى الأمر بعد ذلك إلا على من لا يكون له عقل.

ثم قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لا يجوز أن يشرك بالمالك مملوكه ولكن الذين أشركوا اتبعوا أهواءهم من غير علم وأثبتوا شركاء من غير دليل، ثم بين أن ذلك بإرادة اللَّه بقوله: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي: هؤلاء أضلهم اللَّه فلا هادي

لهم، فينبغي أن لا يحزنك قولهم، وههنا لطيفة وهي أن قوله: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ مقو لما تقدم، وذلك لأنه لما قال لأن اللَّه لا شريك له بوجه ما، ثم قال تعالى بل المشركون يشركون من غير علم، يقال فيه أنت أثبت لهم تصرفا على خلاف رضاه، والسيد العزيز هو الذي لا يقدر عبده على تصرف يخالف رضاه، فقال: إن ذلك ليس باستقلاله بل بإرادة اللَّه. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ لما تركوا اللَّه تركهم اللَّه، ومن أخذوه لا يغني عنهم شيئًا فلا ناصر لهم»[١].

قال ابن القيم: «هذا دليل قياس احتج اللَّه سبحانه به على المشركين؛ حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاء، فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم لا يحتاجون فيها إلى غيرهم. ومن أبلغ الحجاج أن يأخذ الإنسان من نفسه ويحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عندها معلوم لها. فقال: هل لكم مما ملكت أيمانكم من عبيدكم وإمائكم شركاء في المال والأهل؟ أي هل يشارككم عبيدكم في أموالكم وأهليكم فأنتم وهم في ذلك سواء تخافون أن يقاسموكم أموالكم ويشاطروكم إياها، ويستأثرون ببعضها عليكم كما يخاف الشريك شريكه؟ وقال ابن عباس: (تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضًا). والمعنى هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويه في التصرف في ذلك فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه كما يخاف غيره من الشركاء والأحرار؟ فإذ لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي؟ فإن كان هذا الحكم باطلا في فطركم وعقولكم -مع أنه جائز عليكم ممكن في حقكم، إذ ليس عبيدكم ملكا لكم حقيقة، وإنما هم إخوانكم جعلهم اللَّه تحت أيديكم، وأنتم وهم عبيد لي- فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم في حقي، مع أن من جعلتموهم لي شركاء عبيدي وملكي وخلقي؟ فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولي العقول»[٢].

* * *

---

(١) التفسير الكبير (٢٥/ ١١٩-١٢٠).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٥٩-١٦٠).

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

★ غريب الآية:

حنيفًا: أي: مائلًا عن الباطل إلى الحق.

القيم: المستقيم الذي لا عوج فيه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه اللَّه لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذي هداك اللَّه لها وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر اللَّه الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[1] وفي الحديث: «**إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم**»[2] وسنذكر في الأحاديث أن اللَّه تعالى فطر خلقه على الإسلام ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ قال بعضهم: معناه لا تبدلوا خلق اللَّه، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم اللَّه عليها، فيكون خبرا بمعنى الطلب كقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾[3] وهو معنى حسن صحيح. وقال آخرون: هو خبر على بابه ومعناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة لا يولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك، ولهذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وابن زيد في قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: لدين اللَّه. وقال البخاري: قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ

---

(١) الأعراف: الآية (١٧٢).

(٢) سياتي تخريجه قريبًا.

(٣) آل عمران: الآية (٩٧).

﴿ٱللَّهِۚ﴾ لدين اللَّه ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[١] دين الأولين، والدين والفطرة: الإسلام.. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا لا يعرفه أكثر الناس، فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾[٣] الآية»[٤].

قال السعدي: «يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال وإقامة دينه فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي: انصبه ووجهه ﴿لِلدِّينِ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تتوجه بقلبك وقصدك وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة؛ كالصلاة والزكاة والصوم والحج ونحوها. وشرائعه الباطنة؛ كالمحبة والخوف والرجاء والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة بأن تعبد اللَّه فيها كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وخص اللَّه إقامة الوجه؛ لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سعي البدن ولهذا قال: ﴿حَنِيفًاۚ﴾ أي: مقبلا على اللَّه في ذلك معرضا عما سواه.

وهذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ ووضع في عقولهم حسنها واستقباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة، قد وضع اللَّه في قلوب الخلق كلهم، الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق وهذا حقيقة الفطرة.

ومن خرج عن هذا الأصل فلعارض عرض لفطرته أفسدها كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[٥]. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: لا أحد يبدل خلق اللَّه، فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه اللَّه، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أمرناك به ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: الطريق المستقيم الموصل

---

(١) الشعراء: الآية (١٣٧).

(٢) يوسف: الآية (١٠٣).

(٣) الأنعام: الآية (١١٦).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٢٠-٣٢٢).

(٥) سيأتي تخريجه قريبا.

إلى اللَّه وإلى دار كرامته، فإن من أقام وجهه للدين حنيفا فإنه سالك الصراط المستقيم في جميع شرائعه وطرقه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا يتعرفون الدين القيم وإن عرفوه لم يسلكوه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أصل خلقة الإنسان وأنه مفطور على التوحيد

* عن عياض بن حمار المجاشعي ﵁ أن النبي ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا: كل مال نحلته عبادًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**»[٢].

* عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟**» ثم يقول أبو هريرة ﵁: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾»[٣].

★ غريب الحديثين:

نحلته: أي: أعطيته.

فاجتالتهم: أي: استخفوهم فذهبوا بهم، وجالوا معهم، وساقوهم إلى ما أرادوه بهم أو بمثله، فسره الهروي وغيره. وقال شمر: اجتال الرجل الشيء: ذهب به وساقه، واجتال أموالهم واستجالها: أي: ساقها وذهب بها.

تنتج البهيمة: معناه: كما تلد البهيمةُ بهيمةً.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٢٥-١٢٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٦٢) ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦-٢٧/ ٨٠٧٠-٨٠٧١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٢) والبخاري (٣/ ٢٨١/ ١٣٥٨) ومسلم (٤/ ٢٠٤٧/ ٢٦٥٨) وأبو داود (٥/ ٨٦-٨٨/ ٤٧١٤) والترمذي (٤/ ٣٨٩/ ٢١٣٨).

جدعاء: الجدعاء: المقطوعة الأذن.

★ **فوائد الحديثين:**

نقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الحافظ ابن عبد البر عدة أقوال في معنى الفطرة متعقبا إياه في أحدها فقال: «قال ابن عبد البر: وقال آخرون معنى قول النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة**» لم يرد رسول اللَّه ﷺ بذكر الفطرة ها هنا كفرا ولا إيمانا، ولا معرفة ولا إنكارا، وإنما أراد أن كل مولود يولد على السلامة خلقة وطبعا وبنية، ليس معها كفر ولا إيمان، ولا معرفة ولا إنكار، ثم يعتقد الكفر أو الإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا. واحتجوا بقوله في الحديث: «**كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء**» يعني سالمة: «**هل تحسون فيها من جدعاء**» يعني مقطوعة الأذن. فمثل قلوب بني آدم بالبهائم؛ لأنها تولد كاملة الخلق، لا يتبين فيها نقصان، ثم تقطع آذانها بعد وأنوفها، فيقال: هذه بحاير وهذه سوايب، يقول: فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لهم كفر حينئذ ولا إيمان، ولا معرفة ولا إنكار، كالبهائم السالمة، فلما بلغوا استهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم، وعصم اللَّه أقلهم، قالوا: ولو كان الأطفال قد فطروا على شيء من الكفر والإيمان في أولية أمرهم، ما انتقلوا عنه أبدا، وقد تجدهم يؤمنون ثم يكفرون ثم يؤمنون. قالوا: ويستحيل في العقول أن يكون الطفل في حال ولادته يعقل كفرا أو إيمانا؛ لأن اللَّه أخرجهم في حال لا يفقهون فيها شيئًا، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[1] فمن لم يعلم شيئًا استحال منه كفر أو إيمان، أو معرفة أو إنكار.

قال أبو عمر: هذا القول أصح ما قيل في معنى الفطرة التي يولد الولدان عليها، وذلك أن الفطرة: السلامة والاستقامة، بدليل قوله في حديث عياض بن حمار: «**إني خلقت عبادي حنفاء**» يعني على استقامة وسلامة، فكأنه -واللَّه أعلم- أراد الذين خلصوا من الآفات كلها والزيادات، ومن المعاصي والطاعات، فلا طاعة منهم ولا معصية إذا لم يعملوا بواحدة منهما. ومن الحجة أيضًا في هذا قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾[3] ومن لم يبلغ وقت

(١) النحل: الآية (٧٨).
(٢) التحريم: الآية (٧).
(٣) المدثر: الآية (٣٨).

العمل لم يرتهن بشيء قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[١].

قلت: هذا القائل إن أراد بهذا القول أنهم خلقوا خالين من المعرفة والإنكار، من غير أن تكون الفطرة تقتضي واحدا منهما؛ بل يكون القلب كاللوح الذي يقبل كتابة الإيمان وكتابة الكفر، وليس هو لأحدهما أقبل منه للآخر، وهذا هو الذي يشعر به ظاهر الكلام -فهذا قول فاسد؛ لأنه حينئذ لا فرق بالنسبة إلى الفطرة بين المعرفة والإنكار، والتهويد والتنصير والإسلام، وإنما ذلك بحسب الأسباب، فكان ينبغي أن يقال: فأبواه يسلمانه ويهودانه وينصرانه ويمجسانه، فلما ذكر أن أبويه يكفرانه، وذكر الملل الفاسدة دون الإسلام علم أن حكمه في حصول ذلك بسبب منفصل غير حكم الكفر.

وأيضًا فإنه على هذا التقدير لا يكون في القلب سلامة ولا عطب، ولا استقامة ولا زيغ، إذ نسبته إلى كل منهما نسبة واحدة، وليس هو بأحدهما أولى منه بالآخر، كما أن الرق قبل الكتابة فيه لا يثبت له حكم مدح كالمصحف، ولا حكم ذم كقرآن مسيلمة، والتراب قبل أن يبنى مسجدا أو كنيسة لا يثبت له حكم واحد منهما. ففي الجملة كل ما كان قابلا للممدوح والمذموم على السواء، لم يستحق مدحا ولا ذما واللّه تعالى يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ فأمره بلزوم فطرته التي فطر الناس عليها، فكيف لا يكون فيها مدح ولا ذم؟

وأيضًا فالنبي ﷺ شبهها بالبهيمة المجتمعة الخلق، وشبه ما يطرأ عليها من الكفر بجدع الأنف والأذن. ومعلوم أن كمالها محمود ونقصها مذموم، فكيف تكون قبل النقص لا محمودة ولا مذمومة؟

وإن كان المراد بهذا القول ما قاله طائفة من الناس من أن المراد: أنهم ولدوا على الفطرة السليمة التي لو تركت مع صحتها لاختارت المعرفة على الإنكار، والإيمان على الكفر، ولكن بما عرض من الفساد خرجت عن هذه الفطرة فهذا القول قد يقال: إنه لا يرد عليه ما يرد على ما قبله فإنه صاحبه يقول: في الفطرة قوة يميل بها إلى المعرفة والإيمان، كما في البدن السليم قوة يحب بها الأغذية النافعة،

---

(١) الإسراء: الآية (١٥).

وبهذا كانت محمودة وذم من أفسدها ، لكن يقال : فهذه الفطرة التي فيها هذه القوة والقبول والاستعداد والصلاحية : هل هي كافية في حصول المعرفة أو تقف المعرفة على أدلة يتعلمها من خارج؟

فإن كانت المعرفة تقف على أدلة يتعلمها من خارج أمكن أن توجد تارة وتعدم أخرى، ثم ذلك السبب الخارج يمتنع أن يكون موجبا للمعرفة بنفسه؛ بل غايته أن يكون معرفا ومذكرا ، فعند ذلك إن وجب حصول المعرفة، كانت المعرفة واجبة الحصول عند وجود تلك الأسباب وإلا فلا ، وحينئذ فلا يكون فيها إلا قبول المعرفة والإيمان إذا وجدت من يعلمها أسباب ذلك .

ومعلوم أن فيها قبول الإنكار والكفر إذا وجدت من يعلمها أسباب ذلك، وهو التهويد والتنصير والتمجيس، وحينئذ فلا فرق فيها بين الإيمان والكفر، والمعرفة والإنكار، إنما فيها قوة قابلة لكل منهما واستعداد له لكن يتوقف على المؤثر الفاعل من خارج . وهذا القسم الأول الذي أبطلناه، وبينا أنه ليس في ذلك مدح للفطرة وإن كان فيها قوة تقتضي المعرفة بنفسها ، وإن لم يوجد من يعلمها أدلة المعرفة، لزم حصول المعرفة فيها بدون ما نسمعه من أدلة المعرفة، سواء قيل : إن المعرفة ضرورية فيها ، أو قيل : إنها تحصل بأسباب كالأدلة التي تنتظم في النفس، من غير أن يسمع كلام مستدل، فإن النفس بفطرتها قد يقوم بها من النظر والاستدلال مالا يحتاج معه إلى كلام أحد، فإن كان كل مولود يولد على هذه الفطرة، لزم أن يكون المقتضى للمعرفة حاصلا لكل مولود، وهو المطلوب . والمقتضى التام يستلزم مقتضاه، فتبين أن أحد الأمرين لازم : إما لكون الفطرة مستلزمة للمعرفة، وإلا استوى الكفر والإيمان بالنسبة إليها ، وذلك ينفي مدحها .

وتلخيص النكتة أن يقال : المعرفة والإيمان بالنسبة إليها ممكن بلا ريب، فإما أن تكون هي موجبة مستلزمة له ، وإما أن يكون ممكنا بالنسبة إليها ، ليس بواجب لازم لها .

فإن كان الثاني ، لم يكن فرق بين الكفر والإيمان، إذ كلاهما ممكن بالنسبة إليها . فتبين أن المعرفة لازمة واجبة لها ، إلا أن يعارضها معارض. فإن قيل : ليست موجبة مستلزمة للمعرفة، ولكنها إليها أميل، مع قبولها للنكرة.

قيل: فحينئذ إذا لم تستلزم المعرفة، وجبت تارة وعدمت أخرى، وهي وحدها لا تحصلها، فلا تحصل إلا بشخص آخر كالأبوين، فيكون الإسلام كالتهويد والتنصير والتمجيس.

ومعلوم أن هذه الأنواع بعضها أبعد عن الفطرة من بعض كالتمجيس، ولكن مع ذلك لما لم تكن الفطرة مقتضية لشيء منها، أضيفت إلى السبب، فإن لم تكن الفطرة مقتضية للإسلام، صار نسبتها إلى ذلك كنسبة التهويد والتنصير إلى التمجيس، فوجب أن تذكر كما ذكر ذلك. وهذا كما أن الفطرة لو لم تقتض الأكل عند الجوع - مع القدرة عليه- لم يوجد الأكل إلا بسبب منفصل.

والنبي ﷺ شبه اللبن بالفطرة لما عرض عليه الخمر واللبن، واختار اللبن، فقال له جبريل: «**أصبت الفطرة، ولو أخذت الخمر لغوت أمتك**»[1].

والطفل مفطور على أنه يختار شرب اللبن بنفسه، فإذا تمكن من الثدي لزم أن يرتضع لا محالة، فارتضاعه ضروري إذا لم يوجد معارض، وهو مولود على أن يرتضع، فكذلك هو مولود على أن يعرف اللّه، والمعرفة ضرورية له لا محالة إذا لم يوجد معارض.

وأيضًا فإن حب النفس وخضوعها لله وإخلاص الدين له مع الكبر والشرك والنفور إما أن يكون نسبتها إلى الفطرة سواء، أو الفطرة مقتضية للأول دون الثاني. فإن كانا سواء، لزم انتفاء المدح كما تقدم، ولم يكن فرق بين دعائها إلى الكفر ودعائها إلى الإيمان، ويكون تمجيسها كتحنيفها، وقد عرف بطلان هذا. وإن كان فيها مقتض لهذا فإما أن يكون المقتضى مستلزمًا لمقتضاه عند عدم المعارض، وإما أن يكون متوقفا على شخص خارج عنها، فإن كان الأول ثبت أن ذلك من لوازمها، وأنها مفطورة عليه، لا تفقد إلا إذا فسدت الفطرة.

وإن قيل: إنه متوقف على شخص، فذلك الشخص هو الذي يجعلها حنيفية كما يجعلها مجوسية. وحينئذ فلا فرق بين هذا وهذا. وإذا قيل: هي إلى الحنيفية أميل، كان كما يقال: هي إلى النصرانية أميل. فتبين أن فيها قوة موجبة لحب اللّه، والذل

---

(١) يشير إلى الحديث الذي أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٢) والبخاري (٦/ ٥٨٩/ ٣٤٣٧) ومسلم (١/ ١٥٤/ ١٦٨) والترمذي (٥/ ٢٨٠/ ٣١٣٠) والنسائي (٨/ ٧١٥/ ٥٦٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

له، وإخلاص الدين له، وأنها موجبة لمقتضاها إذا سلمت من المعارض، كما فيها قوة تقتضي شرب اللبن الذي فطرت على محبته وطلبه.

ومما يبين هذا أن كل حركة إرادية، فإن الموجب لها قوة في المريد، فإذا أمكن في الإنسان أن يحب اللَّه ويعبده ويخلص له الدين، كان فيه قوة تقتضي ذلك، إذ الأفعال الإرادية لا يكون سببها إلا من نفس الحي المريد الفاعل، ولا يشترط في إرادته إلا مجرد الشعور بالمراد، فما في النفوس من قوة المحبة له -إذا شعرت به- يقتضي حبه إذا لم يحصل معارض. وهذا موجود في محبة الأطعمة والأشربة والنكاح، ومحبة العلم، وغير ذلك. وإذا كان كذلك، وقد ثبت أن في النفس قوة المحبة لله والذل له، وإخلاص الدين له، وأن فيها قوة الشعور به -لزم قطعا وجود المحبة فيها، والذل بالفعل لوجود المقتضى الموجب إذا سلم عن المعارض، وعلم أن المعرفة والمحبة لا يشترط فيهما وجود شخص منفصل يكلمها بكلام، وإن كان وجود هذا قد يذكر ويحرك، كما لو خوطب الجائع بوصف طعام أو خوطب المغتلم بوصف النساء، فإن هذا مما يذكر ويحرك، لكن لا يجب ذلك في وجود الشهوة للطعام ووجود الأكل.

فكذلك الأسباب الخارجة لا يتوقف عليها وجود ما في الفطرة من الشعور بالخالق والذل له ومحبته، وإن كان ذلك مذكرًا ومحركًا، أو مزيلًا للمعارض المانع، لكن المقصود أنه لا يحتاج حصول ذلك في الفطرة إليه مطلقا.

وأيضًا فالإقرار بالصانع بدون عبادته، بالمحبة له والذل له وإخلاص الدين له، لا يكون نافعا؛ بل الإقرار مع البعض أعظم استحقاقا للعذاب، فلا بد أن يكون في الفطرة مقتض للعلم ومقتض للمحبة، والمحبة مشروطة بالعلم، فإن ما لا يشعر به الإنسان لا يحبه، والحب للمحبوبات لا يكون بسبب من خارج؛ بل هو جبلي فطري، وإذا كانت المحبة جبلية فطرية فشرطها وهو المعرفة أيضًا- جبلي فطري، فلا بد أن يكون في الفطرة محبة الخالق مع الإقرار به. وهذا أصل الحنيفية التي خلق اللَّه خلقه عليها، وهو فطرة اللَّه التي أمر اللَّه بها وأيضًا فإذا كانت المحبة فطرية، وهي مشروطة بالشعور، لزم أن يكون الشعور أيضًا فطريًا، والمحبة له أيضًا فطرية؛ لأنها لو لم تكن فطرية لكانت النفس قابلة لها ولضدها على السواء، وهذا ممتنع كما تقدم. وإذا كانت في الفطرة أرجح لزم وجودها في الفطرة، وإلا كانت

ممكنة الحصول وعدمه، كما في المجوسية وغيرها من الكفر، فتبقى الحنيفية مع المجوسية، كاليهودية مع المجوسية، وهذا باطل كما تقدم. فعلم أن الحنيفية من موجبات الفطرة ومقتضياتها، والحب لله والخضوع له والإخلاص له هو أصل أعمال الحنيفية وذلك مستلزم للإقرار والمعرفة ولازم اللازم لازم، وملزوم الملزوم ملزوم، فعلم أن الفطرة ملزومة لهذه الأحوال، وهذه الأحوال لازمة لها وهو المطلوب»[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن اللَّه فطر خليقته على محبته والإقبال عليه، وابتغاء الوسيلة إليه، وأنه لا شيء على الإطلاق أحب إليها منه، وإن فسدت فطر أكثر الخلق بما طرأ عليها مما اقتطعها واجتالها عما خُلق فيها، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾، فبيّن سبحانه أن إقامة الوجه - وهو إخلاص القصد وبذل الوسع لدينه المتضمّن محبته وعبادته حنيفًا مقبلًا عليه معرضًا عما سواه- هو فطرته التي فطر عليها عباده، فلو خُلّوا ودواعيَ فطرهم لما رغبوا عن ذلك، ولا اختاروا سواه، ولكن غُيّرت الفطر وأُفسدت، كما قال النبي ﷺ: **«ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها»** ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾.

و﴿مُنِيبِينَ﴾ نُصب على الحال من المفعول؛ أي: فطرهم منيبين إليه، والإنابة إليه تتضمن الإقبال عليه بمحبته وحده، والإعراض عما سواه.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال: **«إن اللَّه أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في مقامي هذا، أنه قال: كل مال نحلتُهُ عبدًا فهو له حلال، وإني خلقتُ عبادي حنفاء فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أُنزّل به سلطانًا، وحرّمت عليهم ما أحللتُ لهم»**، فأخبر سبحانه أنه إنما خلق عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه، والخضوع له، والذل له،

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٤٢-٤٥١).

وكمال طاعته وحده دون غيره.

وهذا من الحق الذي خُلقت له، وبه قامت السماوات والأرض وما بينهما، وعليه قام العالم، ولأجله خُلقت الجنة والنار ولأجله أرسل رسله وأنزل كتبه، ولأجله أهلك القرون التي خرجت عنه وآثرت غيرَه.

فكونه سبحانه أهلًا أن يُعبد ويُحبّ ويُحمد ويُثنى عليه أمر ثابت له لذاته، فلا يكون إلا كذلك، كما أنه الغني القادر الحي القيوم السميع البصير، فهو سبحانه الإله الحق المبين، والإله هو الذي يستحق أن يؤلّه محبة، وتعظيمًا، وخشية، وخضوعًا، وتذللًا، وعبادة، فهو الإله الحق ولو لم يخلق خلقَه، وهو الإله الحق ولو لم يعبدوه.

فهو المعبود حقًّا، المحمود حقًّا، ولو قُدّر أن خلقه لم يعبدوه، ولم يحمدوه، ولم يألهوه، فهو اللَّه الذي لا إله إلا هو قبل أن يخلقهم وبعد أن خلقهم، وبعد أن يفنيهم، لم يستحدث بخلقه لهم ولا بأمره إياهم استحقاق الإلهية والحمد، بل الإلهية وحمده ومجده وغناه أوصاف ذاتية له يستحيل مفارقتها له لحياته ووجوده وقدرته وعلمه وسائر صفات كماله.

فأولياؤه وخاصته وحزبه لما شهدت عقولهم وفطرهم أنه أهل أن يُعبد -وإن لم يُرسل إليهم رسولًا ولم ينزّل عليهم كتابًا ولو لم يخلق جنة ولا نارًا- علموا أنه لا شيء في العقول والفطر أحسن من عبادته، ولا أقبح من الإعراض عنه، وجاءت الرسل، وأُنزلت الكتب لتقرير ما استودع سبحانه في الفطر والعقول من ذلك، وتكميله، وتفضيله، وزيادته حسنًا إلى حسنه، فاتفقت شريعته وفطرته، وتطابقا، وتوافقا، وظهر أنهما من مشكاة واحدة؛ فعبدوه وأحبّوه ومجّدوه وحمدوه؛ بداعي الفطرة، وداعي الشرع، وداعي العقل، فاجتمعت لهم الدواعي ونادتهم من كل جهة، ودعتهم إلى وليهم وإلههم وفاطرهم، فأقبلوا إليه بقلوب سليمة لم يعارض خبره عندها شبهة توجب ريبًا وشكًّا ولا أمره شهوة توجب رغبتها عنه وإيثارها سواه»[1].

وقال أيضًا: «والمقصود أن اللَّه فطر عباده على فطرة فيها الإقرار به، ومحبته،

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٠٣-٥٠٥).

والإخلاص له، والإنابة إليه، وإجلاله وتعظيمه. وأن الشخص الخارج عنها لا يحدث فيها ذلك ويجعلها فيها بعد أن لم تكن، وإنما يذكرها بما فيها وينبهها عليه، ويحركها له، ويفصله لها، ويبينه ويعرفها الأسباب المقوية، والأسباب المعارضة له، والمانعة من كماله. كما أن الشخص الخارج لا يجعل في الفطرة شهوة اللبن عند الرضاع والأكل والشرب والنكاح، وإما تذكّر النفس وتحركها لما هو مركوز فيها بالقوة.. فقد تبين دلالة الكتاب، والسنة، والآثار، واتفاق السلف على أن الخلق مفطورون على دين اللَّه الذي هو معرفته، والإقرار به، ومحبته والخضوع له، وأن ذلك موجب فطرتهم ومقتضاها، يجب حصوله فيها، إن لم يحصل ما يعارضه، ويقتضي حصول ضده. وأن حصول ذلك فيها لا يقف على وجود شرط، بل على انتفاء المانع. فإذا لم يوجد فهو لوجود منافيه لا لعدم مقتضيه. ولهذا لم يذكر النبي ﷺ لوجود الفطرة شرطًا، بل ذكر ما يمنع موجبها حيث قال: «**فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه**» فحصول هذا التهويد والتنصير موقوف على أسباب خارجة عن الفطرة. وحصول الحنيفية والإخلاص ومعرفة الرب والخضوع له لا يتوقف أصله على غير الفطرة، وإن توقف كماله وتفصيله على غيرها. وباللَّه التوفيق.

وقوله فيما يروى عن ربه -تبارك وتعالى-: «**إني خلقتُ عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم**» يتضمن أصلين عظيمين مقصودين لأنفسهما، ووسيلة تعين عليهما. أحدهما: عبادته وحده لا شريك له. والثاني: أنه إنما يُعبد بما شرعه وأحبه وأمر به.

وهذان الأصلان هما المقصود الذي خلق له الخلق فصدّهما الشرك والبدع. فالمشرك يعبد مع اللَّه غيره. وصاحب البدعة يتقرب إلى اللَّه بما لم يأمر به، ولم يشرعه، ولا أحبه. وجعل سبحانه حل الطيبات مما يستعان به على ذلك ويتوسل به إليه.

فمقدار الدين على هذين الأصلين وهذه الوسيلة. فأخبر سبحانه أن الشياطين اقتطعت عباده عن هذا المقصود، وعن هذه الوسيلة، فأمرتهم أن يُشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا. وهذا يتناول الإشراك بالمعبود الحق، بأن يعبد معه غيرُه، والإشراك بعبادته الحقة، بأن تعبد بغير شرعه. وكثيرًا ما يجتمع الشركان فيعبد

المشرك معه غيره بعبادة لم يشرع سبحانه أن يتعبد له بها . وقد ينفرد أحد المشركين فيشرك به غيره في نفس العبادة التي شرعها أو يعبده وحده بعبادة شركية لم يشرعها أو يتوسل إلى عبادته بتحريم ما أحله .

وقد ذم اللّٰه سبحانه المشركين على هذين النوعين في كتابه في سورة (الأنعام) و(الأعراف) وغيرهما ، يذكر فيها ذمهم على ما حرموه من المطاعم والملابس ، وذمهم على ما أشركوا به من عبادة غيره ، أو على ما ابتدعوه من عبادته بما لم يشرعه»[(١)] .

وقال أيضًا : «وهذا الذي أخبر به النبي ﷺ من أن كل مولود يولد على الفطرة الحنيفية هو الذي تقوم الأدلة العقلية على صحته ، وأنه كما أخبر به الصادق المصدوق . ومن خالف ذلك فقد غلط ، وبيان ذلك من وجوه :

أحدها : أن الإنسان قد يحصل له من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقًّا . وقد يحصل له منها ما يكون باطلًا . إذ اعتقاداته قد تكون مطابقة لمعتقدها وهي الحق ، والخبر عنها يسمى صدقًا . وقد تكون غير مطابقة وهي الباطل ، والخبر عنها يسمى كذبًا .

والإرادات تنقسم إلى ما تكون نافعة له متضمنة لمصلحته ، ومرادها هو الخير والحسن . وإلى ما هو ضارة له مخالفة لمصلحته ، ومرادها هو الشر والقبح .

وإذا كان الإنسان تارة يكون معتقدًا للحق مريدًا للخير ، وتارة يكون معتقدًا للباطل مريدًا للشر ، فلا يخلو إما أن تكون نسبة نفسه الباطنة إلى النوعين نسبة واحدة بحيث لا يكون فيها مرجحًا لأحدهما على الآخر ، أو تكون نفسه مرجحة لأحد الأمرين على الآخر . فإن كان الأول لزم أن لا يوجد أحد النوعين إلا بمرجح منفصل عنه . فإذا قُدر رجحان أحدهما ترجّح هذا ، والآخر ترجح هذا . فإما أن يتكافأ المرجّحان أو يترجّح أحدهما . فإن تكافآ لزم أن لا يحصل واحد منهما ، وهو خلاف المعلوم بالضرورة .

فإنا نعلم أنه إذا عرض على كل أحد أن يعتقد الحق ويصدق وأن يريد ما ينفعه ،

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٣٣٤-٣٣٦) .

وعُرض عليه أن يعتقد الباطل ويكذب ويريد ما يضره، مال بفطرته إلى الأول ونفر عن الثاني. فعلم أن فطرة الإنسان قوة تقتضي اعتقاد الحق وإرادة الخير.

وحينئذ الإقرار بوجود فاطره وخالقه، ومعرفته، ومحبته، والإيمان به، وتعظيمه، والإخلاص له، إما أن يكون من النوع الأول، أو الثاني. وكونه من الثاني معلوم الفساد بالضرورة، فتعين أن يكون من الأول. وحينئذ فيجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي محبته ومعرفته والإيمان به والتوسل إليه بمحابّه.

الوجه الثاني: أن عبادته وحده بما يحبه إما أن تكون أكمل للناس علمًا وقصدًا، أو الإشراك به أكمل. والثاني معلوم الفساد بالضرورة فتعين الأول، وهو أن يكون في الفطرة مقتضٍ يقتضي توحيده وتألهه وتعظيمه.

الوجه الثالث: أن الحنيفية التي هي دين اللَّه ولا دين له غيرها، إما أن تكون مع غيرها من الأديان متماثلين، أو الحنيفية أرجح، أو تكون مرجوحة. والأول والثالث باطلان قطعًا. فوجب أن يكون في الفطرة مرجح الحنيفية. وامتنع أن يكون نسبتها ونسبة غيرها من الأديان إلى الفطرة سواء.

الوجه الرابع: أنه إذا ثبت أن في الفطرة قوة تقتضي طلب معرفة الحق وإيثاره على ما سواه، وأن ذلك حاصل مركوز فيها من غير تعلم الأبوين ولا غيرهما. بل لو فرض أن الإنسان تربّى وحده ثم عقل وميّز لوجد نفسه مائلة إلى ذلك نافرة عن ضده، كما تجد الصبي عند أول تمييزه يعلم أن الحادث لا بد له من محدث. فهو يلتفت إذا ضرب من خلفه لعلمه أن تلك الضربة لا بد لها من ضارب، فإذا شعر به بكى حتى يقتصّ له منه فيسكن. فلقد رُكّز في فطرته الإقرار بالصانع، وهو التوحيد، ومحبة القصاص، وهو العدل.

وإذا ثبت ذلك ثبت أن نفس الفطرة مقتضية لمعرفته سبحانه ومحبته وإجلاله وتعظيمه والخضوع له، من غير تعليم ولا دعاء إلى ذلك، وإن لم تكن فطرة كل أحد مستقلة بتحصيل ذلك. بل يحتاج كثير منهم إلى سبب معين للفطرة مقوٍّ لها وقد بيّنا أن هذا السبب لا يحدث في الفطرة ما لم يكن فيها، بل يعينها ويذكرها ويقويها. فبعث اللَّه النبيين مبشرين ومنذرين يدعون العباد إلى موجب هذه الفطرة.

فإذا لم يحصل مانع يمنع الفطرة عن مقتضاها استجابت لدعوة الرسل ولا بد بما

فيها من المقتضي لذلك. كمن دعا جائعًا أو ظمآن إلى شراب وطعام لذيذ نافع لا تبعة فيه عليه ولا يكلفه ثمنه، فإنه ما لم يحصل هناك مانع فإنه يجيبه ولا بد.

الوجه الخامس: أنا نعلم بالضرورة أن الطفل حين ولادته ليس له معرفة بهذا الأمر ولا عنده إرادة له. ويعلم أنه كلما حصل فيه قوة العلم والإرادة حصله له من معرفته بربه ومحبته ما يناسب قوة فطرته وضعفها. وهذا كما يشاهد في الأطفال من محبة جلب المنافع ودفع المضار بحسب كمال التمييز وضعفه، فكلاهما أمر حاصل مع النشأة على التدريج شيئًا فشيئًا إلى أن يصل إلى حده الذي ليس في الفطرة استعداد لأكثر منه، لكن قد يتفق لكثير من الفطر موانع متنوعة تحول بينها وبين مقتضاها وموجبها.

الوجه السادس: أنه من المعلوم أن النفوس إذا حصل لها معلم وداعٍ حصل لها من العلم والإرادة بحسبه. ومن المعلوم أن كل نفس قابلة لمعرفة الحق وإرادة الخير. ومجرد التعليم لا يوجب تلك القابلية. فلولا أن في النفس قوة تقبل ذلك لم يحصل لها القبول. فإن لحصوله في المحل شروطًا مقبولة له. وذلك القبول هو كونه مهيئًا له مستعدًا لحصوله فيه، وقد بيّنا أنه يمتنع أن يكون سببه ذلك وضده إلى النفس سواءً.

الوجه السابع: أنه من المعلوم مشاركة الإنسان لنوع الحيوان في الإحساس، والحركة الإرادية، وجنس الشعور. وأن الحيوان البهيم قد يكون أقوى إحساسًا وحياةً وشعورًا من الإنسان. وليس يقابل لما الإنسان قابل له من معرفة الحق وإرادته دون غيره. فلولا قوة في الفطرة والنفس الناطقة اختص بها الإنسان دون الحيوان يقبل بها أن يعرف الحق ويريد الخير لكان هو والحيوان في هذا العدم سواءً.

وحينئذ يلزم أحد أمرين كلاهما ممتنع؛ إما كون الإنسان فاقدًا لهذه المعرفة والإرادة كغيره من الحيوانات، أو تكون حاصلة لها كحصولها للإنسان. فلولا أن في الفطرة والنفس الناطقة قوة تقتضي ذلك لما حصل لها. ولو كان بغير قوة ومقتضٍ منها لا يمكن حصوله للجمادات والحيوانات، لكن فاطرها وبارئها خصها بهذه القوة القابلة وفطرها عليها.

يوضحه الوجه الثامن: أنه لو كان السبب مجرد التعليم من غير قوة قابلة لحصل

ذلك في الجمادات والحيوانات؛ لأن السبب واحد ولا قوة هناك يهيء بها هذا المحل من غيره، فعلم أن حصول ذلك في محل دون محل هو لاختلاف القوابل والاستعدادات.

الوجه التاسع: أن حصول هذه المعرفة والإرادة في العدم المحض محال، فلا بد من وجود المحل. وحصوله في موجود غير قابل محال، بل لا بد من قبول المحل، وحصوله من غير مدد من الفاعل إلى القابل. فلو قطع الفاعل إمداده لذلك المحل القابل لم يوجد ذلك القبول. فلا بد من الإيجاد والإعداد والإمداد. فإذا استحال وجود القبول من غير إيجاد المحل استحال وجوده من غير إعداده وإمداده. والخلاق العليم سبحانه هو الموجد المعد الممد..

وأتباع الأنبياء إلههم اللَّه الذي لا إله إلا هو الذي ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾[1].

هو الذي فطر القلوب على محبته، والإقرار به، وإجلاله، وتعظيمه، وإثبات صفات الكمال له، وتنزيهه عن صفات النقائص والعيوب، وعلى أنه فوق سماواته، بائن من خلقه، تصعد إليه أعمالهم على تعاقب الأوقات، وترفع إليه أيديهم عند الرغبات، يخافونه من فوقهم ويرجون رحمته تنزل إليهم من عنده، فهممهم صاعدة إلى عرشه تطلب فوقه إلهًا عليًا عظيمًا قد استوى على عرشه واستولى على خلقه، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾[2].

والمقصود: أنه إذا لم يكن في الحسيات الخارجة عن الأذهان ما هو مراد لذاته لم يكن فيها ما يستحق أن يألهه أحد، فضلًا عن أن يكون فيها ما يجب أن يألهه كل أحد. فتبين أنه لا بد من إله معين هو المحبوب المراد لذاته. ومن الممتنع أن يكون هذا غير فاطر السماوات والأرض.

---

(١) طه: الآيات (٤-٨).

(٢) السجدة: الآيتان (٥و٦).

وتبين أنه لو كان في السماوات والأرض إله غيره لفسدتا. وأن كل مولود يولد على محبته ومعرفته وإجلاله وتعظيمه. وهذا دليل مستقلّ كافٍ فيما نحن فيه. وبالله التوفيق»[١].

* عن الأسود بن سريع ﷺ: «**أن رسول الله ﷺ بعث سرية يوم خيبر فقاتلوا المشركين، فأمضى بهم القتل إلى الذرية، فلما جاؤوا قال النبي ﷺ: ما حملكم على قتل الذرية؟ فقالوا: يا رسول الله إنما كانوا أولاد المشركين! قال: وهل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذي نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها**»[٢].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: سئل النبي ﷺ عن ذراري المشركين، فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»[٣].

⋆ فوائد الحديثين:

تقدم الكلام حول ما يتعلق بأولاد المشركين واختلاف العلماء فيهم، وذلك عند قوله تعالى من سورة الإسراء: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الآية (١٥).

* * *

(١) شفاء العليل (٢/ ٣٣٧-٣٤٣) باختصار.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٣٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ١٨٤/ ٨٦١٦) والطبراني في الكبير (١/ ٢٨٣-٢٨٥/ ٨٢٦-٨٣٥) وفي الأوسط (٣/ ٨-٩/ ٢٠٠٥)، والحاكم (٢/ ١٢٣) واللفظ له، من طريقين وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ٣١٦) وقال: «رواه أحمد بأسانيد والطبراني في الكبير والأوسط وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح».

(٣) أخرجه: البخاري (٣/ ٢٤٥/ ١٣٨٣) ومسلم (٤/ ٢٠٤٩/ ٢٦٦٠).

قوله تعالى: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

منيبين: الإنابة: الرجوع إلى اللَّه بالتوبة.

شيعًا: أي: فرقًا وأحزابًا. والشيعة: الجماعة يتعصب بعضهم لبعض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن زيد، وابن جريج: أي راجعين إليه، ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي: خافوه وراقبوه، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ وهي الطاعة العظيمة، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: بل من الموحدين المخلصين له العبادة، لا يريدون بها سواه.. وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أي: بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

وقرأ بعضهم: «فارقوا دينهم» أي: تركوه وراء ظهورهم، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة، مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾[1]، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضًا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم في

(١) الأنعام: الآية (١٥٩).

مستدركه أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم، فقال: «ما أنا عليه وأصحابي»[(١)](٢).

قال السعدي: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين، فإن الإنابة إنابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضي اللّه تعالى.

ويلزم من ذلك عمل البدن بمقتضى ما في القلب، فشمل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة فلذلك قال: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات.

وخص من المأمورات الصلاة بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾(٣) فهذا إعانتها على التقوى.

ثم قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فهذا حثها على الإنابة. وخص من المنهيات أصلها، والذي لا يقبل معه عمل وهو الشرك فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لكون الشرك مضادا للإنابة التي روحها الإخلاص من كل وجه.

ثم ذكر حالة المشركين مهجنا لها ومقبحا فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ مع أن الدين واحد وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرقوه، منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يهود ومنهم نصارى.

ولهذا قال: ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: كل فرقة تحزبت وتعصبت على نصر ما معها من الباطل ومنابذة غيرهم ومحاربتهم.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فَرِحُونَ﴾ به، يحكمون لأنفسهم بأنه الحق وأن غيرهم على باطل، وفي هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم فرقا، كل فريق يتعصب لما معه من حق وباطل، فيكونون مشابهين بذلك للمشركين في التفرق. بل الدين واحد، والرسول واحد، والإله واحد.

---

(١) سيأتي تخريجه قريبا.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٣) العنكبوت: الآية (٤٥).

وأكثر الأمور الدينية وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية قد عقدها اللَّه وربطها أتم ربط، فما بال ذلك كله يلغى ويبنى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية، أو فروع خلافية، يضلل بها بعضهم بعضًا، ويتميز بها بعضهم على بعض؟

فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده التي كاد بها للمسلمين؟

وهل السعي في جمع كلمتهم، وإزالة ما بينهم من الشقاق المبني على ذلك الأصل الباطل، إلا من أفضل الجهاد في سبيل اللَّه، وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟»[١].

قال الرازي: «لما قال حنيفًا أي مائلًا عن غيره قال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: مقبلين عليه، والخطاب في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ مع النبي والمراد جميع المؤمنين، وقوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ يعني: إذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا فلا تأمنوا فتتركوا عبادته، بل خافوه وداوموا على العبادة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: كونوا عابدين عند حصول القربة كما قلتم قبل ذلك، ثم إنه تعالى قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال المفسرون يعني ولا تشركوا بعد الإيمان؛ أي: ولا تقصدوا بذلك غير اللَّه، وههنا وجه آخر وهو أن اللَّه بقوله: ﴿مُنِيبِينَ﴾ أثبت التوحيد الذي هو مخرج عن الإشراك الظاهر، وبقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أراد إخراج العبد عن الشرك الخفي؛ أي: لا تقصدوا بعملكم إلا وجه اللَّه ولا تطلبوا به إلا رضاء اللَّه، فإن الدنيا والآخرة تحصيل وإن لم تطلبوها إذا حصل رضا اللَّه. وعلى هذا فقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ يعني: لم يجتمعوا على الإسلام، وذهب كل أحد إلى مذهب، ويحتمل أن يقال وكانوا شيعا؛ يعني: بعضهم عبد اللَّه للدنيا وبعضهم للجنة وبعضهم للخلاص من النار، وكل واحد بما في نظره فرح، وأما المخلص فلا يفرح بما يكون لديه، وإنما يكون فرحه بأن يحصل عند اللَّه ويقف بين يديه، وذلك لأن كل ما لدينا نافد لقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[٢] فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به، وإنما المطلوب ما لدى اللَّه وبه الفرح

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٢٦-١٢٨).
(٢) النحل: الآية (٩٦).

كما قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[١] جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم ويكون ما أوتوا من فضله الذي لا نفاد له، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾[٢] لا بما عندهم فإن كل ما عند العبد فهو نافد، أما في الدنيا فظاهر، وأما في الآخرة فلأن ما وصل إلى العبد من الالتذاذ بالمأكول والمشروب فهو يزول، ولكن اللّه يجدد له مثله إلى الأبد من فضله الذي لا نفاد له فالذي لا نفاد له هو فضله»[٣].

قال القاسمي: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: كل حزب منهم فرح بمذهبه، مسرور يحسب باطله حقا. قال القاشاني: يعني: المفارقين الدين الحقيقي، المتفرقين شيعا مختلفة، كل حزب عند تكدر الفطرة، وتكاثف الحجاب، يفرح بما يقتضيه استعداده من الحجاب، لكونه مقتضى طبيعة حجابه. فيناسب حاله من الاستعداد العارضي، وإن لم يلائم الحقيقة بحسب الاستعداد. ولهذا يجب به التعذيب عند زوال العارض. اهـ»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم التفرق والتحزب

* عن عبد اللّه بن عمرو قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي**»[٥].

★ **فوائد الحديث:**

انظر فوائده عند الآية ٦٥ من سورة الأنعام.

---

(١) آل عمران: الآيتان (١٦٩و١٧٠).
(٢) يونس: الآية (٥٨).
(٣) التفسير الكبير (٢٥/ ١٢١-١٢٢).
(٤) محاسن التأويل (١٣/ ١٧٩).
(٥) أخرجه: الترمذي (٥/ ٢٦/ ٢٦٤١) وقال: «هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه». والحاكم (١/ ١٢٨-١٢٩)، وفيه عبد الرحمن بن زياد الإفريقي وهو ضعيف. والحديث حسن بشواهده كحديث أبي هريرة ﷺ الذي أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٢) وأبو داود (٥/ ٤/ ٤٥٩٦) والترمذي (٥/ ٢٥/ ٢٦٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

★ غريب الآية:

يقنطون: ييأسون. والقنوط: اليأس من الخير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون اللَّه وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون باللَّه، ويعبدون معه غيره. وقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقييض اللَّه لهم ذلك ثم توعدهم بقوله ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال بعضهم: واللَّه لو توعدني حارس درب لخفت منه، فكيف والمتوعد ههنا هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون؟ ثم قال منكرا على المشركين فيما اختلقوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ أي: ينطق ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ وهذا استفهام إنكار؛ أي: لم يكن شيء من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه اللَّه ووفقه، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾(١) أي:

---

(١) هود: الآية (١٠).

يفرح في نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية، قال اللَّه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1] أي: صبروا في الضراء، وعملوا الصالحات في الرخاء، كما ثبت في الصحيح «**عجبا للمؤمن لا يقضي اللَّه له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[2] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾»[3].

قال الخطيب الشربيني: «لما بين تعالى حال المشرك الظاهر شركه بين تعالى حال المشرك الذي دونه، وهو من تكون عبادته للدنيا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ﴾ معبرا بأداء التحقيق إشارة إلى أن الرحمة أكثر من النقمة، وأسند الفعل إليه في مقام العظمة إشارة إلى سعة جوده فقال: ﴿أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: نعمة من خصب وكثرة مطر وغنى ونحوه لا سبب لها إلا رحمتنا ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ أي: فرح بطر مطمئنين من زوالها ناسين شكر من أنعم بها، ولا ينبغي أن يكون العبد كذلك. فإن قيل: الفرح بالرحمة مأمور به قال تعالى: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾[4] وههنا ذمهم على الفرح بالرحمة؟ أجيب: بأنه هناك فرحوا برحمة اللَّه من حيث إنها مضافة إلى اللَّه، وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير اللَّه لكان فرحهم به مثل فرحهم إذا كان من اللَّه تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ أي: شدة من جذب وقلة مطر وفقر ونحوه ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من السيئات ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي: ييأسون من رحمة اللَّه، وهذا خلاف وصف المؤمنين فإنهم يشكرونه عند النعمة ويرجونه عند الشدة، وقرأ أبو عمرو والكسائي بكسر النون بعد القاف، والباقون بالفتح.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي: يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: يوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ امتحانا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق لمن يشاء ابتلاء، وهذا شأنه دائما مع الشخص الواحد في أوقات متعاقبة متباعدة ومتقاربة ومع الأشخاص ولو في الوقت الواحد، فلو اعتبروا

---

(١) هود: الآية (١١).

(٢) سيأتي تخريجه قريبا.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٢٣-٣٢٤).

(٤) يونس: الآية (٥٨).

حال قبضه سبحانه لم يبطروا، ولو اعتبروا حال بسطه لم يقنطوا بل كان حالهم الصبر في البلاء، والشكر في الرخاء، والإقلاع عن السيئة التي نزل بسببها القضاء.

ولما لم تغن عن أحد منهم في استجلاب الرزق قوته وغزارة عقله ودقة مكره وكثرة حيله، ولا ضره ضعفه وقلة عقله وعجز حيلته، وكان ذلك أمرا عظيما ومنزعا مع شدة ظهوره وجلالته خفيا دقيقا قال بعضهم:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

أشار سبحانه إلى عظمته بقوله مؤكدا؛ لأن عملهم في شدة اهتمامهم بالسعي في الدنيا عمل من يظن أن تحصيله إنما هو على قدر الاجتهاد في الأسباب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر العظيم من الإقتار في وقت والإغناء في آخر، والتوسيع على شخص والتقتير على آخر، والأمن من زوال الحاضر من النعم مع تكرر المشاهد للزوال في النفس والغير واليأس من حصولها عند المحنة مع كثرة وجدان الفرج وغير ذلك من أسرار آلائه ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: دلالات واضحات على الوحدانية لله تعالى، وتمام العلم وكمال القدرة وأنه لا فاعل في الحقيقة إلا هو لكن ﴿لِقَوْمٍ﴾ أي: ذوي همم وكفاية القيام بما يحق لهم أن يقوموا به ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يوجدون هذا الوصف ويديمون تجديده كل وقت لما يتواصل عندهم من قيام الأدلة بإدامة التأمل والإمعان والتفكر والاعتماد في الرزق على من قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾[1] أي: من طالب علم فيعان عليه، فلا يفرحون بالنعم إذا حصلت خوفا من زوالها إذا أراد القادر ذلك، ولا يغتمون بها إذا زالت رجاء في إقبالها فضلا من الرازق؛ لأن أفضل العبادة انتظار الفرج، بل هممهم بما عليهم من وظائف العبادة واجبها ومندوبها، ومعرضون عما سوى ذلك قد وكلوا أمر الرزق إلى من تولى أمره وفرغ من قسمه وقام بضمانه وهو القدير العليم»[2].

قال المراغي: «لما أرشد سبحانه إلى التوحيد، وأقام الأدلة عليه، وضرب له المثل، أعقبه بذكر حال للمشركين يعرفون بها، وسيماء لا ينكرونها، وهي أنهم حين الشدة يتضرعون إلى ربهم، وينيبون إليه، فإذا خلصوا منها رجعوا إلى شنشنتهم

(١) القمر: الآية (١٧).

(٢) السراج المنير (٣/ ٢٢٦-٢٢٧).

الأولى، وأشركوا به الأوثان والأصنام، فليضلوا ما شاؤوا، فإن لهم يوما يرجعون فيه إلى ربهم، فيحاسبهم على ما اجترحوا من السيئات، وليتهم اتبعوا ذلك عن دليل، حتى يكون لهم شبه العذر فيما يفعلون، بل هو الهوى المطاع، والرأي المتبع، ثم ذكر حال طائفة من المشركين دون سابقيهم، وهو من تكون عبادتهم لله رهن إصابتهم من الدنيا، فإن آتاهم ربهم منها رضوا، وإذا منعوا منها سخطوا وقنطوا، وقد كان عليهم أن يعلموا أن بسط النعمة وإقتارها بيده وحده، وقد جعل لذلك أسبابا متى سلكها فاعلها وصل إلى ما يريد، وليس علينا إلا أن تطمئن نفوسنا إلى ما يكون، فكله بقدر اللَّه وقضائه، وعلينا أن نستسلم له، ونعمل ما طلب إلينا عمله من الأخذ في الأسباب والجد في العمل جهد الطاقة»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والإنسان إنما يجأر إذا أصابه الضر. وأما في حال النعمة فهو ساكن، إما شاكرا وإما كفورا ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[2] وهذا المعنى قد ذكره اللَّه في غير موضع، يذم من يشرك به بعد كشف البلاء عنه، وإسباغ النعماء عليه، فيضيف العبد بعد ذلك الإنعام إلى غيره. ويعبد غيره تعالى، ويجعل المشكور غيره على النعم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾[3] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾[4] وقال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾[5] وقوله: ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي: نسي الضر الذي كان يدعو اللَّه لدفعه عنه كما قال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ

---

(١) تفسير المراغي (٢١/٤٨).
(٢) النحل: الآيتان (٥٣و٥٤).
(٣) الروم: الآيتان (٣٣و٣٤).
(٤) الأنعام: الآيتان (٦٣و٦٤).
(٥) الزمر: الآية (٨).

وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾[١] فذم اللَّه سبحانه حزبين: حزبا لا يدعونه في الضراء، ولا يتوبون إليه. وحزبا يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون إليه، فإذا كشف الضر عنهم أعرضوا عنه، وأشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه. فهذا الحزب نوعان -كالمعطلة والمشركة- حزب إذا نزل بهم الضر لم يدعو اللَّه ولم يتضرعوا إليه، ولم يتوبوا إليه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾[٣] وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾[٥] وحزب يتضرعون إليه في حال الضراء ويتوبون إليه، فإذا كشفها عنهم أعرضوا عنه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[٦] وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾[٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾[٨] وقال في المشركين ما تقدم: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾[٩] والممدوح هو القسم الثالث وهم الذين يدعونه، ويتوبون إليه، ويثبتون على عبادته والتوبة إليه في حال السراء، فيعبدونه ويطيعونه في السراء والضراء، وهم أهل الصبر والشكر، كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام. فقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[١٠] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ

---

(١) الأنعام: الآيتان (٤٠و٤١).
(٢) الأنعام: الآيتان (٤٢و٤٣).
(٣) المؤمنون: الآية (٧٦).
(٤) التوبة: الآية (١٢٦).
(٥) السجدة: الآية (٢١).
(٦) يونس: الآية (١٢).
(٧) فصلت: الآية (٥١).
(٨) الإسراء: الآية (٦٧).
(٩) النحل: الآيتان (٥٣و٥٤).
(١٠) الأنبياء: الآيتان (٨٧و٨٨).

وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾[1]»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن أمر المؤمن كله خير

* عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

تقدمت فوائده في تفسير سورة يونس الآية (١٢).

* * *

(١) ص: الآيتان (٣٤و٣٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٦٩-٣٧٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ١٦) ومسلم (٤/ ٢٢٩٥/ ٢٩٩٩).

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ليربو: ليزيد؛ لأن الربا في الأصل: الزيادة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرا بإعطاء ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أي: من البر والصلة ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق عليه، أو له شيء لا يقوم بكفايته ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: النظر إليه يوم القيامة، وهو الغاية القصوى ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا وفي الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند اللَّه بهذا فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب والشعبي، وهذا الصنيع مباح، وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه قد نهى عنه رسول اللَّه ﷺ خاصة قاله الضحاك واستدل بقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾﴾[1] أي، لا تعط العطاء تريد أكثر منه

وقال ابن عباس: الربا رباءان: فربا لا يصح يعني ربا البيع، وربا لا بأس به؛ وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها. ثم تلا هذه الآية ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وإنما الثواب عند اللَّه في الزكاة ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي: الذين يضاعف اللَّه

(١) المدثر: الآية (٦).

لهم الثواب والجزاء»[١].

قال السعدي: «أي: فأعط القريب منك -على حسب قربه وحاجته- حقه الذي أوجبه الشارع أو حض عليه من النفقة الواجبة والصدقة والهدية والبر والسلام والإكرام، والعفو عن زلته، والمسامحة عن هفوته. وكذلك آت المسكين الذي أسكنه الفقر والحاجة، ما تزيل به حاجته وتدفع به ضرورته من إطعامه وسقيه وكسوته.

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الغريب المنقطع به في غير بلده الذي في مظنة شدة الحاجة؛ لأنه لا مال معه ولا كسب يدبر نفسه به في سفره، بخلاف الذي في بلده، فإنه حتى لو لم يكن له مال، فإنه لابد -في الغالب- أن يكون في حرفة أو صناعة ونحوها تسد حاجته، ولهذا جعل اللَّه في الزكاة حصة للمسكين وابن السبيل. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بذلك العمل ﴿وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: خير غزير وثواب كثير؛ لأنه من أفضل الأعمال الصالحة والنفع المتعدي الذي وافق محله المقرون به الإخلاص.

فإن لم يرد به وجه اللَّه لم يكن خيرًا للمعطي، وإن كان خيرًا ونفعا للمعطى كما قال تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[٢] مفهومها أن هذه الأمور خير لنفعها المتعدي ولكن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة اللَّه فسوف نؤتيه أجرا عظيما.

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه اللَّه ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون بثواب اللَّه الناجون من عقابه.

ولما ذكر العمل الذي يقصد به وجهه من النفقات ذكر العمل الذي يقصد به مقصد دنيوي فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ما أعطيتم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم وقصدكم بذلك أن يربو أي: يزيد في أموالكم بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها، فهذا العمل لا يربو أجره عند اللَّه، لكونه معدوم الشرط الذي هو الإخلاص. ومثل ذلك العمل الذي يراد به الزيادة في الجاه والرياء عند الناس، فهذا كله لا يربو عند اللَّه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٢٤-٣٢٥).

(٢) النساء: الآية (١١٤).

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ﴾ أي: مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة، ويطهر أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع حاجة المعطى. ﴿تُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ أي: المضاعف لهم الأجر، الذين تربو نفقاتهم عند اللَّه، ويربيها اللَّه لهم حتى تكون شيئًا كثيرا.

ودل قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ﴾ أن الصدقة مع اضطرار من يتعلق بالمنفق، أو مع دين عليه، لم يقضه، ويقدم عليه الصدقة أن ذلك ليس بزكاة يؤجر عليه العبد ويرد تصرفه شرعا كما قال تعالى في الذي يمدح: ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾[1] فليس مجرد إيتاء المال خيرًا حتى يكون بهذه الصفة وهو: أن يكون على وجه يتزكى به صاحبه»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة اليمين، وفضل الصدقة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب -ولا يقبل اللَّه إلا الطيب- فإن اللَّه يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل**»[3].

★ غريب الحديث:

فلوه: بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو وهو المهر لأنه يفلى أي يفطم، وقيل هو كل فطيم من ذات حافر، والجمع أفلاء كعدو وأعداء. وقال أبو زيد: إذا فتحت الفاء شددت الواو، وإذا كسرتها سكنت اللام كجرو.

★ فوائد الحديث:

تقدم الكلام عن صفة اليمين وحديث أبي هريرة بغريبه وفوائده في سورة التوبة، الآية (١٠٤) فليراجع هناك.

قال ابن العربي: «قوله: «**يربو**» وفي رواية: «**يربيها حتى تكون كالجبل**» عبر به

---

(١) الليل: الآية (١٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٣٢-١٣٤).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣١) والبخاري (٣/ ٣٥٤/ ١٤١٠) ومسلم (٢/ ٧٠٢/ ١٠١٤/ ٦٣-٦٤) والترمذي (٣/ ٤٩-٥٠/ ٦٦١-٦٦٢) والنسائي (٥/ ٦٠-٦١/ ٢٥٢٤) وابن ماجه (١/ ٥٩٠/ ١٨٤٢).

سبحانه عن مضاعفة الثواب على العمل كما يفعل في الصدقة، وكذلك يفعل في قيراط صلاة الجنازة حتى يجعل أصغره كالجبل، وهو أحد. ذلك من فضل اللَّه على حسب ما يعمله من صدق النيات وخلوص الطويات والرغبة في الخيرات والمواظبة على الصالحات، فالأعمال للأعمال كالبنيان يشد بعضه بعضًا. قال وتصديق ذلك في كتاب اللَّه قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[1]»[2].

قال ابن حجر: «ضرب به المثل -يعني الفلو- لأنه يزيد زيادة بينة، ولأن الصدقة نتاج العمل وأحوج ما يكون النتاج إلى التربية إذا كان فطيما، فإذا أحسن العناية به انتهى إلى حد الكمال، وكذلك عمل ابن آدم -لا سيما الصدقة- فإن العبد إذا تصدق من كسب طيب لا يزال نظر اللَّه إليها يكسبها نعت الكمال حتى تنتهي بالتضعيف إلى نصاب تقع المناسبة بينه وبين ما قدم نسبة ما بين التمرة إلى الجبل»[3].

قال ابن العربي: «وجه ضرب المثل في التشبيه بتربية الفلو وهو صغير ذوات الحافر، والفصيل وهو صغير ذوات الخف؛ لأن الولد لا يخلق كبيرا من حين ولادته، ولكن ينمى بنجع الأم به، وتفقدها له بالرضاع ما تركه معها صاحبها، وبالقيام على مصالحه إن حوله عنها، والرفق به، وكذلك صاحب الصدقة إن أتبعها بأمثالها وصانها عن آفاتها، وقرنها بطاعات نمت، وإن اعترض عنها بقيت وحيدة وإن من أربى رباء ربما بطل بذلك ثوابها»[4].

* * *

---

(١) الشورى: الآية (٢٥).

(٢) عارضة الأحوذي (٣/ ١٦٧).

(٣) الفتح (٣/ ٣٥٧) بتصرف يسير.

(٤) عارضة الأحوذي (٣/ ١٦٧-١٦٨).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- للمشركين به، معرفهم قبح فعلهم، وخبث صنيعهم: اللَّه أيها القوم الذي لا تصلح العبادة إلا له، ولا ينبغي أن تكون لغيره، هو الذي خلقكم ولم تكونوا شيئًا، ثم رزقكم وخولكم، ولم تكونوا تملكون قبل ذلك، ثم هو يميتكم من بعد أن خلقكم أحياء، ثم يحييكم من بعد مماتكم لبعث القيامة. .

. . وقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هل من آلهتكم وأوثانكم التي تجعلونهم لله في عبادتكم إياه شركاء من يفعل من ذلكم من شيء، فيخلق، أو يرزق، أو يميت، أو ينشر، وهذا من اللَّه تقريع لهؤلاء المشركين. وإنما معنى الكلام أن شركاءهم لا تفعل شيئًا من ذلك، فكيف يعبد من دون اللَّه من لا يفعل شيئًا من ذلك، ثم برأ نفسه -تعالى ذكره- عن الفرية التي افتراها هؤلاء المشركون عليه بزعمهم أن آلهتهم له شركاء، فقال -جل ثناؤه- ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيها لله وتبرئة ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ يقول: وعلوا له ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول: عن شرك هؤلاء المشركين به»[(١)].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي: هو الخالق الرازق يخرج الإنسان من بطن أمه عريانا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك، والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب. . وقوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾؛ أي: بعد هذه الحياة ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يوم القيامة.

وقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي: الذين تعبدونهم من دون اللَّه. ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل اللَّه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم

---

(١) جامع البيان (٢١/ ٤٨).

القيامة؛ ولهذا قال بعد هذا كله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه وتعاظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو، أو ولد أو والد، بل هو الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد»[١].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي: أوجدكم ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي: أبقاكم، فإن العرض مخلوق وليس بمبقي ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ جمع في هذه الآية بين إثبات الأصلين الحشر والتوحيد، أما الحشر فبقوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ والدليل قدرته على الخلق ابتداء، وأما التوحيد فبقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾. ثم قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: سبحوه تسبيحًا؛ أي: نزهوه ولا تصفوه بالإشراك، وقوله: ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ أي: لا يجوز عليه ذلك، وهذا لأن من لا يتصف بشيء قد يجوز عليه. فإذا قال: سبحوه أي: لا تصفوه بالإشراك، وإذا قال: وتعالى فكأنه قال: ولا يجوز عليه ذلك»[٢].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٢٥).
(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ١٢٨).

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «موقع هذه الآية ومعناها صالح لعدة وجوه من الموعظة، وهي من جوامع كلم القرآن. والمقصد منها هو الموعظة بالحوادث ماضيها وحاضرها للإقلاع عن الإشراك وعن تكذيب الرسول ﷺ»[1].

قال السعدي: «أي: استعلن الفساد في البر والبحر؛ أي: فساد معايشهم ونقصها وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها.

هذه المذكورة ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال فعجل لهم نموذجا من جزاء أعمالهم في الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن أعمالهم التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم ويستقيم أمرهم.

فسبحان من أنعم ببلائه وتفضل بعقوبته، وإلا فلو أذاقهم جميع ما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ والأمر بالسير في الأرض يدخل فيه السير بالأبدان والسير في القلوب للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين.

﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ تجدون عاقبتهم شر العواقب ومآلهم شر مآل، عذاب استأصلهم وذم ولعن من خلق اللّٰه يتبعهم وخزي متواصل، فاحذروا أن تفعلوا

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٠٩).

أفعالهم لئلا يحذى بكم حذوهم، فإن عدل اللَّه وحكمته في كل زمان ومكان»[١].

قال ابن القيم: «ومن آثار الذنوب والمعاصي أنها تحدث في الأرض أنواعا من الفساد في المياه والهواء والزرع والثمار والمساكن. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ قال مجاهد: إذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد، فيحبس اللَّه بذلك القطر، فيهلك الحرث والنسل، واللَّه لا يحب الفساد. ثم قرأ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ ثم قال: أما واللَّه ما هو بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر. وقال عكرمة: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أما إني لا أقول لكم بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء. وقال قتادة: أما البر فأهل العمود، وأما البحر فأهل القرى والريف. قلت: وقد سمى اللَّه تعالى الماء العذب بحرا فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[٢] وليس في العالم بحر حلو خلق واقفا، وإنما هي الأنهار الجارية، والبحر المالح هو الساكن، فتسمى القرى التي على المياه الجارية باسم تلك المياه. وقال ابن زيد: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قال: الذنوب. قلت: أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر، وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون اللام في قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ لام العاقبة والتعليل. وعلى الأول فالمراد بالفساد النقص والشر والآلام التي يحدثها اللَّه في الأرض بمعاصي العباد، فكل ما أحدثوا ذنبا أحدث اللَّه لهم عقوبة، كما قال بعض السلف: كل ما أحدثتم ذنبا أحدث اللَّه لكم من سلطانه عقوبة. والظاهر -واللَّه أعلم- أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ فهذا حالنا. وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة»[٣].

قال المراغي: «بعد أن ذكر أن المشركين عبدوا مع اللَّه سواه، وأشركوا به غيره، والشرك سبب الفساد، كما يرشد إلى ذلك قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٣٥-١٣٦).

(٢) فاطر: الآية (١٢).

(٣) الداء والدواء (ص١٠٣ - ١٠٤).

لَفَسَدَتَاۚ﴾[١] أعقب ذلك ببيان أن الناس قد انتهكوا حرمات اللَّه، واجترحوا المعاصي، وفشا بينهم الظلم والطمع، وأكل القوي مال الضعيف، فصب عليهم ربهم سوط عذابه، فكثرت الحروب، وافتن الناس في أدوات التدمير والإهلاك، فمن غائصات البحار تهلك السفن الماخرة فيها، إلى طائرات قاذفات للحمم والمواد المحرقة، إلى مدافع تحصد الناس حصدا، إلى دبابات سميكة الدروع تهد المدن هدا، وما الحرب القائمة الآن إلا مثال الوحشية الإنسانية، والمجازر البشرية التي سلط اللَّه فيها العالم بعضه على بعض، فارتكب المظالم، واجترح المآثم، والإنسان في كل عصر هو الإنسان. وكما أهلك اللَّه الكافرين قبلهم بكفرهم وظلمهم، يهلك الناس بشؤم معاصيهم وفسادهم، فليجعلوا من سبقهم مثلا لهم، ليتذكروا عقاب اللَّه وشديد عذابه للمشركين.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: ظهر الفساد في العالم بالحروب والغارات، والجيوش والطائرات، والسفن الحربية والغواصات، بما كسبت أيدي الناس من الظلم وكثرة المطامع، وانتهاك الحرمات، وعدم مراقبة الخلاق، وطرح الأديان وراء ظهورهم، ونسيان يوم الحساب، وأطلقت النفوس من عقالها، وعاثت في الأرض فسادا، إذ لا رقيب من وازع نفسي، ولا حسيب من دين يدفع عاديتها، ويمنع أذاها، فأذاقهم اللَّه جزاء بعض ما عملوا من المعاصي والآثام، لعلهم يرجعون عن غيهم، ويتوبون إلى رشدهم، ويتذكرون أن هناك يوما يحاسب الناس فيه على أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرا فشر، فيخيم العدل على المجتمع البشري، ويشفق القوي على الضعيف، ويكون الناس سواسية في المرافق العامة، وحاج المجتمع بقدر الطاقة البشرية.

وبعد أن بين أن ظهور الفساد كان نتيجة أفعالهم أرشدهم إلى أن من كان قبلهم وكانت أفعالهم كأفعالهم أصابهم بعذاب من عنده، وصاروا مثلا لمن بعدهم وعبرة لمن خلفهم قال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ﴾ أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك: سيروا في البلاد فانظروا إلى مساكن

---

(١) الأنبياء: الآية (٢٢).

الذين كفروا بالله من قبلكم وكذبوا رسله، كيف أهلكناهم بعذاب منا، وجعلناهم عبرة لمن بعدهم. ثم بين سبب ما حاق بهم من العذاب فقال: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ فما حل بهم من العذاب كان جزاء وفاقا لكفرهم بآيات ربهم، وتكذيبهم رسله»[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من له معرفة بأحوال العالم ومبدئه يعرف أن جميع الفساد في جوّه ونباته وحيوانه، وأحوال أهله حادث بعد خلقه بأسباب اقتضت حدوثه، ولم تزل أعمال بني آدم ومخالفتهم للرسل تحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام، والأمراض، والأسقام، والطواعين، والقحوط، والجدوب، وسلب بركات الأرض، وثمارها، ونباتها، وسلب منافعها، أو نقصانها أمورًا متتابعة يتلو بعضها بعضًا، فإن لم يتسع علمك لهذا فاكتف بقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾، ونزِّلْ هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أُخر متلازمة، بعضها آخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناس ظلمًا وفجورًا، أحدث لهم ربهم -تبارك وتعالى- من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم ومياههم، وأبدانهم وخلقهم، وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات، ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم.

ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هي اليوم، كما كانت البركة فيها أعظم. وقد روى الإمام أحمد بإسناده: أنه وجد في خزائن بعض بني أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها: هذا كان ينبت أيام العدل. وهذه القصة، ذكرها في مسنده[2] على أثر حديث رواه.

وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عُذِّبت به الأمم السالفة، ثم بقيت منها بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم، حكمًا قسطًا، وقضاءً

---

(١) تفسير المراغي (٢١/ ٥٤-٥٦).

(٢) المسند (٢/ ٢٩٦) وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (١٥/ ٩٤/ ٧٩٣٦): «هذا خبر عن رجل ليس بثقة، وليس بحديث».

عدلًا، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله في الطاعون: «**إنه بقية رجز أو عذاب أُرسل على بني إسرائيل**»[١].

وكذلك سلط اللَّه ﷻ الريح على قوم سبع ليال وثمانية أيام، ثم أبقى في العالم منها بقية في تلك الأيام، وفي نظيرها عظة وعبرة.

وقد جعل اللَّه -سبحانه- أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها في هذا العالم اقتضاء لا بد منه، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سببًا لمنع الغيث من السماء، والقحط والجدب، وجعل ظلم المساكين، والبخس في المكاييل والموازين، وتعدي القوي على الضعيف سببًا لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استُرحموا، ولا يعطفون إن استُعطفوا، وهم في الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت في صور ولاتهم، فإن اللَّه سبحانه بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبها، فتارة بقحط وجدب، وتارة بعدو، وتارة بولاة جائرين، وتارة بأمراض عامة، وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون عنها، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزًّا، لتحق عليهم الكلمة، وليصير كل منهم إلى ما خلق له، والعاقل يسير بصيرته بين أقطار العالم، فيشاهده، وينظر مواقع عدل اللَّه وحكمته، وحينئذ يتبيّن له أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون، وإلى دار البوار صائرون، واللَّه بالغ أمره، لا معقّب لحكمه، ولا رادّ لأمره، وباللَّه التوفيق»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل إقامة الحدود وكون الفساد في الأرض سببه الذنوب والمعاصي

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**حدٌّ يُقام في الأرض خيرٌ من مطرِ أربعين صباحًا**»[٣].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٢) والبخاري (٦/ ٦٣٦/ ٣٤٧٣) ومسلم (٤/ ١٧٣٧/ ٢٢١٨/ ٩٢) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٦٢/ ٧٥٢٤) عن أسامة بن زيد ﷺ.
(٢) زاد المعاد (٤/ ٣٦٢-٣٦٤).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٠٢) والنسائي (٨/ ٤٤٦-٤٤٧/ ٤٩١٩-٤٩٢٠) وابن ماجه (٢/ ٨٤٨/ ٢٥٣٨) وابن حبان (الإحسان ١٠/ ٢٤٤/ ٤٣٩٨).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات، وإذا ارتكبت المعاصي كان سببا في محاق البركات من السماء والأرض، ولهذا إذا نزل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية؛ وهو تركها، فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك اللَّه في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض: «**أخرجي بركاتك فيأكل من الرمانة الفئام من الناس، ويستظلون بقحفها**[1]**، ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس**»[2]. وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول اللَّه ﷺ فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير»[3].

وقال المناوي: «لأن في إقامتها زجرًا للخلق عن المعاصي وسببًا لفتح أبواب السماوات للمطر، وفي العفو عنها والتهاون بها انهماكًا لهم في الإثم، وسببًا لأخذهم بالجدب والسنين، ولأن إقامتها عدل، والعدل خير من المطر، أو المطر يحيي الأرض والعدل يحيي أهلها، ولأن دوام المطر قد يفسد، وإقامتها صلاح محقق، وخوطبوا به لأنهم لا يسترزقون إلا بالمطر، ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾[4]»[5].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا لأن المعاصي سبب لنقص الرزق والخوف من العدو، كما يدل عليه الكتاب والسنة، فإذا أقيمت الحدود ظهرت طاعة اللَّه ونقصت معصية اللَّه تعالى، فحصل الرزق والنصر». اهـ[6]

* عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري أنه كان يحدث أن رسول اللَّه ﷺ مر عليه

---

(١) قحفها: أراد قشرها، تشبيها بقحف الرأس وهو الذي فوق الدماغ، وقيل: ما انفلق من جمجمته وانفصل.

(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه: أحمد (٤/ ١٨١-١٨٢) ومسلم (٤/ ٢٢٥٠-٢٢٥٥/ ٢٩٣٧) والترمذي (٤/ ٤٤٢-٤٤٥/ ٢٢٤٠) وابن ماجه (٢/ ١٣٥٦-١٣٥٩/ ٤٠٧٥). وأخرجه مختصرا دون ذكر محل الشاهد: أبو داود (٤/ ٤٩٦-٤٩٧/ ٤٣٢١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٥/ ١٠٧٨٣) كلهم من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٢٦).

(٤) الذاريات: الآية (٢٢).

(٥) فيض القدير (٢/ ٥٦).

(٦) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٠١-٣٠٢).

بجنازة فقال: «مستريح ومستراح منه»، قالوا: يا رسول الله! ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «**العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة اللَّه** ﷻ، **والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب**»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «قوله: «**مستريح ومستراح منه**» ثم قال: «**العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها**»: أي: من تعبها «**والعبد الفاجر يستريح منه البلاد والعباد والشجر والدواب**». قال الداودي: راحة العباد منه مما يأتي من المنكر، فإن أنكروا عليه نالهم أذاه، وإن تركوا أثموا. وراحة البلاد والدواب من جدبهما لما يأتي من المعاصي فيهلك الحرث والنسل. وقال الباجي: يحتمل أن يكون أذاه للعباد بظلمهم، وأذاه للأرض والشجر والدواب بغصبها ومنعها من حقها، وإتعاب الدواب بما لا يجوز له، وفي مضمون راحته هو من نصب الدنيا راحته ببشرى اللَّه بما له من الخير، ولا تصح الراحة من الدنيا إلا بهذه الراحة الأخرى»[2].

قال الطيبي: «وأما استراحة البلاد والأشجار فإن اللَّه تعالى بقدره يرسل السماء عليكم مدرارًا، ويحيي به الأرض والشجر والدواب بعد ما حبس بشؤم ذنوبه الأمطار»[3].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٩٦-٣٠٤) والبخاري (١١/ ٤٤٠/ ٦٥١٢) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٦٥٦/ ٩٥٠) والنسائي (٤/ ٣٥٠-٣٥١/ ١٩٢٩).

(٢) إكمال المعلم (٣/ ٤١١).

(٣) شرح الطيبي على المشكاة (٤/ ١٣٦٤).

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

★ غريب الآية:

يصدعون: يتفرقون. يقال: تَصَدَّعَ القوم: إذا تفرقوا.

يمهدون: يوطئون ويجعلون لهم مهدًا. يقال: مَهَّدْتُ الأرضَ ومَهَدْتُهَا؛ أي: وَطَّأْتُها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فوجه وجهك يا محمد نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك ﴿لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ لطاعة ربك والملة المستقيمة التي لا اعوجاج فيها عن الحق ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: من قبل مجيء يوم من أيام اللَّه لا مرد له لمجيئه؛ لأن اللَّه قد قضى بمجيئه فهو لا محالة جاء ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ يقول: يوم يجيء ذلك اليوم يصدع الناس يقول: يتفرق الناس فرقتين من قولهم: صدعت الغنم صدعتين: إذا فرقتها فرقتين: فريق في الجنة وفريق في السعير.. ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ من كفر باللَّه فعليه أوزار كفره وآثام جحوده نعم ربه ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ يقول: ومن أطاع اللَّه فعمل بما أمره به في الدنيا وانتهى عما نهاه عنه فيها ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ يقول: فلأنفسهم يستعدون ويسوون المضجع ليسلموا من عقاب ربهم وينجوا من عذابه.. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ باللَّه ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يقول: وعملوا بما أمرهم اللَّه ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ الذي وعد من أطاعه في الدنيا أن يجزيه يوم القيامة ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إنما خص بجزائه من فضله الذين آمنوا وعملوا

الصالحات دون من كفر بالله، إنه لا يحب أهل الكفر به. واستأنف الخبر بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وفيه المعنى الذي وصفت»[١].

قال السعدي: «أي: أقبل بقلبك، وتوجه بوجهك، واسع ببدنك، لإقامة الدين القيم المستقيم، فنفذ أوامره ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وهو يوم القيامة، الذي إذا جاء لا يمكن رده، ولا يرجأ العاملون ليستأنفوا العمل؛ بل فرغ من الأعمال، لم يبق إلا جزاء العمال. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتفرقون عن ذلك اليوم ويصدرون أشتاتا متفاوتين ليروا أعمالهم.

﴿مَن كَفَرَ﴾ منهم ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ من الحقوق التي لله والتي للعباد الواجبة والمستحبة، ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ﴾ لا لغيرهم ﴿يَمْهَدُونَ﴾ أي: يهيئون ولأنفسهم يعمرون آخرتهم ويستعدون للفوز بمنازلها وغرفاتها، ومع ذلك جزاؤهم ليس مقصورا على أعمالهم؛ بل يجزيهم الله من فضله الممدود، وكرمه غير المحدود ما لا تبلغه أعمالهم، وذلك لأنه أحبهم، وإذا أحب الله عبدا صب عليه الإحسان صبا، وأجزل له العطايا الفاخرة، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة.

وهذا بخلاف الكافرين فإن الله لما أبغضهم ومقتهم، عاقبهم وعذبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم فلهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾»[٢].

قال المراغي: «بعد أن نهى الكافر عن بقائه على حاله التي هو عليها خيفة أن يحل به سوء العذاب، أردف ذلك أمر رسوله ومن تبعه بالثبات على ما هم عليه، بعبادتهم الواحد الأحد، قبل أن يأتي يوم الحساب، الذي يتفرق فيه العباد، فريق في الجنة، وفريق في السعير، فمن كفر فعليه وبال كفره، ومن عمل صالحا فقد أعد لنفسه مهادا يستريح عليه بما قدم من صالح العمل، وسينال من فضل ربه وثوابه ورضاه عنه ما لا يخطر له ببال، ولا يدور له في حسبان. والكافر سيلقى في هذا اليوم العذاب والنكال؛ لأن ربه يبغضه ويمقته جزاء ما دسى به نفسه من سيء العمل.

---

(١) جامع البيان (٢١/ ٥١-٥٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٣٦-١٣٧).

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي: فاسلك أيها الرسول الكريم الطريق الذي رسمه لك ربك بطاعته، واتباع نهجه القويم، الذي لا عوج فيه ولا أمت، من قبل أن يجيء ذلك اليوم الذي لا راد له، وهو يوم الحساب الذي كتب اللَّه مجيئه وقدره، وما قدر لا بد أن يكون. ثم ذكر حال الناس يومئذ فقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يومئذ يتفرق الناس بحسب أعمالهم، فريق في الجنة يؤتى ثمرة عمله، وفريق يزجى إلى النار بما اجترح من الآثام، وبما ران على قلبه مما كسبت يداه.

ثم بين أن ما ناله كل منهما من الجزاء كان نتيجة حتمية لعمله فقال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: من كفر باللَّه، ودسى نفسه بما عمل من السيئات، واجترح من الآثام، فعليه وحده أوزار جحوده وكفره بنعم ربه، ومن عمل الصالحات، وأطاع اللَّه فيما به أمر، وعنه نهى، فقد أعد لنفسه العدة، ووطأ لنفسه الفراش حتى لا يقض عليه مضجعه، ويقع في عذاب السعير. ثم بين العلة في تفرقهم فقال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: إنهم يتفرقون ليجازي المؤمنين بالحسنى من فضله، فيكافئ الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء اللَّه من المنح والعطايا. وذكر جزاء الكافرين بما يدل عليه قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: إنه يبغضهم، وذلك يستدعي عقابهم، ولا يخفى ما في ذلك من تهديد ووعيد»[1].

* * *

(١) تفسير المراغي (٢١/ ٥٧-٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يذكر تعالى نعمه على خلقه، في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث عقيبها؛ ولهذا قال: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد، ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: في البحر، وإنما سيرها بالريح، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: في التجارات والمعايش، والسير من إقليم إلى إقليم، وقطر إلى قطر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون اللّٰه على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة، التي لا تعد ولا تحصى»[١].

قال السعدي: «أي: ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى وأنه الإله المعبود والملك المحمود، ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ أمام المطر ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بإثارتها للسحاب، ثم جمعها، فتستبشر بذلك النفوس قبل نزوله.

﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ فينزل عليكم من رحمته مطرا تحيا به البلاد والعباد، وتذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي المنقذة للعباد، الجالبة لأرزاقهم، فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة، الفاتحة لخزائن الرحمة.

﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ في البحر ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ القدري ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتصرف في معايشكم ومصالحكم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ من سخر لكم الأسباب وسير لكم الأمور. فهذا المقصود من النعم أن تقابل بشكر اللّٰه تعالى، ليزيدكم اللّٰه منها ويبقيها عليكم.

وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي، فهذه حال من بدل نعمة اللّٰه كفرا، ومنحته محنة، وهو معرض لها للزوال والانتقال منه إلى غيره»[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٢٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٣٧-١٣٨).

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ لما ذكر أن ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك، ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر أنه بسبب العمل الصالح، لما ذكرنا غير مرة أن الكريم لا يذكر لإحسانه عوضا، ويذكر لأضراره سببا لئلا يتوهم به الظلم فقال: ﴿يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ قيل بالمطر كما قال تعالى: ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾[1] أي: قبل المطر، ويمكن أن يقال مبشرات بصلاح الأهوية والأحوال، فإن الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ عطف على ما ذكرنا؛ أي: ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الأبدان ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ بالمطر، وقد ذكرنا أن الإذاقة تقال في القليل، ولما كان أمر الدنيا قليلا وراحتها نزر قال: ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾، وأما في الآخرة فيرزقهم ويوسع عليهم ويديم لهم ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لما أسند الفعل إلى الفلك عقبه بقوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: الفعل ظاهرا عليه ولكنه بأمر اللّه، ولذلك لما قال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ مسندا إلى العباد ذكر بعده ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: لا استقلال لشيء بشيء وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في الترتيب فنقول في الرياح فوائد، منها إصلاح الهواء، ومنها إثارة السحاب، ومنها جريان الفلك بها فقال: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بإصلاح الهواء، فإن إصلاح الهواء يوجد من نفس الهبوب ثم الأمطار بعده، ثم جريان الفلك، فإنه موقوف على اختبار من الآدمي بإصلاح السفن وإلقائها على البحر ثم ابتغاء الفضل بركوبها.

المسألة الثانية: قال في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾[2] وقال ههنا: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ فخاطب ههنا تشريفا ولأن رحمته قريبا من المحسنين، فالمحسن قريب فيخاطب والمسيء بعيد فلم يخاطبهم، وأيضًا قال هناك ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ وقال ههنا: ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ فأضاف ما أصابهم إلى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن إلى رحمته. وفيه معنيان:

أحدهما: ما ذكرنا أن الكريم لا يذكر لإحسانه ورحمته عوضا، وإن وجد

---

(١) الأعراف: الآية (٥٧).

(٢) الروم: الآية (٤١).

فلا يقول أعطيتك لأنك فعلت كذا بل يقول هذا لك مني. وأما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد عندي.

وثانيهما: أن ما يكون بسبب فعل العبد قليل، فلو قال أرسلت الرياح بسبب فعلكم لا يكون بشارة عظيمة، وأما إذا قال: ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ كان غاية البشارة.

ومعنى ثالث: وهو أنه لو قال بما فعلتم لكان ذلك موهما لنقصان ثوابهم في الآخرة، وأما في حق الكفار فإذا قال بما فعلتم ينبئ عن نقصان عقابهم وهو كذلك.

المسألة الثالثة: قال هناك: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وقال ههنا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قالوا وإشارة إلى أن توفيقهم للشكر من النعم فعطف على النعم.

المسألة الرابعة: إنما أخر هذه الآية لأن في الآيات التي قد سبق ذكرها قلنا إنه ذكر من كل باب آيتين، فذكر من المنذرات ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ والحادث في الجو في أكثر الأمر نار وريح، فذكر الرياح ههنا تذكيرا وتقريرا للدلائل، ولما كانت الريح فيها فائدة غير المطر وليس في البرق فائدة إن لم يكن مطر ذكر هناك خوفا وطمعا، أي قد يكون وقد لا يكون. وذكر ههنا ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ لأن تعديل الهواء أو تصفيته بالريح أمر لازم، وحكمه به حكم جازم»[1].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٥/ ١٣١-١٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مسليا نبيه ﷺ، فيما يلقى من قومه من الأذى فيه بما لقي من قبله من رسله من قومهم، ومعلمه سننه فيهم، وفي قومهم، وأنه سالك به وبقومه سننه فيهم، وفي أممهم: ولقد أرسلنا يا محمد من قبلك رسلا إلى قومهم الكفرة، كما أرسلناك إلى قومك العابدي الأوثان من دون اللّه ﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالواضحات من الحجج على صدقهم، وأنهم لله رسل، كما جئت أنت قومك بالبينات فكذبوهم، كما كذبك قومك، وردوا عليهم ما جاءوهم به من عند اللّه، كما ردوا عليك ما جئتهم به من عند ربك، ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ يقول: فانتقمنا من الذين أجرموا الآثام، واكتسبوا السيئات من قومهم، ونحن فاعلو ذلك كذلك بمجرمي قومك، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: ونجينا الذين آمنوا باللّه وصدقوا رسله، إذ جاءهم بأسنا، وكذلك نفعل بك وبمن آمن بك من قومك، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على الكافرين، ونحن ناصروك ومن آمن بك على من كفر بك، ومظفروك بهم»[1].

قال المراغي: «لما ذكر سبحانه البراهين الساطعة الدالة على الوحدانية والبعث والنشور، ولم يرعو بها المشركون؛ بل لجوا في طغيانهم يعمهون، سلى رسوله ﷺ، فذكر له أنك لست أول من كذب، فكثير ممن قبلك جاءوا أقوامهم بالبينات، فلم تغنهم الآيات والنذر، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر، ونصرنا رسلنا ومن آمن بهم، فلا تبتئس بما كانوا يعملون، ولنجرين عليك وعلى قومك سننا، ولننتقمن منهم، ولننصرنك عليهم، فالعاقبة للمتقين.

---

(١) جامع البيان (٢١/ ٥٣).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: ولقد أرسلنا أيها الرسول رسلا من قبلك إلى أقوامهم الكافرين، كما أرسلناك إلى قومك عابدي الأوثان من دون اللَّه، فجاءوهم بالحجج الواضحة على أنهم من عند اللَّه، فكذبوهم كما كذبك قومك، وردوا عليهم ما جاءوهم به من عنده، كما ردوا عليك ما جئتهم به، فانتقمنا من الذين اجترحوا الآثام، واكتسبوا السيئات من أقوامهم، ونجينا الذين آمنوا باللَّه وصدقوا رسله، ونحن فاعلو ذلك بمجرمي قومك، وبمن آمن بك، سنة اللَّه التي شرعها لعباده، ولن تجد لسنة اللَّه تبديلا. وهذا إخبار من اللَّه سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه، وهو لا يخلف الميعاد.. ولا يخفى ما في هذا من الوعد والبشارة بالظفر على أعدائه، والوعيد والنكال، والخسران في المآل، لمن كذب به من قومه»[1].

قال الرازي: «لما بين الأصلين ببراهين ذكر الأصل الثالث وهو النبوة فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا﴾ أي: إرسالهم دليل رسالتك، فإنهم لم يكن لهم شغل غير شغلك، ولم يظهر عليهم غير ما ظهر عليك ومن كذبهم أصابهم البوار، ومن آمن بهم كان لهم الانتصار. وله وجه آخر يبين تعلق الآية بما قبلها، وهو أن اللَّه لما بين البراهين، ولم ينتفع بها الكفار، سلى قلب النبي ﷺ وقال: حال من تقدمك كان كذلك وجاءوا أيضًا بالبينات، وكان في قومهم كافر ومؤمن كما في قومك، فانتقمنا من الكافرين ونصرنا المؤمنين، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا﴾ وجهان:

أحدهما: فانتقمنا، وكان الانتقام حقا، واستأنف وقال: علينا نصر المؤمنين. وعلى هذا يكون هذا بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد ﷺ؛ أي: علينا نصركم أيها المؤمنون.

والوجه الثاني: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي: نصر المؤمنين كان حقًّا علينا، وعلى الأول لطيفة وعلى الآخر أخرى، أما على الأول فهو أنه لما قال فانتقمنا بين أنه لم يكن ظلما، وإنما كان عدلا حقا، وذلك لأن الانتقام لم يكن إلا بعد كون بقائهم غير مفيد، إلا زيادة الإثم وولادة الكافر الفاجر وكان عدمهم خيرًا من وجودهم الخبيث، وعلى الثاني تأكيد البشارة؛ لأن كلمة (على) تفيد معنى اللزوم، يقال على

---

(١) تفسير المراغي (٢١/ ٥٩-٦٠).

فلان كذا ينبئ عن اللزوم، فإذا قال حقًّا أكد ذلك المعنى، وقد ذكرنا أن النصر هو الغلبة التي لا تكون عاقبتها وخيمة، فإن إحدى الطائفتين إذا انهزمت أولا، ثم عادت آخرا لا يكون النصر إلا للمنهزم، وكذلك موسى وقومه لما انهزموا من فرعون ثم أدركه الغرق لم يكن انهزامهم إلا نصرة، فالكافر إن هزم المسلم في بعض الأوقات لا يكون ذلك نصرة إذ لا عاقبة له»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حصول البشارة والظفر لمن اتبع سنن المرسلين

* عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة**»[2].

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «**«من رد عن عرض أخيه»** في الدين؛ أي: رد على من اغتابه، وشان من أذاه وعابه **«رد الله عن وجهه»** أي: ذاته وخصه؛ لأن تعذيبه أنكى في الإيلام وأشد في الهوان **«النار يوم القيامة»** جزاء بما فعل، وذلك لأن عرض المؤمن كدمه، فمن هتك عرضه فكأنه سفك دمه، ومن عمل على صون عرضه فكأنه صان دمه، فيجازى على ذلك بصونه عن النار يوم القيامة إن كان ممن استحق دخولها، وإلا كان زيادة رفعة في درجاته في الآخرة في الجنة»[3].

وقال أيضًا: «**«من رد عن عرض أخيه»** في الإسلام **«كان له»** أي الرد أي ثوابه

---

(١) التفسير الكبير (٢٥/ ١٣٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٤٩و٤٥٠) والترمذي (٤/ ٢٨٨/ ١٩٣١) وقال: «هذا حديث حسن». قال الشيخ الألباني في غاية المرام (ص: ٢٤٧): «قلت: وهو كما قال إن شاء الله؛ فإن رجال إسناده ثقات رجال مسلم غير مرزوق هذا، فقال الذهبي: ما روى عنه سوى أبي بكر النهشلي. قلت: لكن قال الحافظ في التهذيب: أظنه الذي بعده. ثم قال: تمييز مرزوق أبو بكر التيمي الكوفي مؤذن لتيم. روى عن سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد. وعنه ليث بن أبي سليم وإسرائيل وعمر بن محمد بن زيد العمري والثوري وشريك. ذكره ابن حبان في الثقات وقال: أصله من الكوفة وسكن الري. وقال في ترجمة هذا من التقريب: ثقة. وفي الأول: مقبول. يعني عند المتابعة، فإن كانا واحدا كما هو الظاهر، فهو ثقة والحديث صحيح، وإن كانا اثنين، فهو حسن لأنه قد توبع من قبل شهر».

(٣) فيض القدير (٦/ ١٣٥-١٣٦).

«**حجابا من النار**» يوم القيامة وذلك بظهر الغيب أفضل منه بحضوره، وإذا رد عن عرضه فأحرى أن لا يتولى ذلك فيغتابه؛ بل ينبغي أن يكاشفه فيما ينكر منه، لكن بلطف فذلك من نصره له كما دل عليه خبر «**انصر أخاك ظالما أو مظلوما**»[١][٢].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٠١) والبخاري (٥/ ١٢٤/ ٢٤٤٣-٢٤٤٤) والترمذي (٤/ ٤٥٣/ ٢٢٥٥) عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) فيض القدير (٦/ ١٣٦).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

★ غريب الآية:

كسفًا: جمع كِسْفَة، وهي القطعة.

الودق: المطر. واحدها: ودقة. يقال: وَدَقَتِ السماء تَدِقُ ودقًا: إذا أمطرت.

مبلسين: يائسين متحسرين قد ظهر الحزن عليهم على ما فرط منهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يبين تعالى كيف يخلق السحاب التي ينزل منها الماء فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ إما من البحر على ما ذكره غير واحد، أو مما يشاء الله ﷻ ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: يمده فيكثره وينميه، ويجعل من القليل كثيرا، ينشئ سحابة فترى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالا مملوءة ماء كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾(1) وكذلك قال ههنا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قال مجاهد وأبو عمرو بن العلاء ومطر الوراق

(١) الأعراف: الآية (٥٧).

وقتادة: يعني قطعا. وقال غيره: متراكما، قاله الضحاك. وقال غيره: أسود من كثرة الماء، تراه مدلهما ثقيلا قريبا من الأرض.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: فترى المطر وهو القطر يخرج من بين ذلك السحاب ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: لحاجتهم إليه، يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم. وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قنطين أزلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم، جاءهم على فاقة، فوقع منهم موقعًا عظيمًا. وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ فقال ابن جرير: هو تأكيد وحكاه عن بعض أهل العربية، وقال آخرون: من قبل أن ينزل عليهم المطر ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: الإنزال ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾، ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس، ويكون معنى الكلام: أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله أيضًا قد فات عندهم نزوله وقتا بعد وقت، فترقبوه في إبانه فتأخر، ثم مضت مدة فترقبوه فتأخر، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط، فبعدما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يعني المطر ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾. ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ يابسة على الزرع الذي زرعوه، ونبت وشب واستوى على سوقه، فرأوه مصفرا؛ أي: قد اصفر وشرع في الفساد، لظلوا من بعده؛ أي: بعد هذا الحال يكفرون؛ أي: يجحدون ما تقدم من النعم كما قال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾[1]»[2].

---

(١) الواقعة: الآيات (٦٣-٦٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٢٨-٣٢٩).

قال المراغي: «عود على بدء، بعد أن سلى رسوله ﷺ على ما يلاقيه من أذى قومه ببيان أنه ليس ببدع في الرسل، فكائن من رسول قبله قد كذب، ثم دالت الدولة على المكذبين، ونصر الله رسوله والمؤمنين، أعاد الكرة مرة أخرى، فأتبع البرهان بالبرهان لإثبات الوحدانية، وإمكان البعث والنشور بما يشاهد من الأدلة في الآفاق، مرشدة إلى قدرته، وعظيم رحمته، ثم بما يرى في الأرض الموات من إحيائها بالمطر، وهو دليل لائح يشاهدونه، ولا يغيب عنهم الحين بعد الحين، والفينة بعد الفينة، أفليس فيه حجة لمن اعتبر ومقنع لمن ادكر؟

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: الله الذي يرسل الرياح فتنشئ سحابا فينشره ويجمعه جهة السماء، تارة سائرا، وأخرى واقفا، وحينا قطعا، فترى المطر يخرج من وسطه، فإذا أصاب به بعض عباده فرحوا به لحاجتهم إليه. ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: وقد كانوا من قبل أن ينزل عليهم قانطين يائسين من نزوله، فلما جاءهم على فاقة وحاجة وقع منهم موقعا عظيما.

والخلاصة أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبل ذلك أيضًا، إذ هم ترقبوه في إبانه فتأخر، ثم مضت فترة فترقبوه فتأخر، ثم جاء بغتة بعد اليأس والقنوط، وبعد أن كانت أرضهم هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي: فانظر أيها الرسول أثر الغيث الذي أنبت به ما أنبت من الزرع والأشجار والثمار، وفيه الدليل الكافي على عظيم القدرة وواسع الرحمة. وإذ قد ثبتت قدرته على إحياء الميت من الأرض بالغيث ثبتت قدرته على إحياء الأجسام بعد موتها وتفرقها وتمزقها إربا إربا، ومن ثم قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: إن ذلك الذي قدر على إحياء الأرض قادر على إحياء الأجسام حين البعث. ثم أكد هذا بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء، فإحياؤكم من قبوركم هين عليه، ونحو الآية قوله: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1].

---

(١) يس: الآيتان (٧٨و٧٩).

ثم ذمهم على تزلزلهم وسوء اضطرابهم، فإذا أصابهم الخير فرحوا به، وإن أصابهم السوء يئسوا وأبلسوا، وانقطع رجاؤهم من الخير، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: ولئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة على الزرع الذي زرعوه ونما واستوى على سوقه، فرأوه قد اصفر بعد خضرته ونضرته لظلوا من بعد ذلك الاستبشار والرجاء يجحدون نعم اللَّه السابقة عليهم. ولا يخفى ما في ذلك من المبالغة في احتقارهم لتزلزلهم في عقيدتهم، إذ كان الواجب عليهم أن يتوكلوا على اللَّه في كل حال، ويلجؤوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم المطر، ولا ييأسوا من روح اللَّه، ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم -جل وعلا- برحمته، وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه، لكنهم قد عكسوا الأمر، وأبوا ما يجديهم وأتوا بما يؤذيهم»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن سب الريح وكونها جند من جنود الله

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تسبوا الريح، فإنها من روح اللَّه تأتي بالرحمة والعذاب. ولكن سلوا اللَّه من خيرها وتعوذوا باللَّه من شرها**»[2].

★ فوائد الحديث:

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «قوله: «**لا تسبّوا الريح**»: أي: لا تشتموها ولا تلعنوها للحوق ضرر فيها، فإنها مأمورة مقهورة، فلا يجوز سبها، بل تجب التوبة عند التضرر بها، وهو تأديب من اللَّه تعالى لعباده، وتأديبه رحمة للعباد، فلهذا جاء في حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**الريح من روح اللَّه تأتي بالرحمة والعذاب، فلا تسبّوها ولكن سلوا اللَّه من خيرها وتعوّذوا باللَّه من شرها**» رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه. وكونها قد تأتي بالعذاب لا ينافي كونها من رحمة اللَّه. وعن ابن عباس أن رجلًا لعن الريح عند النبي ﷺ فقال: «**لا تلعنوا الريح،**

---

(١) تفسير المراغي (٢١/ ٦١-٦٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٠) أبو داود (٥/ ٣٢٨-٣٢٩/ ٥٠٩٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٣١/ ١٠٧٦٧) وابن ماجه (٢/ ١٢٢٨/ ٣٧٢٧) والحاكم (٤/ ٢٨٥) وقال: «حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي. وابن حبان (٣/ ٢٨٧/ ١٠٠٧ الإحسان).

فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئًا ليس له بأهل رجعت اللعنة إليه»[1]. رواه الترمذي، وقال: غريب.

قال الشافعي: لا ينبغي شتم الريح فإنها خلق مطيع لله، وجند من جنوده، يجعلها الله رحمة إذا شاء، ونقمة إذا شاء»[2].

قوله: «ولكن سلوا الله من خيرها، وتعوذوا بالله من شرها» قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «أمر بالرجوع إلى خالقها وآمرها الذي أزمة الأمور كلها بيده ومصدرها عن قضائه، فما استجلبت نعمة بمثل طاعته وشكره، ولا استدفعت نقمة بمثل الالتجاء إليه والتعوذ به، والاضطرار إليه والاستكانة له ودعائه والتوبة إليه والاستغفار من الذنوب. قالت عائشة كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: **«اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل وأدبر وأقبل، فإذا مطرت سري ذلك عنه، فعرفت عائشة ذلك فسألته فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾**[3]» رواه البخاري ومسلم[4]. فهذا ما أمر به وفعله عند الريح وغيرها من الشدائد المكروهات، فأين هذا ممن يستغيث بغير الله من الطواغيت والأموات، فيقولون: يا فلان الزمها أو أزلها فالله المستعان»[5].

وقال الشيخ العثيمين: «وتصريفها -أي: الريح- من آيات الله ﷻ فأحيانًا تكون شديدة تقلع الأشجار وتهدم البيوت وتدفن الزروع ويحصل معها فيضانات عظيمة، وأحيانًا تكون هادئة، وأحيانًا تكون باردة، وأحيانًا حارة، وأحيانًا عالية، وأحيانًا نازلة، كل هذا بقضاء الله وقدره، ولو أن الخلق اجتمعوا كلهم على أن يصرفوا الريح عن جهتها التي جعلها الله عليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ولو

---

(١) أخرجه: أبو داود (٥/ ٢١٢/ ٤٩٠٨) والترمذي (٤/ ٣٠٩/ ١٩٧٨) وقال: «حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وابن حبان (١٣/ ٥٥-٥٦/ ٥٧٤٥ الإحسان).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص٦٩٢ - ٦٩٣).

(٣) الأحقاف: الآية (٢٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٤٠-٢٤١) والبخاري (٦/ ٣٦٩/ ٣٢٠٦) ومسلم (٢/ ٦١٦/ ٨٩٩[١٥]) والترمذي (٥/ ٣٥٦/ ٣٢٥٧) والنسائي في الكبرى (١/ ٥٦٢/ ١٨٣١) وابن ماجه (٢/ ١٢٨٠-١٢٨١/ ٣٨٩١).

(٥) تيسير العزيز الحميد (ص٦٩٣).

اجتمعت جميع المكائن العالمية النفاثة لتوجد هذه الريح الشديدة ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا ، ولكن اللَّه ﷻ بقدرته يصرفها كيف يشاء وعلى ما يريد، فهل يحق للمسلم أن يسب هذه الريح؟

الجواب: لا ؛ لأن هذه الريح مسخرة مدبرة، وكما أن الشمس أحيانًا تضر بإحراقها بعض الأشجار، ومع ذلك لا يجوز لأحد أن يسبها ، فكذلك الريح، ولهذا قال: «**لا تسبوا الريح**»»[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى والرسائل (١٠/ ٩٦٥).

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٥٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿فَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يقول: لا تجعل لهم أسماعا يفهمون بها عنك ما تقول لهم، وإنما هذا مثل معناه: فإنك لا تقدر أن تفهم هؤلاء المشركين الذين قد ختم اللّه على أسماعهم، فسلبهم فهم ما يتلى عليهم من مواعظ تنزيله، كما لا تقدر أن تفهم الموتى الذين قد سلبهم اللّه أسماعهم بأن تجعل لهم أسماعا.

وقوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ يقول: وكما لا تقدر أن تسمع الصم الذين قد سلبوا السمع الدعاء إذا هم ولوا عنك مدبرين، كذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء الذين قد سلبهم اللّه فهم آيات كتابه لسماع ذلك وفهمه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: هذا مثل ضربه اللّه للكافر، فكما لا يسمع الميت الدعاء كذلك لا يسمع الكافر ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ يقول: لو أن أصم ولى مدبرا ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع ولا ينتفع بما يسمع. وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وما أنت يا محمد بمسدد من أعماه اللّه عن الاستقامة ومحجة الحق فلم يوفقه لإصابة الرشد، فصارفه عن ضلالته التي هو عليها وركوبه الجائر من الطرق إلى سبيل الرشاد يقول: ليس ذلك بيدك ولا إليك، ولا يقدر على ذلك أحد غيري لأني القادر على كل شيء. وقيل: بهادي العمي عن ضلالتهم. ولم يقل: من ضلالتهم لأن معنى الكلام ما وصفت من أنه: وما أنت بصارفهم عنه، فحمل على المعنى. ولو قيل: من ضلالتهم كان صوابا وكان معناه:

ما أنت بمانعهم من ضلالتهم.

وقوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه: ما تسمع السماع الذي ينتفع به سامعه فيعقله إلا من يؤمن بآياتنا؛ لأن الذي يؤمن بآياتنا إذا سمع كتاب اللَّه تدبره وفهمه وعقله وعمل بما فيه وانتهى إلى حدود اللَّه الذي حد فيه، فهو الذي يسمع السماع النافع. وقوله: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ يقول: فهم خاضعون لله بطاعته متذللون لمواعظ كتابه»[(١)].

قال ابن عاشور: «إن تعداد التشابيه منظور فيه إلى اختلاف أحوال طوائف المشركين فكان لكل فريق تشبيه. فمنهم من غلب عليهم التوغل في الشرك، فلا يصدقون بما يخالفه ولا يتأثرون بالقرآن والدعوة إلى الحق فهؤلاء بمنزلة الأموات أشباح بلا إدراك، وهؤلاء هم دهماؤهم وأغلبهم ولذلك ابتدئ بهم. ومنهم من يعرض عن استماع القرآن وهم الذين يقولون: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾[(٢)] ويقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾[(٣)] وهؤلاء هم ساداتهم ومدبروا أمرهم يخافون إن أصغوا إلى القرآن أن يملك مشاعرهم، فلذلك يتباعدون عن سماعه، ولهذا قيد الذي شبهوا به بوقت توليهم مدبرين إعراضا عن الدعوة فهو تشبيه تمثيل.

ومنهم من سلكوا مسلك ساداتهم واقتفوا خطاهم، فانحرفت أفهامهم عن الصواب فهم يسمعون القرآن ولا يستطيعون العمل به، وهؤلاء هم الذين اعتادوا متابعة أهوائهم وهم الذين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[(٤)]. ويحصل من جميع ذلك تشبيه جماعتهم بجماعة تجمع أمواتا وصما وعميا فليس هذا من تعدد التشبه لمشبه واحد»[(٥)].

قال الرازي: «لما علم رسوله أنواع الأدلة وأصناف الأمثلة ووعد وأوعد ولم يزدهم دعاؤه إلا فرارا، وإنباؤه إلا كفرا وإصرارا، قال له: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الترتيب، فنقول إرشاد الميت محال، والمحال أبعد من الممكن، ثم إرشاد الأصم صعب فإنه لا يسمع الكلام وإنما يفهم ما يفهمه بالإشارة

---

(١) جامع البيان (٢١/ ٥٥-٥٦).
(٢) فصلت: الآية (٥).
(٣) فصلت: الآية (٢٦).
(٤) الزخرف: الآية (٢٢).
(٥) التحرير والتنوير (٢١/ ١٢٦).

لا غير، والإفهام بالإشارة صعب، ثم إرشاد الأعمى أيضًا صعب، فإنك إذا قلت له الطريق على يمينك يدور إلى يمينه، لكنه لا يبقى عليه بل يحيد عن قريب، وإرشاد الأصم أصعب، فلهذا تكون المعاشرة مع الأعمى أسهل من المعاشرة مع الأصم الذي لا يسمع شيئًا؛ لأن غاية الإفهام بالكلام، فإن ما لا يفهم بالإشارة يفهم بالكلام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالإشارة، فإن المعدوم والغائب لا إشارة إليهما فقال أولا: لا تسمع الموتى، ثم قال: ولا الأصم، ولا تهدي الأعمى الذي دون الأصم.

المسألة الثانية: قال في الصم ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ ليكون أدخل في الامتناع، وذلك لأن الأصم وإن كان يفهم فإنما يفهم بالإشارة، فإذا ولى ولا يكون نظره إلى المشير فإنه يسمع ولا يفهم.

المسألة الثالثة: قال في الأصم: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ ولم يقل في الموتى ذلك؛ لأن الأصم قد يسمع الصوت الهائل كصوت الرعد القوي، ولكن صوت الداعي لا يبلغ ذلك الحد. فقال إنك داع لست بملجىء إلى الإيمان والداعي لا يسمع الأصم الدعاء.

المسألة الرابعة: قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ﴾ أي: ليس شغلك هداية العميان كما يقول القائل فلان ليس بشاعر وإنما ينظم بيتا وبيتين، أي ليس شغله ذلك فقوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ نفى ذلك عنه، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ﴾ يعني: ليس شغلك ذلك، وما أرسلت له.

ثم قال تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ لما نفى إسماع الميت والأصم وأثبت إسماع المؤمن بآياته لزم أن يكون المؤمن حيا سميعا، وهو كذلك لأن المؤمن ترد على قلبه أمطار البراهين فتنبت في قلبه العقائد الحقة، ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الأفعال الحسنة، وهذا يدل على خلاف مذهب المعتزلة فإنهم قالوا اللَّه يريد من الكل الإيمان، غير أن بعضهم يخالف إرادة اللَّه، وقوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ﴾ دليل على أنه يؤمن فيسمعه النبي ﷺ ما يجب أن يفعل، فهم مسلمون مطيعون كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[1]»[2].

---

(١) البقرة: الآية (٢٨٥).

(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ١٣٥-١٣٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيما جاء في عذاب القبر وسماع الأموات

* عن عائشة ﵂: «أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر فقالت لها: أعاذك اللَّه من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول اللَّه ﷺ عن عذاب القبر فقال: نعم، عذاب القبر، قالت عائشة ﵂: فما رأيت رسول اللَّه ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر». زاد غندر: «**عذاب القبر حق**»[(١)].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «هذا الحديث وما في معناه يدل على صحة اعتقاد أهل السنة في عذاب القبر وأنه حق، ويرد على المبتدعة المخالفين في ذلك»[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر: «وقع عند مسلم من طريق ابن شهاب عن عروة عن عائشة قالت: «دخلت علي امرأة من اليهود وهي تقول: هل شعرت أنكم تفتنون في القبور؟ قالت: فارتاع رسول اللَّه ﷺ وقال: إنما يفتن يهود. قالت عائشة: فلبثنا ليالي ثم قال رسول اللَّه ﷺ: **هل شعرت أنه أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور**. قالت عائشة: فسمعت رسول اللَّه ﷺ يستعيذ من عذاب القبر»[(٣)] وبين هاتين الروايتين مخالفة؛ لأن في هذه أنه أنكر على اليهودية وفي الأولى أنه أقرها.. فالذي أنكره النبي ﷺ إنما هو وقوع عذاب القبر على الموحدين، ثم أعلم أن ذلك قد يقع على من يشاء اللَّه منهم، فجزم به وحذر منه وبالغ في الاستعاذة منه تعليما لأمته وإرشادا، فانتفى التعارض بحمد اللَّه تعالى. وفيه دلالة على أن عذاب القبر ليس بخاص بهذه الأمة»[(٤)].

وقال القرطبي: «ارتياع النبي ﷺ عند إخبار اليهودية بعذاب القبر إنما هو على جهة استبعاد ذلك للمؤمن، إذ لم يكن أوحي إليه في ذلك شيء، ولذلك حققه على اليهود فقال: «**إنما تفتن يهود**»، على ما كان عنده من علم ذلك، ثم أخبر أنه أوحي

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ١٧٤) والبخاري (٣/ ٢٩٧-٢٩٨/ ١٣٧٢) ومسلم (١/ ٤١١/ ٥٨٦(١٢٦)) والنسائي (٣/ ٦٣-٦٤/ ١٣٠٧) دون ذكر قصة اليهودية.

(٢) المفهم (٢/ ٢٠٧).

(٣) أخرجه: مسلم (١/ ٤١٠-٤١١/ ٥٨٤) والنسائي (٤/ ٤١٠/ ٢٠٦٣).

(٤) الفتح (٣/ ٣٠٢-٣٠٣).

إليه بوقوع ذلك، وحينئذ تعوذ منه، ولما استعظم الأمر واستهوله أكثر الاستعاذة منه، وعلمها وأمر بها، وبإيقاعها في الصلاة، ليكون أنجح في الإجابة، وأسعف في الطلبة، إذ الصلاة من أفضل القرب، وأرجى للإجابة»[1].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وقف النبي ﷺ على قليب بدر فقال: «**هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟**» ثم قال: «**إنهم الآن يسمعون ما أقول**». فذكر لعائشة، فقالت: «إنما قال النبي ﷺ: **إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق**»، ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ حتى قرأت الآية[2].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رسول اللّه ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثًا، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم، فقال: **يا أبا جهل بن هشام! يا أمية ابن خلف! يا عتبة بن ربيعة! يا شيبة بن ربيعة! أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا**. فسمع عمر قول النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيفوا؟ قال: **والذي نفسي بيده! ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا**. ثم أمر بهم فسحبوا، فألقوا في قليب بدر»[3].

* عن أبي طلحة رضي الله عنه: «أن نبي اللّه ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش، فقذفوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركى فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم. **يا فلان ابن فلان! ويا فلان ابن فلان! أيسركم أنكم أطعتم اللّه ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟** قال: فقال عمر: يا رسول اللّه ما تكلم من أجساد لا أرواح لها: فقال رسول اللّه ﷺ: **والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما**

---

(١) المفهم (٢/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١) والبخاري (٧/ ٣٨٣/ ٣٩٨٠-٣٩٨١) ومسلم (٢/ ٦٤٣/ ٩٣٢) والنسائي (٤/ ٤١٦-٤١٧/ ٢٠٧٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٨٧) ومسلم (٤/ ٢٢٠٣/ ٢٨٧٤) والنسائي (٤/ ٤١٦/ ٢٠٧٤).

أقول منهم». قال قتادة: «أحياهم اللَّه حتى أسمعهم قوله، توبيخًا وتصغيرًا ونقمةً وحسرةً وندمًا»[1].

★ فوائد الأحاديث:

تقدمت فوائد هذه الأحاديث عند الآية ٨٠ من سورة النمل.

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٩) والبخاري (٧/ ٣٨٢/ ٣٩٧٦) ومسلم (٤/ ٢٢٠٤/ ٢٨٧٥). وأخرجه مختصرًا أبو داود (٣/ ١٤٣-١٤٤/ ٢٦٩٥)، والترمذي (٤/ ١٠٣/ ١٥٥١) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قد بين تعالى الضعف الأول الذي خلقهم منه في آيات من كتابه، وبين الضعف الأخير في آيات أخر، قال في الأول: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾[1] وقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾[2] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾[3] الآية. وقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾[4] وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في الضعف الثاني: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾[6] وقال: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾[7] إلى غير ذلك من الآيات، وأشار إلى القوة بين الضعفين في آيات من كتابه كقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[8]»[9].

قال ابن كثير: «ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالًا بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم يصير عظامًا، ثم يكسى لحمًا، وينفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفًا نحيفًا واهن القوى، ثم يشب قليلًا قليلًا حتى يكون صغيرًا، ثم حدثًا، ثم مراهقًا، ثم شابًا وهو -القوة بعد الضعف- ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ ثم يهرم، وهو -الضعف بعد

(١) المرسلات: الآية (٢٠).
(٢) النحل: الآية (٤).
(٣) يس: الآية (٧٧).
(٤) الطارق: الآيتان (٥و٦).
(٥) المعارج: الآية (٣٩).
(٦) النحل: الآية (٧٠) والحج: الآية (٥).
(٧) يس: الآية (٦٨).
(٨) النحل: الآية (٤).
(٩) أضواء البيان (٦/ ٤٨٨-٤٨٩).

القوة- فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللمة، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ﴾ أي: يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾»[1].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن سعة علمه وعظيم اقتداره وكمال حكمته، أنه ابتدأ خلق الآدميين من ضعف، وهو الأطوار الأولى من خلقه، من نطفة إلى علقة إلى مضغة، إلى أن صار حيوانا في الأرحام، إلى أن ولد وهو في سن الطفولية وهو إذ ذاك في غاية الضعف وعدم القوة والقدرة. ثم ما زال اللَّه يزيد في قوته شيئًا فشيئا حتى بلغ سن الشباب واستوت قوته وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم.

﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ بحسب حكمته. ومن حكمته أن يري العبد ضعفه وأن قوته محفوفة بضعفين وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية اللَّه له لما وصل إلى قوة وقدرة ولو استمرت قوته في الزيادة لطغى وبغى وعتا.

وليعلم العباد كمال قدرة اللَّه التي لا تزال مستمرة يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه»[2].

قال الرازي: «لما أعاد من الدلائل التي مضت دليلا من دلائل الآفاق وهو قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ وذكر أحوال الريح من أوله إلى آخره أعاد دليلا من دلائل الأنفس وهو خلق الآدمي وذكر أحواله، فقال: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾ أي: مبناكم على الضعف كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾[3] ومن ههنا كما تكون في قول القائل فلان زين فلانا من فقره وجعله غنيا أي: من حالة فقره، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ فقوله: ﴿مِّن ضَعۡفٖ﴾ إشارة إلى حالة كان فيها جنينًا وطفلًا مولودًا ورضيعًا ومفطومًا فهذه أحوال غاية الضعف، وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ إشارة إلى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتهاله.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٤٢).

(٣) الأنبياء: الآية (٣٧).

إشارة إلى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هي تمام الضعف، ثم بين بقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إن هذا ليس طبعًا بل هو بمشيئة اللَّه تعالى كما قال تعالى في دلائل الآفاق ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[1].

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ لما قدم العلم على القدرة؟ وقال من قبل: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فالعزة إشارة إلى تمام القدرة والحكمة إلى العلم، فقدم القدرة هناك وقدم العلم على القدرة ههنا. فنقول هناك المذكور الإعادة بقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لأن الإعادة تكون بكن فيكون، فالقدرة هناك أظهر، وههنا المذكور الإبداء؛ وهو أطوار وأحوال، والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر، ثم إن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ تبشير وإنذار لأنه إذا كان عالمًا بأعمال الخلق كان عالمًا بأحوال المخلوقات، فإن عملوا خيرًا علمه وإن عملوا شرا علمه، ثم إذا كان قادرا فإذا علم الخير أثاب وإذا علم الشر عاقب، ولما كان العلم بالأحوال قبل الإثابة والعقاب الذين هما بالقدرة قدم العلم، وأما في الآخرة فالعلم بتلك الأحوال مع العقاب فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ وإلى مثل هذا أشار في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[2] عقيب خلق الإنسان، فنقول أحسن إشارة إلى العلم لأن حسن الخلق بالعلم، والخلق المفهوم من قوله: ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ إشارة إلى القدرة»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أوجه قراءة الآية

* عن عطية بن سعد العوفي قال: قرأتُ على عبد اللَّه بن عمر: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ فقال: «مِن ضُعْفٍ، قرأتُها على رسول اللَّه ﷺ كما قرأتَها عليّ، فأخذ عليّ كما أخذتُ عليك»[4].

★ فوائد الحديث:

قال الإمام الطحاوي: «هذا حديث لا نعلم روي عن رسول اللَّه ﷺ في هذا

---

(١) الروم: الآية (٤٨). (٢) المؤمنون: الآية (١٤).

(٣) التفسير الكبير (٢٥/ ١٣٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٨) وأبو داود (٤/ ٢٨٣/ ٣٩٧٨) واللفظ له، والترمذي (٥/ ١٧٤/ ٢٩٣٦) وقال: «هذا حديث حسن غريب».

الباب غيره، وفيه رده على عبد اللَّه بن عمر (ضُعفًا) مكان قراءته (ضَعفًا)، وإن كان القراء قد اختلفوا في ذلك، فقراءة بعضهم على (ضُعف)، وقراءة بعضهم على (ضَعف). فالذي عندنا أن الأولى في ذلك ما قد روي عن رسول اللَّه ﷺ فيه، وإن كان واسعا للناس أن يقرءوا القراءة الأخرى؛ لأن محالا عندنا أن يكونوا قرءوها إلا من حيث جاز لهم أن يقرءوها، ولأنه قد قرأ كثير منهم هذا الحرف على ما قرأه عليه من قرأها (ضَعفًا)»[1].

وقال المباركفوري: «قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾؛ أي: بفتح الضاد المعجمة، والمعنى: بدأكم وأنشأكم على ضَعف، وقيل: من ماء ضعيف، وقيل: هو إشارة إلى أحوال الإنسان، كان جنينًا ثم طفلًا مولودًا ومفطومًا فهذه أحوال غاية الضعف، «**فقال**» أي: النبي ﷺ، «**من ضُعف**» يعني بالضم، وفي رواية أبي داود عن عطية العوفي قال: «**قرأت عند عبد اللَّه بن عمر**: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾، فقال: (من ضُعف)، قرأتُها على رسول اللَّه ﷺ كما قرأتَها عليّ، فأخذ عليّ كما أخذتُ عليك»، قال البغوي: قُرئ بضم الضاد وفتحها، فالضم لغة قريش، والفتح لغة تميم. انتهى. وقال النسفي: فتح الضاد عاصم وحمزة، وضم غيرهما، وهو اختيار حفص، وهما لغتان، والضم أقوى في القراءة لما روي عن ابن عمر قال: «قرأتُها على رسول اللَّه ﷺ: (مِن ضَعْفٍ)، فأقرأني: (مِن ضُعْفٍ)» انتهى»[2].

* * *

(١) شرح مشكل الآثار (٨/ ١٥٩).

(٢) تحفة الأحوذي (٨/ ٢٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يستعتبون: الاستعتاب: طلب العتبى. وهي إزالة ما لأجله يُعْتَب. يقال: استعتبته فأعتبني؛ أي: استرضيته فأرضاني.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضًا، فمنه إقسامهم باللَّه أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة، ومقصودهم هم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم. قال اللَّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ﴾ أي: فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة، كما أقاموا عليهم حجة اللَّه في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في كتاب الأعمال، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ﴾ أي: من يوم خلقتم إلى أن بعثتم، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال اللَّه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: اعتذارهم عما فعلوا، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا هم يرجعون إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾[1]»[2].

---

(١) فصلت: الآية (٢٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٣١).

قال المراغي: «بعد أن ذكر فيما سلف بدء النشأة الأولى، وذكر الإعادة والبعث، وأقام عليه الأدلة في شتى السور، وضرب له الأمثال، أردف ذلك ذكر أحوال البعث وما يجري فيه من الأفعال والأقوال من الأشقياء والسعداء ليكون في ذلك عبرة لمن يدكر.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ أي: ويوم تجيء ساعة البعث، فيبعث اللَّه الخلق من قبورهم، يقسم المجرمون الذين كانوا يكفرون باللَّه في الدنيا، ويكتسبون فيها الآثام، إنهم ما أقاموا في قبورهم إلا قليلا من الزمان، وهذا استقلال منهم لمدة لبثهم في البرزخ على طولها، وهم قد صرفوا في الآخرة عن معرفة مدة مكثهم في ذلك الحين.

﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كذبوا في قولهم ما لبثنا غير ساعة، كما كانوا في الدنيا يحلفون على الكذب وهو يعلمون. والكلام مسوق للتعجب من اغترارهم بزينة الدنيا وزخرفها، وتحقير ما يتمتعون به من مباهجها ولذاتها، كي يقلعوا عن العناد، ويرجعوا إلى سبل الرشاد، وكأنه قيل: مثل ذلك الكذب العجيب كانوا يكذبون في الدنيا اغترارا بما هو قصير الأمد من اللذات، وزخارف الحياة.

ثم ذكر توبيخ المؤمنين لهم وتهكمهم بهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ﴾ أي: وقال الذين أوتوا العلم بكتاب اللَّه والإيمان باللَّه لأولئك المنكرين: لقد لبثتم من يوم مماتكم إلى يوم البعث في قبوركم.

وفي هذا رد عليهم وعلى ما حلفوا عليه، واطلاع لهم على الحقيقة. ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: فهذا هو اليوم الذي أنكرتموه في الدنيا، وزعمتم أنه لن يكون لتفريطكم في النظر وغفلتكم عن الأدلة المتظاهرة عليه. ولما كانت الأدلة تترى على أن الدنيا دار عمل، وأن الآخرة دار جزاء، ذكر أن المعاذير لا تجدي في هذا اليوم، فلا يجابون إلى ما طلبوا من الرجوع إلى الدنيا، لإصلاح ما فسد من أعمالهم فقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: ففي هذا اليوم لا تنفع هؤلاء المجرمين معاذيرهم عما فعلوا، كقولهم: ما علمنا أن هذا اليوم كائن، ولا أنا نبعث فيه، ولا هم يرجعون إلى الدنيا ليتوبوا؛ لأن التوبة لا تقبل حينئذ فالوقت وقت جزاء لا وقت عمل، وقد حقت عليهم كلمة ربهم:

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1].

والخلاصة إنهم لا يعاتبون على سيئاتهم، بل يعاقبون عليها. ونحو الآية قوله: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾[2]»[3].

* * *

(١) السجدة: الآية (١٣).

(٢) فصلت: الآية (٢٤).

(٣) تفسير المراغي (٢١/ ٦٦-٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ﴾ أي: قد بينا لهم الحق، ووضحناه لهم، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه. ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: لو رأوا أي آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره، لا يؤمنون بها، ويعتقدون أنها سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾[1]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ﴾ أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن اللَّه منجز لك ما وعدك من نصره إياك، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: بل اثبت على ما بعثك اللَّه به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع، بل الحق كله منحصر فيه»[2].

قال السعدي: «أي: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ لأجل عنايتنا ورحمتنا ولطفنا وحسن تعليمنا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ تتضح به الحقائق وتعرف به الأمور وتنقطع به الحجة. وهذا عام في الأمثال التي يضربها اللَّه في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة، وفي الإخبار بما سيكون وجلاء حقيقته حتى كأنه وقع.

---

(١) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٣١-٣٣٢).

ومنه في هذا الموضع ذكر اللَّه تعالى ما يكون يوم القيامة، وحالة المجرمين فيه، وشدة أسفهم، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب.

ولكن أبى الظالمون الكافرون إلا معاندة الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ أي: أي آية تدل على صحة ما جئت به ﴿لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: قالوا للحق: إنه باطل. وهذا من كفرهم وجراءتهم وطبع اللَّه على قلوبهم وجهلهم المفرط، ولهذا قال: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ فلا يدخلها خير ولا تدرك الأشياء على حقيقتها؛ بل ترى الحق باطلا والباطل حقا.

﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما أمرت به وعلى دعوتهم إلى اللَّه، ولو رأيت منهم إعراضا فلا يصدنك ذلك.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: لا شك فيه، وهذا مما يعين على الصبر، فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع؛ بل سيجده كاملا، هان عليه ما يلقاه من المكاره، وتيسر عليه كل عسير، واستقل من عمله كل كثير.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: قد ضعف إيمانهم، وقل يقينهم، فخفت لذلك أحلامهم وقل صبرهم، فإياك أن يستخفك هؤلاء فإنك إن لم تجعلهم منك على بال، وتحذر منهم وإلا استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي، والنفس تساعدهم على هذا، وتطلب التشبه والموافقة. وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين، ضعيف العقل خفيفه.

فالأول بمنزلة اللب، والآخر بمنزلة القشور، فاللَّه المستعان»[1].

قال الخطيب الشربيني: «أشار تعالى إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار، وأنه لم يبق من جانب الرسول ﷺ تقصير بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ أي: جعلنا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: في هذه السورة وغيرها ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: معنى غريب هو أوضح وأثبت من أعلام الجبال في عبارة هي أرشق من سائر

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٤٥-١٤٦).

الأمثال، فإن طلبوا شيئًا آخر غير ذلك فهو عناد محض؛ لأن من كذب دليلا حقا لا يصعب عليه تكذيب الدلائل، بل لا يجوز للمستدل أن يشرع في دليل آخر بعد ذكره دليلا جيدا مستقيما ظاهرا لا إشكال عليه وعانده الخصم، وهذا من العالم فكيف بالنبي ﷺ.

فإن قيل: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ذكروا أنواعا من الدلائل؟ أجيب: بأنهم سردوها سردا ثم قرروا فردا فردا كمن يقول: الدليل عليه من وجوه الأول: كذا، والثاني: كذا، والثالث: كذا، وفي مثل هذا عدم الالتفات إلى عناد المعاند؛ لأنه يريد تضييع الوقت كي لا يتمكن المستدل من الإتيان بجميع ما وعد من الدليل فتنحط درجته، وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن﴾ اللام لام قسم ﴿جِئْتَهُم﴾ يا أفضل الخلق ﴿بِآيَةٍ﴾ مثل العصا واليد لموسى عليه السلام ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم ﴿إِنْ﴾ أي: ما ﴿أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: أصحاب أباطيل، فإن قيل: لم وحد في قوله تعالى: ﴿جِئْتَهُم﴾ وجمع في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾؟ أجيب: بأن ذلك لنكتة وهي أنه تعالى أخبر في موضع آخر فقال: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ أي: جاءت بها الرسل فقال الكفار: ما أنتم أيها المدعون الرسالة كلكم إلا كذا. وقال الجلال المحلي: إن أنتم أي: محمد وأصحابه، وأما الذين آمنوا فيقولون نحن بهذه الآية مؤمنون.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الطبع العظيم ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ أي: الذي له العظمة والكمال ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله، فإن قيل: من لا يعلم شيئًا أي فائدة في الإخبار عن الطبع على قلبه؟ أجيب: بأن معناه أن من لا يعلم الآن فقد طبع على قلبه من قبل.

ثم إنه تعالى سلى نبيه بقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ﴾ أي: على إنذارهم مع هذا الجفاء والرد بالباطل والأذى، فإن الكل فعلنا لم يخرج منه شيء عن إرادتنا ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ أي: الذي له الكمال كله بنصرك وإظهار دينك على الدين كله وفي كل ما وعد به ﴿حَقٌّ﴾ أي: ثابت جدا يطابقه الواقع كما يكشف عنه الزمان وتأتي به مطايا الحدثان.

ولما كان التقدير فلا تعجل عطف عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي: يحملنك على الخفة ويطلب أن تخف باستعجال النصر خوفا من عواقب تأخيره وتنفيرك عن التبليغ ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: أذى الذين لا يصدقون بوعدنا من

البعث والحشر وغير ذلك تصديقا ثابتا في القلب، بل هم إما شاكون وأدنى شيء يزلزلهم كمن يعبد اللَّه على حرف، أو مكذبون فهم بالغون في العداوة والتكذيب حتى أنهم لا يصدقون في وعد اللَّه بنصر الروم على فارس كأنهم على ثقة وبصيرة من أمرهم في أن ذلك لا يكون. فإذا صدق اللَّه وعده في ذلك بإظهاره عن قرب علموا كذبهم عيانا، وعلموا إن كان لهم علم أن الوعد بالساعة لإقامة العدل على الظالم والعود بالفضل على المحسن كذلك يأتي، وهم صاغرون ويحشرون وهم داخرون.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[١] فقد انعطف آخر السورة على أولها واتصل به اتصال القريب بالقريب»[٢].

* * *

(١) الشعراء: الآية (٢٢٧).

(٢) السراج المنير (٣/ ٢٣٥-٢٣٦).



سورة لقمان

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «صدرت هذه السورة بالتنويه بهدى القرآن ليعلم الناس أنه لا يشتمل إلا على ما فيه هدى وإرشاد للخير ومثل الكمال النفساني، فلا التفات فيه إلى أخبار الجبابرة وأهل الضلال إلا في مقام التحذير مما هم فيه ومن عواقبه، فكان صدر هذه السورة تمهيدًا لقصة لقمان، وقد تقدم الإلماع إلى هذا في قوله تعالى في أول سورة يوسف ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[1].. وابتدئ ذكر لقمان بالتنويه بأن آتاه الله الحكمة وأمره بشكر النعمة. وأطيل الكلام في وصايا لقمان وما اشتملت عليه: من التحذير من الإشراك ومن الأمر ببر الوالدين ومن مراقبة الله لأنه عليم بخفيات الأمور وإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر والتحذير من الكبر والعجب والأمر بالاتسام بسمات المتواضعين في المشي والكلام. وسلكت السورة أفانين ذات مناسبات لما تضمنته وصية لقان لابنه، وأدمج في ذلك تذكير المشركين بدلائل وحدانية الله تعالى وبنعمه عليهم وكيف أعرضوا عن هديه وتمسكوا بما ألفوا عليه آباءهم. وذكرت مزية دين الإسلام، وتسلية الرسول ﷺ بتمسك المسلمين بالعروة الوثقى وأنه لا يحزنه كفر من كفروا. وانتظم في هذه السورة الرد على المعارضين للقرآن في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾[2] وما بعدها. وختمت بالتحذير من دعوة الشيطان والتنبيه إلى بطلان ادعاء علم الغيب»[3].

* * *

(١) يوسف: الآية (٣).

(٢) لقمان: الآية (٢٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ١٣٨-١٣٩).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
الم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾
أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الحكيم: أي: ذو الحكمة والحكم البالغة أو بمعنى المحكم الذي لا خلل فيه.

يوقنون: اليقين: التصديق الجازم الذي لا شك فيه. وأصله من يَقَنَ الماءُ: إذا ثَبَتَ وسَكَنَ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «تقدم في أول سورة البقرة عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة، وهو أنه سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، ووصلوا قراباتهم وأرحامهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، فرغبوا إلى اللَّه في ثواب ذلك، لم يراؤوا به ولا أرادوا جزاءا من الناس ولا شكورا، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال اللَّه تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلي، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة»[1].

قال السعدي: «يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أي: إن آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٣٣).

ومن إحكامها : أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها ، وأبينها ، الدالة على أجل المعاني وأحسنها .

ومن إحكامها : أنها محفوظة من التغيير والتبديل ، والزيادة والنقص ، والتحريف .

ومن إحكامها : أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة ، والأمور الغيبية كلها ، مطابقة للواقع ، مطابق لها الواقع ، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية ، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء ، ولم يأت ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح ، يناقض ما دلت عليه .

ومن إحكامها : أنها ما أمرت بشيء ، إلا هو خالص المصلحة ، أو راجحها . ولا نهت عن شيء ، إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها . وكثيرا ما يجمع بين الأمر بالشيء ، مع ذكر حكمته وفائدته ، والنهي عن الشيء ، مع ذكر مضرته .

ومن إحكامها : أنها جمعت بين الترغيب والترهيب ، والوعظ البليغ ، الذي تعتدل به النفوس الخيرة ، وتحتكم ، فتعمل بالحزم .

ومن إحكامها : أنك تجد آياتها المتكررة ، كالقصص ، والأحكام ونحوها ، قد اتفقت كلها وتواطأت ، فليس فيها تناقض ، ولا اختلاف . فكلما ازداد بها البصير تدبرا ، وأعمل فيها العقل تفكرا ، انبهر عقله ، وذهل لبه من التوافق والتواطؤ ، وجزم جزما لا يمترى فيه ، أنه تنزيل من حكيم حميد .

ولكن -مع أنه حكيم- يدعو إلى كل خلق كريم ، وينهى عن كل خلق لئيم . أكثر الناس محرومون من الاهتداء به ، معرضون عن الإيمان والعمل به ، إلا من وفقه اللّه تعالى وعصمه ، وهم المحسنون في عبادة ربهم والمحسنون إلى الخلق .

فإنه ﴿هُدًى﴾ لهم ، يهديهم إلى الصراط المستقيم ، ويحذرهم من طرق الجحيم ، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم ، تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة ، والخير الكثير ، والثواب الجزيل ، والفرح ، ويندفع عنهم الضلال والشقاء .

ثم وصف المحسنين بالعلم التام ، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب اللّه ، فيتركون معاصيه ، ووصفهم بالعمل ، وخص من العمل ، عملين فاضلين . ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المشتملة على الإخلاص ، ومناجاة اللّه تعالى ، والتعبد

العام للقلب واللسان، والجوارح المعينة على سائر الأعمال، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتنفع أخاه المسلم، وتسد حاجته، ويبين بها أن العبد يؤثر محبة اللّه على محبته للمال، فيخرج محبوبه من المال، لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة اللّه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المحسنون الجامعون بين العلم التام، والعمل ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ أي: عظيم كما يفيده التنكير، وذلك الهدى حاصل لهم، وواصل إليهم ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الذي لم يزل يربيهم بالنعم؛ ويدفع عنهم النقم.

وهذا الهدى الذي أوصله إليهم، من تربيته الخاصة بأوليائه، وهو أفضل أنواع التربية. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الذين أدركوا رضا ربهم، وثوابه الدنيوي والأخروي، وسلموا من سخطه وعقابه. وذلك لسلوكهم طريق الفلاح، الذي لا طريق له غيرها»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٤٧-١٤٩).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لهو الحديث: كل باطل يلهي عن الخير كالغناء مثلا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى حال السعداء وهم الذين يهتدون بكتاب اللَّه وينتفعون بسماعه كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾[1] الآية عطف بذكر حال الأشقياء، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام اللَّه، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال: هو واللَّه الغناء»[2].

قال السعدي: «ولما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن، المقبلين عليه، ذكر من أعرض عنه، ولم يرفع به رأسًا، وأنه عوقب على ذلك، بأن تعوض عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال، وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه، فلذلك قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

أي: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن﴾ هو محروم مخذول ﴿يَشْتَرِى﴾ أي: يختار ويرغب رغبة

---

(١) الزمر: الآية (٢٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٣٣).

من يبذل الثمن في الشيء. ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: الأحاديث الملهية للقلوب، الصادة لها عن أجل مطلوب. فدخل في هذا كل كلام محرم، وكل لغو، وباطل، وهذيان من الأقوال المرغبة في الكفر، والفسوق، والعصيان، ومن أقوال الرادين على الحق، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن غيبة، ونميمة، وكذب، وشتم، وسب، ومن غناء ومزامير شيطان، ومن الماجريات الملهية، التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا.

فهذا الصنف من الناس، يشتري لهو الحديث، عن هدي الحديث ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بعدما ضل هو في فعله، أضل غيره؛ لأن الإضلال، ناشئ عن الضلال.

وإضلاله في هذا الحديث؛ صده عن الحديث النافع، والعمل النافع، والحق المبين، والصراط المستقيم.

ولا يتم له هذا، حتى يقدح في الهدى والحق، الذي جاءت به آيات اللَّه ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ يسخر بها، وبمن جاء بها، فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه، والقدح في الحق، والاستهزاء به وبأهله، أضل من لا علم عنده وخدعه بما يوحيه إليه، من القول الذي لا يميزه ذلك الضال، ولا يعرف حقيقته. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ بما ضلوا، واستهزءوا بآيات اللَّه وكذبوا الحق الواضح»[1].

قال القرطبي: «قلت: هذه إحدى الآيات الثلاث التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه.

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾[2] قال ابن عباس: هو الغناء بالحميرية اسمدي لنا أي غني لنا.

والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾[3] قال مجاهد: الغناء والمزامير.. قلت: هذا أعلى ما قيل في هذه الآية وحلف على ذلك ابن مسعود باللَّه الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات إنه الغناء»[4].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٥٠-١٥١).

(٢) النجم: الآية (٦١). (٣) الإسراء: الآية (٦٤).

(٤) جامع أحكام القرآن (١٤/ ٥١-٥٢).

وقال أيضًا بعد ذكر مجموعة من الآثار في الباب: «ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء. وهي المسألة: الثانية: وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به، الذي يحرك النفوس ويبعثها على الهوى والغزل، والمجون الذي يحرك الساكن ويبعث الكامن، فهذا النوع إذا كان في شعر يشبب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن وذكر الخمور والمحرمات لا يختلف في تحريمه؛ لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق. فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه في أوقات الفرح، كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان في حفر الخندق وحدو أنجشة وسلمة بن الأكوع. فأما ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعازف والأوتار فحرام»[1].

قال الألوسي: «وقيل: الغناء جاسوس القلب وسارق المروءة والعقول يتغلغل في سويداء القلوب ويطلع على سرائر الأفئدة ويدب إلى بيت التخييل فينشر ما غرز فيها من الهوى والشهوة والسخافة والرعونة فبينما ترى الرجل وعليه سمت الوقار وبهاء العقل وبهجة الإيمان ووقار العلم كلامه حكمة وسكوته عبرة فإذا سمع الغناء نقص عقله وحياؤه وذهبت مروءته وبهاؤه فيستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه ويبدي من أسراره ما كان يكتمه وينتقل من بهاء السكوت والسكون إلى كثرة الكلام والهذيان والاهتزاز كأنه جان وربما صفق بيديه ودق الأرض برجليه وهكذا تفعل الخمر إلى غير ذلك، واختلف العلماء في حكمه فحكى تحريمه عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه القاضي أبو الطيب والقرطبي والماوردي والقاضي عياض.

وفي التاتارخانية: اعلم أن التغني حرام في جميع الأديان، وذكر في الزيادات أن الوصية للمغنين والمغنيات مما هو معصية عندنا وعند أهل الكتاب، وحكى عن ظهير الدين المرغيناني: أنه قال: من قال لمقرئ زماننا أحسنت عند قراءته كفر، وصاحبا الهداية والذخيرة سمياه كبيرة. هذا في التغني للناس في غير الأعياد والأعراس ويدخل فيه تغني صوفية زماننا في المساجد والدعوات بالأشعار والأذكار مع اختلاط أهل الأهواء والمرد؛ بل هذا أشد من كل تغن؛ لأنه مع اعتقاد

---

(١) جامع أحكام القرآن (١٤/ ٥٤).

العبادة، وأما التغني وحده بالأشعار لدفع الوحشة أو في الأعياد والأعراس فاختلفوا فيه والصواب منعه مطلقا في هذا الزمان انتهى»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحريم الغناء وكل لهو باطل

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«من حلف منكم فقال في حلفه: باللات والعزى، فليقل: لا إله إلا اللَّه، ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك، فليتصدّق»**[٢].

★ **غريب الحديث:**

اللاّت: صنم كانت العرب تعظّمه.

العُزّى: صنم. وأصلها: تأنيث الأعَزّ. بعث إليها رسول اللَّه ﷺ خالد ابن الوليد فقطعها، وخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية ويلها واضعة يدها على رأسها، فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول:

يا عُزّى كفرانكِ لا سبحانكِ ... إني رأيتُ اللهَ قد أهانكِ[٣]

تعال أُقامِرْكَ: قال في «اللسان»: قامر الرجلَ مقامرة وقِمارًا: راهنه، وهو التقامر. وقامرته فقمرته أقمُره، بالضم، قمرًا: إذا فاخرته فيه فغلبته.

★ **فوائد الحديث:**

قال البغوي: «ففيه دليل على أنه لا كفارة على من حلف بغير الإسلام، بل يأثم به، ويلزمه التوبة؛ لأنه جعل عقوبته في دينه، ولم يوجب في ماله شيئًا، وإنما أمره بكلمة التوحيد؛ لأن اليمين إنما تكون بالمعبود، فإذا حلف باللات والعزى، فقد ضاها الكفار في ذلك، فأمر بأن يتداركه بكلمة التوحيد»[٤].

قال القرطبي: «ولما نشأ القوم على تعظيم تلك الأصنام، وعلى الحلف بها،

---

(١) روح المعاني (٢١/ ٦٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٩) والبخاري (٨/ ٧٨٧/ ٤٨٦٠) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٢٦٧-١٢٦٨/ ١٦٤٧) وأبو داود (٣/ ٥٦٨-٥٦٩/ ٣٢٤٧) والترمذي (٤/ ٩٩/ ١٥٤٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٧/ ١١/ ٣٧٨٤) وابن ماجه (١/ ٦٧٨/ ٢٠٩٦).

(٣) البحر المحيط (٨/ ١٥٨-١٥٩).

(٤) شرح السنة (١٠/ ١٠).

وأنعم اللَّه عليهم بالإسلام بقيت تلك الأسماء تجري على ألسنتهم من غير قصد للحلف بها، فأمر النبي ﷺ من نطق بذلك أن يقول بعده: لا إله إلا اللَّه، تكفيرا لتلك اللفظة، وتذكيرا من الغفلة وإتماما للنعمة. وخص اللات بالذكر في هذا الحديث لأنها كانت أكثر ما كانت تجري على ألسنتهم. وحكم غيرها من أسماء آلهتهم حكمها، إذ لا فرق بينها»[١].

قال الحافظ: «وقال ابن العربي: من حلف بها جادا فهو كافر ومن قالها جاهلا أو ذاهلا يقول: لا إله إلا اللَّه يكفر اللَّه عنه ويرد قلبه عن السهو إلى الذكر ولسانه إلى الحق وينفي عنه ما جرى به من اللغو»[٢].

قال الطيبي: «أقول: إنما قرن القمار بذكر الأصنام، تأسيا بالتنزيل في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾[٣] فمن حلف بالأصنام فقد أشركها باللَّه في التعظيم، فوجب تداركها بكلمة التوحيد، ومن دعا إلى المقامرة فوافق أهل الجاهلية في تصدقهم بالميسر، فكفارته التصدق بقدر ما جعله خطرا، أو بما تيسر مما يصدق عليه اسم الصدقة، وفيه أن من دعا إلى اللعب فكفارته التصدق، فكيف بمن لعب؟»[٤].

قوله: «من حلف منكم فقال في حلفه: باللاّت والعزّى، فليقل: لا إله إلا الله»:

قال الكرماني: «قال شارح التراجم: وأما مطابقة الخبر لها فلأن الحلف باللات لهوٌ شاغل عن الحلف بالحق، فيكون باطلًا، قال: ووجه مطابقة الآية لها أنه جعل اللهو قائدا إلى الضلال صادا عن سبيل اللَّه تعالى فهو باطل»[٥].

* عن أبي الصهباء قال: سألت عبد اللَّه بن مسعود -رضي اللَّه تعالى عنه- عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ قال: (-واللهِ- الغناء)[٦].

(١) المفهم (٤/ ٦٢٥-٦٢٦).
(٢) الفتح (٨/ ٧٨٨).
(٣) المائدة: الآية (٩٠).
(٤) شرح الطيبي (٨/ ٢٤٣٧).
(٥) شرح صحيح البخاري (١١/ ١٢٠-١٢١/ ٥٩٢١).
(٦) أخرجه: ابن أبي شيبة (٤/ ٣٦٨/ ٢١٢٣٠) وابن جرير (٢١/ ٦١) والبيهقي في الشعب (٤/ ٢٧٨/ ٥٠٩٦) واللفظ له، وفي السنن (١٠/ ٢٢٣) والحاكم (٢/ ٤١١) وصححه ووافقه الذهبي. وذكره ابن حجر في التلخيص (٤/ ٢٠٠) وقال: «رواه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح».

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (الغناء يُنْبِت النفاق في القلب كما يُنبت الماءُ الزرعَ. الذكر يُنبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء الزرع)[١].

★ فوائد الحديثين:

قال ابن القيم: «هذا السماع الشيطاني المضاد للسماع الرحماني، له في الشرع بضعة عشر اسمًا:

اللهو، واللغو، والباطل، والزُّور، والمُكاء، والتصدية، ورقية الزنا، ومُنبت النفاق في القلب، والصوت الأحمق، والصوت الفاجر، وصوت الشيطان، ومزمور الشيطان، والسمود:

أسماؤه دلّت على أوصافه تبًّا لذي الأسماء والأوصافِ

فنذكر مخازي هذه الأسماء، ووقوعها عليه في كلام اللّه وكلام رسوله، والصحابة؛ ليعلم أصحابه وأهله بما به ظفِروا، وأيّ تجارة رابحة خسروا:

فَدَعْ صاحب المزمار والدفّ والغنا وما اختاره عن طاعة اللّه مَذهبا

ودعه يعش في غيّه وضلالهِ على تاتِنا يحيى ويُبعثُ أشيبا

فالاسم الأول: اللهو، ولهو الحديث:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾.

قال الواحدي وغيره: أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث: الغناء، قاله ابن عباس في رواية سعيد بن جبير ومِقْسَم عنه، وقاله عبد اللّه بن مسعود في رواية أبي الصهباء عنه. وهو قول مجاهد وعكرمة.

---

(١) أخرجه: أبو داود (٥/ ٢٢٣/ ٤٩٢٧) مختصرا والبيهقي في السنن (١٠/ ٢٢٣) واللفظ له، وفي الشعب (٤/ ٢٧٨/ ٥٠٩٨). وذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ٣٧٢-٣٧٣) وقال: «وهو صحيح عن ابن مسعود من قوله، وقد روي عن ابن مسعود مرفوعًا». ثم قال بعد أن ساق الرواية المرفوعة: «وفي رفعه نظر، والموقوف أصح».

قلت: المرفوع ذكره الشيخ الألباني رحمه الله في الضعيفة (٢٤٣٠)، وذكره ابن حجر في التلخيص (٤/ ١٩٩) وقال: «رواه البيهقي من حديث ابن مسعود مرفوعًا، وفيه شيخ لم يسمّ، ورواه البيهقي أيضًا موقوفًا».

وقال: أكثر ما جاء في التفسير أن لهو الحديث ههنا هو الغناء؛ لأنه يُلهي عن ذكر اللَّه تعالى.

قال الواحدي: قال أهل المعاني: ويدخل في هذا المعنى كل من اختار اللهو والغناء والمزامير والمعازف على القرآن، وإن كان اللفظ قد ورد بالشراء، فلفظ الشراء يُذكر في الاستبدال، والاختيار، وهو كثير في القرآن، ويدل على هذا ما قاله قتادة في هذه الآية: (لعله أن لا يكون أنفق مالًا).

قال: وبِحَسْبِ المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق.

قال الواحدي: وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء.

قال الحاكم أبو عبد اللَّه في التفسير من كتاب 'المستدرك': ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحيَ والتنزيلَ عند الشيخين: حديث مسند. اهـ

وهذا، وإن كان فيه نظر، فلا ريب أنه أولى بالقبول من تفسير من بعدهم، فهم أعلم الأمة بمراد اللَّه ﷻ من كتابه، فعليهم نزل، وهم أول من خوطب به من الأمة، وقد شاهدوا تفسيره من الرسول صلى اللَّه تعالى عليه وآله وسلم علمًا وعملًا، وهم العرب الفصحاء على الحقيقة، فلا يُعدل عن تفسيرهم ما وُجد إليه سبيل.

إذا عُرف هذا؛ فأهل الغناء ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذمّ، بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن، وإن لم ينالوا جميعه، فإن الآيات تضمّنت ذمّ من استبدل لهو الحديث بالقرآن ليُضلّ عن سبيل اللَّه بغير علم ويتخذها هزوًا، وإذا يُتلى عليه القرآن ولّى مستكبرًا كأن لم يسمعه كأن في أذنيه وقرًا -وهو الثقل والصمم- وإذا علم منه شيئًا، استهزأ به.

فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفرًا، وإن وقع بعضه للمغنّين ومستمعيهم، فلهم حصة ونصيب من هذا الذمّ.

يوضّحه أنك لا تجد أحدًا عُني بالغناء وسماع آلاته إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى علمًا وعملًا، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلى استماع الغناء، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن؛ عدل عن هذا إلى ذاك، وثقُل عليه سماع القرآن، وربما حمله الحال على أن يُسكت القارئ ويستطيل قراءته، ويستزيد المغنّي، ويستقصر نوبته، وأقل ما في هذا أن يناله نصيب وافر من هذا الذمّ إن لم يحظَ به جميعه.

والكلام في هذا مع من في قلبه بعض حياة يحسّ بها، فأما من مات قلبه، وعظمت فتنته، فقد سدّ على نفسه طريق النصيحة: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[1]»[2].

وقال أيضًا: «وأما تسميته مُنْبِت النفاق:

فقد قال ابن مسعود -رضي اللَّه تعالى عنه-: (الغناء يُنبت النفاق في القلب كما يُنبت الماء الزرع).

وقال شعبة: حدثنا الحكم عن حمّاد عن إبراهيم قال: قال عبد اللَّه بن مسعود: (الغناء يُنبت النفاق في القلب).

وهو صحيح عن ابن مسعود من قوله، وقد رُوي عن ابن مسعود مرفوعًا.

فمداره على شيخ مجهول، وفي رفعه نظر، والموقوف أصح.

فإن قيل: فما وجه إنباته للنفاق في القلب من بين سائر المعاصي؟

قيل: هذا من أدلّ شيء على فقه الصحابة في أحوال القلوب، وأعمالها، ومعرفتهم بأدويتها وأدوائها، وأنهم هم أطبّاء القلوب، دون المنحرفين عن طريقتهم، الذين داوَوا أمراض القلوب بأعظم أدوائها، فكانوا كالمُداوي من السقم بالسم القاتل.

وهكذا واللَّه فعلوا بكثير من الأدوية التي ركّبوها، أو بأكثرها، فاتفق قلة الأطباء، وكثرة المرضى، وحدوث أمراض مزمنة لم تكن في السلف، والعدول عن الدواء النافع، الذي ركّبه الشارع، وميل المريض إلى ما يقوّي مادة المرض، فاشتد البلاء، وتفاقم الأمر، وامتلأت الدور والطرقات والأسواق من المرضى، وقام كل جَهول يطبّب الناس.

فاعلم أن للغناء خواصّ لها تأثير في صبغ القلب بالنفاق، ونباته فيه كنبات الزرع بالماء.

---

(١) المائدة: الآية (٤١).

(٢) المنتقى من إغاثة اللهفان (٣١١-٣١٣)، وانظر إغاثة اللهفان (١/ ٣٥٩-٣٦٤).

فمن خواصّه: أنه يُلهي القلب ويصدّه عن فهم القرآن وتدبّره، والعمل بما فيه؛ فإن القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبدًا، لما بينهما من التضادّ؛ فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى، ويأمر بالعفة، ومجانبة شهوات النفوس، وأسباب الغي، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء يأمر بضد ذلك كله، ويحسّنه، ويهيّج النفوس إلى شهوات الغيّ، فيُثير كامنها، ويُزعج قاطنها، ويحرّكها إلى كل قبيح، ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومليح.

فبينا ترى الرجل وعليه سمة الوقار وبهاء العقل، وبهجة الإيمان، ووقار الإسلام، وحلاوة القرآن، فإذا استمع الغناء ومال إليه نقص عقله، وقل حياؤه، وذهبت مروءته، وفارقه بهاؤه، وتخلّى عنه وقاره، وفرح به شيطانه، وشكا إلى اللّه تعالى إيمانُهُ، وثقل عليه قرآنه، وقال: يا ربّ! لا تجمع بيني وبين قرآن عدوك في صدر واحد، فاستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه، وأبدى من سره ما كان يكتمه، وانتقل من الوقار والسكينة إلى كثرة الكلام والكذب، والزهزهة والفرقعة بالأصابع، فيميل برأسه، ويهز منكبيه، ويضرب الأرض برجليه، ويدق على أم رأسه بيديه، ويثب وثبات الدِّباب، ويدور دوران الحمار حول الدولاب، ويصفق بيديه تصفيق النسوان، ويخور من الوجد ولا كخوار الثيران، وتارة يتأوّه تأوّه الحزين، وتارة يزعق زعقات المجانين.

وقال بعض العارفين: السماع يورث النفاق في قوم، والعناد في قوم، والكذب في قوم، والفجور في قوم، والرعونة في قوم.

وأكثر ما يورث عشق الصور، واستحسان الفواحش، وإدمانه يثقل القرآن على القلب، ويكرّهه إلى سماعه بالخاصية، وإن لم يكن هذا نفاقًا، فما للنفاق حقيقة؟!

وسر المسألة أن أساس النفاق أن يخالف الظاهر الباطن، وصاحب الغناء بين أمرين:

إما أن يتهتّك فيكون فاجرًا.

أو يظهر النسك فيكون منافقًا.

فإنه يظهر الرغبة في اللّه والدار الآخرة وقلبه يغلي بالشهوات، ومحبة ما يكرهه اللّه ورسوله من أصوات المعازف، وآلات اللهو، وما يدعو إليه الغناء ويهيّجه، فقلبه بذلك معمور، وهو من محبة ما يحبه اللّه ورسوله وكراهة ما يكرهه قفر. وهذا محض النفاق.

وأيضًا ؛ فإن الإيمان قول وعمل ، قول بالحق ، وعمل بالطاعة ، وهذا ينبت على الذكر ، وتلاوة القرآن ، والنفاق قول الباطل ، وعمل البغي ، وهذا ينبت على الغناء .

وأيضًا ؛ فمن علامات النفاق : قلة ذكر اللَّه ، والكسل عند القيام إلى الصلاة ، ونقر الصلاة ، وقلّ أن تجد مفتونًا بالغناء إلا وهذا وصفه .

وأيضًا ؛ فإن النفاق مؤسَّس على الكذب ، والغناء من أكذب الشعر ؛ فإنه يحسّن القبيح ، ويزيّنه ، ويأمر به ، ويقبّح الحسن ، ويزهّد فيه ، وذلك عين النفاق .

وأيضًا ؛ فإن النفاق غش ومكر وخداع ، والغناء مؤسَّس على ذلك .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدِب ولده : ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي ، التي بدؤها من الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن ؛ فإنه بلغني عن الثقات من أهل العلم أن صوت المعازف ، واستماع الأغاني ، واللهج بها ، ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب على الماء .

فالغناء يفسد القلب ، وإذا فسد القلب ؛ هاج فيه النفاق .

وبالجملة ، فإذا تأمل البصير حال أهل الغناء ، وحال أهل الذكر والقرآن ، تبيّن له حذق الصحابة ومعرفتهم بأدواء القلوب وأدويتها ، وباللَّه التوفيق»[١] .

قال الآلوسي : «وأنا أقول : قد عمت البلوى بالغناء والسماع في سائر البلاد والبقاع ولا يتحاشى من ذلك في المساجد وغيرها بل قد عين مغنون يغنون على المنائر في أوقات مخصوصة شريفة بأشعار مشتملة على وصف الخمر والحانات وسائر ما يعد من المحظورات ، ومع ذلك قد وظف لهم من غلة الوقف ما وظف ويسمونهم الممجدين .

ويعدون خلو الجوامع من ذلك من قلة الاكتراث بالدين ، وأشنع من ذلك ما يفعله أبالسة المتصوفة ومردتهم ثم أنهم قبحهم اللَّه تعالى إذا اعترض عليهم بما اشتمل عليه نشيدهم من الباطل يقولون : نعني بالخمر المحبة الإلهية وبالسكر غلبتها وبمية وليلى وسعدى مثلا المحبوب الأعظم وهو اللَّه ﷻ ، وفي ذلك من سوء الأدب ما فيه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾[٢] وفي

(١) المنتقى من إغاثة اللهفان (٣١٩-٣٢٣)، وانظر إغاثة اللهفان (١/ ٣٧٢-٣٧٦).
(٢) الأعراف: الآية (١٨٠).

القواعد الكبرى للعز بن عبد السلام ليس من أدب السماع أن يشبه غلبة المحبة بالسكر من الخمر؛ فإنه سوء الأدب، وكذا تشبيه المحبة بالخمر؛ لأن الخمر أم الخبائث فلا يشبه ما أحبه اللَّه تعالى بما أبغضه وقضى بخبثه ونجاسته؛ فإن تشبيه النفيس بالخسيس سوء الأدب بلا شك فيه، وكذا التشبيه بالخصر والردف ونحو ذلك من التشبيهات المستقبحات، ولقد كره لبعضهم قوله: أنتم روحي ومعلم راحتي. ولبعضهم قوله: فأنت السمع والبصر؛ لأنه شبه من لا شبيه له بروحه الخسيسة وسمعه وبصره اللذين لا قدر لهما، ثم أنه وإن أباح بعض أقسام السماع حط على من يرقص ويصفق عنده فقال: أما الرقص والتصفيق فخفة ورعونة مشبهة برعونة الإناث لا يفعلها إلا أرعن أو متصنع كذاب، وكيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبه وذهب قلبه، وقد قال -عليه الصلاة والسلام-: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم**»[١] ولم يكن أحد من هؤلاء الذين يقتدى بهم يفعل شيئًا من ذلك وإنما استحوذ الشيطان على قوم يظنون أن طربهم عند السماع إنما هو متعلق باللَّه تعالى شأنه ولقد مانوا فيما قالوا وكذبوا فيما ادعوا من جهة أنهم عند سماع المطربات وجدوا لذتين: إحداهما لذة قليل من الأحوال المتعلقة بذي الجلال. والثانية لذة الأصوات والنغمات والكلمات الموزونات الموجبات للذات ليست من آثار الدين ولا متعلقة بأموره فلما عظمت عندهم اللذات غلطوا فظنوا أن مجموع ما حصل لهم إنما حصل بسبب حصول ذلك القليل من الأحوال وليس كذلك بل الأغلب عليهم حصول لذات النفوس التي ليست من الدين في شيء. وقد حرم بعض العلماء التصفيق لقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**إنما التصفيق للنساء**»[٢] و«**لعن رسول اللَّه المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء**»[٣] ومن هاب الإله وأدرك شيئًا من تعظيمه لم يتصور منه رقص ولا تصفيق ولا يصدران

---

(١) أخرجه بلفظ: «خير الناس قرني»: أحمد (١/ ٣٧٨) والبخاري (٥/ ٣٢٤/ ٢٦٥٢) ومسلم (٤/ ١٩٦٣/ ٢٥٣٣(٢١٢)) والترمذي (٥/ ٦٥٢/ ٣٨٥٩) وقال: «وهذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجة (٢/ ٧٩١/ ٢٣٦٢) كلهم من حديث عبد اللَّه بن مسعود ﷺ وفي الباب عن عمر وعمران بن حصين وبريدة وغيرهم.

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣١) والبخاري (٢/ ٢١٢-٢١٣/ ٦٨٤) ومسلم (١/ ٣١٦-٣١٧/ ٤٢١) وأبو داود (١/ ٥٧٨-٥٧٩/ ٩٤٠) والنسائي (٢/ ٤١٢-٤١٣/ ٧٨٣) وابن ماجة (١/ ٣٣٠/ ١٠٣٥).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٣٩) والبخاري (١٠/ ٤٠٨/ ٥٨٨٥) وأبو داود (٤/ ٣٥٤-٣٥٥/ ٤٠٩٧) والترمذي (٥/ ٩٨/ ٢٧٨٤) وقال: «هذا حديث صحيح»، وابن ماجة (١/ ٦١٤/ ١٩٠٤).

إلا من جاهل، ويدل على جهالة فاعلهما أن الشريعة لم ترد بهما في كتاب ولا سنة ولم يفعل ذلك أحد من الأنبياء ولا معتبر من أتباعهم وإنما يفعل ذلك الجهلة السفهاء الذين التبست عليهم الحقائق بالأهواء، وقد قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[1] ولقد مضى السلف وأفاضل الخلف ولم يلابسوا شيئًا من ذلك فما ذاك إلا غرض من أغراض النفس وليس بقربة إلى الرب -جل وعلا-، وفاعله إن كان ممن يقتدى به ويعتقد أنه ما فعله إلا لكونه قربة فبئس ما صنع لإيهامه أن هذا من الطاعات وإنما هو من أقبح الرعونات، وأما الصياح والتغاشي ونحوهما فتصنع ورياء، فإن كان ذلك عن حال لا يقتضيهما فإثم الفاعل من جهتين: إحداهما إيهامه الحال الثابتة الموجبة لهما، والثانية تصنعه ورياؤه وإن كان عن مقتض أثم إثم رياء لا غير. وكذلك نتف الشعور وضرب الصدور وتمزيق الثياب محرم لما فيه من إضاعة المال، وأي ثمرة لضرب الصدور ونتف الشعور وشق الجيوب إلا رعونات صادرة عن النفوس»[2].

قال الشوكاني: «وإذا تقرر جميع ما حررناه من حجج الفريقين فلا يخفى على الناظر أن محل النزاع إذا خرج عن دائرة الحرام لم يخرج عن دائرة الاشتباه، والمؤمنون وقافون عند الشبهات كما صرح به الحديث الصحيح ومن تركها فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ولا سيما إذا كان مشتملا على ذكر القدود والخدود والجمال والدلال والهجر والوصال ومعاقرة العقار وخلع العذار والوقار فإن سامع ما كان كذلك لا يخلو عن بلية وإن كان من التصلب في ذات اللّه على حد يقصر عنه الوصف وكم لهذه الوسيلة الشيطانية من قتيل دمه مطلول وأسير بهموم غرامه وهيامه مكبول نسأل اللّه السداد والثبات»[3].

* * *

(١) النحل: الآية (٨٩).

(٢) روح المعاني (٢١/ ٧٢-٧٣).

(٣) نيل الأوطار (٨/ ١٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾

★ غريب الآية:

وقرًا: أي: صَمَمًا. والوَقْرُ، بالفتح: الثِّقَل. وبالكسر: الحمْلُ. يقال: وَقِرَتْ أُذُنُهُ تَقِرُ: إذا صُمَّتْ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب، إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولى عنها وأعرض وأدبر وتصامَّ وما به من صمم، كأنه ما يسمعها لأنه يتأذى بسماعها إذ لا انتفاع له بها ولا أرب له فيها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي، يوم القيامة يؤلمه، كما تألم بسماع كتاب اللَّه وآياته»[(١)].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الكافر إذا تتلى عليه آيات اللَّه، وهي هذا القرآن العظيم، ولى مستكبرا: أي متكبرا عن قبولها، كأنه لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا أي صمما وثقلا مانعا له من سماعها، ثم أمر نبيه أن يبشره بالعذاب الأليم.

وقد أوضح -جل وعلا- هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾[(٢)]، وقد قال تعالى هنا: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ على سبيل التشبيه، وصرح في غير هذا الموضع أنه جعل في أذنيه الوقر بالفعل في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[(٣)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٣٤-٣٣٥). (٢) الجاثية: الآيات (٧-١٠).
(٣) الكهف: الآية (٥٧).

والظاهر أن الوقر المذكور على سبيل التشبيه الوقر الحسي؛ لأن الوقر المعنوي يشبه الوقر الحسي والوقر المجعول على آذانهم بالفعل، هو الوقر المعنوي المانع من سماع الحق فقط، دون سماع غيره، والعلم عند اللَّه تعالى»[١].

قال الرازي: «أي يشتري الحديث الباطل، والحق الصراح يأتيه مجانا يعرض عنه، وإذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث إن المشتري يطلب المشترى مع أنه يطلبه ببذل الثمن، ومن يأتيه الشيء لا يطلبه ولا يبذل شيئًا، ثم إن الواجب أن يطلب العاقل الحكمة بأي شيء يجده ويشتريها، وهم ما كانوا يطلبونها، وإذا جاءتهم مجانا ما كانوا يسمعونها، ثم إن فيه أيضًا مراتب الأولى: التولية عن الحكمة وهو قبيح والثاني: الاستكبار، ومن يشتري حكاية رستم وبهرام ويحتاج إليها كيف يكون مستغنيا عن الحكمة حتى يستكبر عنها؟ وإنما يستكبر الشخص عن الكلام وإذا كان يقول أنا أقول مثله، فمن لا يقدر يصنع مثل تلك الحكايات الباطلة كيف يستكبر على الحكمة البالغة التي من عند الله؟ الثالث: قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ شغل المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام ويجعل نفسه كأنها غافلة الرابع: قوله: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أدخل في الإعراض. ثم قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: له عذاب مهين بشره أنت به وأوعده، أو يقال إذا كان حاله هذا ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾»[٢].

* * *

(١) أضواء البيان (٦/ ٤٩٥-٤٩٦).

(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ١٤٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار، من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والمراكب والنساء، والنضرة والسماع الذي لم يخطر ببال أحد، وهم في ذلك مقيمون دائما فيها، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولا، وقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ﴾ أي: هذا كائن لا محالة؛ لأنه من وعد الله، والله لا يخلف الميعاد؛ لأنه الكريم المنان، الفعال لما يشاء، القادر على كل شيء ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾[1] الآية وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾[2]»[3].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله فوحدوه، وصدقوا رسوله واتبعوه ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يقول: فأطاعوا الله، فعملوا بما أمرهم في كتابه وعلى لسان رسوله، وانتهوا عما نهاهم عنه ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ يقول لهؤلاء بساتين النعيم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ﴾ يقول: ماكثين فيها إلى غير نهاية ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ﴾ يقول: وعدهم الله وعدا حقا، لا شك فيه ولا خلف له ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ يقول: وهو الشديد في انتقامه من أهل الشرك به، والصادين عن سبيله ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في

---

(١) فصلت: الآية (٤٤).

(٢) الإسراء: الآية (٨٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٣٥).

تدبير خلقه»[١].

قال الرازي: «لما بين حال من إذا تتلى عليه الآيات ولى، بين حال من يقبل على تلك الآيات ويقبلها وكما أن ذلك له مراتب من التولية والاستكبار، فهذا له مراتب من الإقبال والقبول والعمل به، فإن من سمع شيئًا وقبله قد لا يعمل به فلا تكون درجته مثل من يسمع ويطيع، ثم إن هذا له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين وفيه لطائف: إحداها: توحيد العذاب وجمع الجنات إشارة إلى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب الثانية: تنكير العذاب وتعريف الجنة بالإضافة إلى المعرف إشارة إلى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها إيصالا للراحة إلى القلب، ولا يبين النقمة، وإنما ينبه عليها تنبيها الثالثة: قال عذاب، ولم يصرح بأنهم فيه خالدون، وإنما أشار إلى الخلود بقوله: ﴿مُّهِينٌ﴾ وصرح في الثواب بالخلود بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، الرابعة: أكد ذلك بقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ ولم يذكره هناك الخامسة: قال هناك لغيره ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ﴾ وقال ههنا بنفسه: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، ثم لم يقل أبشركم به لأن البشارة لا تكون إلا بأعظم ما يكون، لكن الجنة دون ما يكون للصالحين بشارة من اللَّه، وإنما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١﴾[٢] ولولا قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ لما عظمت البشارة، ولو كانت ﴿مِّنْهُ﴾ مقرونة بأمر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة من غير إضافة، فإن قيل فقد بشر بنفس الجنة بقوله: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٣] نقول البشارة هناك لم تكن بالجنة وحدها، بل بها وبما ذكر بعدها إلى قوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾[٤] والنزل ما يهيأ عند النزول والإكرام العظيم بعده ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كامل القدرة يعذب المعرض ويثيب المقبل، كامل العلم يفعل الأفعال كما ينبغي، فلا يعذب من يؤمن ولا يثيب من يكفر»[٥].

قال السعدي: «جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان، والظاهر بالإسلام، والعمل الصالح.

(١) جامع البيان (٢١/ ٦٥).
(٢) التوبة: الآية (٢١).
(٣) فصلت: الآية (٣٠).
(٤) فصلت: الآية (٣٢).
(٥) التفسير الكبير (٢٥/ ١٤٣).

﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ بشارة لهم بما قدموه، وقرى لهم بما أسلفوه. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في جنات النعيم، نعيم الروح، والبدن.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ لا يمكن أن يخلف، ولا يغير، ولا يتبدل. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كامل العزة، كامل الحكمة، من عزته وحكمته، أن وفق من وفق، وخذل من خذل، بحسب ما اقتضاه علمه فيهم وحكمته»[١].

قال ابن القيم: «وهذا أيضًا اسم جامع لجميع الجنات، لما تضمنته من الأنواع التي يتنعم بها، من المأكول والمشروب والملبوس، والصور والرائحة الطيبة والمنظر البهيج، والمساكن الواسعة، وغير ذلك من النعيم الظاهر والباطن»[٢].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٥٢).

(٢) حادي الأرواح (ص٨٩).

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾﴾

★ غريب الآية:

عمد: جمع عِمَاد، وهو ما يسند به. مقابله: السارية. قال الشاعر:

والبيتُ لا يَنْبَني إلا على عمدٍ ولا عمادَ إذا لم ترسُ أوتادُ

تميد: تميل وتتحرك.

بث: فَرَّقَ ونَشَرَ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يتلو تعالى على عباده، آثارا من آثار قدرته، وبدائع من بدائع حكمته، ونعما من آثار رحمته، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع على عظمها، وسعتها، وكثافتها، وارتفاعها الهائل. ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ أي: ليس لها عمد، ولو كان لها عمد لرئيت، وإنما استقرت واستمسكت، بقدرة اللَّه تعالى.

﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالا عظيمة، ركزها في أرجائها وأنحائها، لئلا ﴿تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ فلولا الجبال الراسيات لمادت الأرض، ولما استقرت بساكنيها.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ أي: نشر في الأرض الواسعة، من جميع أصناف الدواب، التي هي مسخرة لبني آدم، ولمصالحهم، ومنافعهم. ولما بثها في الأرض، علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركا، ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ المنظر، نافع مبارك، فرتعت فيه الدواب المنبثة، وسكن إليه كل حيوان.

﴿هَٰذَا﴾ أي: خلق العالم العلوي والسفلي، من جماد، وحيوان، وسوق أرزاق الخلق إليهم ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ وحده لا شريك له، كل مقر بذلك حتى أنتم يا معشر المشركين.

﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: الذين جعلتموهم له شركاء، تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا، أن يكون لهم خلق كخلقه، ورزق كرزقه، فإن كان لهم شيء من ذلك فأرونيه، ليصح ما ادعيتم فيهم من استحقاق العبادة.

ومن المعلوم أنهم لا يقدرون أن يروه شيئًا من الخلق لها؛ لأن جميع المذكورات، قد أقروا أنها خلق اللَّه وحده، ولا ثم شيء يعلم غيرها، فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تعبد.

ولكن عبادتهم إياها، عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل وضلال، ولهذا قال: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: جلي واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي أعددت عليكم أيها الناس أني خلقته في هذه الآية خلق اللَّه الذي له ألوهة كل شيء وعبادة كل خلق الذي لا تصلح العبادة لغيره، ولا تنبغي لشيء سواه، فأروني أيها المشركون في عبادتكم إياه من دونه من الآلهة والأوثان، أي شيء خلق الذين من دونه من آلهتكم وأصنامكم حتى استحقت عليكم العبادة فعبدتموها من دونه، كما استحق ذلك عليكم خالقكم، وخالق هذه الأشياء التي عددتها عليكم»[2].

وقال أيضًا: «وقوله: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ما عبد هؤلاء المشركون الأوثان والأصنام من أجل أنها تخلق شيئًا، ولكنهم دعاهم إلى عبادتها ضلالهم، وذهابهم عن سبيل الحق، فهم في ضلال: يقول: فهم في جور عن الحق، وذهاب عن الاستقامة مبين، يقول: يبين لمن تأمله، ونظر فيه، وفكر بعقل أنه ضلال لا هدى»[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٥٢-١٥٤).
(٢) جامع البيان (٢١/ ٦٦).
(٣) جامع البيان (٢١/ ٦٦).

قال الرازي: «ثم قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي: بين أو مبين للعاقل أنه ضلال، وهذا لأن ترك الطريق والحيد عنه ضلال، ثم إن كان الحيد يمنة أو يسرة فهو لا يبعد عن الطريق المستقيم مثل ما يكون المقصد إلى وراء فإنه يكون غاية الضلال، فالمقصد هو اللَّه تعالى، فمن يطلبه ويلتفت إلى غيره من الدنيا وغيرها فهو ضال، لكن من وجهه إلى اللَّه قد يصل إلى المقصود ولكن بعد تعب وطول مدة، ومن يطلبه ولا يلتفت إلى ما سواه يكون كالذي على الطريق المستقيم يصل عن قريب من غير تعب. وأما الذي تولى لا يصل إلى المقصود أصلًا، وإن دام في السفر، والمراد بالظالمين المشركون الواضعون لعبادتهم في غير موضعها أو الواضعون أنفسهم في عبادة غير الله»[1].

قال ابن القيم: «فلله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه وأدله على بطلان الشرك فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت شيئًا مع اللَّه طولبوا بأن يروه إياه وإن اعترفوا بأنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك كانت إلهيتها باطلا ومحالا»[2].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٥/ ١٤٥).

(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الحكمة: إصابة الحق في القول والعمل. وأصلها وضع الشيء في موضعه. وسميت حكمة لأنها تمنع صاحبها من الجهل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «لما بين اللَّه فساد اعتقادهم بسبب عنادهم بإشراك من لا يخلق شيئًا بمن خلق كل شيء بقوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ وبين أن المشرك ظالم ضال، ذكر ما يدل على أن ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة وإن لم يكن هناك نبوة وهذا إشارة إلى معنى، وهو أن اتباع النبي ﷺ لازم فيما لا يعقل معناه إظهارا للتعبد فكيف ما لا يختص بالنبوة، بل يدرك بالعقل معناه وما جاء به النبي ﷺ مدرك بالحكمة وذكر حكاية لقمان وأنه أدركه بالحكمة وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ عبارة عن توفيق العمل بالعلم، فكل من أوتي توفيق العمل بالعلم فقد أوتي الحكمة، وإن أردنا تحديدها بما يدخل فيه حكمة اللَّه تعالى، فنقول حصول العمل على وفق المعلوم، والذي يدل على ما ذكرنا أن من تعلم شيئًا ولا يعلم مصالحه ومفاسده لا يسمى حكيما وإنما يكون مبخوتا، ألا ترى أن من يلقي نفسه من مكان عال ووقع على موضع فانخسف به وظهر له كنز وسلم لا يقال إنه حكيم، وإن ظهر لفعله مصلحة وخلو عن مفسدة، لعدم علمه به أولا، ومن يعلم أن الإلقاء فيه إهلاك النفس ويلقي نفسه من ذلك المكان وتنكسر أعضاؤه لا يقال إنه حكيم وإن علم ما يكون في فعله، ثم الذي يدل على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾ فإن (أن) في مثل هذا تسمى المفسرة ففسر اللَّه إيتاء الحكمة بقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾ وهو كذلك؛ لأن من جملة ما يقال إن العمل موافق للعلم؛ لأن الإنسان إذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر، فإن اشتغل بالأهم كان عمله موافقا

لعلمه وكان حكمة، وإن أهمل الأهم كان مخالفا للعلم ولم يكن من الحكمة في شيء، لكن شكر اللَّه أهم الأشياء فالحكمة أول ما تقتضي، ثم إن اللَّه تعالى بين أن بالشكر لا ينتفع إلا الشاكر بقوله: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ وبين أن بالكفران لا يتضرر غير الكافر بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: اللَّه غير محتاج إلى شكر حتى يتضرر بكفران الكافر وهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أو لم يشكروه، وفي الآية مسائل ولطائف الأولى: فسر اللَّه إيتاء الحكمة بالأمر بالشكر، لكن الكافر والجاهل مأموران بالشكر فينبغي أن يكون قد أوتي الحكمة والجواب: أن قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أمر تكوين معناه آتيناه الحكمة بأن جعلناه من الشاكرين، وفي الكافر الأمر بالشكر أمر تكليف»[(١)].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان، بالحكمة، وهي العلم [بالحق] على وجهه وحكمته، فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، فقد يكون الإنسان عالما، ولا يكون حكيما.

وأما الحكمة، فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع، والعمل الصالح.

ولما أعطاه اللَّه هذه المنة العظيمة، أمره أن يشكره على ما أعطاه، ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين، يعود نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر اللَّه، عاد وبال ذلك عليه. واللَّه غني [عنه] حميد فيما يقدره ويقضيه، على من خالف أمره، فغناه تعالى، من لوازم ذاته، وكونه حميدا في صفات كماله، حميدا في جميل صنعه، من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين، صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر، زيادة كمال إلى كمال»[(٢)].

قال المراغي: «بعد أن بين فساد اعتقاد المشركين بإشراك من لا يخلق شيئًا بمن خلق كل شيء، ثم بين أن المشرك ظالم ضال؛ أعقب ذلك ببيان أن نعمه الظاهرة في السماوات والأرض، والباطنة من العلم والحكمة ترشد إلى وحدانيته، وقد آتاها لبعض عباده كلقمان الذي فطر عليها دون نبي أرشده، ولا رسول بعث إليه»[(٣)].

---

(١) التفسير الكبير (٢٥/ ١٤٥-١٤٦).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٥٤).
(٣) تفسير المراغي (٢١/ ٧٩).

قال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[١] وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غني عن العباد لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعًا فإنه الغني عما سواه فلا إله إلا اللَّه ولا نعبد إلا إياه»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مناقب لقمان رضي الله عنه

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخبرنا رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن لقمان الحكيم كان يقول: إن اللَّه إذا استودع شيئًا حفظه**»[٣].

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل ومذلة بالنهار**»[٤].

⋆ فوائد الحديثين:

قال ابن كثير: «اختلف السلف في لقمان عليه السلام هل كان نبيًا أو عبدًا صالحًا من غير نبوة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني.

وقال أيضًا -بعدما ذكر اختلاف الآثار في نبوته-: «فهذه الآثار منها ما هو مصرح فيه بنفي كونه نبيًا، ومنها ما هو مشعر بذلك؛ لأن كونه عبدًا قد مسّه الرق ينافي كونه نبيًا؛ لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها، ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيًا، وإنما ينقل كونه نبيًا عن عكرمة إن صح السند إليه، فإنه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة قال: (كان لقمان نبيًا)، وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، واللَّه أعلم»[٥].

---

(١) الروم: الآية (٤٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٣٨).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٨٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٣٢/ ١٠٣٥٠)، قال العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء (٣/ ١٢٩٢/ ١٩٥٣): «إسناده جيد». وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند وقام ببحث نفيس حول الحديث (٨/ ١٣-١٤/ ٥٦٠٥).
(٤) أخرجه: الحاكم (٢/ ٤١١) وقال: «هذا متن شاهده إسناده صحيح، واللَّه أعلم»، ووافقه الذهبي. وزاد نسبته في الدر (٥/ ٣١٣) لابن أبي حاتم.
(٥) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٦-٣٣٧).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: الفهم والعلم والتعبير، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: أمرناه أن يشكر اللَّه ﷻ على ما آتاه اللَّه ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصّه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه[١].

قوله: «إن لقمان الحكيم . . » إلخ. **قال المناوي**: «أي: المتقن للحكمة، وقد مر تعريفها، قال: «**إن اللَّه إذا استودع شيئًا حفظه**»؛ لأن العبد عاجز ضعيف، والأسباب التي أعطيها عاجزة ضعيفة مثله، فإذا تبرأ العبد من الأسباب، وتخلى من وبالها، وتحلى بالاعتراف بالضعف، واستودع اللَّه شيئًا، فهذا منه في ذلك الوقت تخلٍّ وتَبَرٍّ من حفظه ومراقبته، فيكلأه اللَّه ويرعاه ويحفظه، واللَّه خير حفظًا»[٢].

قال ابن العربي: «روى علماؤنا عن مالك أن لقمان قال لابنه: يا بني؛ إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون، وهم إلى الآخرة سراعا يذهبون، وإنك قد استدبرت الدنيا منذ كنت، واستقبلت الآخرة، وإن دارا تسير إليها أقرب إليك من دار تخرج عنها.

وقال لقمان: يا بني؛ ليس غنى كصحة، ولا نعمة كطيب نفس.

وقال لقمان لابنه: يا بني لا تجالس الفجار، ولا تماشهم، اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء، فيصيبك معهم.

وقال: يا بني؛ جالس العلماء وماشهم، عسى أن تنزل عليهم رحمة فتصيبك معهم.

وقال: يا بني؛ جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإن اللَّه يحيي القلوب الميتة بالعلم، كما يحيي الأرض بوابل المطر»[٣].

وقال أيضًا: «ذكر مالك كلاما كثيرا من الحكمة عن لقمان، وأدخل من حكمته فصلا في كتاب الجامع من موطئه؛ لأن اللَّه ذكره في كتابه، وذكر من حكمته فصلا يعضده الكتاب والسنة، لينبه بذلك على أن الحكمة تؤخذ من كل أحد، وجائز أن يكون نبيًّا، وجائز أن يكون عالـمًا أي أوتي الحكمة، وهي العمل بالعلم»[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٨).
(٢) فيض القدير (٢/ ٥٠٦).
(٣) أحكام القرآن (٣/ ١٤٩٥-١٤٩٦).
(٤) أحكام القرآن (٣/ ١٤٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يعظه: ينصحه ويذكره بالخير بما يرق له القلب. وأصل الوعظ: النصح والإرشاد بما يخوف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن وصية لقمان لولده.. وقد ذكره اللَّه تعالى بأحسن الذكر فإنه آتاه الحكمة وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ولهذا أوصاه أولا بأن يعبد اللَّه وحده ولا يشرك به شيئًا ثم قال محذرا له: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هو أعظم الظلم»[1].

قال القرطبي: «واختلف في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فقيل: إنه من كلام لقمان وقيل: هو خبر من اللَّه تعالى منقطعا من كلام لقمان متصلا به في تأكيد المعنى ويؤيد هذا الحديث المأثور أنه لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أشفق أصحاب رسول اللَّه ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم فأنزل اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فسكن إشفاقهم وإنما يسكن إشفاقهم بأن يكون خبرا من اللَّه تعالى وقد يسكن الإشفاق بأن يذكر اللَّه ذلك عن عبد قد وصفه بالحكمة والسداد»[2].

قال الشنقيطي: «دلت هذه الآية الكريمة: على أن الشرك ظلم عظيم.

وقد بين تعالى ذلك في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٣٨).

(٢) جامع أحكام القرآن (١٤/ ٦٢).

وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٢)، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه فسر الظلم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾(٣) بأنه الشرك، وبين ذلك بقوله هنا: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»(٤).

قال السعدي: «واختلف المفسرون، هل كان لقمان نبيا، أو عبدا صالحا؟ واللَّه تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر أصول الحكمة وقواعدها الكبار فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ وقال له قولا يعظه به، والوعظ الأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبين له السبب في ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ووجه كونه ظلما عظيما، أنه لا أفظع ولا أبشع ممن سوى المخلوق من تراب، بمالك الرقاب، وسوى الذي لا يملك من الأمر شيئًا، بمالك الأمر كله، وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه، بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوى من لا يستطيع أن ينعم بمثقال ذرة [من النعم] بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم، ودنياهم وأخراهم، وقلوبهم، وأبدانهم، إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟!

وهل أعظم ظلما ممن خلقه اللَّه لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، [فجعلها في أخس المراتب] جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئًا، فظلم نفسه ظلما كبيرا»(٥).

قال المراغي: «أي واذكر أيها الرسول الكريم موعظة لقمان لابنه، وهو أشفق الناس عليه، وأحبهم لديه حين أمره أن يعبد اللَّه وحده، ونهاه عن الشرك، وبين له أنه ظلم عظيم، أما كونه ظلما، فلما فيه من وضع الشيء في غير موضعه، وأما أنه عظيم، فلما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه، وهو سبحانه وتعالى، ومن لا نعمة لها، وهي الأصنام والأوثان»(٦).

---

(١) يونس: الآية (١٠٦).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٤).
(٣) الأنعام: الآية (٨٢).
(٤) أضواء البيان (٦/ ٤٩٦).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٥٥-١٥٦).
(٦) تفسير المراغي (٢١/ ٨١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير النبي ﷺ الظلم بالشرك

* عن عبد اللَّه قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[1] شقّ ذلك على أصحاب رسول اللَّه ﷺ وقالوا: أيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ليس هو كما تظنون. إنما هو كما قال لقمان لابنه:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2]»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «فالصحابة ﷺ حملوا الظلم على عمومه والمتبادر إلى الأفهام منه، وهو وضع الشيء في غير موضعه، وهو مخالفة الشرع، فشقّ عليهم إلى أن أعلمهم النبي ﷺ بالمراد بهذا الظلم»[4].

قال الخطابي: «إنما قالت الصحابة هذا القول لأنهم اقتضوا من الظلم ظاهره الذي هو الافتيات بحقوق الناس، أو الظلم الذي ظلموا به أنفسهم، من ركوب معصية أو إتيان محرَّم، كقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾[5] الآية، وذلك حق الظاهر فيما كان يصلح له هذا الاسم، ويحتمله المعنى عندهم، ولم تكن الآية نزلت بتسمية الشرك ظلمًا، وكان الشرك عندهم أعظم من أن يُلقّب بهذا الاسم، فسألوا رسول اللَّه ﷺ عن ذلك، فنزل قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، فسمّى الشرك ظلمًا، وعظّم أمره في الكذب والافتراء على اللَّه ﷻ، وذلك أن أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومن أشرك باللَّه وجعل الربوبية مستحقة لغيره، أو عدل به شيئًا، واتخذ معه ندًّا فقد أتى بأعظم الظلم، ووضع الشيء في غير موضعه ومستقره»[6].

قال الحافظ ابن حجر -معلقًا على قول الخطابي: فنزل قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ -: «كذا قال، وفيه نظر، والذي يظهر لي أنهم حملوا الظلم على

---

(١) الأنعام: الآية (٨٢). (٢) لقمان: الآية (١٣).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٨و٤٢٤و٤٤٤) والبخاري (٨/ ٣٧٣/ ٤٦٢٩) ومسلم (١/ ١١٤/ ١٢٤) والترمذي (٥/ ٢٤٥/ ٣٠٦٧) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤١/ ١١١٦٦).

(٤) شرح مسلم (٢/ ١٢٣). (٥) آل عمران: الآية (١٣٥).

(٦) أعلام الحديث (١/ ١٦٢-١٦٣).

عمومه، الشرك فما دونه، وهو الذي يقتضيه صنيع المؤلف. وإنما حملوه على العموم لأن قوله: ﴿بِظُلۡمٍ﴾ نكرة في سياق النفي، لكن عمومها هنا بحسب الظاهر. قال المحققون: إن دخل على النكرة في سياق النفي ما يؤكد العموم ويقويه نحو (من) في قوله: (ما جاءني من رجل) أفاد تنصيص العموم، وإلا فالعموم مستفاد بحسب الظاهر كما فهمه الصحابة من هذه الآية، وبيّن لهم النبي ﷺ أن ظاهرها غير مراد، بل هو من العامّ الذي أريد به الخاص، فالمراد بالظلم أعلى أنواعه وهو الشرك. فإن قيل: من أين يلزم أن من لبس الإيمان بظلم لا يكون آمنًا ولا مهتديًا حتى شق عليهم، والسياق إنما يقتضي أن من لم يوجد منه الظلم فهو آمن ومهتدٍ، فما الذي دل على نفي ذلك عمن وجد منه الظلم؟ فالجواب أن ذلك مستفاد من المفهوم وهو مفهوم الصفة، أو مستفاد من الاختصاص المستفاد من تقديم ﴿لَهُمُ﴾ على ﴿ٱلۡأَمۡنُ﴾؛ أي: لهم الأمن لا لغيرهم، كذا قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾[1] وقال في قوله تعالى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾[2] تقديم ﴿هُوَ﴾ على ﴿قَآئِلُهَا﴾ يفيد الاختصاص؛ أي: هو قائلها لا غيره، فإن قيل: لا يلزم من قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ أن غير الشرك لا يكون ظلمًا، فالجواب أن التنوين في قوله: ﴿لَظُلۡمٌ﴾ للتعظيم، وقد بيّن ذلك استدلال الشارع بالآية الثانية، فالتقدير: لم يلبسوا إيمانهم بظلم منه، وقد ورد ذلك صريحًا عند المؤلف في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام من طريق حفص بن غياث عن الأعمش، ولفظه: قلنا: يا رسول اللَّه أيُّنا لم يظلم نفسه؟ قال: «**ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم: بشرك. أو لم تسمعوا إلى قول لقمان**»، فذكر الآية»[3].

قال شيخ الإسلام: «نهوا عن الإشراك لأنه مانع من الأصل وهو ظلم في الربوبية كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ ومنعوا عن ظلم بعضهم بعضًا في النفوس والأموال والأبضاع والأعراض لأنه مانع من كمال ما خلق له. فظهر أن فعل المأمور به أصل وهو المقصود وأن ترك المنهي عنه فرع وهو التابع، وقال

(١) الفاتحة: الآية (٥).
(٢) المؤمنون: الآية (١٠٠).
(٣) فتح الباري (١/ ١١٩).

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[١] لأن الشرك منع الأصل فلم يك في النفس استعداد للفلاح في الآخرة بخلاف ما دونه فان مع المغفور له أصل الإيمان الذي هو سبب السعادة»[٢].

* * *

(١) النساء: الآية (٤٨).

(٢) المجموع (٢٠/١١٦).

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وهنًا: الوهن: الضعف.

فصاله: فِطَامُه.

جاهداك: أي بذلا جُهْدَهما. والجُهْد: الوُسْع والطاقَة.

أَنَابَ: رجع. والإنابة: الرجوع إلى اللَّه بالتوبة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «لما منعه من العبادة لغير اللَّه والخدمة قريبة منها في الصورة بين أنها غير ممتنعة، بل هي واجبة لغير اللَّه في بعض الصور مثل خدمة الأبوين، ثم بين السبب فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ يعني لله على العبيد نعمة الإيجاد ابتداء بالخلق ونعمة الإبقاء بالرزق وجعل بفضله للأم ما له صورة ذلك وإن لم يكن لها حقيقة فإن الحمل به يظهر الوجود، وبالرضاع يحصل التربية والبقاء فقال حملته أمه أي صارت بقدرة اللَّه سبب وجوده ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، أي صارت بقدرته أيضًا سبب بقائه، فإذا كان منها ما له صورة الوجود والبقاء وجب عليه ما له شبه العبادة من الخدمة، فإن الخدمة لها صورة العبادة، فإن قال قائل وصى اللَّه بالوالدين وذكر السبب في حق الأم فنقول خص الأم بالذكر وفي الأب ما وجد في الأم فإن الأب حمله في صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو أبلغ وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ لما كان اللَّه

تعالى بفضله جعل من الوالدين صورة ما من اللَّه، فإن الوجود في الحقيقة من اللَّه وفي الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ ثم بين الفرق وقال: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ يعني نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتي في الدنيا والآخرة، فإن إلي المصير أو نقول لما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين قال الجزاء علي وقت المصير إلي»[1].

قال القرطبي: «فيه مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ هاتان الآيتان اعتراض بين أثناء وصية لقمان وقيل: إن هذا مما أوصى به لقمان ابنه أخبر اللَّه به عنه أي قال لقمان لابنه: لا تشرك باللَّه ولا تطع في الشرك والديك فإن اللَّه وصى بهما في طاعتهما مما لا يكون شركا ومعصية لله تعالى.. وجملة هذا الباب أن طاعة الأبوين لا تراعى في ركوب كبيرة ولا في ترك فريضة على الأعيان وتلزم طاعتهما في المباحات ويستحسن في ترك الطاعات الندب ومنه أمر الجهاد الكفاية والإجابة للأم في الصلاة مع إمكان الإعادة على أن هذا أقوى من الندب لكن يعلل بخوف هلكة عليها ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى من الندب وخالف الحسن في هذا التفصيل فقال: إن منعته أمه من شهود العشاء شفقة فلا يطعها.

الثانية: لما خص تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرضاع حصل لها بذلك ثلاث مراتب وللأب واحدة وأشبه ذلك قوله حين قال له رجل: من أبر؟ قال: **أمك** قال: ثم من؟ قال: **أمك** قال: ثم من؟ قال: **أمك** قال: ثم من؟ قال: **أبوك**[2] فجعل له الربع من المبرة كما في هذه الآية»[3].

قال السعدي: «ولما أمر بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: عهدنا إليه، وجعلناه وصية عنده، سنسأله عن القيام بها، وهل حفظها أم لا؟ فوصيناه ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ وقلنا له: ﴿ٱشْكُرْ لِي﴾ بالقيام بعبوديتي، وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي. ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين،

---

(١) التفسير الكبير (٢٥/ ١٤٧-١٤٨).

(٢) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.

(٣) جامع أحكام القرآن (١٤/ ٦٣-٦٤).

والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما، [وإكرامهما] وإجلالهما، والقيام بمئونتهما واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل.

فوصيناه بهذه الوصية، وأخبرناه أن ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك، وكلفك بهذه الحقوق، فيسألك: هل قمت بها، فيثيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها، فيعاقبك العقاب الوبيل؟

وذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من الوحم، والمرض، والضعف، والثقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد.

و﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ وهو ملازم لحضانة أمه وكفالتها ورضاعها، أفما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد، مع شدة الحب، أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟»[1].

قال المراغي: «بعد أن بين سبحانه أن لقمان أوتي الحكمة، فشكر ربه على نعمه المتظاهرة عليه وهو يرى آثارها في الآفاق والأنفس آناء الليل وأطراف النهار؛ أردف ذلك ببيان أنه وعظ ابنه بذلك أيضًا، ثم استطرد في أثناء هذه المواعظ إلى ذكر وصايا عامة وصى بها سبحانه الأولاد في معاملة الوالدين رعاية لحقوقهم، وردا لما أسدوه من جميل النعم إليهم، وهم لا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، على ألا يتعدى ذلك إلى حقوقه تعالى، ثم رجع إلى ذكر بقية المواعظ التي يتعلق بعضها بحقوقه، وبعضها يرجع إلى معاملة الناس بعضهم مع بعض»[2].

قال ابن كثير: «وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلا ونهارا ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾[3] ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء»[4].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٥٦-١٥٧).

(٢) تفسير المراغي (٢١/ ٨١).

(٣) النساء: الآية (٢٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٣٩).

قال المراغي: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ أي: وفطامه من الرضاع بعد وضعه في عامين تقاسي فيهما الأم في رضاعه وشؤونه في تلك الحقبة جم المصاعب والآلام التي لا يقدر قدرها إلا العليم بها، ومن لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. وقد وصى بالوالدين لكنه ذكر السبب في جانب الأم فحسب؛ لأن المشقة التي تلحقها أعظم، فقد حملته في بطنها ثقيلا، ثم وضعته وربته ليلا ونهارا، ومن ثم قال ﷺ لمن سأله: من أبر: «**أمك، ثم أمك، ثم أمك**» ثم قال بعد ذلك: «**ثم أباك**»[١].

ثم فسر هذه الوصية بقوله: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ أي: وعهدنا إليه أن اشكر لي على نعمي عليك، ولوالديك؛ لأنهما كانا السبب في وجودك وإحسان تربيتك، وملاقاتهما ما لاقيا من المشقة حتى استحكمت قواك»[٢].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ يقول: وعهدنا إليه أن أشكر لي على نعمي عليك ولوالديك تربيتهما إياك وعلاجهما فيك ما عالجا من المشقة حتى استحكم قواك وقوله: ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ يقول: إلى اللّه مصيرك أيها الإنسان وهو سائلك عما كان من شكرك له على نعمه عليك وعما كان من شكرك لوالديك وبرك بهما على ما لقيا منك من العناء والمشقة في حال طفوليتك وصباك وما اصطنعا إليك في برهما بك وتحننهما عليك»[٣].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- وإن جاهدك أيها الإنسان والداك على أن تشرك بي في عبادتك إياي معي غيري مما لا تعلم أنه لي شريك -ولا شريك له تعالى ذكره علوًا كبيرًا- فلا تطعمها فيما أراداك عليه من الشرك بي ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ يقول: وصاحبهما في الدنيا بالطاعة لهما فيما لا تبعة عليك فيه فيما بينك وبين ربك ولا إثم، وقوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ يقول: واسلك طريق من تاب من شركه ورجع إلى الإسلام واتبع محمدا»[٤].

قال القرطبي: «والآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن

---

(١) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) تفسير المراغي (٢١/ ٨٢-٨٣).

(٣) جامع البيان (٢١/ ٧٠).

(٤) جامع البيان (٢١/ ٧١).

كانا فقيرين وإِلاَنَةُ القول والدعاء إلى الإسلام برفق وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق للنبي -عليه الصلاة والسلام- وقد قدمت عليها خالتها وقيل أمها من الرضاعة فقالت: يا رسول اللَّه إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: **نعم**[1]. وراغبة قيل معناه: عن الإسلام وقال ابن عطية: والظاهر عندي أنها راغبة في الصلة وما كانت لتقدم على أسماء لولا حاجتها»[2].

قال السعدي: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أي: اجتهد والداك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما؛ لأن حق اللَّه، مقدم على حق كل أحد، و«**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[3].

ولم يقل: (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فعقهما) بل قال: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ أي: في الشرك، وأما برهما، فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي، فلا تتبعهما.

﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ وهم المؤمنون باللَّه، وملائكته وكتبه، ورسله، المستسلمون لربهم، المنيبون إليه.

واتباع سبيلهم، أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى اللَّه، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى اللَّه، ثم يتبعها سعي البدن، فيما يرضي اللَّه، ويقرب منه.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ الطائع والعاصي، والمنيب، وغيره ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما، ثم أجازي كلا منكم بما صدر عنه من الخير والشر. فلا يخفى على اللَّه من أعمالهم خافية»[4].

قال ابن القيم: «قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ وكل من الصحابة منيب إلى اللَّه فيجب اتباع سبيله، وأقوالُه واعتقاداتُه من أكبر سبيله، والدليل على أنهم

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٤٤) والبخاري (٥/ ٢٩١/ ٢٦٢٠) ومسلم (٢/ ٦٩٦/ ١٠٠٣) وأبو داود (٢/ ٣٠٧/ ٣٠٨).

(٢) جامع أحكام القرآن (١٤/ ٤٥).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٩٤) والبخاري (١٣/ ٢٨٩/ ٧٢٥٧) ومسلم (٣/ ١٤٦٩/ ١٨٤٠) وأبو داود (٣/ ٩٢-٩٣/ ٢٦٢٥) والنسائي (٧/ ١٧٩/ ٤٢١٦) من حديث علي ﷺ بلفظ: «**لا طاعة في معصية اللَّه إنما الطاعة في المعروف**».

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٥٧-١٥٨).

منيبون إلى اللَّه تعالى أن اللَّه تعالى قد هداهم وقد قال ويهدي إليه من ينيب»[١].

قال الآلوسي: «وصاحبهما في الدنيا معروفا أي صحابا معروفا يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم والمروءة كإطعامهما وإكسائهما وعدم جفائهما وانتهارهما وعيادتهما إذا مرضا ومواراتهما إذا ماتا، وذكر (في الدنيا) لتهوين أمر الصحبة والإشارة إلى أنها في أيام قلائل وشيكة الانقضاء فلا يضر تحمل مشقتها لقلة أيامها وسرعة انصرامها وقيل للإشارة إلى أن الرفق بهما في الأمور الدنيوية دون الدينية»[٢].

قال السعدي: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ أي: في وسطها ﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في أي جهة من جهاتهما ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ لسعة علمه، وتمام خبرته وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

والمقصود من هذا، الحث على مراقبة اللَّه، والعمل بطاعته، مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح، قل أو كثر»[٣].

قال ابن كثير: «هذه وصايا نافعة قد حكاها اللَّه تعالى عن لقمان الحكيم ليمتثلها الناس ويقتدوا بها فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: إن المظلمة والخطيئة لو كانت مثل مثقال حبة خردل.. وقوله ﷻ: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي: أحضرها اللَّه يوم القيامة حين يضع الموازين القسط وجازى عليها إن خيرا فخير وإن شرا فشر كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾[٤] وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٥] ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء أو غائبة ذاهبة في أرجاء السماوات أو الأرض فإن اللَّه يأتي بها لأنه لا تخفى عليه خافية ولا يعزب

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٣٠).
(٢) روح المعاني (٢١/ ٨٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٥٨).
(٤) الأنبياء: الآية (٤٧).
(٥) الزلزلة: الآيتان (٧و٨).

عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطيف العلم فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ﴿خَبِيرٌ﴾ بدبيب النمل في الليل البهيم.

وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله: ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ أنها صخرة تحت الأرضين السبع». ثم ذكر أقوالا ثم قال: «والظاهر -والله أعلم- أن المراد أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة فإن الله سيبديها ويظهرها بلطيف علمه»[1].

قال القرطبي: «المعنى: وقال لقمان لابنه يا بني وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ابنه بقدر قدرة الله تعالى وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهمه لأن الخردلة يقال: إن الحس لا يدرك لها ثقلا، إذ لا ترجح ميزانا أي لو كان للإنسان رزق مثقال حبة خردل في هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقها إلى من هي رزقه أي لا تهتم للرزق حتى تشتغل به عن أداء الفرائض وعن اتباع سبيل من أناب إلي.. وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شئ علمًا وأحصى كل شئ عددًا سبحانه لا شريك له.. وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف مضاف ذلك إلا تبيين قدرة الله تعالى»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في طاعة الوالدين في غير معصية

* عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آيات من القرآن: قال: حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب قالت: زعمتَ أن الله وصاك بوالديك وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا، قال: مكثت ثلاثًا حتى غشي عليها من الجَهد، فقام ابن لها يقال له عمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد. فأنزل الله ﷻ في القرآن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ وفيها: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٤٠).

(٢) جامع أحكام القرآن (١٤/ ٦٦-٦٧).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ١٨١) ومسلم (٤/ ١٨٧٧/ ١٧٤٨) والترمذي (٥/ ٣١٩/ ٣١٨٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

★ **غريب الحديث وفوائده:**

تقدم غريب هذا الحديث وفوائده في سورة العنكبوت، الآية (٨).

قال تقي الدين الهلالي: «فائدة: لقد عظم اللَّه شأن بر الوالدين إذ قرن الإحسان إليهما بتوحيده الذي هو أشرف العبادات وأعظمها فيفهم من ذلك أن بر الوالدين أعظم العبادات بعد توحيده اللَّه تعالى، ومع ذلك لم يبح لعباده أن يرضوا والديهم إذا أرادوا منهم أن يشركوا باللَّه تعالى، وتأمل قصة سعد بن مالك مع أمه تزدد علما وتحقيقا للتوحيد جعلنا اللَّه وإياك من أهله»(١).

* عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: «**يا رسول الله! من أحق بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك**»(٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «في هذا الحديث دليل أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب؛ لأنه كرّر ذكر الأم ثلاث مرّات، وذكر الأب في المرة الرابعة فقط؛ وإذا تؤمل هذا المعنى شهد له العيان، وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم وتشقى بها دون الأب فهذه ثلاثة منازل يخلو منها الأب»(٣).

وقال القرطبي: «وقوله: «**أمك**» ثلاث مرات، وفي الرابعة: «**أبوك**»، يدل على صحة قول من قال: إن للأم ثلاثة أرباع البر، وللأب ربعه. ومعنى ذلك أن حقهما، وإن كان واجبًا، فالأم تستحق الحظ الأوفر من ذلك. وفائدة ذلك المبالغة في القيام بحق الأم، وأن حقها مقدم عند تزاحم حقها وحقه»(٤).

---

(١) سبيل الرشاد (٢/ ١٢٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٧-٣٢٨) والبخاري (١٠/ ٤٩١/ ٥٩٧١) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٩٧٤/ ٢٥٤٨) وابن ماجه (٢/ ٩٠٣/ ٢٧٠٦).

(٣) شرح البخاري (٩/ ١٨٩).

(٤) المفهم (٦/ ٥٠٨).

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لا يشكر اللَّه من لا يشكر الناس**»[١].

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «هذا الكلام يُتأول على وجهين:

أحدهما: أن من كان طبعه وعادته كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة اللَّه وترك الشكر له سبحانه.

والوجه الآخر: أن اللَّه سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس ويكفر معروفهم لاتصال أحد الأمرين بالآخر»[٢].

وقال الطيبي: «قوله: «**لم يشكر الله**»: قال القاضي البيضاوي: هذا لأن شكره تعالى إنما يتم بمطاوعته وامتثال أمره، وإن مما أمر به شكر الناس الذين هم وسائط في إيصال نعم اللَّه إليه، فمن لم يطاوعه فيه، لم يكن مؤديًا شكر أنعمه، أو لأن من أخلّ بشكر من أسدى إليه نعمة من الناس -مع ما يرى من حرصه على حب الثناء والشكر على النعماء وتأذيه بالإعراض والكفران- كان أولى بأن يتهاون في شكر من يستوي عنده الشكر والكفران»[٣].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٥) وأبو داود (٥/ ١٥٧-١٥٨/ ٤٨١١) والترمذي (٤/ ٢٩٩/ ١٩٥٤) وقال: «حسن صحيح»، وصححه ابن حبان (٨/ ١٩٩/ ٣٤٠٧).

(٢) معالم السنن (٤/ ١٠٥).

(٣) شرح الطيبي (٧/ ٢٢٣١-٢٢٣٢).

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾

★ **غريب الآية:**

عزم الأمور: العزم والعزيمة عقد القلب على إمضاء الأمر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بحدودها ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ يقول: وأمر الناس بطاعة اللّه واتباع أمره ﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ يقول: وانه الناس عن معاصي اللّه ومواقعة محارمه ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ يقول: واصبر على ما أصابك من الناس في ذات اللّه إذا أنت أمرتهم بالمعروف ونهيتهم عن المنكر ولا يصدنك عن ذلك ما نالك منهم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ يقول: إن ذلك مما أمر اللّه به من الأمور عزما منه»[١].

قال ابن القيم: «فالصبر متعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر، والشيخ دائما يحوم حول هذه الأصول الثلاثة، كقوله: يا بنى افعل المأمور، واجتنب المحظور، واصبر على المقدور، وهذه الثلاثة هى التى أوصى بها لقمان لابنه في قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر، أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه، وأما من حيث اللزوم الشرعى فإن الآمر الناهى لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي»[٢].

قال السعدي: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه.

---

(١) جامع البيان (٢١/ ٧٣).

(٢) عدة الصابرين (ص٥٦).

والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق، والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ ومن كونه فاعلا لما يأمر به، كافا لما ينهى عنه. فتضمن هذا، تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهيه.

ولما علم أنه لا بد أن يبتلى إذا أمر ونهى وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس، أمره بالصبر على ذلك فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي يعزم عليها، ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم»[١].

قال المراغي: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدها كاملة على النحو المرضي، لما فيها من رضا الرب بالإقبال عليه والإخبات له، ولما فيها من النهي عن الفحشاء والمنكر، وإذا تم ذلك صفت النفس وأنابت إلى بارئها في السراء والضراء كما جاء في الحديث: «**اعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢].

وبعد أن أمره بتكميل نفسه توفية لحق اللَّه عليه عطف على ذلك تكميله لغيره، فقال: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: وامر غيرك بتهذيب نفسه قدر استطاعتك، تزكية لها، وسعيا إلى الفلاح، كما قال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[٣].

﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي: وانه الناس عن معاصي اللَّه ومحارمه التي توبق من اكتسبها، وتلقي به في عذاب السعير، في جهنم وبئس المصير. ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ من أذى الناس في ذات اللَّه إذا أنت أمرتهم بالمعروف أو نهيتهم عن المنكر. وقد بدأ هذه الوصية بالصلاة، وختمها بالصبر؛ لأنهما عماد الاستعانة إلى رضوان اللَّه كما قال: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾[٤]. ثم ذكر علة ذلك فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: إن ذلك أوصيك به من الأمور التي جعلها اللَّه محتومة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٥٩).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧) ومسلم (١/ ٣٦-٣٨/ ٨)(٨) وأبو داود (٥/ ٦٩-٧٣/ ٤٦٩٥) والترمذي (٥/ ٨-٩/ ٢٦١٠) والنسائي (٨/ ٤٧٢-٤٧٥/ ٥٠٠٥) وابن ماجة (١/ ٢٤-٢٥/ ٦٣).

(٣) الشمس: الآيتان (٩و١٠).

(٤) البقرة: الآية (١٥٣).

على عباده لا محيص منها، لما لها من جزيل الفوائد، وعظيم المنافع، في الدنيا والآخرة، كما دلت على ذلك تجارب الحياة، وأرشدت إليه نصوص الدين»[١].

قال القاسمي: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها، لتكميل نفسك بعبادة ربك ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ لتكميل غيرك ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ أي: من المحن والبلايا. أو فيما أمرت به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الداعي إلى الحق معرض لإيصال الأذى إليه. وهو أظهر. ويطابقه آية ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[٢]. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الصبر أو إلى كل ما أمر به ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: مما عزمه اللَّه من الأمور؛ أي: قطعه قطع إيجاب»[٣].

* * *

(١) تفسير المراغي (٢١/ ٨٤-٨٥).

(٢) العصر: الآية (٣).

(٣) محاسن التأويل (١٣/ ٢٠١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لا تُصَعِّر: أصل الصَّعَر: داء يصيب البعير في عنقه فيلتوي. والمعنى: لا تمل عنقك كبرًا وافتخارًا. قال عَمرو بن حُنَيٍّ التغلبي:

وكنا إذا الجبَّار صَعَّرَ خَدَّهُ أَقَمْنَا له من ميله فَتَقَوَّمِ

مرحًا: أي مشيًا فرحًا بطرًا متبخترًا.

مختال: متبختر في مشيته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «معنى الآية: ولا تمل خدك للناس كبرا عليهم وإعجابا واحتقارا لهم. وهذا تأويل ابن عباس وجماعة. وقيل: هو أن تلوي شدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره، فالمعنى: أقبل عليهم متواضعا مؤنسا مستأنسا، وإذا حدثك أصغرهم فاصغ إليه حتى يكتمل حديثه. وكذلك كان النبي ﷺ يفعل.

قلت: ومن هذا المعنى ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد اللَّه إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**»[1]. فالتدابر الإعراض وترك الكلام والسلام ونحوه.

وإنما قيل للإعراض تدابر لأن من أبغضته أعرضت عنه ووليته دبرك وكذلك يصنع هو بك. ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك وواجهته لتسره ويسرك، فمعنى التدابر موجود فيمن صعر خده، وبه فسر مجاهد الآية»[2].

---

(١) هذا الحديث سيأتي في الأصول.

(٢) جامع أحكام القرآن (١٤/ ٧٠).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقارًا منك لهم، واستكبارًا عليهم، ولكن ألن جانبك، وابسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث: «**ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة والمخيلة لا يحبها الله**»[١]»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الترغيب في حسن الخلق والترهيب من سوء الخلق

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد اللّه إخوانًا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**»[٣].

★ غريب الحديث:

لا تباغضوا: أي: لا تتعاطوا أسباب البغض؛ لأن البغض لا يكتسب ابتداء.

لا تدابروا: التدابر التهاجر، وهو أن يولي كل واحد صاحبه دبره.

لا تحاسدوا: الحسد: أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه وتكون له دونه.

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «وفي هذا الحديث من الفقه أنه لا يحل التباغض لأن التباغض مفسدة للدين حالقة له ولهذا أمر بالتواد والتحاب حتى قال: «**تهادوا تحابوا**»[٤]. . وكذلك لا يحل التدابر، والتدابر: الإعراض وترك الكلام والسلام ونحو هذا، وإنما قيل للإعراض تدابر لأن من أبغضته أعرضت عنه، ومن أعرضت

---

(١) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه الآية.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٤١).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢٥) والبخاري (١٠/ ٥٨٩/ ٦٠٦٥) ومسلم (٤/ ١٩٨٣/ ٢٥٥٩) وأبو داود (٥/ ٢١٣- ٢١٤/ ٤٩١٠) والترمذي (٤/ ٢٩٠/ ١٩٣٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤) والبيهقي (٦/ ١٦٩) وأبو يعلى (١١/ ٩/ ٦١٤٨) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وجود إسناده العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٩٦٩/ ١٣٣٨) وحسن إسناده الحافظ في التلخيص الحبير (٣/ ٦٩-٧٠/ ١٣١٥) وفي البلوغ (٩٣٥).

عنه وليته دبرك، وكذلك يصنع هو بك، ومن أحببته أقبلت عليه وواجهته لتسره ويسرك، فمعنى تدابروا وتقاطعوا وتباغضوا معنى متداخل متقارب، كالمعنى الواحد في الندب إلى التواخي والتحاب، فبذلك أمر رسول اللَّه ﷺ في معنى هذا الحديث وغيره، وأمر رسول اللَّه ﷺ على الوجوب حتى يأتي دليل يخرجه إلى معنى الندب»[١].

وقال أيضًا: «تضمن حديث الزهري عن أنس في هذا الباب أنه لا يجوز أن يبغض المسلم أخاه المسلم ولا يدبر عنه بوجهه إذا رآه فإن ذلك من العداوة والبغضاء ولا يقطعه بعد صحبته له في غير جرم أو في جرم يحمد له العفو (عنه) ولا يحسده على نعمة اللَّه عنده حسدا يؤذيه به ولا ينافسه في دنياه وحسبه أن يسأل اللَّه من فضله وهذا كله لا ينال شيء منه إلا بتوفيق اللَّه تعالى، قيل للحسن البصري أيحسد المؤمن أخاه، فقال: لا أبا لك أنسيت إخوة يوسف، وأصل التحاب والتواد المذكور في السنن معناه الحب في اللَّه وحده تبارك اسمه فهكذا المحبة بين أهل الإيمان فإذا كان هكذا فهو من أوثق عرى الدين وإن لم يكن فلا تكن العداوة ولا المنافسة ولا الحسد لأن ذلك كله منهي عنه، ولما كانت موالاة أولياء اللَّه من أفضل أعمال البر كانت معاداة أعدائه كذلك أيضًا»[٢].

وقال أيضًا: «وأجمع العلماء على أنه لا يجوز للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث إلا أن يكون يخاف من مكالمته وصلته ما يفسد عليه دينه أو يولد (به) على نفسه مضرة في دينه أو دنياه، فإن كان ذلك فقد رخص له في مجانبته وبعده ورب صرم جميل خير من مخالطة مؤذية، قال الشاعر:

إذا ما تقضي الود إلا تكاشرا فهجر جميل للفريقين صالح»[٣].

قال ابن رجب: «وقد حرم اللَّه على المؤمنين ما يوقع بينهم العداوة والبغضاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[٤] وامتن على عباده بالتأليف بين

---

(١) فتح البر (١٠/ ٤١٩).
(٢) فتح البر (١٠/ ٤٢٥-٤٢٦).
(٣) فتح البر (١٠/ ٤٢٦).
(٤) المائدة: الآية (٩١).

قلوبهم كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[1] وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[2] ولهذا المعنى حرم المشي بالنميمة لما فيها من إيقاع العداوة والبغضاء، ورخص في الكذب في الإصلاح بين الناس، ورغب الله في الإصلاح بينهم، كما قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[3] وقال: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ﴾[4] وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ﴾[5]»[6].

وقال أيضًا: «ولما كثر اختلاف الناس في مسائل الدين وكثر تفرقهم كثر بسبب ذلك تباغضهم وتلاعنهم، وكل منهم يظهر أنه يبغض لله، وقد يكون في نفس الأمر معذورا وقد لا يكون معذورا، بل يكون متبعا لهواه مقصرا في البحث عن معرفة ما يبغض عليه فإن كثيرا من البغض كذلك إنما يقع لمخالفة متبوع يظن أنه لا يقول إلا الحق وهذا الظن خطأ قطعا وإن أريد أنه لا يقول إلا الحق فيما خولف فيه فهذا الظن قد يخطئ ويصيب، وقد يكون الحامل على الميل إليه مجرد الهوى أو الإلف أو العادة، وكل هذا يقدح في أن يكون هذا البغض لله، فالواجب على المؤمن أن ينصح نفسه ويتحرز في هذا غاية التحرز وما أشكل منه فلا يدخل نفسه فيه خشية أن يقع فيما نهى عنه من البغض المحرم، وهاهنا أمر خفي ينبغي التفطن له، وهو أن كثيرا من أئمة الدين، قد يقول قولا مرجوحا ويكون مجتهدا فيه مأجورا على اجتهاده فيه موضوعا عنه خطؤه فيه ولا يكون المنتصر لمقالته تلك بمنزلته في هذه الدرجة لأنه قد لا ينتصر لهذا القول إلا لكون متبوعه قد قاله بحيث إنه لو قاله غيره من أئمة الدين لما قبله، ولا انتصر له، ولا والى من وافقه، ولا عادى من خالفه، وهو مع هذا يظن أنه إنما انتصر للحق بمنزلة متبوعه، وليس كذلك، فإن متبوعه إنما كان قصده الانتصار للحق، وإن أخطأ في اجتهاده، وأما هذا التابع فقد شابه انتصاره، لما يظنه الحق إرادة علو متبوعه وظهور كلمته، وأن لا ينسب إلى الخطأ

(١) آل عمران: الآية (١٠٣).

(٢) الأنفال: الآيتان (٦٢و٦٣).

(٣) النساء: الآية (١١٤).

(٤) الحجرات: الآية (٩).

(٥) الأنفال: الآية (١).

(٦) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٦٥-٢٦٦).

وهذه دسيسة تقدح في قصد الانتصار للحق، فافهم هذا فإنه مهم عظيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[١].

وقال أيضًا: «وقوله ﷺ: «**وكونوا عباد الله إخوانا**» هكذا ذكره النبي ﷺ كالتعليل لما تقدم، وفيه إشارة إلى أنهم إذا تركوا التحاسد والتناجش والتباغض والتدابر وبيع بعضهم على بيع بعض، كانوا إخوانًا، وفيه أمر باكتساب ما يصير المسلمون به إخوانًا على الإطلاق وذلك يدخل فيه أداء حقوق المسلم على المسلم من رد السلام وتشميت العاطس وعيادة المريض وتشييع الجنازة وإجابة الدعوة والابتداء بالسلام عند اللقاء والنصح بالغيب»[٢].

* في حديث أبي جُرَيّ جابر بن سليم: «.. **ولا تحقرن شيئًا من المعروف، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهُكَ؛ إن ذلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيتَ فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المَخِيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيّرك بما يعلم فيك فلا تعيره بما تعلم فيه، فإنما وبال ذلك عليه**»[٣].

⋆ غريب الحديث:

منبسط: أي: بسيط. يقال: بَسُطَ وجهُهُ يَبْسُطُ بَساطة: تلألأ، فهو بسيط.

إسبال الإزار: أي: تطويله وترسيله نازلًا عن الكعبين إلى الأرض إذا مشى.

المَخِيلة: بفتح الميم وكسر الخاء؛ أي: الكبر والعُجب.

شتمك: أي: سبّك ولعنك.

عيّرك: من التعيير، وهو التوبيخ والتعييب على ذنب سبق لأحد من قديم العهد،

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٦٧-٢٦٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٧١).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٦٥)و(٥/ ٦٣-٦٤) وأبو داود (٤/ ٣٤٤-٣٤٥/ ٤٠٨٤). وأخرجه: الترمذي (٥/ ٦٨/ ٢٧٢٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٨٧-٨٨/ ١٠١٤٩-١٠١٥٠) مختصرا دون ذكر موطن الشاهد، وقال الترمذي: «حسن صحيح». وصحح إسناده النووي في الرياض (ح٨٠٠).

سواء علم توبته منه أم لا .

وَبال: بفتح الواو وتخفيف الموحدة: مأخوذ من وَبُل المرتع، بضم الموحدة، وَبالًا: إذا وخم. ولما كان عاقبة المرعى الوخيم إلى سوء قيل في سوء العاقبة: وَبال، والمراد به في الحديث: العذاب في الآخرة.

★ فوائد الحديث:

قوله: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك**»:

قال ابن علان: «المعنى: لا تحقر خطابك لأخيك وفي وجهك البِشر له، كأنك مستبشر بحديثه، لما في ذلك من إدخال السرور عليه، وجلب وداده المأمور به بقوله ﷺ: «**وكونوا عباد اللَّه إخوانًا**». ثم علّل النهي عن احتقارك ذلك بقوله: «**إن ذلك**» أي: المتكلم أو المذكور من المعروف وإن قل. والخطاب مع البِشر «**من المعروف**» أي: الذي يطلبه الشرع. ومثل ذلك لا ينبغي احتقار شيء منه»[١].

وقال القاري: «والمعنى أنك تتواضع له، وتطيب الكلام، حتى يفرح قلبه بحسن خلقك»[٢].

وقوله: «**وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، وإن اللَّه لا يحب المخيلة**»:

قال ابن علان: «فيه وعيد للمتكبر والمختال»[٣].

قال الشيخ ابن عثيمين: «ثم حذّر النبي ﷺ جابر بن سليم من المخيلة، يعني أن يختال في مشيته أو ثوبه أو عمامته أو (مشلحه) أو كلامه أو أي شيء يفعله خيلاء، فإن اللَّه لا يحب ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، فالإنسان ينبغي له أن يكون متواضعًا دائمًا في لباسه ومشيته وهيئته وكل أحواله؛ لأن من تواضع لله رفعه اللَّه.

فهذه الآداب التي علمها النبي صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم أمته، ينبغي

---

(١) دليل الفالحين (٣/ ٢٨٠-٢٨١).

(٢) المرقاة (٤/ ٤١٢-٤١٣).

(٣) دليل الفالحين (٣/ ٢٨١).

للإنسان أن يتأدب بها ؛ لأنه يحصل على أمرين :

أولًا : امتثال أمر النبي ﷺ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1] .

ثانيًا : التحلي بحسن الخلق من خلال التأدب بهذه الآداب الراقية التي لا يستطيع أحد من البشر أن يوجه الناس إلى آداب مثلها أبدًا ؛ لأن الآداب التي جاء بها الشرع هي خير الآداب . ثم إن النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم قال : «**وإن امرؤ شتمك وعيرك بما يعلم فيك فلا تعيره بما تعلم، فإنما وبال ذلك عليه**» وذلك أن الإنسان ينبغي له أن يعفو ويصفح ولا يجعل كل كلمة يسمعها مقياسا له في الحكم على الناس، تغاض عن الشيء واعف واصفح، فإن اللَّه تعالى يحب العافين عن الناس ويثيبهم على ذلك، وأنت إذا عيرته أو سببته بما تعلم فيه طال النزاع، وربما حصل بذلك العداوة والبغضاء، فإذا كففت وسكت هدأت الأمور . وهذا شيء مجرب»[2] .

* عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : «**رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على اللَّه لأبرّه**»[3] .

★ غريب الحديث:

رُبَّ : أصل (رُبّ) للتقليل، وقد تأتي للتكثير، وتصلح (رُبّ) في هذا الحديث أن تجعل على الكثير، فكأنه قال : كثير ممّن يكون هذا حاله لو أقسم على اللَّه لأبرّه[4] .

أشعث : الأشعث : الملبّد شعر الرأس، المغبرّ غير مدّهن، ولا مصلح الشعر[5] .

★ فوائد الحديث:

قال النووي : «**مدفوع بالأبواب**» أي : لا قدر له عند الناس، فهم يدفعونه عن

(١) النساء : الآية (١٣) .
(٢) شرح رياض الصالحين (٧/ ٣١٥) .
(٣) أخرج مسلم (٤/ ٢٠٢٤/ ٢٦٢٢) .
(٤) المفهم (٧/ ١٧٠) .
(٥) الإكمال (٨/ ١٠٣) .

أبوابهم، ويطردونه عنهم، احتقارًا له، «**لو أقسم على اللَّه لأبرّه**» أي: لو حلف على وقوع شيء أوقعه اللَّه إكرامًا له بإجابة سؤاله، وصيانته من الحنث في يمينه، وهذا لعظم منزلته عند اللَّه تعالى، وإن كان حقيرًا عند الناس»[1].

* عن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير قال: أحسبه فطيمًا، وكان إذا جاء قال: «**يا أبا عمير! ما فعل النُّغير؟**» نُغَرٌ كان يلعب به فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا فيأمر بالبساط الذي تحته فيُكنس ويُنضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلي بنا[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: «**كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا**» هذا قاله أنس توطئة لما يريد من قصة الصبي. وأول حديث شعبة عن أنس قال: «**إن كان النبي ﷺ ليخالطنا**»»[3].

قلت: وحديث شعبة الذي أشار إليه الحافظ أخرجه البخاري في صحيحه أيضًا في كتاب «البر والصلة» وترجم له بـ«باب الانبساط إلى الناس».

قال العيني: «والمراد به أن يتلقى الناس بوجه بشوش وينبسط معهم بما ليس فيه ما ينكره الشرع وما يرتكب فيه الإثم. وكان النبي ﷺ أحسن الأمة أخلاقًا وأبسطهم وجهًا. وقد وصفه اللَّه ﷻ بذلك بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[4]، فكان ينبسط إلى النساء والصبيان ويداعبهم ويمازحهم، وقد قال ﷺ: «**إني لأمزح ولا أقول إلا حقًّا**»[5]. فينبغي للمؤمن الاقتداء بحسن أخلاقه وطلاقة وجهه»[6].

---

(١) شرح مسلم (١٦/ ١٤٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢١٢) والبخاري (١٠/ ٧١٢/ ٦٢٠٣) ومسلم (٤/ ١٨٠٥/ ٢٣١٠). وأخرجه: الترمذي (٢/ ١٥٤/ ٣٣٣) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٩١/ ١٠١٦٥-١٠١٦٨) وابن ماجه (٢/ ١٢٢٦/ ٣٧٢٠) كلهم من طرق عن أبي التياح عن أنس به، وليس عندهم قوله: «كان أحسن الناس خلقًا».

(٣) فتح الباري (١٠/ ٧١٣). (٤) القلم: الآية (٤).

(٥) أخرجه: الطبراني في الكبير (١٢/ ٣٩١/ ١٣٤٤٣) والأوسط (١/ ٥٣٠/ ٩٩٩) والصغير (٢/ ٥٩/ ٧٧٩) بهذا اللفظ من حديث ابن عمر ﷺ وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٨٩) وقال: «وإسناده حسن». وأخرجه: أحمد (٢/ ٣٤٠) والترمذي (٤/ ٣١٤/ ١٩٩٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» والبخاري في الأدب المفرد (٢٦٥) كلهم من حديث أبي هريرة قال: قالوا يا رسول اللَّه إنك تداعبنا. قال: «إني لا أقول إلا حقا».

(٦) عمدة القاري (١٥/ ٢٦٢-٢٦٣).

قال الحافظ -فيما لخّصه من فوائد هذا الحديث من كلام ابن القاص-: «وفيه ترك التكبّر والترفّع، والفرق بين كون الكبير في الطريق فيتواقر، أو في البيت فيمزح، وأن الذي ورد في صفة المنافق أن سره يخالف علانيته ليس على عمومه... وفيه: التلطف بالصديق صغيرًا كان أو كبيرًا»[(١)].

* عن ابن عمر أنه قال: كنت مع رسول اللَّه ﷺ فجاءه رجل من الأنصار، فسلّم على النبي ﷺ ثم قال: «**يا رسول الله! أيّ المؤمنين أفضل؟ قال: أحسنهم خلقًا. قال: فأيّ المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم للموت ذكرًا، وأحسنهم لما بعده استعدادًا، أولئك الأكياس**»[(٢)].

⋆ غريب الحديث:

أكيس: أي: أعقل.

⋆ فوائد الحديث:

قوله: «**أحسنهم خلقًا**»:

قال المناوي: «لأن اللَّه يحب الخلق الحسن كما ورد في السنن فمن عدم حسنه أو كماله أمر بالمجاهدة والرياضة ليصير محمودًا. وكمال الخلق إنما ينشأ عن كمال العقل إذ هو يقتبس الفضائل ويجتنب الرذائل، والعقل لسان الروح وترجمان العقل للبصيرة. وقد طال النزاع بين القوم: هل الخلق غريزي أو مكتسب والأصح أنه متبعض»[(٣)].

* عن عائشة قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة**

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٧١٤).

(٢) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٤٢٣/ ٤٢٥٩)، قال البوصيري في الزوائد: «فروة بن قيس مجهول وكذلك الراوي عنه وخبره باطل، قاله الذهبي في طبقات التهذيب». اهـ.
وأخرجه: البيهقي في الشعب (٦/ ٢٣٥/ ٧٩٩٣)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٤١٧/ ١٣٥٣٦) والصغير (٢/ ٥٩/ ٩٨٦) دون ذكر محل الشاهد، وحسّن إسناده المنذري في الترغيب (٤/ ٢٣٨) والهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٠٩).

(٣) فيض القدير (٢/ ٤٩).

الصائم القائم»(١).

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**درجة الصائم القائم**»:

قال ابن علان: «أي: أعلى الدرجات، فإن أعلى درجات الليل درجات القائم في التهجد، وأعلى درجات النهار درجات الصائم في حرّ الهواجر»(٢).

وقال أبو الطيب: «وإنما أُعطي صاحب الخلق الحسن هذا الفضل العظيم لأن الصائم والمصلي في الليل يجاهدان أنفسهما في مخالفة حظهما، وأما من يحسن خلقه مع الناس مع تباين طبائعهم وأخلاقهم فكأنه يجاهد نفوسًا كثيرة، فأدرك ما أدركه الصائم القائم فاستووا»(٣).

* عن أبي هريرة ﷺ قال: «**سئل النبي ﷺ**: ما أكثر ما يدخل الجنة؟ قال: التقوى وحسن الخلق. وسئل: ما أكثر ما يدخل النار؟ قال: الأجوفان: الفم والفرج»(٤).

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**تقوى اللَّه وحسن الخلق**»:

قال ابن القيم: «جمع بينهما لأن تقوى اللَّه تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه»(٥).

قوله: «**وسئل: ما أكثر ما يدخل النار؟ قال: الأجوفان: الفم والفرج**»:

قال ابن علان: «وذلك لأنه يصدر من الفم الكفر والغيبة والنميمة ورمي الغير في

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٦٤) وأبو داود (٥/ ١٤٩/ ٤٧٩٨) واللفظ له، والحاكم (١/ ٦٠) وصححه ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ٢/ ٢٢٨-٢٢٩/ ٤٨٠) وصححه.

(٢) دليل الفالحين (٣/ ٨٣).

(٣) عون المعبود (١٣/ ١٥٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩١) والترمذي (٤/ ٣١٩/ ٢٠٠٤) وقال: «صحيح غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٤١٨/ ٤٢٤٦) واللفظ له، والحاكم (٤/ ٣٢٤) وصححه وأقره الذهبي، وابن حبان (الإحسان ٢/ ٢٢٤/ ٤٧٦) وصححه.

(٥) نقلًا عن ابن علان في دليل الفالحين (٣/ ٨١-٨٢).

المهالك وإبطال الحق وإبداء الباطل، وغير ذلك مما أشار إليه الشارع بقوله: «**وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم -أو قال: على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم**»، وبقوله: «**وإن الرجل يتكلم بالكلمة -لا يلقي لها بالًا- تهوي به في النار سبعين خريفًا**».

والفرج يصدر منه الزنى واللواط»[١].

* عن أسامة بن شريك قال: قالوا: يا رسول الله! ما خير ما أُعطي العبد؟ قال: «**خلق حسن**»[٢].

⋆ فوائد الحديث:

قوله: «**خلق حسن**»: أي: يعامل به مع اللّه تعالى ومع عباده أحسن معاملة، واللّه تعالى أعلم»[٣].

وقال المناوي: ««**خلق حسن**» بأن يكفّ أذاه ويبذل نداه ولا يؤذي ولا يتأذّى»[٤].

* عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق**»[٥].

* عن عبد اللّه بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: «لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحّشًا، وكان يقول: **إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا**»[٦].

---

(١) دليل الفالحين (٣/ ٨٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٧٨) وابن ماجه (٢/ ١١٣٧/ ٣٤٣٦)، وقال البوصيري في الزوائد: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات». وأخرجه الحاكم (٤/ ٣٩٩) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، فقد رواه عشرة من أئمة المسلمين وثقاتهم عن زياد بن علاقة ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ٢/ ٢٢٦/ ٤٧٨)، (٢/ ٢٣٦-٢٣٧/ ٤٨٦) وصححه.

قلت: وأصله عند أبي داود (٤/ ١٩٢-١٩٣/ ٣٨٥٥) والترمذي (٤/ ٣٣٥-٣٣٦/ ٢٠٣٨) وقال: «حسن صحيح». والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٦٨-٣٦٩/ ٧٥٥٣-٧٥٥٤).

(٣) انظر حاشية المسند (٣٠/ ٣٩٨). (٤) التيسير بشرح الجامع الصغير (١/ ٥٣١).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٤٦) وأبو داود (٥/ ١٤٩-١٥٠/ ٤٧٩٩) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٣١٨-٣١٩/ ٢٠٠٢) وقال: «حسن صحيح»، وابن حبان (الإحسان ٢/ ٢٣٠/ ٤٨١) وصححه.

(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦١) والبخاري (٦/ ٧٠١-٧٠٢/ ٣٥٥٩) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٨١٠/ ٢٣٢١) والترمذي (٤/ ٣٠٨/ ١٩٧٥) وقال: «حسن صحيح».

★ **غريب الحديث:**

فاحشًا ولا متفحّشًا: الفاحش: ذو الفحش في كلامه وفعاله. والمتفحّش: الذي يتكلف ذلك ويتعمّده[(١)].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «فيه الحث على حسن الخلق وبيان فضيلة صاحبه، وهو صفة أنبياء اللَّه تعالى وأوليائه. قال الحسن البصري: حقيقة حسن الخلق بذل المعروف، وكف الأذى، وطلاقة الوجه. قال القاضي عياض: هو مخالطة الناس بالجميل والبِشر والتودّد لهم، والإشفاق عليهم، واحتمالهم، والحلم عنهم، والصبر عليهم في المكاره، وترك الكبر والاستطالة عليهم، ومجانبة الغلظ والغضب والمؤاخذة»[(٢)].

قال القرطبي: «وقد برّأ اللَّه تعالى نبيه عن جميع ذلك ونزّهه؛ فإنه كان رحيمًا، رفيقًا، لطيفًا، سمحًا، متواضعًا، طلقًا، برًّا، وصولًا، محبوبًا، لا تقتحمه عين، ولا تمجّه نفس، ولا يصدر عنه شيء ينكره وشرّف وكرّم»[(٣)].

* عن أبي ثعلبة الخشني أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أحبكم إلى اللَّه وأقربكم مني أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلى اللَّه وأبعدكم مني الثرثارون المتفيهقون المتشدقون**»[(٤)].

★ **غريب الحديث:**

الثرثارون: الثرثار هو كثير الكلام تكلّفًا.

المتفيهقون: المتفيهق أصله من الفهق، وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه تكبرًا وارتفاعًا وإظهارًا للفضيلة على غيره.

---

(١) النهاية (٣/ ٤١٥).

(٢) شرح مسلم (١٥/ ٦٣-٦٤).

(٣) المفهم (٦/ ١١٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٩٣) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٢١/ ٥٨٨). قال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢١): «رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح». =

المتشدّقون: المتشدّق: المتطاول على الناس بكلامه ويتكلم بملء فيه تفاصحًا وتعظيمًا بكلامه.

٭ فوائد الحديث:

قال ابن علان: «قال العاقولي في 'شرح المصابيح': هذا الحديث مبني على قاعدة هي: أن المؤمنين من حيث الإيمان محبوبون، ويتفاضلون بعد في صفات الخير وشعب الإيمان. فيتميز الفاضل بزيادة محبة، وقد يتفاوتون في الرذائل فيصيرون مبغوضين من حيث ذلك ويصير بعضهم أبغض من بعض، وقد يكون الشخص الواحد محبوبًا من وجه، مبغوضًا من وجه. وعلى هذه القاعدة فرسول اللَّه ﷺ يحب المؤمنين كافة من حيث هم مؤمنون، وحبه لأحسنهم خلقًا أشدّ، ويبغض العصاة من حيث هم عاصون، وبغضه لأسوئهم أخلاقًا أشدّ، كما يؤخذ ذلك من المعاملة»(١).

وقوله: «**إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني يوم القيامة**»:

قال ابن علان: «أي: في الجنة، فإنها دار الراحة والجلوس. أما الموقف فالناس فيه قيام لرب العالمين والنبي ﷺ حينئذ قائم للشفاعة للعباد وتخليصهم مما هم فيه من الكرب إذ هو المقام المحمود الذي أعطيَه يومئذ»(٢).

وقال: «و(يوم) تنازعه الوصفان قبله، ويحتمل ألا يكون من ذلك ويكون للأقرب منه»(٣).

❋ عن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء**»(٤).

= وأخرجه: ابن حبان (الإحسان ٢/ ٢٣١-٢٣٢/ ٤٨٢) وصححه واللفظ له، والبغوي في شرح السنة (١٢/ ٣٦٦/ ٣٣٩٥). وله شاهد من حديث جابر عند الترمذي (٤/ ٣٢٥/ ٢٠١٨) وقال: «وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حسن غريب من هذا الوجه، وروى بعضهم هذا الحديث عن المبارك بن فضالة عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبي ﷺ ولم يذكر فيه عبد ربه بن سعيد، وهذا أصح».

(١) دليل الفالحين (٣/ ٨٤-٨٥).

(٢) دليل الفالحين (٣/ ٨٤).

(٣) دليل الفالحين (٣/ ٨٤).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٤١٢) ومسلم (١/ ٩٣/ ٩١[١٤٨]) واللفظ له، وأبو داود (٤/ ٣٥١/ ٤٠٩١) والترمذي (٤/ ٣١٧/ ١٩٩٨) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٧/ ٤١٧٣).

★ **غريب الحديث:**

مثقال حبة: أي: زنة حبة.

خردل: الخردل: نبات عشبي حريف من الفصيلة الصليبية ينبت في الحقول وعلى حواشي الطرق. الواحدة: خردلة. ويُضرب به المثل في الصغر.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «هذا الحديث ورد في سياق النهي عن الكبر المعروف، وهو الارتفاع على الناس، واحتقارهم، ودفع الحق»[١].

* عن عبد اللَّه بن عمرو قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر أكبه اللَّه على وجهه في النار**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

مثقال ذرة: أي: زِنة ذرة[٣].

والذرة: واحدة الذر، وهو النمل الأحمر الصغير. وسئل ثعلب عنها فقال: إن مائة نملة وزن حبة والذرة واحدة منها. وقيل: الذرة ليس لها وزن ويراد بها ما يرى في شعاع الشمس الداخل في النافذة.

أكبّه: يقال: كَبَّه لوجهه، وعلى وجهه، كَبًّا: قلبه وألقاه وأكبّ على وجهه انقلب.

* عن ابن عمر ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا ينظر اللَّه إلى من جرّ ثوبه خُيلاء**»[٤].

---

(١) شرح مسلم (٢/ ٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٤-٢١٥). قال الهيثمي في المجمع (١/ ٩٨): «رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح، وفي رواية أخرى عن أحمد صحيحة، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة إنسان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**»». اهـ

(٣) مقدمة فتح الباري (ص١٣١).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٤) والبخاري (١٠/ ٣١٠/ ٥٧٨٣) ومسلم (٣/ ١٦٥١/ ٢٠٨٥) واللفظ لهما، وأبو داود (٤/ ٣٥٣-٣٥٤/ ٤٠٩٤) والترمذي (٤/ ١٩٥/ ١٧٣٠) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٥٩٤-٥٩٥/ ٥٣٤٣) وابن ماجه (٢/ ١١٨١/ ٣٥٦٩).

★ **غريب الحديث:**

خُيَلاء: الخُيلاء والخِيَلاء، بالضم والكسر، الكبر والعجب. يقال: اختال فهو مختال، وفيه: خيلاء ومخيلة: أي: كِبر.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «قال أهل العلم في معناه لا ينظر اللَّه إليهم نظر رحمة إن أنفذ عليهم الوعيد فاتقى امرؤ ربه. وتأدب بأدبه وأدب رسوله وأدب الصالحين وذلل بالتواضع لله قلبه وأودع سمعه وبصره وجوارحه بالاستكانة بالطاعة، وتحبب إلى خلقه بحسن المعاشرة وخالقهم بجميل المخالقة ليخرج من صفة من لا ينظر اللَّه إليه ولا يحبه»[(١)].

وقال الغنيمان: «نظر اللَّه تعالى إلى العبد يقتضي الرحمة. وهذا فعل فعلًا مقته اللَّه عليه فأعرض عنه، ومن أعرض اللَّه عنه فهو هالك الهلاك الأكبر»[(٢)].

* عن أبي هريرة ﵁ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا ينظر اللَّه يوم القيامة إلى من جرّ إزاره بطرًا**»[(٣)].

★ **غريب الحديث:**

بطرًا: أصل البطر: الطغيان عند النعمة، واستعمل بمعنى التكبّر[(٤)].

★ **فوائد الحديث:**

انظر فوائد الحديث المتقدم.

* عن أبي هريرة ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «**بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه مرجل جمته، إذ خسف اللَّه به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة**»[(٥)].

---

(١) شرح البخاري (٩/ ٧٨).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٦٢) بتصرف.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٨٦-٣٩٧-٤٠٩-٤٣٠-٤٥٤) والبخاري (١٠/ ٣١٦/ ٥٧٨٨) ومسلم (٣/ ١٦٥٣/ ٢٠٨٧) وابن ماجه (٢/ ١١٨٢/ ٣٥٧١) والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٩١-٤٩٢/ ٩٧٢٣).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٣١٧).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٧) والبخاري (١٠/ ٣١٦/ ٥٧٨٩) ومسلم (٣/ ١٦٥٣/ ٢٠٨٨).

★ **غريب الحديث:**

حُلّة: الحلّة: واحدة الحُلَل، وهي برود اليمن، ولا تسمى حلة إلا أن تكون ثوبين من جنس واحد.

مرجّل: بتشديد الجيم، من الترجيل، وهو تسريح شعر الرأس ودهنه.

جُمَّته: الجُمّة من شعر الرأس: ما سقط على المنكبين[١].

يتجلجل: التجلجل: أن يسوخ في الأرض مع اضطراب شديد ويندفع من شق إلى شق. فالمعنى: يتجلجل في الأرض؛ أي: ينزل فيها مضطربًا متدافعًا[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**تعجبه نفسه..**»: قال القرطبي: «وإعجاب الرجل بنفسه: هو ملاحظته لها بعين الكمال والاستحسان، مع نسيان منّة اللّه تعالى، فإن رفعها على الغير واحتقره، فهو الكبر المذموم»[٣].

وقال: «ويفيد هذا الحديث: ترك الأمن من تعجيل المؤاخذة على الذنوب، وأن عجب المرء بنفسه وثوبه وهيئته حرام وكبيرة»[٤].

وفي الحديث: «أن إسبال الإزار للخيلاء كبيرة، وأما الإسبال لغير الخيلاء فظاهر الأحاديث تحريمه أيضًا»[٥].

وقال ابن علان: «**«فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»** وإنما فعل به ذلك تدريجًا ليدوم عليه العذاب فيكون أبلغ في نكايته، وإهانته لكبره»[٦].

* عن ابن عمر ﵄ أن رسول اللّه ﷺ قال: «**بينا رجل يجرّ إزاره إذ خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**»[٧].

★ **غريب الحديث وفوائده:**

تقدمت في الذي قبله.

---

(١) النهاية (١/ ٣٠٠).
(٢) فتح الباري (١٠/ ٣٢٠).
(٣) المفهم (٥/ ٤٠٦).
(٤) المفهم (٥/ ٤٠٦).
(٥) قاله الحافظ في الفتح (١٠/ ٣٢٣).
(٦) دليل الفالحين (٣/ ٧٥).
(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٦٦) والبخاري (٦/ ٦٣٨-٦٣٩/ ٣٤٨٥) والنسائي (٨/ ٥٩٤/ ٥٣٤١).

قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

★ غريب الآية:

اقصد: أي توسط. والقصد: التوسط بين الإسراع والبطء.

اغضض: اخفض وانقص. قال جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي: امش (مشيا) مقتصدا ليس بالبطيء المتثبط ولا بالسريع المفرط بل عدلا وسطا بين بين وقوله: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: لا تبالغ في الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير أي غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم لأن رسول الله ﷺ قال: «**ليس لنا مثل السوء العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه**»[(١)] . . فهذه وصايا نافعة جدا وهي من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم»[(٢)].

قال ابن العربي: «القصد في المشي يحتمل أن يريد به وجهين: أحدهما: أن تكون السرعة، ويحتمل التؤدة؛ وكلاهما صحيح في موضعه.

ويحتمل أن يريد به المشي بقصد، لا يكون عادة، بل يجري على حكم النية،

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٧) والبخاري (٥/ ٢٩٣/ ٢٦٢٢) والترمذي (٣/ ٥٩٢/ ١٢٩٨) والنسائي (٦/ ٥٧٨/ ٣٧٠٠). وهو عند مسلم (٣/ ١٢٤٠/ ١٦٢٢) دون قوله: «ليس لنا مثل السوء».

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٤٢-٣٤٣).

ولا يسترسل استرسال البهيمة؛ والكل صحيح مراد، والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ يعني لا تتكلف رفع الصوت، وخذ منه ما تحتاج إليه؛ فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلف يؤذي»[1].

قال أبو حيان: «ولما نهاه عن الخلق الذميم، أمره بالخلق الكريم، وهو القصد في المشي، بحيث لا يبطيء، كما يفعل المتنامسون والمتعاجبون، يتباطؤون في نقل خطواتهم المتنامسين للرياء والمتعاجب للترفع، ولا يسرع، كما يفعل الخرق المتهور»[2].

قال شيخ الإسلام: «فأمره أن يغض من صوته كما أمر المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم وكما أمره أن يقصد في مشيه وذلك كله فيما يكون باختياره لا مدخل للذة الصوت وعدم لذته في ذلك»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الذكر عند سماع صياح الديك ونهيق الحمار

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله؛ فإنها رأت ملكًا، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوّذوا بالله من الشيطان؛ فإنه رأى شيطانًا**»[4].

★ غريب الحديث:

نهيق الحمار: صوته عند الصياح. والعرب تقول: نهق الحمار، وشهق.

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «لعل المعنى أن الديك أقرب الحيوانات صوتًا إلى الذاكرين الله؛ لأنها تحفظ غالبًا أوقات الصلوات، وأنكر الأصوات صوت الحمير، فهو أقربها

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٤٩٨).
(٢) البحر المحيط (٧/ ١٨٣-١٨٤).
(٣) الاستقامة (١/ ٣٣٥).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٦-٣٠٧) والبخاري (٦/ ٤٣١/ ٣٣٠٣) ومسلم (٤/ ٢٠٩٢/ ٢٧٢٩) وأبو داود (٥/ ٣٣١/ ٥١٠٢) والترمذي (٥/ ٤٧٤/ ٣٤٥٩) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٤/ ١٠٧٨٠).

صوتًا إلى من هو أبعد من رحمة الله»[١].

وقال القرطبي: «فيه دليل على تعريف قبح رفع الصوت في المخاطبة والملاحاة بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية»[٢].

قال القرطبي: «ويفيد أن كل نوع من الملائكة والشياطين موجودان، وهذا معلوم من الشرع قطعا، والمنكر لشيء منهما كافر، وكأنه إنما أمر النبي ﷺ بالدعاء عند صراخ الديكة لتؤمن الملائكة على ذلك الدعاء، فتتوافق الدعوتان، فيستجاب للداعي واللَّه أعلم. وإنما أمر بالتعوذ من الشيطان عند نهيق الحمير؛ لأن الشيطان لما حضر يخاف من شره، فينبغي أن يتعوذ منه»[٣].

قال العيني: «وهذا الأمر أمر استحباب، أما الأمر بالاستعاذة عند نهيق الحمار فلحضور الشيطان هناك، فذكر اللَّه يطرده. وأما السؤال من فضل اللَّه عند صياح الديك فلحضور الملك هناك، فالدعاء أقرب إلى الإجابة في ذلك الوقت؛ لأنه ربما يؤمن الملك على دعائه فيستجيب اللَّه دعاءه»[٤].

* * *

---

(١) شرح الطيبي (٦/ ١٨٩٢).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٧٢).
(٣) المفهم (٧/ ٥٨).
(٤) العلم الهيب (ص٥١٨).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أسبغ: أتم وأكمل. ومنه ثوب سابغ أي كامل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما في السماوات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار، وثلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار، وأشجار وزروع وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإزاحة الشبه والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم بل منهم من يجادل في الله؛ أي: في توحيده وإرسال الرسل ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب مأثور صحيح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: مبين يضيء ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لهؤلاء المجادلين في توحيد الله ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: على رسوله، من الشرائع المطهرة ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي: لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1] أي: فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم أنهم كانوا على ضلالة، وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾»[2].

---

(١) البقرة: الآية (١٧٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٤٩-٣٥٠).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا قيل لهؤلاء الذين يجادلون في توحيد اللَّه جهلا منهم بعظمة الله: اتبعوا أيها القوم ما أنزل اللَّه على رسوله، وصدقوا به، فإنه يفرق بين المحق منا والمبطل، ويفصل بين الضال والمهتدي، فقالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من الأديان، فإنهم كانوا أهل حق، قال اللَّه -تعالى ذكره-: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ بتزيينه لهم سوء أعمالهم، واتباعهم إياه على ضلالتهم، وكفرهم باللَّه، وتركهم اتباع ما أنزل اللَّه من كتابه على نبيه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يعني: عذاب النار التي تتسعر وتلتهب»[(١)].

قال القاسمي: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من النجوم والشمس والقمر، التي ينتفعون من ضيائها وما تؤثره في الحيوان والنبات والجماد بقدرته تعالى. وكذا من الأمطار والسحب والكوائن العلوية التي خلقها تعالى لنفع من سخرت له. وكذا ما أوجد في الأرض من قرار وأشجار وأنهار وزروع وثمار، ليستعملها من سخرت له فيما فيه حياته وراحته وسعادته ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي: محسوسة ومعقولة. كإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإزاحة الشبه والعلل ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني الجاحدين نعمته تعالى ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في توحيده وإرساله الرسل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: برهان قاطع مستفاد من عقل ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: دليل مأثور عن نبي ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: منزل من لدنه تعالى، بل لمجرد التقليد. و(المنير) بمعنى المنقذ من ظلمة الجهل والضلال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لمن يجادل. والجمع باعتبار المعنى ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: يدعو آباءهم إلى اعتقادات وأعمال، هي أسباب العذاب. كأنه يدعوهم إلى عين العذاب. فهم متوجهون إليه حسب دعوته. ومن كان كذلك فأنى يتبع»[(٢)].

قال السعدي: «يمتن تعالى على عباده بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها؛ وعدم الغفلة عنها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ﴾ أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لنفع

---

(١) جامع البيان (٢١/ ٧٩).

(٢) محاسن التأويل (١٣/ ٢٠٤).

العباد. ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من الحيوانات والأشجار والزروع، والأنهار والمعادن ونحوها كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾[1].

﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: عمكم وغمركم بوافر نعمه الظاهرة والباطنة التي نعلم بها؛ والتي تخفى علينا، نعم الدنيا، ونعم الدين، حصول المنافع، ودفع المضار، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم؛ بمحبة المنعم والخضوع له؛ وصرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته.

﴿وَ﴾ لكن مع توالي هذه النعم؛ فإن ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ مَن﴾ لم يشكرها؛ بل كفرها؛ وكفر بمن أنعم بها؛ وجحد الحق الذي أنزل به كتبه؛ وأرسل به رسله، فجعل ﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: يجادل عن الباطل؛ ليدحض به الحق؛ ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة اللَّه وحده، وهذا المجادل يجادل بغير علم وعلى غير بصيرة، فليس جداله عن علم، فيترك وشأنه، ويسمح له في الكلام ﴿وَلَا هُدًى﴾ يقتدي به بالمهتدين ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [أي غير مبين للحق فلا معقول ولا منقول ولا اقتداء بالمهتدين] وإنما جداله في اللَّه مبني على تقليد آباء غير مهتدين، بل ضالين مضلين. ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على أيدي رسله، فإنه الحق، وبينت لهم أدلته الظاهرة ﴿قَالُواْ﴾ معارضين ذلك: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول أحد كائنا من كان. قال تعالى في الرد عليهم وعلى آبائهم: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فاستجاب له آباؤهم، ومشوا خلفه، وصاروا من تلاميذ الشيطان، واستولت عليهم الحيرة.

فهل هذا موجب لاتباعهم ومشيهم على طريقتهم، أم ذلك يرهبهم من سلوك سبيلهم، وينادي على ضلالهم، وضلال من اتبعهم. وليس دعوة الشيطان لآبائهم ولهم، محبة لهم ومودة، وإنما ذلك عداوة لهم ومكر لهم، وبالحقيقة أتباعه من أعدائه، الذين تمكن منهم وظفر بهم، وقرت عينه باستحقاقهم عذاب السعير، بقبول دعوته»[2].

قال ابن القيم: «فهذه مناظرة حكاها اللَّه بين المسلمين والكفار، فإن الكفار لجأوا إلى تقليد الآباء، وظنوا أنه منجيهم لإحسانهم ظنهم بهم، فحكم اللَّه بينهم

---

(١) البقرة: الآية (٢٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٦١-١٦٣).

بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[١] وفي موضع آخر: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٢] وفي موضع آخر: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾[٣] فأخبر عن بطلان هذه الحجة، وأنها لا تنجي من عذاب اللَّه تعالى لأن تقليد من ليس عنده علم ولا هدى من اللَّه ضلالة وسفه، والمعنى ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير، يقلدونهم ولو كانوا لا علم عندهم ولا هدى، يقلدونهم أيضًا، وهذا شأن من لا غرض له في الهدى، ولا في اتباع الحق، إن غرضه بالتقليد إلا دفع الحق، والحجة إذا لزمته؛ لأنه لو كان مقصوده الحق لاتبعه إذا ظهر له، وقد جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، فلو كنتم ممن يتبع الحق لاتبعتم ما جئتكم به، فأنتم لم تقلدوا الآباء لكونهم على حق فقد جئتكم بأهدى مما وجدتموهم عليه وإنما جعلتم تقليدهم جنة لكم تدفعون بها الحق الذي جئتكم به»[٤].

قال المراغي: «بعد أن أقام الأدلة على التوحيد، وذكر أن لقمان فهمه بالحكمة دون أن يرسل إليه نبي، عاد إلى خطاب المشركين وتوبيخهم على إصرارهم على ما هم عليه من الشرك، مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد لائحة للعيان، يشاهدونها في كل آن، في السماوات والأرض، وتسخيرهم لما فيها مما فيه مصالحهم في المعاش والمعاد، وإنعامه عليه بالنعم المحسوسة والمعقولة، المعروفة لهم وغير المعروفة، ثم أبان أن كثيرا من الناس يجادلون في توحيد اللَّه وصفاته بدون دليل عقلي، على ما يدعون، ولا رسول أرسل إليهم بما عنه يناضلون، ولا كتاب أنزل إليهم يؤيد ما يعتقدون، وإذا هم أفحموا بالحجة والسلطان المبين، لم يجدوا جوابا إلا تقليد الآباء والأجداد بنحو قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[٥] وما ذاك إلا من نزغات الشيطان، والشيطان لا يدعو إلا إلى الضلال الموصل إلى النار وبئس القرار»[٦].

قلت: رحم اللَّه هؤلاء الأئمة جميعًا على هذا التوضيح الجليّ في الدعوة إلى

---

(١) البقرة: الآية (١٧٠).
(٢) لقمان: الآية (٢١).
(٣) الزخرف: الآية (٢٤).
(٤) بدائع الفوائد (٤/ ١٧٣-١٧٤).
(٥) الزخرف: الآية (٢٣).
(٦) تفسير المراغي (٢١/ ٨٧-٨٨).

لزوم الدليل من الكتاب والسنة، وأن اللّه تعالى أقام حججًا على عباده لا تقبل الجدل ولا الشك، في الخلق والنعم الواسعة التي لا يد لأحد في تيسيرها ولا قدرة له على ذلك، ومن ذلك أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب، وخلق العقول وفطرها على حب الخالق، فتسابقت الشياطين من الإنس والجن إلى التشويش وإلقاء الشبه الباردة التي مفادها سلب العقول والفطر، والتي لا ميزان لها يرجع إليه، فاتباع الآباء والأجداد وأهل البلد والإقليم يمكن أن يكون هو جادّة الحق؛ كما كان الأنبياء العظام، والصحابة الكرام، وأئمة الهدى في كل زمان ومكان. وأما الآباء الجهال الذين لم يستضيئوا بنور الوحي؛ إنما أعمالهم كدخان الهوى والباطل اشتدت به الريح في يوم عاصف، فانتكست عقولهم، ومسخت فطرهم، فعبدوا الحجارة والشجر، ورجعوا إلى الأموات الذين دفنوهم بأيديهم، وأهالوا عليهم التراب، ويئسوا من حياتهم، فبنوا قبورهم وشيدوا عليهم الأبنية باسم الضريح والولاية، وأنفقوا الأموال الطائلة التي أحياؤهم في أمس الحاجة إليها، ولا شك أنهم مبذرون وعابثون، والمبذرون هم إخوان الشياطين. ويذكرون أنهم يتبعون في أفعالهم الشنيعة هذه الآباء والأجداد والإقليم وأهل البلد، وهي في حقيقة أمرها الشرك الأكبر الذي لا يغفره اللّه، فسبحان من أضلهم وأعمى أبصارهم، وجعلهم طعمة للشياطين يطعمها وكرة يلعب بها، زيادة على أوهام شد الرحال لهذه الأصنام باسم الولاية والصلاح، والذبح عندها وإقامة النذور، وتعيين السدنة المرتزقة الذين لا همّ لهم إلا الفساد في الأرض، قال اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[1]، ضعف المقبور، والذي يستغيث به ويطلب منه حاجته، والذي يبني عليه ويشيد بناءه.

* * *

(١) الحج: الآيتان (٧٣و٧٤).

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

العروة الوثقى: معناه: فقد عقد لنفسه من الدين عقدا وثيقا لا تحله حجة. وقيل: أصله من عروة الكلأ وهو ما له أصل ثابت في الأرض مثل الشيح والأرط وغيرهما من جميع الشجر المستأصل في الأرض. فلما كانت هذه الأشياء يستمسك بها ضربت مثلا للعهد ولكل ما يعتصم به ويلجأ إليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عمن أسلم وجهه لله أي أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله باتباع ما به أمر وترك ما عنه زجر ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد أخذ موثقا من اللَّه متينا لا يعذبه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ أي: لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم باللَّه وبما جئت به، فإن قدر اللَّه نافذ فيهم، ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ أي: فيجزيهم عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا تخفى عليه خافية ثم قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: في الدنيا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: فظيع صعب مشق على النفوس كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾[1]»[2].

---

(١) يونس: الآيتان (٦٩و٧٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٥٠).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ومن يُعبِّد وجهه متذللا بالعبودة مقرا له بالألوهة ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ يقول: وهو مطيع لله في أمره ونهيه ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ يقول: فقد تمسك بالطرف الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه من تمسك به، وهذا مثل، وإنما يعني بذلك أنه قد تمسك من رضا اللّه بإسلامه وجهه إليه وهو محسن ما لا يخاف معه عذاب اللّه يوم القيامة.. وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ يقول: وإلى اللّه مرجع عاقبة كل أمر خيره وشره، وهو المسائل أهله عنه ومجازيهم عليه»[1].

وقال أيضًا: «ومن كفر باللّه فلا يحزنك كفره ولا تذهب نفسك عليهم حسرة فإن مرجعهم ومصيرهم يوم القيامة إلينا ونحن نخبرهم بأعمالهم الخبيثة، التي عملوها في الدنيا ثم نجازيهم عليها جزاءهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يقول: إن اللّه ذو علم بما تكنه صدورهم من الكفر باللّه، وإيثار طاعة الشيطان، وقوله: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾ يقول: نمهلهم في هذه الدنيا مهلا قليلا يتمتعون فيها ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ يقول: ثم نوردهم على كره منهم، عذابا غليظا، وذلك عذاب النار نعوذ باللّه منها ومن عمل يقرب منها»[2].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يخلص عبادته وقصده إلى اللّه تعالى ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع، نظيره: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾[3] وفي حديث جبريل عليه السلام قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «**أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[4] ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ قال ابن عباس: لا إله إلا اللّه وقد مضى في البقرة»[5].

قال السعدي: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصا له دينه. ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ في ذلك الإسلام بأن كان عمله مشروعا، قد اتبع فيه الرسول ﷺ. أو ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بفعل جميع العبادات، وهو

(١) جامع البيان (٢١/ ٧٩).
(٢) جامع البيان (٢١/ ٨٠).
(٣) طه: الآية (١١٢).
(٤) سيأتي تخريجه قريبًا.
(٥) جامع أحكام القرآن (١٤/ ٧٤).

محسن فيها، بأن يعبد اللَّه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه، فإنه يراه. أو ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلى عباد اللَّه، قائم بحقوقهم.

والمعاني متلازمة، لا فرق بينها إلا من جهة اختلاف مورد اللفظين، وإلا فكلها متفقة على القيام بجميع شرائع الدين، على وجه تقبل به وتكمل، فمن فعل ذلك فقد ﴿ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: بالعروة التي من تمسك بها، توثق ونجا، وسلم من الهلاك، وفاز بكل خير.

ومن لم يسلم وجهه لله، أو لم يحسن لم يستمسك بالعروة الوثقى، وإذا لم يستمسك لم يكن ثم إلا الهلاك والبوار. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: رجوعها وموئلها ومنتهاها، فيحكم في عباده، ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم، ووصلت إليه عواقبهم، فليستعدوا لذلك الأمر.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ لأنك أديت ما عليك، من الدعوة والبلاغ، فإذا لم يهتد، فقد وجب أجرك على اللَّه، ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائه؛ لأنه لو كان فيه خير، لهداه اللَّه.

ولا تحزن أيضًا، على كونهم تجرأوا عليك بالعداوة، ونابذوك المحاربة، واستمروا على غيهم وكفرهم، ولا تتحرق عليهم، بسبب أنهم ما بودروا بالعذاب.

فإن ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ من كفرهم وعداوتهم، وسعيهم في إطفاء نور اللَّه وأذى رسله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ التي ما نطق بها الناطقون، فكيف بما ظهر، وكان شهادة؟!

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ في الدنيا، ليزداد إثمهم، ويتوفر عذابهم، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: انتهى في عظمه وكبره، وفظاعته، وألمه، وشدته»[(١)].

قال شيخ الإسلام: «فإن إسلام الوجه لله يتضمن إخلاص العمل لله والإحسان هو إحسان العمل لله وهو فعل ما أمر به فيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ فإن الإساءة في العمل الصالح تتضمن الاستهانة بالأمر به، والاستهانة بنفس العمل، والاستهانة بما وعده اللَّه من الثواب، فإذا أخلص العبد دينه لله،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٦٣-١٦٥).

وأحسن العمل له كان ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، فكان من الذين لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان المفهوم الصحيح للدين

* عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي؛ أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي، فقلت: أبا عبد الرحمن! إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن، ويتقفرون العلم -وذكر من شأنهم- وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني والذي يحلف به عبد اللَّه بن عمر! لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه؛ ما قبل اللَّه منه حتى يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول اللَّه ﷺ ذات يوم؛ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: **«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدا رسول اللَّه ﷺ**، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا». قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: **«أن تؤمن باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»**. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: **«أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**. قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: **«ما المسئول عنها بأعلم من السائل»** قال: فأخبرني عن أمارتها؟ قال: **«أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»**. قال: ثم انطلق، فلبثت مليا، ثم قال لي: **«يا عمر! أتدري من السائل؟»** قلت: اللَّه ورسوله أعلم، قال: **«فإنه جبريل أتاكم**

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٥١).

يعلمكم دينكم»[١].

★ غريب الحديث:

فاكتنفته أنا وصاحبي: أي أحطنا به من جانبيه.

يتقفرون العلم: ويروى (يتفقرون). يقال: تقفرت الشيء: إذا قفوته واتبعت أثره.

وأن الأمر أنف: أي: مستأنف استئنافًا من غير أن يكون سبق به سابق قضاء وتقدير.

★ فوائد الحديث:

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ -عن حديث عمر-: «هو حديث عظيم جدًّا، يشتمل على شرح الدين كله، ولهذا قال النبي ﷺ في آخره: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**» بعد أن شرح درجة الإسلام، ودرجة الإيمان، ودرجة الإحسان، فجعل ذلك كله دينًا..

فأما الإسلام؛ فقد فسره النبي ﷺ بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل، وأول ذلك: شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدا رسول اللَّه، وهو عمل اللسان، ثم إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا. وهي منقسمة إلى عمل بدني: كالصلاة والصوم، وإلى عمل مالي: وهو إيتاء الزكاة، وإلى ما هو مركب منهما: كالحج بالنسبة إلى البعيد عن مكة. وفي رواية ابن حبان أضاف إلى ذلك «**الاعتمار، والغسل من الجنابة، وإتمام الوضوء**»[٢]، وفي هذا تنبيه على أن جميع الواجبات الظاهرة داخلة في مسمى الإسلام»[٣].

وقال: «وأما الإيمان، فقد فسره النبي ﷺ في هذا الحديث بالاعتقادات الباطنة، فقال: «**أن تؤمن باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره**». وقد ذكر اللَّه في كتابه الإيمان بهذه الأصول الخمسة في

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧) ومسلم (١/ ٣٦-٣٧-٣٨/ ٨) وأبو داود (٥/ ٦٩-٧٣/ ٤٦٩٥) والترمذي (٥/ ٨-٩/ ٢٦١٠) والنسائي (٨/ ٤٧٢-٤٧٥/ ٥٠٠٥) وابن ماجه (١/ ٢٤-٢٥/ ٦٣).

(٢) الإحسان (١/ ٣٩٧-٣٩٨/ ١٧٣).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٩٧-٩٨).

مواضع؛ كقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[2] الآية. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَـٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾[3]». اهـ[4]

قال القرطبي: «مذهب السلف وأئمة الفتوى من الخلف: أن من صدق بهذه الأمور تصديقًا جزمًا لا ريب فيه، ولا تردد، ولا توقف؛ كان مؤمنا حقيقة، وسواء كان ذلك عن براهين ناصعة، أو عن اعتقادات جازمة.

على هذا انقرضت الأعصار الكريمة، وبهذا صرحت فتاوى أئمة الهدى المستقيمة، حتى حدثت مذاهب المعتزلة المبتدعة، فقالوا: إنه لا يصح الإيمان الشرعي؛ إلا بعد الإحاطة بالبراهين العقلية والسمعية، وحصول العلم بنتائجها ومطالبها، ومن لم يحصل إيمانه كذلك فليس بمؤمن!! ولا يجزئ إيمانه بغير ذلك!! وتبعهم على ذلك جماعة من متكلمي أصحابنا كالقاضي أبي بكر، وأبي إسحاق الإسفراييني، وأبي المعالي في أول قوليه. والأول هو الصحيح، إذ المطلوب من المكلفين ما يقال عليه: إيمان كقوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[5]، ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[6]. والإيمان: هو التصديق لغة وشرعًا، فمن صدق بذلك كله، ولم يجوز نقيض شيء من ذلك؛ فقد عمل بمقتضى ما أمره اللَّه به على نحو ما أمره اللَّه تعالى، ومن كان كذلك فقد تقصى عن عهدة الخطاب، إذ قد عمل بمقتضى السنة والكتاب، ولأن رسول اللَّه ﷺ وأصحابه بعده؛ حكموا بصحة إيمان كل من آمن وصدق بما ذكرناه، ولم يفرقوا بين من آمن عن برهان أو عن غيره، ولأنهم لم يأمروا أجلاف العرب بترديد النظر، ولا سألوهم عن أدلة تصديقهم، ولا أرجؤوا إيمانهم حتى ينظروا، وتحاشوا عن إطلاق الكفر على أحد منهم، بل سموهم المؤمنين، والمسلمين، وأجروا عليهم أحكام الإيمان والإسلام. ولأن البراهين التي حررها المتكلمون، ورتبها الجدليون؛ إنما أحدثها

---

(١) البقرة: الآية (٢٨٥).
(٢) البقرة: الآية (١٧٧).
(٣) البقرة: الآيتان (٣و٤).
(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ١٠٢).
(٥) النساء: الآية (١٣٦).
(٦) الفتح: الآية (١٣).

المتأخرون، ولم يخض في شيء من تلك الأساليب السلف الماضون، فمن المحال والهذيان أن يشترط في صحة الإيمان، ما لم يكن معروفا، ولا معمولا به، لأهل ذلك الزمان، وهم من هم فهما عن اللَّه، وأخذا عن رسول اللَّه ﷺ، وتبليغا لشريعته، وبيانا لسنته، وطريقته»[١].

قلت: هذا الذي قرره الإمام القرطبي رحمه الله هو الحق الذي لا مرية فيه، وهو الذي نزل به القرآن وبعثت به الأنبياء والرسل، وكان عليه أئمة الصحابة والتابعين وأئمة الهدى ومن بعدهم حتى نبتت نابتة سموا بأهل الكلام وهم لعمر اللَّه أهل الانحراف، ردوا الكتاب والسنة، وجاءوا بمعقولات استفادوها من ترجمة كتب النصارى المنحرفين عن الدين الصحيح، وتعمقوا في ذلك حتى كفر الابن أباه، وقالوا: من لم يتقن هذه الطرق الكلامية فلا يصح منه إيمان، وبنوا دينهم على الجوهر والعرض والنظر والاستدلال العقلي -بزعمهم- وكثير من المتكلمين تاب وتراجع كما بين ذلك الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتابه (درء تعارض العقل والنقل) الذي لم يؤلف كتاب مثله في هذا الموضوع، فحري بطالب الحق أن يرجع إلى هذا الكتاب؛ فهو رد صريح يصب في هذه الفكرة التي قررها الإمام القرطبي، ونقلها الحافظ ابن حجر رحمه الله في (الفتح) في شرح أول كتاب التوحيد، ورحم اللَّه الإمام الشافعي إذ يقول: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، وأن يطاف بهم في العشائر ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة.

وقد أشبع الأئمة هذا الموضوع قولًا وفعلًا، وبينت ذلك في كتابي (المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات) ثم في كتابي (موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية)، نرجو اللَّه أن يحفظ علينا ديننا بحفظنا من الدخول في هذه المهاترات التي نهايتها الحيرة والضلال كما قال قائلهم:

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

---

(١) المفهم (١/ ١٤٥-١٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله من قومك ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد فإذا قالوا ذلك فقل لهم: الحمد لله الذي خلق ذلك، لا لمن لا يخلق شيئًا وهم يخلقون، ثم قال -تعالى ذكره-: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: بل أكثر هؤلاء المشركون لا يعلمون من الذي له الحمد، وأين موضع الشكر، وقوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ يقول -تعالى ذكره-: لله كل ما في السماوات والأرض، من شيء ملكا كائنا ما كان ذلك الشيء، من وثن وصنم وغير ذلك مما يعبد أو لا يعبد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ يقول: إن الله هو الغني عن عبادة هؤلاء المشركين به الأوثان والأنداد، وغير ذلك منهم ومن جميع خلقه؛ لأنهم ملكه وله وبهم الحاجة إليه، الحميد يعني المحمود على نعمه التي أنعمها على خلقه»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء المشركين به، أنهم يعرفون أن الله خالق السماوات والأرض وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ﴾ أي: إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: هو خلقه وملكه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه، الحميد في جميع ما خلق له

---

(١) جامع البيان (٢١/ ٨٠).

الحمد في السماوات والأرض، على ما خلق وشرع، وهو المحمود في الأمور كلها»[١].

قال السعدي: «أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين المكذبين بالحق ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ لعلموا أن أصنامهم، ما خلقت شيئًا من ذلك، ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ الذي خلقهما وحده.

﴿قُلِ﴾ لهم ملزمًا لهم، ومحتجًّا عليهم بما أقروا به، على ما أنكروا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي بين النور، وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم، فلو كانوا يعلمون، لجزموا أن المنفرد بالخلق والتدبير، هو الذي يفرد بالعبادة والتوحيد. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك أشركوا به غيره، ورضوا بتناقض ما ذهبوا إليه، على وجه الحيرة والشك، لا على وجه البصيرة، ثم ذكر هاتين الآيتين نموذجا من سعة أوصاف اللَّه سبحانه، ليدعو عباده إلى معرفته، ومحبته، وإخلاص الدين له. فذكر عموم ملكه، وأن جميع ما في السماوات والأرض -وهذا شامل لجميع العالم العلوي والسفلي- أنه ملكه، يتصرف فيهم بأحكام الملك القدرية، وأحكامه الأمرية، وأحكامه الجزائية، فكلهم عبيد مماليك، مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾[٢]. وأن أعمال النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، لا تنفع اللَّه شيئًا وإنما تنفع عامليها، واللَّه غني عنهم، وعن أعمالهم، ومن غناه، أن أغناهم وأقناهم في دنياهم وأخراهم.

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميدا من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته، فكل صفة من صفاته، يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه يحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد، في هذه الحياة الدنيا والآخرة، يحمد عليه»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٥٠).

(٢) الذاريات: الآية (٥٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٦٥-١٦٧).

قال شيخ الإسلام: «وهذا التوحيد كان يقر به المشركون الذين قال اللَّه عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وقال تعالى: ﴿قُل مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[1]. وقال عنهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾[2] قال طائفة من السلف يقول لهم من خلق السماوات والأرض فيقولون اللَّه، وهم مع هذا يعبدون غيره. وإنما التوحيد الذي أمر اللَّه به العباد هو توحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية بأن يعبد اللَّه وحده لا يشركون به شيئًا فيكون الدين كله لله ولا يخاف إلا اللَّه ولا يدعى إلا اللَّه ويكون اللَّه أحب إلى العبد من كل شيء فيحبون لله ويبغضون لله ويعبدون اللَّه ويتوكلون عليه. والعبادة تجمع غاية الحب وغاية الذل فيحبون اللَّه بأكمل محبة ويذلون له أكمل ذل ولا يعدلون به ولا يجعلون له أندادا ولا يتخذون من دونه أولياء ولا شفعاء. كما قد بين القرآن هذا التوحيد في غير موضع وهو قطب رحى القرآن الذي يدور عليه القرآن وهو يتضمن التوحيد في العلم والقول والتوحيد في الإرادة والعمل»[3].

* * *

---

(١) المؤمنون: الآيتان (٨٦و٨٧).

(٢) يوسف: الآية (١٠٦).

(٣) منهاج السنة (٣/ ٢٨٩-٢٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»(١) فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما وجعل البحر مدادا وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات اللّٰه الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام، ونفذ ماء البحر، ولو جاء أمثالها مددا، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم، كما يقوله من تلقاه من كلام الإسرائيليين التي لا تصدق ولا تكذب بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(٢) فليس المراد بقوله: ﴿بِمِثْلِهِ﴾ آخر فقط بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله ثم هلم جرا؛ لأنه لا حصر لآيات اللّٰه وكلماته.

وقال الحسن البصري: لو جعل شجر الأرض أقلاما وجعل البحر مدادا وقال اللّٰه إن من أمري كذا ومن أمري كذا لنفد ما في البحور، وتكسرت الأقلام وقال قتادة: قال المشركون: إنما هذا كلام يوشك أن ينفد فقال اللّٰه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ أي: لو كان شجر الأرض أقلاما، ومع البحر سبعة أبحر ما

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٩٦) وأبو داود (٢/ ١٣٤/ ١٤٢٧) والترمذي (٥/ ٥٢٤/ ٣٥٦٦) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، والنسائي (٣/ ٢٧٥-٢٧٦/ ١٧٤٦) وابن ماجه (١/ ٣٧٣/ ١١٧٩) كلهم من حديث علي ﷺ. وسيأتي تخريجه من حديث عائشة ﷺ في أحاديث الباب.

(٢) الكهف: الآية (١٠٩).

كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه، وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم اللَّه كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل اللَّه ذلك ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ الآية يقول: لو كان ذلك البحر مدادا لكلمات اللَّه، والأشجار كلها أقلاما، لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وبقيت كلمات اللَّه قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا يثني كما ينبغي حتى يكون هو الذي يثني على نفسه إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول.. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد، ولا مخالف ولا معقب لحكمه، حكيم في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شؤونه»[١].

قال السعدي: «ثم أخبر عن سعة كلامه ﷻ، وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبهر له العقول، وتتحير فيه الأفئدة، وتسيح في معرفته أولو الألباب والبصائر، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ يكتب بها ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ مدادا يستمد بها، لتكسرت تلك الأقلام ولفني ذلك المداد، و﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾، وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لما علم -تبارك وتعالى-، أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده، أفضل نعمة، أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله، لا يترك كله. فنبههم تعالى على بعضها تنبيها تستنير به قلوبهم، وتنشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بربه: «**لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[٢] وإلا فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

وهذا التمثيل من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول به إلى الأفهام والأذهان. وإلا فالأشجار، وإن تضاعفت على ما ذكر، أضعافا كثيرة، والبحور لو امتدت بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفادها وانقضاؤها، لكونها مخلوقة.

وأما كلام اللَّه تعالى، فلا يتصور نفاده، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي، على أنه

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٥١-٣٥٢).

(٢) سبق تخريجه.

لا نفاد له ولا منتهى، فكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[١].

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وآخريته، وأن كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرض الذهن والعقل، من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد، بقلبه ولسانه، فاللَّه تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية.

واللَّه في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء، من أقواله وأفعاله، فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه اللَّه لكلامه، ليدرك العباد شيئًا منه، وإلا فالأمر أعظم وأجل.

ثم ذكر جلالة عزته وكمال حكمته فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: له العزة جميعًا، الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا هي منه، هو الذي أعطاها للخلق، فلا حول ولا قوة إلا به، وبعزته قهر الخلق كلهم، وتصرف فيهم، ودبرهم، وبحكمته خلق الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته، والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة، فهو الحكيم في خلقه وأمره»[٢].

قال ابن القيم: «ومعنى هذا: أنه لو فرض البحر مدادا وبعده سبعة أبحر تمده كلها مدادا، وجميع أشجار الأرض أقلاما -وهو ما قام منها على ساق من النبات، والأشجار المثمرة وغير المثمرة- والأقلام تستمد بذلك المداد فتفنى البحار والأقلام، وكلمات الرب لا تفنى ولا تنفد، فسبحان اللَّه وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته. فأين هذا من وصف من يصفه بأنه ما تكلم ولا يتكلم، ولا يقوم به كلام أصلا؟ وقول من وصف كلامه بأنه معنى واحد، لا ينقضي ولا يتجزأ، ولا له بعض ولا كل، ولا هو سور وآيات، ولا حروف وكلمات؟

والمقصود: أن في هذا التسبيح من صفات الكمال ونعوت الجلال ما يوجب أن

---

(١) النجم: الآية (٤٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٦٧-١٦٩).

يكون أفضل من غيره وأنه لو وزن غيره به لوزن به وزاد عليه. وهذا بعض ما في هذه الكلمات من المعرفة بالله، والثناء عليه بالتنزيه والتعظيم مع اقترانه بالحمد المتضمن لثلاثة أصول:

أحدها: إثبات صفات الكمال له سبحانه.

الثاني: الثناء عليه.

الثالث: محبته والرضا به. فإذا انضاف هذا الحمد إلى التسبيح والتنزيه على أكمل الوجوه، وأعظمها قدرا، وأكثرها عددا وأجزلها وصفا، واستحضر العبد ذلك عند التسبيح، وقام بقلبه معناه، كان له من المزية والفضل ما ليس لغيره وبالله التوفيق»[1].

وقال أيضًا: «فقدر البحر المحيط بالعالم مدادا ووراءه سبعة أبحر تحيط به كلها مداد، تكتب به كلمات الله نفدت البحار وفنيت الأقلام التي لو قدرت جميع أشجار الأرض من حين خلقت إلى آخر الدنيا ولم تنفد كلمات الله. وقد أخبر النبي ﷺ «**إن السماوات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة بأرض فلاة والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة**» والعرش لا يقدر قدره إلا الله وهو سبحانه فوق عرشه يرى ما عباده عليه فهذا هو الذي قام بقلوب المؤمنين المصدقين العارفين به سبحانه من المثل الأعلى، فعرفوه به، وعبدوه به، وسألوه به فأحبوه وخافوه ورجوه، وتوكلوا عليه، وأنابوا إليه، واطمأنوا بذكره، وأنسوا بحبه بواسطة هذا التعريف، فلم يصعب عليهم بعد ذلك، فهموا استواءه على عرشه وسائر ما وصف به نفسه من صفات كماله، إذ قد أحاط عليهم بأنه لا نظير لذلك، ولا مثل له، ولم يخطر بقلوبهم مماثلته لشيء من المخلوقات، وقد أعلمهم سبحانه على لسان رسوله: . . «**أنه يضع السماوات على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع وسائر الخلق على أصبع**»[2] فأي أيدي للخلق وأي أصبع تشبه هذه اليد وهذه الأصبع، حتى يكون إثباتها تشبيها وتمثيلا، فقاتل الله أصحاب

(١) المنار المنيف (ص٢٩,-٣٠).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤٢٩-٤٥٧) والبخاري (٨/ ٧٠٧/ ٤٨١١) ومسلم (٤/ ٢١٤٧/ ٢٧٨٦) والترمذي (٥/ ٣٤٥-٣٤٦/ ٣٢٣٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٦/ ١١٤٥٠).

التحريف والتأويل وأصحاب التخييل، وأصحاب التجهيل وأصحاب التشبيه والتمثيل، ماذا حرفوه من الحقائق الإيمانية، والمعارف الإلهية، وماذا تعوضوا به من زبالة الأذهان ونخالة الأفكار، فما أشبههم بمن كان غذاؤهم المن والسلوى، بلا تعب ولا كلفة، فآثروا عليه الفوم والعدس والبصل، وقد جرت عادة اللَّه سبحانه أن يذل من آثر الأدنى على الأعلى ويجعله عبرة للعقلاء. فأول هذا الصنف إبليس ترك السجود لآدم كبرًا فابتلاه اللَّه بالقيادة لفساق ذريته، وعباد الأصنام لم يقروا بنبي من البشر ورضوا بإله من الحجر، والجهمية نزهوا اللَّه عن عرشه لئلا يحويه مكان ثم جعلوه في الآبار والأنجاس وفي كل مكان، وهكذا طوائف الباطل لم يرضوا بنصوص الوحي فابتلوا بزبالة أذهان المتحيرين وورثة الصابئين وأفراخ الفلاسفة الملحدين و: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[1]»[2].

وقال أيضًا: «فإن الآية سيقت لبيان أن أشجار الأرض لو كانت أقلاما والبحار مدادا فكتبت بها كلمات اللَّه لنفدت البحار والأقلام ولم تنفد كلمات اللَّه، فالآية سيقت لبيان الملازمة بين عدم نفاد كلماته وبين كون الأشجار أقلاما والبحار مدادا يكتب بها، فإذا كانت الملازمة ثابتة على هذا التقدير الذي هو أبلغ تقدير يكون في نفاد المكتوب، فثبوتها على غيره من التقادير أولى. ونوضح هذا بضرب مثل يرتقى منه إلى فهم مقصود الآية: إذا قلت لرجل لا يعطي أحدا شيئًا لو أن لك الدنيا بأسرها ما أعطيت أحدا منها شيئًا فإنك إذا قصدت أن عدم إعطائه ثابت على أعظم التقادير التي تقتضي الإعطاء، فلازمت بين عدم إعطائه أسباب الإعطاء وهو كثرة ما يملكه، فدل هذا على أن عدم إعطائه ثابت على ما هو دون هذا التقدير وأن عدم الإعطاء لازم لكل تقدير فافهم نظير هذا المعنى في الآية، وهو عدم نفاد كلمات اللَّه تعالى على تقدير أن الأشجار أقلام والبحار مداد يكتب بها، فإذا لم تنفد على هذا التقدير، كان عدم نفادها لازما له، فكيف بما دونه من التقديرات فافهم هذه النكتة التي لا يسمح بمثلها كل وقت، ولا تكاد تجدها في الكتب وإنما هي من فتح اللَّه

(١) الكهف: الآية (١٧).

(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٣١-٤٣٤).

وفضله فله الحمد والمنة ونسأله المزيد من فضله.

فانظر كيف اتفقت القاعدة العقلية مع القاعدة النحوية وجاءت النصوص بمقتضاهما معا من غير خروج عن موجب عقل ولا لغة ولا تحريف لنص، ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذه الفائدة، لساوت رحلة فكيف وقد تضمن من غرر الفوائد ما لا ينفق إلا على تجاره وأما من ليس هناك فإنه يظن الجوهرة زجاجة والزجاجة المستديرة المثقوبة جوهرة ويزري على الجوهري ويزعم أنه لا يفرق بينهما واللَّه المعين»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كون القرآن غير مخلوق لأنه لو كان مخلوقًا لكان له قدر وكانت له نهاية ولنفد كنفاد المخلوقين

* عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**تكفّل اللَّه لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرده إلى مسكنه بما نال من أجر أو غنيمة**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قال ابن التين: يحتمل أن يكون المراد بكلماته الأوامر الواردة بالجهاد، وما وعد عليه من الثواب، ويحتمل أن يراد بها ألفاظ الشهادتين وأن تصديقه بها يثبت في نفسه عداوة من كذبهما والحرص على قتله»[٣].

وبوّب البخاري لهذا الحديث بالآية ليبيّن أن كلام اللَّه تعالى وكلماته صفة من صفاته غير مخلوقة.

قال ابن بطال: «ومعنى هذا الباب إثبات الكلام لله صفة لذاته، وأنه لم يزل متكلمًا ولا يزال، كمعنى الباب الذي قبله، وإن كان قد وصف كلامه تعالى بأنه كلمات فإنه شيء واحد لا يتجزأ ولا يقسم، وكذلك يعبر عنه بعبارات مختلفة: تارة عربية، وتارة سريانية، وبجميع الألسنة التي أنزلها اللَّه على أنبيائه، وجعلها عبارة

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٥٧-٥٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٩-٤٢٤) والبخاري (١٣/ ٥٤٥/ ٧٤٦٣) ومسلم (٣/ ١٤٩٦/ ١٨٧٦[١٠٤]) والنسائي (٦/ ٣٢٣-٣٢٤/ ٣١٢٢).

(٣) فتح الباري (١٣/ ٥٤٦).

عن كلامه القديم الذي لا يشبه كلام المخلوقين، ولو كانت كلماته مخلوقة لنفدت كما تنفد البحار والأشجار وجميع المحدثات، فكما لا يحاط بوصفه تعالى، كذلك لا يحاط بكلماته وجميع صفاته»[١].

* عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: «**اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال النووي رحمه الله: «وقوله: «**لا أحصي ثناءً عليك**» أي: لا أُطيقه، ولا آتي عليه، وقيل: لا أحيط به. وقال مالك - رحمه الله تعالى -: معناه: لا أحصي نعمتك وإحسانك، والثناء بها عليك، وإن اجتهدت في الثناء بها عليك، وإن اجتهدت في الثناء عليك.

وقوله: «**أنت كما أثنيت على نفسك**»: اعتراف بالعجز عن تفصيل الثناء، وأنه لا يقدر على بلوغ حقيقته، ورد للثناء إلى الجملة دون التفصيل والإحصار والتعيين، فوكل ذلك إلى اللَّه سبحانه وتعالى المحيط بكل شيء جملة وتفصيلًا، وكما أنه لا نهاية لصفاته، لا نهاية للثناء عليه؛ لأن الثناء تابع للمثنى عليه، وكل ثناء أُثني به عليه -وإن كثر وطال وبولغ فيه- فقدر اللَّه أعظم، وسلطانه أعز، وصفاته أكبر، وأكثر، وفضله وإحسانه أوسع وأسبغ»[٣].

قال القرطبي: «قوله: «**لا أحصي ثناءً عليك**» أي: لا أُطيقه؛ أي: لا أنتهي إلى غايته، ولا أحيط بمعرفته؛ كما قال مخبرًا عن حاله في المقام المحمود حين يخرّ تحت العرش للسجود قال: «**فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلا أن يلهمنيها الله**»[٤]. وروي عن مالك: لا أحصي نعمتك وإحسانك والثناء عليك، وإن اجتهدت في ذلك. والأول أولى لما ذكرناه. ولما جاء في نص الحديث نفسه:

---

(١) شرح ابن بطال (١٠/ ٤٨٩-٤٥٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٨-٢٠١) ومسلم (١/ ٣٥٢/ ٤٨٦) وأبو داود (١/ ٥٤٧/ ٨٧٩) والترمذي (٥/ ٤٨٩-٤٩٠/ ٣٤٩٣) وقال: «هذا حديث حسن»، والنسائي (٢/ ٥٧١-٥٧٢/ ١١٢٩) وابن ماجه (٢/ ١٢٦٢-١٢٦٣/ ٣٨٤١).

(٣) شرح مسلم (٤/ ١٧١).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٦) والبخاري (٨/ ٢٠٢-٢٠٣/ ٤٤٧٦) ومسلم (١/ ١٨٠-١٨١/ ١٩٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٠-٣٣١/ ١١١٣١) وابن ماجه (٢/ ١٤٤٢-١٤٤٣/ ٤٣١٢).

«**أنت كما أثنيت على نفسك**». ومعنى ذلك: اعتراف بالعجز عن أداء وفهم ما يريده اللَّه من الثناء على نفسه، وبيان صمديته، وقدوسيته، وعظمته، وكبريائه، وجبروته ما لا يُنتهى إلى عدّه، ولا يوصل إلى حده، ولا يحصله عقل، ولا يحيط به فكر، وعند الانتهاء إلى هذا المقام انتهت معرفة الأنام»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه وجلاله، وأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وكلماته التامة، التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»»[2].

* * *

(١) المفهم (٢/ ٩٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٥١).

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة، الجميع هين عليه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾[(١)]، ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝٥٠﴾[(٢)] أي لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكيده ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾[(٣)]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة، ولهذا قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾»[(٤)].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن اللَّه سميع لما يقول هؤلاء المشركون ويفترونه على ربهم من ادعائهم له الشركاء والأنداد وغير ذلك من كلامهم وكلام غيرهم بصير بما يعملونه وغيرهم من الأعمال وهو مجازيهم على ذلك جزاءهم»[(٥)].

قال السعدي: «ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل فقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهذا شيء يحير العقول، إن خلق جميع الخلق -على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم، بعد تفرقهم في لمحة واحدة- كخلقه نفسا واحدة، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور، والجزاء على الأعمال، إلا الجهل بعظمة اللَّه وقوة قدرته.

---

(١) يس: الآية (٨٢).
(٢) القمر: الآية (٥٠).
(٣) النازعات: الآيتان (١٣و١٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٥٢).
(٥) جامع البيان (٢١/ ٨٣).

ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات، وبصره لجميع المبصرات فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٦٩).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ بمعنى يأخذ منه في النهار فيطول ذاك ويقصر هذا وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية ثم يسرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون في الشتاء ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل إلى غاية محدودة وقيل إلى يوم القيامة، وكلا المعنيين صحيح، ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر رضي الله عنه الذي في الصحيحين أن رسول اللّه ﷺ قال: «**يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه الشمس؟ قلت: اللّه ورسوله أعلم قال: فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت**»[(١)]..

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٢)] ومعنى هذا أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[(٣)]»[(٤)].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يقول: وإن اللّه بأعمالكم أيها الناس من خير أو شر ذو خبرة وعلم، لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيكم على جميع ذلك، وخرج هذا الكلام خطابا لرسول اللّه ﷺ والمعني به المشركون،

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.
(٢) الحج: الآية (٧٠).
(٣) الطلاق: الآية (١٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٥٢-٣٥٣).

وذلك أنه -تعالى ذكره- نبه بقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ على موضع حجته من جهل عظمته، وأشرك في عبادته معه غيره، يدل على ذلك قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾»[١].

قال السعدي: «وهذا فيه أيضًا، انفراده بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل؛ أي: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما، ذهب الآخر.

وتسخيره للشمس والقمر، يجريان بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما، ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم، في دينهم ودنياهم، ما به يعتبرون وينتفعون.

و﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إذا جاء ذلك الأجل، انقطع جريانهما، وتعطل سلطانهما، وذلك في يوم القيامة، حين تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتدئ الدار الآخرة.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال، بالثواب للمطيعين، والعقاب للعاصين»[٢].

قال تقي الدين الهلالي تحت هذه الآية والآيتين بعدها: «فائدة: جمعت هذه الآيات بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة فمن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ آية دالة على توحيد الربوبية، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ الآية دالة على توحيد العبادة، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ الآية دالة على توحيد الربوبية، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾ الآية دالة على توحيد العبادة، وتفسير ابن عباس لجريان الشمس يعلم منه أن الشمس حين تغيب عن قوم، تطلع على آخرين، فهي تجري دائما ليلا ونهارا حتى ينتهي عمرها، وكل شيء هالك إلا وجهه»[٣].

---

(١) جامع البيان (٢١/ ٨٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٧٠).

(٣) سبيل الرشاد (٢/ ١٢٥-١٢٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان انفراده سبحانه وتعالى بالتصرف والتدبير

* عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال يوما: «**أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟**» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «**إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت فترجع. فتصبح طالعة من مطلعها. ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة. ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت فترجع. فتصبح طالعة من مطلعها. ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئًا حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك، تحت العرش فيقال لها: ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها**» فقال رسول اللَّه ﷺ: أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[(١)]»[(٢)].

⋆ **فوائد الحديث:**

انظر فوائد هذا الحديث في سورة الأنعام الآية (١٥٨) وفي سورة يس الآية (٣٨).

* * *

---

(١) الأنعام: الآية (١٥٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٢و١٧٧) والبخاري (٦/ ٣٦٥/ ٣١٩٩) ومسلم (١/ ١٣٨/ ١٥٩) وأبو داود (٤/ ٢٩٤-٢٩٥/ ٤٠٠٢) والترمذي (٥/ ٣٣٩-٣٤٠/ ٣٢٢٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٩/ ١١٤٣٠).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي أخبرتك يا محمد أن اللَّه فعله من إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وغير ذلك من عظيم قدرته، إنما فعله بأنه اللَّه حقا، دون ما يدعوه هؤلاء المشركون به، وأنه لا يقدر على فعل ذلك سواه، ولا تصلح الألوهة إلا لمن فعل ذلك بقدرته وقوله: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وبأن الذي يعبد هؤلاء المشركون من دون اللَّه الباطل الذي يضمحل فيبيد ويفنى ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وبأن اللَّه هو العلي يقول: ذو العلو على كل شيء، وكل ما دونه فله متذلل منقاد الكبير الذي كل شيء دونه فله متصاغر»[1].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق؛ أي: الموجود الحق الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل، فإنه الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه؛ لأن كل ما في السماوات والأرض الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابا لعجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، فكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه»[2].

قال السعدي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي بين لكم من عظمته وصفاته، ما بين ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعده حق، ووعيده حق،

---

(١) جامع البيان (٢١/ ٨٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٥٣).

وعبادته هي الحق.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ في ذاته وصفاته، فلولا إيجاد اللّه له لما وجد، ولولا إمداده لما بقي، فإذا كان باطلا كانت عبادته أبطل وأبطل.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، الذي علت صفاته، عن أن يقاس بها صفات، وعلا على الخلق فقهرهم ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٧٠-١٧١).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الظلل: جمع ظُلَّة، وهي كل ما أَظَلَّكَ كالسحاب والجبل، شبه بها الموج لكبرها وارتفاعها. قال النابغة يصف البحر:

يماشيهن أخضر وظلال ... على حافاته فِلَقُ الدنانِ

ختار: غدار. والخَتْر: أسوأ الغدر. قال عمرو بن معدي كرب:

فإنك لو رأيت أبا عمير ... ملأت يديك من غدر وخَتْرِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره؛ أي: بلطفه وتسخيره، فإنه لو لا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت، ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: من قدرته ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في الضراء، شكور في الرخاء، ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ أي: كالجبال والغمام ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1] الآية.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قال مجاهد: أي كافر، كأنه فسر المقتصد هاهنا بالجاحد، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾

(١) العنكبوت: الآية (٦٥).

وقال ابن زيد: هو المتوسط في العمل وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ الآية فالمقتصد هاهنا هو المتوسط في العمل، ويحتمل أن يكون مرادا هنا أيضًا، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعدَ ما أنعم اللَّه عليه من الخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام، والدؤوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصرا والحالة هذه واللَّه أعلم»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ألم تر يا محمد أن السفن تجري في البحر نعمة من اللَّه على خلقه ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ يقول: ليريكم من عبره وحججه عليكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يقول: إن في جري الفلك في البحر، دلالة على أن اللَّه الذي أجراها هو الحق، وأن ما يدعون من دونه الباطل ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يقول: لكل من صبر نفسه عن محارم اللَّه، وشكره على نعمه فلم يكفره.. إن قال قائل: وكيف خص هذه الدلالة بأنها دلالة للصبار الشكور دون سائر الخلق؟ قيل: لأن الصبر والشكر من أفعال ذوي الحجى والعقول، فأخبر إن في ذلك لآيات لكل ذي عقل؛ لأن الآيات جعلها اللَّه عبرا لذوي العقول والتمييز»[2].

قال المراغي: «وبعد أن ذكر الآيات السماوية الدالة على وحدانيته أشار إلى آية أرضية، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ أي: ألم تشاهد أيها الرسول السفن وهي تسير في البحر حاملة للأقوات والمتاع، من بلد إلى آخر، ومن قطر إلى قطر، هو في حاجة إليها لينتفع الناس بما على ظاهر الأرض مما ليس في أيديهم. وفي هذا دليل على عجيب قدرته التي ترشدكم إلى أنه الحق، الذي أوجد ما ترون من الأحمال الثقيلة على وجه الماء، الذي ترسب فيه الإبرة فما دونها. ثم ذكر من يستفيد من النظر في الآيات فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن فيما ذكر لدلائل واضحات لكل صبار في الضراء، شكور

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٥٣-٣٥٤).

(٢) جامع البيان (٢١/ ٨٤).

في الرخاء، قال الشعبي: الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله، ألم تر إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾[1]. وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر**»[2].

ثم بين أن المشركين ينسون اللَّه في السراء ويلجؤون إليه حين الضراء، فقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: وإذا أحاطت بالمشركين الذين يدعون من دون اللَّه الآلهة والأوثان الأمواج العالية كالجبال، وأحدق بهم الخطر من كل جانب حين يركبون السفن، فزعوا بالدعاء إلى اللَّه مخلصين له الطاعة لا يشركون به شيئًا، ولا يدعون معه أحدا سواه، ولا يستغيثون بغيره. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ أي: فلما نجوا من الأهوال التي كانوا فيها، وخلصوا إلى البر، فمنهم متوسط في أقواله وأفعاله بين الخوف والرجاء، موف بما عاهد عليه اللَّه في البحر، ومنهم من غدر ونقض عهد الفطرة، وكفر بأنعم اللَّه عليه»[3].

* * *

---

(١) الذاريات: الآية (٢٠).

(٢) أخرجه: البيهقي في الشعب (٧/ ١٢٣/ ٩٧١٥) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٢٧-١٢٨/ ١٥٩) والديلمي في مسند الفردوس (١/ ١١١/ ٣٧٨) كلهم من طريق يزيد الرقاشي عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ وذكره. وإسناده ضعيف جدًّا من أجل يزيد هذا فهو متروك كما قال الذهبي وغيره. وأخرجه أيضًا: البيهقي في الشعب (٧/ ١٢٣/ ٩٧١٦) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٢٦-١٢٧/ ١٥٨) وابن الأعرابي في معجمه (٣/ ٥١٥-٥١٦/ ٥٩٢) وتمام في الفوائد (٢/ ٤٠/ ١٠٨٣) والخطيب في تاريخه (١٣/ ٢٢٦) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٤) كلهم من طريق محمد بن خالد المخزومي عن سفيان الثوري عن زبيد عن أبي وائل عن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله**» وقد تفرد بهذا المخزومي وهو مجروح وذكر الحافظ في اللسان بعد أن ساق هذا الحديث بإسناده عن أبي علي النيسابوري قوله: «هذا حديث منكر لا أصل له من حديث زبيد ولا من حديث الثوري». قلت: والصحيح أنه موقوف بهذا اللفظ عن ابن مسعود وقد علقه البخاري في الصحيح (١/ ٦٦) ووصله الطبراني في الكبير (٩/ ١٠٤/ ٨٥٤٤) بسند صحيح كما في الفتح والبيهقي في الشعب (٧/ ١٢٣/ ٩٧١٧) وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٥٧) وقال: «رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح».

(٣) تفسير المراغي (٢١/ ٩٧-٩٨).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الغرور: كل ما يغر ويخدع. يقال: أَغَرَّهُ يَغُرُّهُ: إذا خدعه وأطمعه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أيها المشركون من قريش اتقوا اللَّه وخافوا أن يحل بكم سخطه في يوم لا يغني والد عن ولده ولا مولود هو مغن عن والده شيئا؛ لأن الأمر يصير هنالك بيد من لا يغالب، ولا تنفع عنده الشفاعة والوسائل، إلا وسيلة من صالح الأعمال التي أسلفها في الدنيا، وقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يقول: اعلموا أن مجيء هذا اليوم حق، وذلك أن اللَّه قد وعد عباده ولا خلف لوعده ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ يقول: فلا تخدعنكم زينة الحياة الدنيا ولذاتها، فتميلوا إليها، وتدعوا الاستعداد لما فيه خلاصكم من عقاب اللَّه ذلك اليوم وقوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يقول: ولا يخدعنكم باللَّه خادع والغرور بفتح الغين: هو ما غر الإنسان من شيء، كائنا ما كان شيطانًا كان أو إنسانًا أو دنيا»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى منذرا للناس يوم المعاد، وآمرا لهم بتقواه والخوف منه، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي: لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه، وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه، ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يعني: الشيطان، قاله ابن عباس

(١) جامع البيان (٢١/ ٨٦).

ومجاهد والضحاك وقتادة فإنه يغر ابن آدم ويعده ويمنيه، وليس من ذلك شيء بل كان ما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1]»[2].

قال القنوجي: «وبالجملة فقد ذكر سبحانه هنا فردين من القرابات، وهما الوالد والولد، وهما الغاية في الحنو والمحبة والشفقة على بعضهم البعض، فما عداهما من القرابات لا يجزي بالأولى، فكيف بالأجانب، ونبه أيضًا بالأعلى على الأدنى، وبالأدنى على الأعلى، فالوالد يجزي عن ولده في الدنيا لكمال شفقته عليه، والولد يجزي عن والده لما له عليه من حق التربية وغيرها، فإذا كان يوم القيامة فكل إنسان يقول: نفسي نفسي، ولا يهتم بقريب ولا بعيد. وقال ابن عباس: كل امرئ تهمه نفسه، اللهم اجعلنا ممن لا يرجو سواك، ولا يعول على غيرك»[3].

قال السعدي: «يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي امتثال أوامره، وترك زواجره، ويستلفتهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديد، الذي فيه كل أحد لا يهمه إلا نفسه فـ ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه.

فلفت النظر لهذا اليوم المهيل، مما يقوي العبد ويسهل عليه تقوى اللَّه، وهذا من رحمة اللَّه بالعباد، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزجرهم عنه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق، فلهذا قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الذي هو الشيطان، ما زال يخدع الإنسان ولا يغفل عنه في جميع الأوقات، فإن لله على عباده حقا، وقد وعدهم موعدا يجازيهم فيه بأعمالهم، وهل وفوا حقه أم قصروا فيه.

---

(١) النساء: الآية (١٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٥٤).

(٣) فتح البيان (١٠/ ٣٠٢-٣٠٣).

وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه، ورأس مال تجارته، التي يسعى إليها.

ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه، الدنيا الفتانة، والشيطان الموسوس المسول، فنهى تعالى عباده، أن تغرهم الدنيا، أو يغرهم بالله الغرور ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝﴾[(١)]»[(٢)].

قال الرازي: «ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يعني الدنيا لا ينبغي أن تغركم بنفسها ولا ينبغي أن تغتروا (بها) وإن حملكم على محبتها غار من نفس أمارة أو شيطان فكان الناس على أقسام، منهم من تدعوه الدنيا إلى نفسها فيميل إليها، ومنهم من يوسوس في صدره الشيطان، ويزين في عينه الدنيا ويؤمله ويقول إنك تحصل بها الآخرة أو تلتذ بها ثم تتوب فتجتمع لك الدنيا والآخرة، فنهاهم عن الأمرين وقال كونوا قسما ثالثا، وهم الذين لا يلتفتون إلى الدنيا ولا إلى من يحسن الدنيا في الأعين»[(٣)].

قال المراغي: «بعد أن ذكر دلائل التوحيد على ضروب مختلفة، وأشكال منوعة، أمر بتقوى الله على سبيل الموعظة والتذكير بيوم عظيم، يوم يحكم الله بين عباده، يوم لا تنفع فيه قرابة، ولا تجدي فيه صلة رحم، فلو أراد والد أن يفدي ابنه بنفسه لما قبل منه ذلك، وهكذا الابن مع أبيه، فلا تلهينكم الدنيا عن الدار الآخرة، ولا يغرنكم الشيطان فيزين لكم بوسواسه المعاصي والآثام»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التنبيه على أن الكل مفتقر إلى الله

* عن أبي هريرة ﵁ قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﷿: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[(٥)] قال: «**يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا. يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا. يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا. يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من**

---

(١) النساء: الآية (١٢٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٧٢-١٧٣).
(٣) التفسير الكبير (٢٥/ ١٦٥).
(٤) تفسير المراغي (٢١/ ٩٨-٩٩).
(٥) الشعراء: الآية (٢١٤).

اللَّه شيئًا . ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من اللَّه شيئًا»[١] .

★ فوائد الحديث:

انظر فوائد هذا الحديث في سورة البقرة الآية ١٢٣ وسورة الشعراء الآية (٢١٤).

* حديث : **«من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث لم تمسه النار إلا تحلة القسم»**[٢] .

★ فوائد الحديث:

انظر فوائد هذا الحديث في سورة البقرة الآيات (١٥٥-١٥٧).

* حديث : **«من ابتلي بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كن له حجابًا من النار»**[٣] .

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي : «المعني بهذه الآية أنه لا يحمل والد ذنب ولده ولا مولود ذنب والده ولا يؤاخذ أحدهما عن الآخر والمعني بالأخبار أن ثواب الصبر على الموت والإحسان إلى البنات يحجب العبد عن النار ويكون الولد سابقا له إلى الجنة»[٤] .

* * *

---

(١) أخرجه : أحمد (٢/ ٣٦٠) والبخاري (٥/ ٤٨٠/ ٢٧٥٣) ومسلم (١/ ١٩٢/ ٢٠٤) والترمذي (٥/ ٣١٦-٣١٧/ ٣١٨٥) والنسائي (٦/ ٥٥٨-٥٦٠/ ٣٦٤٦-٣٦٤٩).

(٢) أخرجه : أحمد (٢/ ٢٣٩-٢٤٠) والبخاري (٣/ ١٥٣/ ١٢٥١) ومسلم (٤/ ٢٠٢٨/ ٢٦٣٢) والنسائي في الكبرى (٣/ ٣٩٤/ ١١٣٢٠) وابن ماجه (١/ ٥١٢/ ١٦٠٣).

(٣) أخرجه : أحمد (٦/ ٣٣) والبخاري (١٠/ ٥٢٢/ ٥٩٩٥) ومسلم (٣/ ٢٠٢٧/ ٢٦٢٩) والترمذي (٤/ ٢٨١/ ١٩١٣).

(٤) جامع أحكام القرآن (١٤/ ٨١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ هو آتيكم علم إتيانه إياكم عند ربكم، لا يعلم أحد متى هو جائيكم، لا يأتيكم إلا بغتة، فاتقوه أن يفجأكم بغتة وأنتم على ضلالتكم لم تنيبوا منها، فتصيروا من عذاب اللّه وعقابه إلى ما لا قبل لكم به، وابتدأ -تعالى ذكره- الخبر عن علمه بمجيء الساعة، والمعنى: ما ذكرت لدلالة الكلام على المراد منه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي تقوم فيها القيامة لا يعلم ذلك أحد غيره ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ من السماء، لا يقدر على ذلك أحد غيره ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أرحام الإناث ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ يقول: وما تعلم نفس حي ماذا تعمل في غد ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ يقول: وما تعلم نفس حي بأي أرض تكون منيتها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ يقول: إن الذي يعلم ذلك كله، هو اللّه دون كل أحد سواه، إنه ذو علم بكل شيء، لا يخفى عليه شيء، خبير بما هو كائن وما قد كان»[١].

قال ابن كثير: «هذه مفاتيح الغيب التي استأثر اللّه تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[٢] وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا اللّه، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء اللّه من خلقه، وكذلك لا يعلم ما

---

(١) جامع البيان (٢١/ ٨٧).

(٢) الأعراف: الآية (١٨٧).

في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى، أو شقيا أو سعيدا، علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء اللَّه من خلقه، وكذا لا تدري نفس ماذا تكسب غدا في دنياها وأخراها ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد اللَّه كان، لا علم لأحد بذلك، وهذه شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾[1] الآية وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا الله

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا اللَّه، ولا يعلم ما في غد إلا اللَّه، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا اللَّه، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا اللَّه، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله**»[3].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جلس رسول اللَّه ﷺ مجلسًا له، فأتاه جبريل، فجلس بين يدي رسول اللَّه ﷺ واضعًا كفّيه على ركبتي النبي ﷺ، فقال: يا رسول اللَّه، حدثني ما الإسلام؟ قال رسول اللَّه ﷺ: «**الإسلام أن تسلم وجهك لله عز وجل، وتشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله**». قال: فإذا فعلت ذلك فقد أسلمتُ؟ قال: «**إذا فعلت ذلك فقد أسلمتَ**». قال: يا رسول اللَّه، فحدثني ما الإيمان؟ قال: «**الإيمان أن تؤمن باللَّه، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، وتؤمن بالموت، وبالحياة بعد الموت، وتؤمن بالجنة والنار، والحساب والميزان، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره**»، قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنتُ؟ قال: «**إذا فعلت ذلك فقد آمنتَ**». قال: يا رسول اللَّه، حدثني ما الإحسان؟ قال رسول اللَّه ﷺ: «**الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه، فإنك إن لا تراه فإنه يراك**»،

---

(١) الأنعام: الآية (٥٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٥٤-٣٥٥).

(٣) أحمد (٢/ ٢٤و٥٢و٥٨و١٢٢) والبخاري (٢/ ٦٦٦-٢٢٧/ ١٠٣٩) و(٨/ ٥١٣/ ٤٧٧٨) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١١/ ٧٧٢٨).

قال: يا رسول اللَّه، فحدثني متى الساعة؟ قال رسول اللَّه ﷺ: «**سبحان اللَّه في خمس من الغيب لا يعلمهن إلا هو**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ ولكن إن شئتَ حدثتُك بمعالم لها دون ذلك»؟ قال: أجل يا رسول اللَّه، فحدثني. قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا رأيت الأمة ولدت ربتها -أو ربها- ورأيت أصحاب الشاء تطاولوا بالبنيان. ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراطها**». قال: يا رسول اللَّه، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة؟ قال: «**العرب**»[1].

* عن بريدة ﷺ: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**خمس لا يعلمهن إلا الله: إن اللَّه عنده علم الساعة..**»[2].

* عن أبي هريرة ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول اللَّه متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت المرأة ربتها فذاك من أشراطها، وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها، في خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾.. إلى آخر الآية»[3].

* **عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: «أوتي نبيكم مفاتيح كل شيء غير خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية»**[4].

* عن عائشة ﷺ أن النبي ﷺ مر بنساء من الأنصار في عرس لهن وهن يغنين:

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣١٨و٣١٩)، وحسن الحافظ إسناده في الفتح (١/ ١٥٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٥٣) والبزار كما في كشف الأستار (٣/ ٦٥/ ٢٢٤٩) وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٨٩-٩٠) وقال: «رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح». وللحديث شواهد في الصحيح وغيره.

(٣) أخرجه: البخاري (١/ ١٥٣/ ٥٠) ومسلم (١/ ٣٩/ ٩) واللفظ له، وأبو داود (٥/ ٧٤/ ٤٦٩٨) مختصرا، والنسائي (٨/ ٤٧٥-٤٧٦/ ٥٠٠٦) وابن ماجه (١/ ٢٥/ ٦٤).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٦و٤٤٥) وأبو يعلى (١/ ٨٦/ ٥١٥٣)، قال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٦٣): «رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح». قال ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣٥٦): «وهذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخرجوه» اهـ. وله شواهد من حديث ابن عمر وأبي هريرة وبريدة ﷺ أجمعين.

واهـدي لـهـا كـبـشـا تـنـحـنـح فـي الـمـربـد
وزوجـك فـي الـنـادي ويـعـلـم مـا فـي غـد

فقال النبي ﷺ: «**لا يعلم ما في غد إلا الله ﷻ**»(١).

* عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما جعل الله منية عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة**»(٢).

* عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة**»(٣).

* عن أبي عزة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة -أو قال: بها حاجة-**»(٤).

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «تقدم بيان جهة الحصر في قوله: «**لا يعلمهن إلا الله**»، ويراد هنا أن ذلك يمكن أن يستفاد من الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(٥)، فالمراد بالغيب المنفي فيها هو المذكور في هذه الآية التي في لقمان، وأما قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾(٦) الآية، فيمكن أن يفسر بما في حديث الطيالسي، وأما ما

---

(١) الطبراني في الصغير (٣٣٥) والبيهقي (٧/ ٢٨٩) والبزار في الكشف (٣/ ٥-٦/ ٢١٠٨) والحاكم (٢/ ١٨٤-١٨٥) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ١٢٩) وقال: «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح».

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ١٧٨/ ٤٦١). قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٦): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح». وله شاهد من حديث أبي عزة الهذلي ومطر بن عكامس وغيرهما رضي الله عنهم أجمعين.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤٢٤/ ٤٢٦٣)، قال البوصيري في الزوائد: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات»، والحاكم (١/ ٣٦٧) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) أحمد (٣/ ٤٢٩)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٨٢)، والترمذي (٤/ ٣٩٤/ ٢١٤٧) وقال: «هذا حديث صحيح، وأبو عزة له صحبة واسمه يسار بن عبد».
وصححه ابن حبان (الإحسان ١٤/ ١٩/ ٦١٥١)، والحاكم (١/ ٤٢) وقال: «هذا حديث صحيح ورواته عن آخرهم ثقات» ووافقه الذهبي.

(٥) النمل: الآية (٦٥).

(٦) الجن: الآيتان (٢٦و٢٧).

ثبت بنص القرآن أن عيسى عليه السلام قال: إنه يخبرهم بما يأكلون وما يدّخرون، وأن يوسف قال: إنه ينبئهم بتأويل الطعام قبل أن يأتي، إلى غير ذلك مما ظهر من المعجزات والكرامات فكل ذلك يمكن أن يستفاد من الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فإنه يقتضي اطلاع الرسول على بعض الغيب»[١].

قال العيني: «وههنا أسئلة:

الأول: أن الغيوب التي لا يعلمها إلا اللَّه كثيرة، ولا يعلم مبلغها إلا اللَّه تعالى، وقال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[٢]. فما وجه التخصيص بالخمس؟ وأجيب بأوجه: الأول: أن التخصيص بالعدد لا يدل على نفي الزائد. والثاني: أن ذكر هذا العدد في مقابلة ما كان القوم يعتقدون أنهم يعرفون من الغيب هذه الخمس. والثالث: لأنهم كانوا يسألونه عن هذه الخمس. والرابع: أن أمهات الأمور هذه؛ لأنها إما أن تتعلق بالآخرة وهو علم الساعة، وإما بالدنيا، وذلك إما متعلق بالجماد أو بالحيوان. والثاني إما بحسب مبدأ وجوده أو بحسب معاده أو بحسب معاشه.

السؤال الثاني: من أين يعلم منه علم الساعة، وقد ذكر اللَّه الخمسة حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾. وأجيب: بأن الأول من هذه إشارة إليه إذ يحتمل وقوع أشراط الساعة في الغد.

السؤال الثالث: أنه قال في الموضعين: (نفس)، وفي ثلاثة مواضع: (أحد). وأجيب: بأن النفس هي الكاسبة وهي المائتة، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٤]. فلو قيل بدلها لفظ: (أحد) فيها لاحتمل أن يفهم منه لا يعلم أحد ماذا تكسب نفسه أو بأي أرض تموت نفسه. فتفوت المبالغة المقصودة، وهي: أن النفس لا تعرف حال نفسها لا حالًا ومآلًا وإذ لم يكن لها طريق إلى معرفتها فكان إلى عدم معرفة ما عداها أولى.

السؤال الرابع: ما الفرق بين العلم والدراية؟ وأجيب: بأن الدراية أخص لأنها علم باحتيال؛ أي: أنها لا تعرف وإن أعملت حيلها.

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦٦٠).
(٢) المدثر: الآية (٣١).
(٣) المدثر: الآية (٣٨).
(٤) الزمر: الآية (٤٢).

السؤال الخامس: لم عدل عن لفظ: القرآن، وهو ﴿تَدْرِي﴾، إلى لفظ: ﴿وَيَعْلَمُ﴾ في ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ﴾؟ وأجيب: لإرادة زيادة المبالغة، إذ نفي العام مستلزم لنفي الخاص بدون العكس، فكأنه قال: لا تعلم أصلًا سواءً احتالت أم لا. وقال ابن بطال: وهذا يبطل خرص المنجمين في تعاطيهم علم الغيب، فمن ادعى علم ما أخبر اللَّه ورسوله، وأن اللَّه منفرد بعلمه فقد كذب اللَّه ورسوله، وذلك كفر من قائله، وقال الزجاج: من ادعى أنه يعلم شيئًا من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن العظيم»[1].

وقد تقدم شرح الحديثين الأول والثاني في سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ الآية (٥٩).

يستفاد من حديث ابن مسعود وأبي عزة ﷺ كما قال ابن كثير: «أي ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض أفي بحر أم بر أو سهل أو جبل وقد جاء في الحديث: «**إذا أراد اللَّه قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة**»»[2].

قال الشيخ محمد تقي الدين الهلالي: «أجمع المسلمون على ما ثبت في كتاب اللَّه وسنة رسوله، أن مفاتح الغيب الخمسة المفصلة في آخر سورة لقمان بنص النبي ﷺ، لا يعلمها إلا اللَّه، ومن ادعى أن أحدًا من مخلوقات اللَّه يعلمها فهو كافر، نقله القسطلاني عن الزجاجي في شرح الحديث المذكور أعلاه، وأكثر الذين يدعون الإسلام في هذا الزمان يعتقدون أن غير اللَّه يعلم هذه الخمسة. ففي كتاب «الإبريز» لمؤلفه أحمد بن المبارك اللمطي المغربي ما معناه: أنه قال لشيخه عبد العزيز: إن علماء الظاهر يقولون: إن هذه الخمسة لا يعلمها إلا اللَّه، فقال له: ماذا تقولون؟ لو كنت ميتًا، لعلمت هذه الخمسة، فكيف وأنا حيّ، وهذا الكتاب مقدس عند أكثر علماء الأزهر، وعلماء المغرب ومن ذلك تعلم أن علم الكتاب والسنة قد مات وصار أهله غرباء»[3].

* * *

(١) عمدة القاري (٥/ ٢٩٤-٢٩٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٥٨).

(٣) سبيل الرشاد (١/ ١٧١).



سورة السجدة

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل سورة السجدة

* عن أبي هريرة ﷺ قال: «كان رسول اللَّه ﷺ يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر: ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾[(1)]»[(2)].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «وكان يقرأ في فجره بسورتي ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾. ويظن كثير ممن لا علم عنده أن المراد تخصيص هذه الصلاة بسجدة زائدة، ويسمونها (سجدة الجمعة)، وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة، استحب قراءة سورة أخرى فيها سجدة، ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة في فجر الجمعة، دفعًا لتوهم الجاهلين، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إنما كان النبي ﷺ يقرأ هاتين السورتين في فجر الجمعة؛ لأنهما تضمنتا ما كان ويكون في يومها، فإنهما اشتملتا على خلق آدم، وعلى ذكر المعاد، وحشر العباد، وذلك يكون يوم الجمعة، وكان في قراءتهما في هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون، والسجدة جاءت تبعًا ليست مقصودة حتى يقصد المصلي قراءتها حيث اتفقت. فهذه خاصة من خواصّ يوم الجمعة»[(3)].

* عن جابر بن عبد اللَّه ﷺ قال: «كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ: ﴿الٓمٓ ۝

---

(1) الإنسان: الآية (1).

(2) أخرجه: أحمد (2/ 430) والبخاري (2/ 479/ 891) ومسلم (2/ 599/ 880) والنسائي (2/ 497/ 954) وابن ماجه (1/ 269/ 823) وفي الباب عن ابن عمر ﷺ وغيره.

(3) زاد المعاد (1/ 375).

تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال المباركفوري: «قال الطيبي: «حتى» غاية «**لا ينام**» ويحتمل أن يكون المعنى: إذا دخل وقت النوم لا ينام حتى يقرأهما وأن يكون لا ينام مطلقًا حتى يقرأهما، والمعنى: لم يكن من عادته النوم قبل القراءة فتقع القراءة قبل دخول وقت النوم أي وقت كان، ولو قيل: كان النبي ﷺ يقرؤهما بالليل لم يفد هذه الفائدة، انتهى. قال القاري: والفائدة هي إفادة القبلية، ولا يشك أن الاحتمال الثاني أظهر لعدم احتياجه إلى تقدير يفضي إلى تضييق»[٢].

✽ عن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه تعالى عنه قال: «كنا نحزر قيام رسول اللَّه ﷺ في الظهر والعصر، فحزرنا قيامه في الركعتين الأوليين من الظهر قدر قراءة ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ السجدة»[٣].

★ **غريب الحديث:**

فحزرنا قيامه: قال السندي: «قوله: نحزر بتقديم المعجمة على المهملة من باب نصر أو ضرب أي: نقدر ونخمن، ويمكن أن يكون بتقديم المهملة على المعجمة أي: نحفظ والأول أشهر رواية وأقرب معنى ولا يخفى ما في الحديث من الدلالة على أنه كان يزيد في الآخريين على الفاتحة أحيانا واللَّه تعالى أعلم»[٤].

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «أولها التنويه بالقرآن أنه منزل من عند اللَّه وتوبيخ المشركين على ادعائهم أنه مفترى بأنهم لم يسبق لهم التشرف بنزول كتاب. والاستدلال على

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٤٠) والدارمي (٢/ ٤٥٥) والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٩) والترمذي (٥/ ١٥٢/ ٢٨٩٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧٨/ ١٠٥٤٢-١٠٥٤٥) وصححه الحاكم (٢/ ٤١٢) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢) تحفة الأحوذي (٩/ ٢٤٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢) ومسلم (١/ ٣٣٤/ ٤٥٢) وأبو داود (١/ ٥٠٥-٥٠٦/ ٨٠٤) والنسائي (١/ ٢٥٦/ ٤٧٤).

(٤) حاشية السندي (٣/ ٢).

إبطال إلهية أصنامهم بإثبات انفراد اللَّه بأنه خالق السماوات والأرض ومدبر أمورهما . وذكر البعث والاستدلال على كيفية بدء خلق الإنسان ونسله وتنظيره بإحياء الأرض وأدمج في ذلك أن إحياء الأرض نعمة عليهم كفروا بمسديها . والإنحاء على الذين أنكروه ووعيدهم . والثناء على المصدقين بآيات اللَّه ووعدهم ومقابلة إيمانهم بكفر المشركين ثم إثبات رسالة رسول عظيم قبل محمد ﷺ هدى به أمة عظيمة . والتذمير بما حل بالمكذبين السابقين ليكون ذلك عظة للحاضرين وتهديدهم بالنصر الحاصل للمؤمنين . وختم ذلك بانتظار النصر . وأمر الرسول ﷺ بالإعراض عنه تحقيرا لهم ووعده بانتظار نصره عليهم»[1] .

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٠٤).

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾

★ **غريب الآية:**

افتراه: اختلقه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم تنزيل من رب العالمين، الذي رباهم بنعمته. ومن أعظم ما رباهم به، هذا الكتاب، الذي فيه كل ما يصلح أحوالهم، ويتمم أخلاقهم، وأنه لا ريب فيه، ولا شك، ولا امتراء، ومع ذلك قال المكذبون للرسول الظالمون في ذلك: افتراه محمد، واختلقه من عند نفسه، وهذا من أكبر الجراءة على إنكار كلام الله، ورمي محمد ﷺ، بأعظم الكذب، وقدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق.

وكل واحد من هذه من الأمور العظائم، قال الله -رادا على من قال: افتراه:- ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أنزله رحمة للعباد ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: في حالة ضرورة وفاقة لإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، لعدم النذير، بل هم في جهلهم يعمهون، وفي ظلمة ضلالهم يترددون، فأنزلنا الكتاب عليك ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ من ضلالهم، فيعرفون الحق ويؤثرونه.

وهذه الأشياء التي ذكرها الله كلها، مناقضة لتكذيبهم له: وإنها تقتضي منهم الإيمان والتصديق التام به، وهو كونه ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وأنه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ والحق مقبول على كل حال، وأنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بوجه من الوجوه، فليس فيه، ما يوجب الريبة، لا بخبر غير مطابق للواقع، ولا بخفاء واشتباه معانيه، وأنهم في ضرورة

وحاجة إلى الرسالة، وأن فيه الهداية لكل خير وإحسان»[١].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يقول -تعالى ذكره- يقول المشركون بالله: اختلق هذا الكتاب محمد من قبل نفسه، وتكذبه، و(أم) هذه تقرير، وقد بينا في غير موضع من كتابنا، أن العرب إذا اعترضت بالاستفهام في أضعاف كلام قد تقدم بعضه أنه يستفهم بأم، وقد زعم بعضهم أن معنى ذلك: ويقولون وقال: أم بمعنى الواو، بمعنى بل في مثل هذا الموضع، ثم أكذبهم -تعالى ذكره- فقال: ما هو كما تزعمون وتقولون من أن محمدا افتراه بل هو الحق والصدق من عند ربك يا محمد أنزله إليك لتنذر قوما بأس الله وسطوته أن يحل بهم على كفرهم به ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يقول: لم يأت هؤلاء القوم الذين أرسلك ربك يا محمد إليهم وهم قومه من قريش نذير ينذرهم بأس الله على كفرهم قبلك وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يقول: ليتبينوا سبيل الحق فيعرفوه ويؤمنوا به»[٢].

قال ابن القيم: «فجعل سبحانه من أعظم أدلة صدقه نفي الريب عنه في مثل هذه المطالب التي هي أصل مطالب بني آدم وأجل معارفهم وعلومهم على الإطلاق فلو كان فيه ما يخالف صريح العقل لكان فيه أعظم الريب ولما اطمأنت به القلوب ولا ثلجت به الصدور»[٣].

قال ابن عاشور: «وقد جاءت هذه الآية على أسلوب بديع الإحكام إذ ثبت أن الكتاب تنزيل من رب جميع الكائنات وأنه يحق أن لا يرتاب فيه مرتاب ثم انتقل إلى الإنكار والتعجيب من الذين جزموا بأن الجائي به مفتر على الله، ثم رد عليهم بإثبات أنه الحق الكامل من رب الذي نسبوا إليه افتراءه، فلو كان افتراه لقدر الله على إظهار أمره كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[٤].

ثم جاء بما هو أنكى للمكذبين، وأبلغ في تسفيه أحلامهم، وأوغل في النداء على إهمالهم النظر في دقائق المعاني، فبين ما فيه تذكرة لهم ببعض المصالح التي

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٧٦-١٧٧).
(٢) جامع البيان (٢١/ ٩٠).
(٣) الصواعق المرسلة (٤/ ١٥١٧).
(٤) الحاقة: الآيات (٤٤-٤٧).

جاء لأجلها هذا الكتاب بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فقد جمعوا من الجهالة ما هو ضغث على إبالة، فإن هذا الكتاب على أن حقيقته مقتضية المنافسة في الانتفاع به ولو لم يلفتوا إلى تقلده، وعلى أنهم دعوا إلى الأخذ به، وذلك مما يتوجب التأمل في حقيقته؛ على ذلك كله فهم كانوا أحوج إلى اتباعه من اليهود والنصارى والمجوس؛ لأن هؤلاء لم تسبق لهم رسالة مرسل فكانوا أبعد عن طرق الهدى بما تعاقب عليهم من القرون دون دعوة رسول، فكان ذلك كافيا في حرصهم على التمسك به، وشعورهم بمزيد الحاجة إليه، رجاء منهم أن يهتدوا، قال تعالى ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾[١] فمثل هؤلاء المكذبين كمثل قول المعري:

هل تزجرنكم رسالة مرسل ... أم ليس ينفع في أولاك ألوك»[٢].

قال تقي الدين الهلالي: «القرآن حق، أنزله اللَّه على قلب محمد ﷺ لينذر به العرب والعجم والإنس والجن. وكل من قبله واتبعه صار من المهتدين إلى طرق السعادة في الدنيا والآخرة، وكل من رده كله أو رد بعضه فقد خاب وخسر في الدارين، وهذه سبعمائة مليون من المدعين للإسلام خائبون خاسرون، وهذا أكبر شاهد، ثم قال المحقق القنوجي: واللذين يجب الأخذ بهما جميعًا ولا يؤخذ بغيرهما، فإن أصل الأصول الإسلامية، هو هذان الأصلان لا ثالث لهما ولا رابع، وإنما يستأنس بالإجماع وبالقياس للمتابعة والشهادة لا أنهما أصلان مستقلان يبنى عليهما شيء من أحكام الإسلام، فإنه لم يقل بذلك أحد ممن يعتد به من علماء الإسلام، واللَّه أعلم»[٣].

* * *

(١) الأنعام: الآيات (١٥٥-١٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٠٨).

(٣) سبيل الرشاد (٣/ ٢٢١-٢٢٢).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يعرج: يصعد. يقال: عَرَجَ يَعْرُجُ عُرُوجًا: صَعِدَ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه خالق للأشياء فخلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، وقد تقدم الكلام على ذلك ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: بل هو المالك لأزمة الأمور، الخالق لكل شيء المدبر لكل شيء، القادر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني أيها العابدون غيره، المتوكلون على من عداه تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد أو وزير أو عديل، لا إله إلا هو ولا رب سواه»[1].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ يقول: ما لكم أيها الناس دونه ولي يلي أمركم وينصركم منه إن أراد بكم ضرا، ولا شفيع يشفع لكم عنده إن هو عاقبكم على معصيتكم إياه، يقول: فإياه فاتخذوا وليا وبه وبطاعته فاستعينوا على أموركم فإنه يمنعكم إذا أراد منعكم ممن أرادكم بسوء، ولا يقدر أحد على دفعه عما أراد بكم هو؛ لأنه لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب ﴿أَفَلَا

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٦١).

﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: أفلا تعتبرون وتتفكرون أيها الناس فتعلموا أنه ليس لكم دونه ولي ولا شفيع فتفردوا له الألوهة، وتخلصوا له العبادة، وتخلعوا ما دونه من الأنداد والآلهة»[١].

قال ابن كثير: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرها، وصغيرها وكبيرها، هو العزيز الذي قد عز كل شيء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، الرحيم بعباده المؤمنين، فهو عزيز في رحمته رحيم في عزته»[٢].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي يفعل ما وصفت لكم في هذه الآيات هو عالم الغيب يعني: عالم ما يغيب عن أبصاركم أيها الناس، فلا تبصرونه مما تكنه الصدور، وتخفيه النفوس، وما لم يكن بعد مما هو كائن، والشهادة: يعني ما شاهدته الأبصار فأبصرته وعاينته، وما هو موجود ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يقول: الشديد في انتقامه ممن كفر به، وأشرك معه غيره، وكذب رسله ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن تاب من ضلالته، ورجع إلى الإيمان به وبرسوله، والعمل بطاعته، أن يعذبه بعد التوبة»[٣].

قال ابن القيم: «وتأمل ما في هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلين والمشركين، فقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين بقدم العالم، وإنه لم يزل، وإن اللَّه سبحانه لم يخلقه بقدرته ومشيئته، ومن أثبت منهم وجود الرب جعله لازما لذاته أزلا وأبدا غير مخلوق، كما هو قول ابن سينا والنصير الطوسي وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين لما اتفقت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام والكتب، وشهدت به العقول والفطر.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يتضمن إبطال قول المعطلة والجهمية الذين يقولون ليس على العرش شيء سوى العدم، وإن اللَّه ليس مستويا على عرشه، ولا ترفع إليه الأيدي، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا رفع المسيح -عليه الصلاة والسلام- إليه، ولا عرج برسوله محمد ﷺ، ولا تعرج الملائكة والروح إليه،

---

(١) جامع البيان (٢١/ ٩٠-٩١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٦٢).

(٣) جامع البيان (٢١/ ٩٣).

ولا ينزل من عنده جبريل -عليه الصلاة والسلام- ولا غيره، ولا ينزل هو كل ليلة إلى السماء الدنيا، ولا يخافه عباده من الملائكة وغيرهم من فوقهم، ولا يراه المؤمنون في الدار الآخرة عيانا بأبصارهم من فوقهم، ولا تجوز الإشارة إليه بالأصابع إلى فوق، كما أشار إليه النبي في أعظم مجامعه في حجة الوداع، وجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكبها إلى الناس ويقول: «**اللهم اشهد**»[(١)].

قال شيخ الإسلام: وهذا كتاب اللَّه من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوء مما هو نص أو ظاهر في أن اللَّه سبحانه وتعالى فوق كل شيء، وإنه فوق العرش فوق السماوات مستو على عرشه»[(٢)].

قال القنوجي: «وهذا الاستواء في سبع مواضع من القرآن الكريم، والأصل الراجح أن نعتقد ما ورد به القرآن ولا نؤوله ولا نصرفه عن وجهه، وهو نص وظاهر في أن اللَّه تعالى فوق العرش، بائن من خلقه بالمعنى الذي يليق بجنابه الأقدس الأعلى، وتأويله إخراج النص أو الظاهر عن معناه، وهذا لا يجوز قطعا إلا عند وجود ما يساويه أو يتقدم عليه ويعارضه ودونه خرط القتاد.

وقد اختلف الناس في هذا على أربعة عشر قولا: أولاها بالصواب مذهب سلف الأمة وأئمتها، أنه استوى عليه بلا كيف، مع تنزيهه عما لا يجوز عليه، والآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة في هذا الباب كثيرة جدا، وهي تغني عن غيرها. وردت الجهمية هذه الصفة الثابتة له سبحانه، وتبعها المعتزلة، ورد عليهم الحافظ ابن القيم في إعلام الموقعين بثمانية عشر وجها، يطول ذكرها وقد جمع أهل العلم فيها سيما أهل القرآن وأصحاب الحديث مباحث، بل رسائل، بل كتبا، طولوها بذكر الأدلة النقلية بل العقلية، والمسألة أوضح من أن تلتبس على عارف، وأبين من أن يحتاج فيها إلى التطويل، ولكن لما وقعت فيها تلك القلاقل والزلازل بين بعض الطوائف الإسلامية الحق الصراح فيها، وأطال سيما الحنابلة وأهل

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٢٠-٣٢١) ومسلم (٢/ ٨٨٦/ ١٢١٨) وأبو داود (٢/ ٤٥٥/ ١٩٠٥) وابن ماجه (٢/ ١٠٢٢/ ٣٠٧٤) والنسائي مختصرا (٥/ ١٥٦-١٥٧/ ٢٧١١).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٨٦).

الحديث، فلهم في ذلك الفتن الكبرى، والملاحم العظمى، وما زالوا هكذا في عصر بعد عصر إلى يومنا هذا، والحق ما عرفناك من مذهب السلف الصالح، فالاستواء على العرش، وكونه تعالى فوق الخلق عاليا عليهم، قد نطق به القرآن الكريم في مواطن يكثر حصرها، ويطول نشرها، وكذلك صرح به رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم في غير حديث، بل هذا مما يجده كل فرد من أفراد الناس في نفسه، ويحسه في فطرته، وتجذبه إليه طبيعته، كما تراه في كل من استغاث باللَّه سبحانه، والتجأ إليه، ووجه دعاءه إلى جنابه الرفيع، وعزه المنيع، فإنه يشير عن ذلك بكفه، أو يرمي بطرفه، يستوي في ذلك عند عروض أسباب الأدعية، وحدوث بواعث الاستغاثة، ووجود مقتضيات الانزعاج، وظهور دواعي الالتجاء، عالم الناس وجاهلهم، وباديهم وحاضرهم، والماشي على طريقة السلف والمقتدي بأهل التأويل من الخلف.

فالسلامة والنجاة في إمرار ذلك على الظاهر والإذعان بأن الاستواء والاستقرار والكون في الفوق ثابتة على ما نطق به الكتاب والسنة من دون تكييف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل والمؤول غير مقتد بالسلف، ولا واقف في طريق النجاة ولا معصوم عن الخطأ، ولا سالك في جادة السلامة والاستقامة»[1].

قال تقي الدين الهلالي: «فائدة: قوله تقدم الكلام على ذلك، يعني في سورة الأعراف، وجميع الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، وأئمة الحديث يعتقدون أن اللَّه فوق عرشه الذي هو أعظم المخلوقات، وعرشه فوق سماواته ويحاربون عقيدة من يقول إن اللَّه في كل مكان، وسأتعرض لذلك بإقامة البراهين والبحث والتحقيق في قسم توحيد الأسماء والصفات في الجزء الثالث من هذا الكتاب إن شاء اللَّه تعالى. قوله: «فلا ولي لخلقه سواه» العقيدة الشائعة عند أكثر من ينتسب إلى الإسلام أنهم يقولون بوجود أولياء ينفعون ويضرون، وقد منحهم اللَّه التصرف في العالم، يفعلون ما يشاؤون، يحيون الأموات، ويميتون الأحياء، ويعطون كل من سألهم حاجته، وهذه عقيدة أهل الكفر والشرك، وقد نفى اللَّه الأولياء في مواضع لا تحصى من كتابه العزيز، فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ

---

(١) فتح البيان (١١/ ١٠-١٢).

إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾[١] وقال تعالى في سورة الشورى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾[٢] وقال تعالى في هذه السورة أيضًا منكرا على المشركين اتخاذ الأولياء: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾[٣] فالمسلم الحقيقي الموحد ليس له إلا ولي واحد، وهو اللّه سبحانه، قال تعالى في سورة الأعراف آمرا رسوله محمدا ﷺ: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ۝١٩٥ إِنَّ وَلِـِّۧيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[٤] وقال في سورة الأنعام: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٥]»[٦].

* * *

(١) الآية (٣). (٢) الآية (٦).

(٣) الآية (٩).

(٤) الأعراف: الآيتان (١٩٥و١٩٦).

(٥) الأنعام: الآية (١٤).

(٦) سبيل الرشاد (٢/ ١٢٦-١٢٧).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩﴾

★ **غريب الآية:**

مهين: حقير وضعيف.

نسله: النسل: الذرية.

سلالة: السلالة: الصفوة والخلاصة. أصلها من السَّلِّ: وهو نزع الشيء من الشيء. وسلال الرجل: ذريته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى إنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها. وقال مالك عن زيد بن أسلم ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ قال: أحسن خلق كل شيء كأنه جعله من المقدم والمؤخر. ثم لما ذكر تعالى خلق السماوات والأرض شرع في ذكر خلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ يعني خلق أبا البشر آدم من طين ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ يعني: آدم لما خلقه من تراب خلقًا سويًا مستقيمًا، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ يعني: العقول، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ أي: بهذه القوى التي رزقكموها الله ﷻ، فالسعيد من استعملها في طاعة ربه ﷻ»[1].

قال السعدي: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ أي: كل مخلوق خلقه الله، فإن الله أحسن خلقه، وخلقه خلقا يليق به، ويوافقه، فهذا عام.

ثم خص الآدمي لشرفه وفضله فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ وذلك بخلق

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٦٢).

آدم عليه السلام، أبي البشر. ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ أي: ذرية آدم ناشئة ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ وهو النطفة المستقذرة الضعيفة. ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ بلحمه، وأعضائه، وأعصابه، وعروقه، وأحسن خلقته، ووضع كل عضو منه بالمحل الذي لا يليق به غيره، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ بأن أرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، فيعود بإذن اللّه حيوانا، بعد أن كان جمادا.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: ما زال يعطيكم من المنافع شيئًا فشيئا، حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الذي خلقكم وصوركم»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن كل خلق اللّه عز وجل حسن

* عن الشريد بن سويد رضي الله عنه قال: أبصر النبي ﷺ رجلًا قد يجر إزاره، فأسرع إليه أو هرول فقال: «**ارفع إزارك، واتّق الله**». قال: يا رسول الله! إني أحنف: تصطك ركبتاي. فقال: «**ارفع إزارك؛ فإن كل خلق اللّه عز وجل حسن**». فما رُئي ذلك الرجل إلا وإزاره إلى نصف ساقيه[2].

★ غريب الحديث:

هرول: هو ضرب من العدو، وهو ما بين المشي والعدو.

أحنف: هو الذي يمشي على ظهر قدمه. وقيل: الحنف: انقلاب القدم حتى يصير بطنها ظهرها. وقيل: ميل في صدر القدم.

تصطكّ ركبتاي: هو أن تضرب إحدى الركبتين الأخرى عند العدو، فتؤثر فيها أثرًا.

★ فوائد الحديث:

علاقة الحديث بالآية تظهر عند قوله ﷺ: «**ارفع إزارك فإن كل خلق اللّه عز وجل حسن**»، وقول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾، وقد أراد هذا الرجل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٧٨-١٧٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٠) والحميدي (ح ٨١٠) والطبراني في الكبير (٧/ ٣١٥-٣١٦/ ٧٢٤٠-٧٢٤١) وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ١٢٤) وقال: «رواه أحمد والطبراني.. ورجال أحمد رجال الصحيح».

الأحنف أن يستر الحنف الذي في رجله واصطكاك ركبتيه، ولم يرخص له النبي ﷺ في ذلك، وأمره أن يرفع إزاره، ويتقي اللَّه في ذلك، فإن خلقه -وإن ظن ما ظن من عيب- حسن.

وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن إسبال الثوب إلى ما تحت الكعبين، وبين فيها النبي ﷺ الوعيد الذي يلحق صاحبه، ولا فرق بين من يفعل ذلك تكبّرًا وخُيلاء، وبين من لا يقصده. ولا زالت العرب في كلامها وفي أشعارها تمدح من يرفع إزاره إلى فوق الكعبين.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ضللنا: غِبْنَا في الأرض بالموت.

يتوفاكم: التوفي: أخذ الشيء على التمام. والمراد: قبض الروح. قال الراجز:

إن بني دارم ليسوا من أحد ... ولا توفتهم قريش في العدد

وُكِّلَ بكم: أي تولى أمركم. والتوكيل: تفويض الأمر للغير للقيام به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تمزقت أجسامنا، وتفرقت في أجزاء الأرض، وذهبت ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أإنا لنعود بعد تلك الحال؟! يستبعدون ذلك وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة، لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ﴾»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ يقول: يستوفي عددكم بقبض أرواحكم ملك الموت الذي وكل بقبض أرواحكم، ومنه قول الراجز:

إن بني الأدرم ليسوا من أحد ... ولا توفاهم قريش في العدد

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٦٢).

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: من بعد قبض ملك الموت أرواحكم إلى ربكم يوم القيامة تردون أحياء كهيئتهم قبل وفاتكم، فيجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته»[١].

قال الألوسي: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث للحساب والجزاء ومناسبة هذه الآية لما قبلها على ما ذكرنا في توجيه الإضراب ظاهرة؛ لأنهم لما جحدوا لقاء ملائكة ربهم عند الموت، وما يكون بعده ذكر لهم حديث توفي ملك الموت إياهم، إيماء إلى أنهم سيلاقونه، وحديث الرجوع إلى اللّٰه تعالى بالبعث للحساب والجزاء، وأما على ما قيل فوجه المناسبة أنهم لما أنكروا البعث والمعاد رد عليهم بما ذكر لتضمن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ البعث وزيادة، ذكر توفي ملك الموت إياهم، وكونه موكلا بهم لتوقف البعث على وفاتهم، ولتهديدهم وتخويفهم، وللإشارة إلى أن القادر على الإماتة قادر على الإحياء. وقيل: إن ذلك لرد ما يشعر به كلامهم من أن الموت بمقتضى الطبيعة، حيث أسندوه إلى أنفسهم في قولهم: أئذا ضللنا في الأرض. فليس عندهم بفعل اللّٰه تعالى ومباشرة ملائكته، ولا يخفى بعده»[٢].

قال السعدي: «أي: قال المكذبون بالبعث على وجه الاستبعاد: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بلينا وتمزقنا، وتفرقنا في المواضع التي لا تعلم.

﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ أي: لمبعوثون بعثا جديدا بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء، وذلك لقياسهم قدرة الخالق، على قدرهم.

وكلامهم هذا، ليس لطلب الحقيقة، وإنما هو ظلم، وعناد، وكفر بلقاء ربهم وجحد، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ فكلامهم علم مصدره وغايته، وإلا فلو كان قصدهم بيان الحق، لبين لهم من الأدلة القاطعة على ذلك، ما يجعله مشاهدا للبصيرة، بمنزلة الشمس للبصر.

ويكفيهم، أنهم معهم علم أنهم قد ابتدئوا من العدم، فالإعادة أسهل من الابتداء، وكذلك الأرض الميتة، ينزل اللّٰه عليها المطر، فتحيا بعد موتها، وينبت

---

(١) جامع البيان (٢١/ ٩٧).

(٢) روح المعاني (٢١/ ١٢٦).

به متفرق بذورها .

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي : جعله اللّه وكيلًا على قبض الأرواح، وله أعوان. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتم البعث، فانظروا ماذا يفعل اللّه بكم»[1].

تقدم الكلام عن مسألة ملك الموت وأعوانه من حيث التفصيل في سورة الأنعام الآية (٦١) وسورة إبراهيم الآية (٢٧).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٨٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ناكسوا: مطرقوا. يقال: نكس رأسه: إذا أطرقه ذلا وخجلا. وأصل النكس: القلب، وهو جعل أسفل الشيء أعلاه.

الجنة: الجن.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: لو ترى يا محمد هؤلاء القائلين: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ إذ هم ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حياء من ربهم للذي سلف منهم من معاصيه في الدنيا، يقولون: يا ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ ما كنا نكذب به من عقابك أهل معاصيك، ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق ما كانت رسلك تأمرنا به في الدنيا ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾: يقول: فارددنا إلى الدنيا نعمل فيها بطاعتك؛ وذلك العمل الصالح، ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ يقول: إنا قد أيقنا الآن ما كنا به في الدنيا جهالا من وحدانيتك، وأنه لا يصلح أن يعبد سواك، ولا ينبغي أن يكون رب سواك، وأنك تحيي وتميت، وتبعث من في القبور بعد الممات والفناء، وتفعل ما تشاء»[1].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، وقالهم حين عاينوا

---

(١) جامع البيان (٢١/ ٩٨).

البعث، وقاموا بين يدي اللَّه ﷻ حقيرين ذليلين، ناكسي رؤوسهم؛ أي: من الحياء والخجل، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: نحن الآن نسمع قولك، ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾[(١)]، وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[(٢)]، وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا﴾ أي: إلى دار الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق، ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفارا يكذبون آيات اللَّه، ويخالفون رسله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾[(٣)] وقال ههنا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[(٤)]، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: من الصنفين، فدارهم النار لا محيد لهم عنها، ولا محيص لهم منها نعوذ باللَّه وكلماته التامة من ذلك ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ أي: يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: سنعاملكم معاملة الناسي؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئًا، ولا يضل عنه شيء؛ بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾[(٥)] وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب كفركم وتكذيبكم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾[(٦)]»[(٧)].

قال السعدي: «لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة، ذكر حالهم في مقامهم

---

(١) مريم: الآية (٣٨).
(٢) الملك: الآية (١٠).
(٣) الأنعام: الآيات (٢٧-٢٩).
(٤) يونس: الآية (٩٩).
(٥) الجاثية: الآية (٣٤).
(٦) النبأ: الآيات (٢٤-٣٠).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٦٣-٣٦٤).

بين [يديه] فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الذين أصروا على الذنوب العظيمة، ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خاشعين خاضعين أذلاء، مقرين بجرمهم، سائلين الرجعة قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: بان لنا الأمر، ورأيناه عيانا، فصار عين يقين. ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: صار عندنا الآن يقين بما [كنا] نكذب به؛ أي: لرأيت أمرًا فظيعًا، وحالًا مزعجة، وأقواما خاسرين، وسؤلا غير مجاب؛ لأنه قد مضى وقت الإمهال.

وكل هذا بقضاء اللَّه وقدره، حيث خلى بينهم وبين الكفر والمعاصي، فلهذا قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ أي: لهدينا الناس كلهم، وجمعناهم على الهدى، فمشيئتنا صالحة لذلك، ولكن الحكمة، تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ أي: وجب، وثبت ثبوتا لا تغير فيه. ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فهذا الوعد لا بد منه، ولا محيد عنه، فلا بد من تقرير أسبابه من الكفر والمعاصي.

﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ أي: يقال للمجرمين، الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا، ليستدركوا ما فاتهم: قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم، بما نسيتم لقاء يومكم هذا. وهذا النسيان نسيان ترك؛ أي: بما أعرضتم عنه، وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه، ولا ملاقيه.

﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: تركناكم بالعذاب، جزاء من جنس عملكم، فكما نسيتم نسيتم.

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: العذاب غير المنقطع. فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية، كان فيه بعض التنفيس والتخفيف. وأما عذاب جهنم -أعاذنا اللَّه منه- فليس فيه روح راحة، ولا انقطاع لعذابهم فيها.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والفسوق والمعاصي»[١].

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٨١-١٨٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: إنما يصدق بها ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ أي: استمعوا لها، وأطاعوها قولا وفعلا ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(١)»(٢).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما يصدق بحججنا وآيات كتابنا إلا القوم الذين إذا ذكروا بها ووعظوا ﴿خَرُّوا۟﴾ لله ﴿سُجَّدًا﴾، لوجوههم تذللا له، واستكانة لعظمته، وإقرارا له بالعبودية ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يقول: وسبحوا الله في سجودهم بحمده، فيبرءونه مما يصفه أهل الكفر به، ويضيفون إليه من الصاحبة والأولاد والشركاء والأنداد ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يقول: يفعلون ذلك وهم لا يستكبرون عن السجود له والتسبيح، لا يستنكفون عن التذلل له والاستكانة»(٣).

قال السعدي: «لما ذكر تعالى الكافرين بآياته، وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين بها، ووصفهم، وما أعد لهم من الثواب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، [أي]: إيمانًا حقيقيًا، من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ فتليت عليهم آيات القرآن، وأتتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودعوا إلى التذكر، سمعوها فقبلوها، وانقادوا، و﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ أي: خاضعين لها، خضوع ذكر لله، وفرح بمعرفته. ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا بقلوبهم،

(١) غافر: الآية (٦٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٦٤).

(٣) جامع البيان (٢١/ ٩٩).

ولا بأبدانهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقوها بالقبول، وقابلوها بالانشراح والتسليم، وتواصوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم»[١].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٨٣).

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

★ غريب الآية:

تتجافى: ترتفع وتنبو عن مواضع الاضطجاع. يقال: جفا عنه جفاء: إذا نَبَا عنه. قال الشاعر:

وصاحبي ذات هباب دمشق وابن ملاط متجاف أرفق

المضاجع: جمع مضجع، وهو مكان الاضطجاع؛ أي: النوم. قال عبد اللَّه بن رواحة يصف النبي ﷺ:

يبيت يُجَافِي جَنْبَه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: تتنحى جنوب هؤلاء الذين يؤمنون بآيات اللَّه، الذين وصفت صفتهم، وترتفع من مضاجعهم التي يضطجعون لمنامهم، ولا ينامون ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ في عفوه عنهم، وتفضله عليهم برحمته ومغفرته ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل اللَّه، ويؤدون منه حقوق اللَّه التي أوجبها عليهم فيه، وتتجافى: تتفاعل من الجفاء، والجفاء: النبو كما قال الراجز:

وصاحبي ذات هباب دمشق وابن ملاط متجاف أرفق

يعني: أن كرمها سجية عن ابن ملاط. وإنما وصفهم -تعالى ذكره- بتجافي جنوبهم عن المضاجع لتركهم الاضطجاع للنوم شغلا بالصلاة»[1].

قال أيضًا: «إن اللَّه وصف هؤلاء القوم بأن جنوبهم تنبو عن مضاجعهم شغلا منهم بدعاء ربهم، وعبادته خوفا وطمعا؛ وذلك نبو جنوبهم عن المضاجع

(١) جامع البيان (٢١/ ٩٩-١٠٠).

ليلا ؛ لأن المعروف من وصف الواصف رجلا بأن جنبه نبا عن مضجعه إنما هو وصف منه له بأنه جفا عن النوم في وقت منام الناس المعروف، وذلك الليل دون النهار، وكذلك تصف العرب الرجل إذا وصفته بذلك، يدل على ذلك قول عبد اللَّه بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه في صفة نبي اللَّه ﷺ:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

فإذا كان ذلك كذلك، وكان اللَّه -تعالى ذكره- لم يخصص في وصفه هؤلاء القوم بالذي وصفهم به من جفاء جنوبهم عن مضاجعهم من أحوال الليل، وأوقاته حالا ووقتا دون حال ووقت كان واجبًا أن يكون ذلك على كل آناء الليل وأوقاته، وإذا كان كذلك كان من صلى ما بين المغرب والعشاء، أو انتظر العشاء الآخرة، أو قام الليل أو بعضه، أو ذكر اللَّه في ساعات الليل، أو صلى العتمة ممن دخل في ظاهر قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ لأن جنبه قد جفا عن مضجعه في الحال التي قام فيها للصلاة قائما صلى، أو ذكر اللَّه، أو قاعدًا بعد أن لا يكون مضطجعًا وهو على القيام أو القعود قادر غير أن الأمر وإن كان كذلك فإن توجيه الكلام إلى أنه معني به قيام الليل أعجب إلي ؛ لأن ذلك أظهر معانيه، والأغلب على ظاهر الكلام، وبه جاء الخبر عن رسول اللَّه ﷺ»[1].

قال السعدي: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: ترتفع جنوبهم، وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة إلى ما هو ألذ عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة اللَّه تعالى.

ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما. ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: جامعين بين الوصفين، خوفا أن ترد أعمالهم، وطمعا في قبولها، خوفا من عذاب اللَّه، وطمعا في ثوابه.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الرزق، قليلا كان أو كثيرا ﴿يُنفِقُونَ﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه، ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه النفقة الواجبة، كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه

---

(١) جامع البيان (٢١/ ١٠٢).

الخير، والنفقة والإحسان المالي، خير مطلقا، سواء وافق غنيا أو فقيرا، قريبا أو بعيدا، ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع، فهذا عملهم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل صلاة العشاء وقيام الليل

* عن أنس بن مالك ﷺ: «**أن هذه الآية ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾** نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة»[٢].

* عن أنس ﷺ في قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ قال: «**كانوا يتيقظون ما بين المغرب والعشاء يصلون**»[٣].

* عن معاذ بن جبل ﷺ قال: «**كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يومًا قريبًا** منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول اللَّه، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال: لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره اللَّه عليه، تعبد اللَّه ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل. قال: ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾، ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر كله، وعموده، وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول اللَّه. قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا نبي اللَّه. فأخذ بلسانه قال: كُفّ عليك هذا. فقلت: يا نبي اللَّه، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: **ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم -أو على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم**»[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٨٣-١٨٤).

(٢) الترمذي (٥/ ٣٢٣/ ٣١٩٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٣) أبو داود (٢/ ٧٩/ ١٣٢١-١٣٢٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٣١) والترمذي (٥/ ١٣-١٤/ ٢٦١٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٨/ ١١٣٩٤) وابن ماجه (٢/ ١٣١٤-١٣١٥/ ٣٩٧٣) وصححه الحاكم (٢/ ٤١٢-٤١٣) ووافقه الذهبي. وابن حبان (١/ ٤٤٧/ ٢١٤ الإحسان) مختصرا.

* عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«عجب ربنا ﷻ من رجلين: رجل ثار عن وطائه ولحافه، من بين أهله وحيّه إلى صلاته، فيقول ربنا: أيا ملائكتي، انظروا إلى عبدي، ثار من فراشه ووطائه، ومن بين حيّه وأهله إلى صلاته، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي، ورجل غزا في سبيل اللّه ﷻ، فانهزموا، فعلم ما عليه من الفرار، وما له في الرجوع، فرجع حتى أهريق دمه، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي، فيقول اللّه ﷻ لملائكته: انظروا إلى عبدي، رجع رغبة فيما عندي، ورهبة مما عندي، حتى أهريق دمه»**(١).

⋆ فوائد الأحاديث:

قال القرطبي: «وفي الصلاة التي تتجافى جنوبهم لأجلها أربعة أقوال:

أحدها: التنفل بالليل؛ قاله الجمهور من المفسرين وعليه أكثر الناس، وهو الذي فيه المدح، وهو قول مجاهد والأوزاعي ومالك بن أنس والحسن بن أبي الحسن وأبي العالية وغيرهم. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(٢)؛ لأنهم جوزوا على ما أخفوا بما خفي. واللّه أعلم. وسيأتي بيانه.

وفي قيام الليل أحاديث كثيرة؛ منها حديث معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال له: **«ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل -قال: ثم تلا:- ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ -حتى بلغ- ﴿يَعْمَلُونَ﴾»** أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده والقاضي إسماعيل بن إسحاق وأبو عيسى الترمذي، وقال فيه: حديث حسن صحيح.

الثاني: صلاة العشاء التي يقال لها العتمة؛ قاله الحسن وعطاء. وفي الترمذي عن أنس بن مالك: **«أن هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة»**، قال: هذا حديث حسن غريب.

الثالث: التنفل ما بين المغرب والعشاء؛ قاله قتادة وعكرمة. وروى أبو داود

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤١٦) وأبو داود (٣/ ٤٢-٤٣/ ٢٥٣٦) مختصرا، والحاكم (٢/ ١١٢) مختصرا وصححه، وأقره الذهبي، وابن حبان (الإحسان ٦/ ٢٩٧-٢٩٨/ ٢٥٥٧-٢٥٥٨) وصححه.

(٢) السجدة: الآية (١٧).

عن أنس بن مالك: «أن هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ قال: كانوا يتنفلون بين المغرب والعشاء».

الرابع: قال الضحاك: تجافي الجنب هو أن يصلي الرجل العشاء والصبح في جماعة. وقاله أبو الدرداء وعبادة.

قلت: وهذا قول حسن، وهو يجمع الأقوال بالمعنى. وذلك أن منتظر العشاء إلى أن يصليها في صلاة وذكر لله جل وعز؛ كما قال النبي ﷺ: «**لا يزال الرجل في صلاة ما انتظر الصلاة**»[١]. وقال أنس: المراد بالآية انتظار صلاة العشاء الآخرة؛ لأن رسول اللَّه ﷺ كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل. قال ابن عطية: وكانت الجاهلية ينامون من أول الغروب ومن أي وقت شاء الإنسان، فجاء انتظار وقت العشاء غريبًا شاقًّا. ومصلي الصبح في جماعة لا سيما في أول الوقت؛ كما كان عليه السلام يصليها.

والعادة أن من حافظ على هذه الصلاة في أول الوقت يقوم سحرًا يتوضأ ويصلي ويذكر اللَّه عز وجل إلى أن يطلع الفجر؛ فقد حصل التجافي أول الليل وآخره. يزيد هذا ما رواه مسلم من حديث عثمان بن عفان قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله**»[٢]، ولفظ الترمذي وأبي داود في هذا الحديث: «**من شهد العشاء في جماعة كان له قيام نصف ليلة، ومن صلى العشاء والفجر في جماعة كان له كقيام ليلة**»»[٣].

قال خطاب السبكي: «دل الحديث -حديث أنس- على الترغيب في الإكثار من الصلاة بين المغرب والعشاء أو على قيام الليل، وعلى مدح من واظب على ذلك، وقد أشار اللَّه تعالى إلى عظم ما يكون لهم بقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[٤]»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٥) ومسلم (١/ ٤٥٩/ ٦٤٩(٢٧٤» وأبو داود (١/ ٣٢٠/ ٤٧١).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٥٨) ومسلم (١/ ٤٥٤/ ٦٥٦) وأبو داود (١/ ٣٧٦/ ٥٥٥) والترمذي (١/ ٤٣٣/ ٢٢١) وقال: «حديث عثمان حديث حسن صحيح».

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٠٠-١٠١).

(٤) السجدة: الآية (١٧).

(٥) المنهل (٧/ ٢٥١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى اللّه لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لما أخفوا أعمالهم أخفى اللّه لهم من الثواب جزاءً وفاقًا، فإن الجزاء من جنس العمل»[1].

قال السعدي: «وأما جزاؤهم، فقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونه نكرة في سياق النفي؛ أي: فلا يعلم أحد ﴿مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، كما قال تعالى على لسان رسوله: «**أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[2].

فكما صلوا في الليل، ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾»[3].

قال ابن عاشور: «ثم عظم اللّه جزاءهم إذ قال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي: لا تبلغ نفس من أهل الدنيا معرفة ما أعد اللّه لهم، قال النبي ﷺ قال اللّه تعالى: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»، فدل على أن المراد بـ(نفس) في هذه الآية أصحاب النفوس البشرية، فإن مدركات العقول منتهية إلى ما تدركه الأبصار من المرئيات من الجمال والزينة، وما تدركه الأسماع من محاسن الأقوال ومحامدها، ومحاسن النغمات، وإلى ما

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٦٦).

(٢) سيأتي تخريجه فيما ورد في السنة من النصوص الصحيحة تحت هذه الآية.

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٨٤).

تبلغ إليه المتخيلات من هيئات يركبها الخيال من مجموع ما يعهده من المرئيات والمسموعات، مثل الأنهار من عسل أو خمر أو لبن، ومثل القصور والقباب من اللؤلؤ، ومثل الأشجار من زبرجد، والأزهار من ياقوت، وتراب من مسك وعنبر، فكل ذلك قليل في جانب ما أعد لهم في الجنة من هذه الموصوفات، ولا تبلغه صفات الواصفين؛ لأن منتهى الصفة محصور فيما تنتهي إليه دلالات اللغات مما يخطر على قلوب البشر، فلذلك قال النبي ﷺ: «**ولا خطر على قلب بشر**»، وهذا كقولهم في تعظيم شيء: هذا لا يعلمه إلا اللّٰه، قال الشاعر:

فلم يدر إلا اللّٰه ما هيجت لنا ... عشية آناء الديار وشامها

وعبر عن تلك النعم بـ ﴿مَّآ أُخۡفِيَ﴾ لأنها مغيبة لا تدرك إلا في عالم الخلود»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الجنة وأنها مخلوقة

* عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «**قال اللّٰه تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «وفي قوله: «**أعددت لعبادي**» دليل على أن الجنة مخلوقة، ويعضده سكنى آدم وحوّاء الجنة، ولمجيئها في القرآن على نهج الأسماء الغالبة اللاحقة بالأعلام: كالنجم والثريا والكتاب ونحوها، وذلك أن الجنة كانت تطلق على كل بستان متكاثف أغصان أشجارها، ثم غلبت على دار الثواب، وإنما قلنا: (اللاحقة بالأعلام) لكونها غير لازمة للام، وتحقيق القول أنها منقولة شرعية على سبيل التغليب، وإنما تغلب إذا كانت موجودة معهودة، وكذلك اسم النار منقول لدار العقاب على سبيل الغلبة، وإن اشتملت على الزمهرير والمهل والضريع وغير ذلك، ولولا ذلك لما كان يغني عن طلب القصور والحور والولدان بالجنة، ولا عن

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٢٩-٢٣٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٩٥) والبخاري (٦/ ٣٩١-٣٩٢/ ٣٢٤٤) ومسلم (٤/ ٢١٧٤/ ٢٨٢٤) والترمذي (٥/ ٣٢٣/ ٣١٩٧) وابن ماجه (٢/ ١٤٤٧/ ٤٣٢٨).

طلب الوقاية من الزمهرير والمهل والضريع عن مطلق النار»[١].

وقال القرطبي: «ومعنى هذا الكلام أن اللَّه تعالى ادخر في الجنة من النعيم، والخيرات، واللذات ما لم يطلع عليه أحد من الخلق، لا بالإخبار عنه، ولا بالفكرة فيه، وقد تعرَّض بعض الناس لتعيينه، وهو تكلف ينفيه الخبر نفسه، إذ قد نفى علمه والشعور به عن كل أحد، ويشهد له، ويحققه قوله: «**بله ما أطلعكم اللَّه عليه**» أي: دَعْ ما أطلعكم عليه. يعني: أن المعدّ المذكور غير الذي أطلع عليه أحدًا من الخلق»[٢].

وقال ابن القيم: «وتأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم حين يقومون إلى صلاة الليل بقرّة الأعين في الجنة»[٣].

* عن أبي هريرة ﵁ قال: «**بينا نحن عند النبي ﷺ إذ قال**: بينا أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ فقالوا: لعمر بن الخطاب، فذكرت غيرته، فوليت مدبرًا. فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟»[٤].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «الغرض منه قوله: «**رأيتني في الجنة**» وهذا وإن كان منامًا لكن رؤيا الأنبياء حق، ومن ثم أعمل حكم غيرة عمر حتى امتنع من دخول القصر»[٥].

وقال القرطبي: «ووضوء هذه المرأة في الجنة إنما هو لتزداد حسنًا ونورًا، لا لتزيل وسخًا ولا قذرًا، إذ الجنة منزهة عن ذلك، وهذا كما قال في الحديث الآخر: «**أمشاطهم الذهب، ومجامرهم الألوة**»[٦]»[٧].

---

(١) شرح الطيبي (١١/ ٣٥٥٢).
(٢) المفهم (٧/ ١٧٢).
(٣) حادي الأرواح (ص٢٥٠).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٩) والبخاري (٦/ ٣٩١/ ٣٢٤٢) ومسلم (٤/ ١٨٦٣/ ٢٣٩٥) وابن ماجه (١/ ٤٠/ ١٠٧) والنسائي في الكبرى (٥/ ٤١/ ٨١٢٨-٨١٢٩).
(٥) فتح الباري (٦/ ٣٩٨).
(٦) سيأتي تخريجه في الباب.
(٧) المفهم (٦/ ٢٥٧-٢٥٨).

* عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «أُتي رسول اللّه ﷺ بثوب من حرير، فجعلوا يعجبون من حسنه ولينه، فقال رسول اللّه ﷺ: لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أفضل من هذا»[١].

⋆ **غريب الحديث:**

المناديل: جمع منديل، وهو هذا الذي يحمل في اليد. قال ابن الأعرابي وغيره: هو مشتقّ من الندل، وهو النقل؛ لأنه ينقل من واحد إلى واحد. وقيل من الندل، وهو الوسخ؛ لأنه يندل به.

⋆ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «وقال العلماء هذه إشارة إلى عظيم منزلة سعد في الجنة، وأن أدنى ثيابه فيها خير من هذه؛ لأن المنديل أدنى الثياب؛ لأنه معد للوسخ والامتهان، فغيره أفضل. وفيه إثبات الجنة لسعد»[٢].

قال الحافظ: «الغرض منه ذكر منادل سعد بن معاذ في الجنة»[٣].

وقال القرطبي: «هذه إشارة إلى أدنى ثياب سعد؛ لأن المناديل إنما هي ممتهنة متخذة لمسح الأيدي بها من الدنس والوسخ، وإذا كان هذا حال المنديل، فما ظنك بالعمامة والحلة؟! ولا يظن أن طعام الجنة وشرابها فيهما ما يدنس يدَ المتناول حتى يحتاج إلى منديل؛ فإن هذا ظن من لا يعرف الجنة ولا طعامها ولا شرابها؛ إذ قد نزّه اللّه الجنة عن ذلك كله، وإنما ذلك إخبار بأن اللّه أعدّ في الجنة كل ما كان يُحتاج إليه في الدنيا، لكن هي على حالة هي أعلى وأشرف، فأعدّ فيها أمشاطًا، ومجامر، وأُلُوّة، ومناديل، وأسواقًا، وغير ذلك مما تعارفناه في الدنيا، وإن لم نحتج له في الجنة، إتمامًا للنعمة، وإكمالًا للمنة»[٤].

وقال ابن الجوزي: «إنما خص المناديل لأنها ليست من رفيع المتاع، وإنما جُعلت للابتذال، فإذا مدح المبتذل دلّ على رفعة المصون، وهذا كقوله تعالى:

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٩) والبخاري (٦/ ٣٩٣/ ٣٢٤٩) ومسلم (٤/ ١٩١٦/ ٢٤٦٨) والنسائي (٥/ ٦٢/ ٨٢٢١) وابن ماجه (١/ ٥٥-٥٦/ ١٥٧).

(٢) شرح مسلم (١٦/ ١٩).

(٣) فتح الباري (٦/ ٤٠٢).

(٤) المفهم (٦/ ٣٨٤).

﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾[(١)]، وفي هذا ثناء عظيم على الظواهر»[(٢)].

* عن أنس بن مالك قال: ما رأيتُ أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول اللَّه ﷺ. قال: كان إبراهيم مسترضِعًا له في عوالي المدينة. فكان ينطلق ونحن معه، فيدخل البيت وإنه ليُدَّخَن، وكان ظئره قينًا، فيأخذه فيقبّله، ثم يرجع.

قال عمرو: فلما توفي إبراهيم قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن إبراهيم ابني، وإنه مات في الثدي، وإن له لظِئرين تكمّلان رضاعه في الجنة**»[(٣)].

★ غريب الحديث:

قينا: قال ابن دريد: أصل القين الحداد، ثم صار كل صانع عند العرب قينا، وجمعه أقيان وقيون.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «قوله: «**وإنه مات في الثدي، وإن ظئرين تكملان رضاعه في الجنة**»: معناه: مات وهو في سن رضاع الثدي أو في حال تغذيه بلبن الثدي، وأما الظِّئر فبكسر الظاء مهموزة، وهي المرضعة ولد غيرها، وزوجها ظئر لذلك الرضيع، فلفظة الظئر تقع على الأنثى والذكر، ومعنى «**تكمّلان رضاعه**» أي: تتمّانه سنتين، فإنه توفي وله ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر، فترضعانه بقية السنتين، فإنه تمام الرضاعة بنص القرآن، قال صاحب التحرير: وهذا الإتمام لإرضاع إبراهيم ﷺ يكون عقب موته فيدخل الجنة متصلًا بموته، فيتم فيها رضاعه، كرامة له ولأبيه»[(٤)].

* عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[(٥)].

---

(١) الرحمن: الآية (٥٤). (٢) كشف المشكل (٢/ ٢٤٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٢) ومسلم (٤/ ١٨٠٨/ ٢٣١٦).

(٤) شرح مسلم (١٥/ ٦١-٦٢).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٣٣) والبخاري (٦/ ٣٩٣/ ٣٢٥٠) ومسلم (٣/ ١٥٠٠/ ١٨٨١) والترمذي (٤/ ١٥٤-١٥٥/ ١٦٤٨) والنسائي (٦/ ٣٢٢/ ٣١١٨) وابن ماجه (٢/ ٩٢١/ ٢٧٥٦).

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**خير من الدنيا وما فيها**»، قال الحافظ: «قال ابن دقيق العيد يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون من باب تنزيل المغيب منزلة المحسوس تحقيقًا له في النفس لكون الدنيا محسوسة في النفس مستعظمة في الطباع؛ فلذلك وقعت المفاضلة بها وإلا فمن المعلوم أن جميع ما في الدنيا، لا يساوي ذرة مما في الجنة. والثاني: أن المراد أن هذا القدر من الثواب خير من الثواب الذي يحصل لمن لو حصلت له الدنيا كلها لأنفقها في طاعة اللَّه تعالى»[١].

وقال أيضًا: «والحاصل أن المراد تسهيل أمر الدنيا، وتعظيم أمر الجهاد، وأن من حصل له من الجنة قدر سوط يصير كأنه حصل له أمر عظيم من جميع ما في الدنيا، فكيف بمن حصل منها أعلى الدرجات، والنكتة في ذلك أن سبب التأخير عن الجهاد الميل إلى سبب من أسباب الدنيا، فنبه هذا المتأخر أن هذا القدر اليسير من الجنة أفضل من جميع ما في الدنيا»[٢].

قال القاري: «أريد به قدر قليل منها، أو مقدار موضعه فيها «**خير**» أي: كمية وكيفية، «**من الدنيا وما فيها**»؛ لأن الجنة مع نعيمها باقية، والدنيا مع ما فيها فانية»[٣].

* عن عبد اللَّه بن قيس الأشعري أن النبي ﷺ قال: «**الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ثلاثون ميلًا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون**»[٤].

★ **فوائد الحديث:**

الإفصاح عن جانب من جوانب الغيب التي أشارت إليه الآية.

سبق الكلام عنه في سورة التوبة الآية ٧٢، الحديث الثاني.

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم**

---

(١) الفتح (٦/ ١٧). (٢) المصدر نفسه (٦/ ١٧).

(٣) المرقاة (٩/ ٥٧٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٠) والبخاري (٦/ ٣٩١/ ٣٢٤٣) ومسلم (٤/ ٢١٨٢/ ٢٨٣٨) والترمذي (٤/ ٥٨١/ ٢٥٢٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى مختصرا (٦/ ٤٧٩/ ١١٥٦٢).

فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون اللَّه بكرة وعشيًّا»(١).

سبق الكلام عنه في سورة البقرة الآية (٢٥) وكذا في سورة مريم الآيتان (٦٢و٦٣).

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها**»(٢).

⋆ فوائد الحديث:

قال المناوي: «وفي ذكر كبر الشجرة رمز إلى كبر الثمرة، ومن ثم ورد أن نبقها كقلال هجر، وذا أبين لفضل المؤمن، وأجلب لمسرته، فحين أبصر شجر الرمان مثلا في الدنيا وحجم ثمرها، وأن قدر الكبرى من الشجر لا يبلغ مساحتها عشرة أذرع، وثمرها لا يفضل على أصغر بطيخة، ثم أبصر شجرة في ذلك القدر، وثمرة منها تشبع أهل دار كان أفرط لابتهاجه واغتباطه، وأزيد لاستعجابه واستغرابه، وأبين لكنه النعمة، وأظهر للمزية من أن يفجأ ذلك الشجر والثمر على ما سلف له به عهد، وتقد له إلف، فإبصاره لها على ذلك الحجم دليل على تمام الفضل، وتناهي الأمر، وأن ذلك التفاوت العظيم هو الذي يستوجب تعجبهم، ويستدعي تحجبهم في كل أوان، فسبحان الحكيم المنان»(٣).

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة يتراءَون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءَون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول اللَّه، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا باللَّه وصدّقوا المرسلين**»(٤).

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٠) والبخاري (٦/ ٣٩٢/ ٣٢٤٥) ومسلم (٤/ ٢١٧٩/ ٢٨٣٤(١٥») والترمذي (٤/ ٥٨٥/ ٢٥٣٧) وقال: «هذا حديث صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٩/ ٤٣٣٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٠) والبخاري (٦/ ٣٩٣/ ٣٢٥١) والترمذي (٥/ ٣٧٤/ ٣٢٩٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) فيض القدير (٢/ ٤٦٧).

(٤) أخرجه: البخاري (٦/ ٣٩٤/ ٣٢٥٦) ومسلم (٤/ ٢١٧٧/ ٢٨٣١). وأخرجه مختصرا: أحمد (٣/ ٢٦) وأبو داود (٤/ ٢٨٧-٢٨٨/ ٣٩٨٧) والترمذي (٥/ ٥٦٧/ ٣٦٥٨) وابن ماجه (١/ ٣٧/ ٩٦).

سبق الكلام عنه في سورة الأنفال الآية ٤، وسورة الفرقان الآيتان (٧٥و٧٦).

* عن سهل بن سعد الساعدي يقول: شهدتُ من رسول اللَّه ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة، حتى انتهى، ثم قال في آخر حديثه: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»، ثم اقترأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾»[1].

* عن المغيرة بن شعبة يرفعه: «**سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب! كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلك مَلِك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ، رب! فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله. فقال في الخامسة: رضيتُ، رب! فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك. فيقول: رضيت، ربّ! قال: ربّ! فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردتُ غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر**». قال: ومصداقه في كتاب اللَّه ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[2].

★ غريب الحديث:

ما أدنى: كذا هو في الأصول، ومعناه: ما صفة، أو ما علامة أدنى أهل الجنة[3].

أخذوا أخذاتهم: هو بفتح الهمزة والخاء، قال القاضي: هو ما أخذوه من كرامة مولاهم وحصلوه[4].

مصداقه: معناه: دليله وما يصدقه[5].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٤) ومسلم (٤/ ٢١٧٥/ ٢٨٢٥).

(٢) أخرجه: مسلم (١/ ١٧٦/ ١٨٩) والترمذي (٥/ ٣٢٤/ ٣١٩٨).

(٣) شرح مسلم للنووي (٣/ ٤٠).

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

★فوائد الحديثين:

قال ابن القيم: «ولما علم الموفقون ما خلقوا له، وما أريد بإيجادهم، رفعوا رؤوسهم، فإذا علم الجنة قد رفع لهم فشمروا إليه، وإذا صراطها المستقيم قد وضح لهم فاستقاموا عليه، ورأوا من أعظم الغبن بيع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر في أبد لا يزول ولا ينفد بصبابة عيش، إنما هو كأضغاث أحلام أو كطيف زار في المنام مشوب بالنغص ممزوج بالغصص، إن أضحك قليلا أبكى كثيرا، وإن سر يوما أحزن شهورا، آلامه تزيد على لذاته، وأحزانه أضعاف أضعاف مسراته، أوله مخاوف، وآخره متالف، فيا عجبا من سفيه في صورة حليم، ومعتوه في مسلاخ عاقل، آثر الحظ الفاني الخسيس على الحظ الباقي النفيس، وباع جنة عرضها السماوات والأرض بسجن ضيق بين أرباب العاهات، والبليات، ومساكن طيبة في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار بأعطان ضيقة آخرها الخراب، والبوار، وأبكارًا عربًا أترابًا كأنهن الياقوت والمرجان، بقذرات دنسات سيآت الأخلاق مسافحات، أو متخذات أخذان، وحورا مقصورات في الخيام بخبيثات مسيبات بين الأنام، وأنهارا من خمر لذة للشاربين بشراب نجس مذهب للعقل، مفسد للدنيا والدين، ولذة النظر إلى وجه العزيز الرحيم بالتمتع برؤية الوجه القبيح الذميم، وسماع الخطاب من الرحمن بسماع المعازف، والغناء والألحان، والجلوس على منابر اللؤلؤ والياقوت والزبرجد يوم المزيد بالجلوس في مجالس الفسوق مع كل شيطان مريد، ونداء المنادي: يا أهل الجنة، إن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا وتحيوا فلا تموتوا وتقيموا فلا تظعنوا وتشبوا فلا تهرموا بغناء المغنين:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي ... متأخر عنه ولا متقدم

أجد الملامة في هواك لذيذة ... حبا لذكرك فليلمني اللوم

وإنما يظهر الغبن الفاحش في هذا البيع يوم القيامة، وإنما يتبين سفه بائعه يوم الحسر والندامة، إذا حشر المتقون إلى الرحمن وفدا، وسيق المجرمون إلى جهنم وردا، ونادى المنادي على رؤوس الأشهاد ليعلمن أهل الموقف من أولى بالكرم من بين العباد، فلو توهم المتخلف عن هذه الرفقة ما أعد اللّه لهم من الإكرام،

وادخر لهم من الفضل والإنعام، وما أخفى لهم من قرة أعين لم يقع على مثلها بصر، ولا سمعته أذن، ولا خطر على قلب بشر، لعلم أي بضاعة أضاع، وأنه لا خير له في حياته وهو معدود من سقط المتاع، وعلم أن القوم قد توسطوا ملكا كبيرا لا تعتريه الآفات، ولا يلحقه الزوال، وفازوا بالنعيم المقيم في جوار الكبير المتعال، فهم في روضات الجنة يتقلبون، وعلى أسرتها تحت الحجال يجلسون، وعلى الفرش التي بطائنها من إستبرق يتكئون، وبالحور العين يتنعمون، وبأنواع الثمار يتفكهون، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون، يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون. تاللَّه لقد نودي عليها في سوق الكساد، فما قلب ولا استام إلا أفراد من العباد، فوا عجبا لها كيف نام طالبها، وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها، وكيف طاب العيش في هذه الدار، بعد سماع أخبارها، وكيف قر للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها، وكيف قرت دونها أعين المشتاقين، وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين، وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين، وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين»[١].

وقد تقدم حديث أبي هريرة ﷺ وحديث سهل بن سعد الساعدي، انظر سورة القصص الآية (٨٠).

* * *

(١) حادي الأرواح (ص٤-٥).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾

★ غريب الآية:

المأوى: مصدر أضيف إليه كإضافة الدار للخلد في قوله: ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾، فالمأوى اسم للمكان الذي يؤوى إليه.

نزلًا: ضيافة. والنزل: ما يهيأ للنازل والضيف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفهذا الكافر المكذب بوعد اللَّه ووعيده المخالف أمر اللَّه ونهيه كهذا المؤمن باللَّه المصدق بوعده ووعيده المطيع له في أمره ونهيه، كلا لا يستوون عند اللَّه، يقول: لا يعتدل الكفار باللَّه والمؤمنون به عنده فيما هو فاعل بهم يوم القيامة»[١].

قال الرازي: «لما بين حال المجرم والمؤمن، قال للعاقل: هل يستوي الفريقان؟ ثم بين أنهما لا يستويان، ثم بين عدم الاستواء على سبيل التفصيل، فقال: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا أن اللَّه أحسن ابتداء لا لعوض، فلما آمن العبد وعمل صالحا قبله منه كأنه ابتداء، فجازاه بأن أعطاه الجنة، ثم قال تعالى: ﴿نُزُلًا﴾ إشارة إلى أن بعدها أشياء لأن النزل ما يعطي الملك النازل وقت نزوله قبل أن يجعل له راتبا، أو يكتب له خبزا، وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يحقق ما ذكرنا وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا

(١) جامع البيان (٢١/ ١٠٧).

أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ﴾ إشارة إلى حال الكافر، وقد ذكرنا مرارا أن العمل الصالح له مع الإيمان أثر، أما الكفر إذا جاء فلا التفات إلى الأعمال، فلم يقل وأما الذين فسقوا وعملوا السيآت؛ لأن المراد من فسقوا كفروا، ولو جعل العقاب في مقابلة الكفر والعمل، لظن أن مجرد الكفر لا عقاب عليه، وقوله في حق المؤمنين (لهم) بلام التمليك زيادة إكرام؛ لأن من قال لغيره اسكن هذه الدار، يكون ذلك محمولا على العارية وله استرداده، وإذا قال: هذه الدار لك، يكون ذلك محمولا على نسبة الملكية إليه، وليس له استرداده بحكم قوله، وكذلك في قوله: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٍ﴾[1] ألا ترى أنه تعالى لما أسكن آدم الجنة وكان في علمه أنه يخرجه منها قال: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾[2]، ولم يقل لكما الجنة، وفي الآخرة لما لم يكن للمؤمنين خروج عنها قال: ﴿لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾[3] و﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٍ﴾ وقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ﴾ إشارة إلى معنى حكمي، وهو أن المؤلم إذا تمكن والألم إذا امتد لم يبق به شعور تام، ولهذا قال الأطباء: إن حرارة حمى الدق بالنسبة إلى حرارة الحمى البلغمية نسبة النار إلى الماء المسخن، ثم إن المدقوق لا يحس من الحرارة بما يحس به من به الحمى البلغمية؛ لتمكن الدق، وقرب العهد بظهور حرارة الحمى البلغمية، وكذلك الإنسان إذا وضع يده في ماء بارد يتألم من البرد، فإذا صبر زمانا طويلا تثلج يده، ويبطل عنه ذلك الألم الشديد مع فساد مزاجه، إذا علمت هذا فقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ إشارة إلى أن الألم لا يسكن عنهم، بل يرد عليهم في كل حال أمر مؤلم يجدد، وقوله: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ يقرر ما ذكرنا، ومعناه أنهم في الدنيا كانوا يكذبون بعذاب النار، فلما ذاقوه كان أشد إيلاما؛ لأن من لا يتوقع شيئًا فيصيبه يكون أشد تأثيرا، ثم إنهم في الآخرة كما في الدنيا يجزمون أن لا عذاب إلا وقد وصل إليهم، ولا يتوقعون شيئًا آخر من العذاب فيرد عليهم عذاب أشد من الأول، وكانوا يكذبون به بقولهم: لا عذاب فوق ما نحن فيه، فإذن معنى قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ ليس مقتصرا على تكذيبهم الذي كان في الدنيا، بل ﴿كُلَّمَآ

---

(١) البقرة: الآية (٢٥).

(٢) البقرة: الآية (٣٥).

(٣) التوبة: الآية (١١١).

أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ وقيل لهم ذوقوا عذابا كذبتم به من قبل، أما في الدنيا بقولكم لا عذاب في الآخرة، وأما في الآخرة فبقولكم لا عذاب فوق ما نحن فيه»[١].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن عدله أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمنا بآياته متبعا لرسله بمن كان فاسقا أي: خارجا عن طاعة ربه، مكذبا لرسله إليه، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾[٤] الآية ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ أي: عند الله يوم القيامة»[٥].

قال السعدي: «ينبه تعالى العقول على ما تقرر فيها، من عدم تساوي المتفاوتين المتباينين، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا﴾ قد عمر قلبه الإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته، من ترك مساخط الله؛ التي يضر وجودها بالإيمان. ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾ قد خرب قلبه، وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه وازع ديني، فأسرعت عنه جوارحه بموجبات الجهل والظلم، في كل إثم ومعصية، وخرج بفسقه عن طاعة ربه. أفيستوي هذان الشخصان؟

﴿لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ عقلًا وشرعًا، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة.

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من فروض ونوافل ﴿فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب، والنفوس، والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه، والنظر إلى وجهه، وسماع خطابه. ﴿نُزُلَۢا﴾ لهم أي: ضيافة، وقرى ﴿بِمَا

---

(١) التفسير الكبير (٢٥/ ١٨٣-١٨٤).
(٢) الجاثية: الآية (٢١).
(٣) ص: الآية (٢٨).
(٤) الحشر: الآية (٢٠).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٦٩-٣٧٠).

كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ﴾ فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم، هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يتقرب إليها بشيء أصلًا سوى الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مقرهم ومحل خلودهم النار، التي جمعت كل عذاب وشقاء، ولا يفتر عنهم العقاب ساعة.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخۡرُجُوا۟ مِنۡهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج، لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ، ردوا إليها، فذهب عنهم روح ذلك الفرج، واشتد عليهم الكرب.

﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ فهذا عذاب النار الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم»[١].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٨٥-١٨٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير -بعد ذكره للأقوال في المسألة-: «وأولى الأقوال في ذلك أن يقال: إن اللّه وعد هؤلاء الفسقة المكذبين بوعيده في الدنيا العذاب الأدنى أن نذيقهموه دون العذاب الأكبر، والعذاب: هو ما كان في الدنيا من بلاء أصابهم، إما شدة من مجاعة أو قتل أو مصائب يصابون بها، فكل ذلك من العذاب الأدنى، ولم يخصص اللّه -تعالى ذكره-، إذ وعدهم ذلك أن يعذبهم بنوع من ذلك دون نوع، وقد عذبهم بكل ذلك في الدنيا بالقتل والجوع، والشدائد والمصائب في الأموال، فأوفى لهم بما وعدهم»[1].

قال السعدي: «وأما العذاب الذي قبل ذلك، ومقدمة له وهو عذاب البرزخ، فقد ذكر بقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: ولنذيقن الفاسقين المكذبين نموذجا من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفا منه قبل أن يموتوا، إما بعذاب بالقتل ونحوه، كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾[2] ثم يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلالتها ظاهرة، فإنه قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: بعض وجزء منه، فدل على أن ثم عذابا أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار.

---

(١) جامع البيان (٢١/ ١١٠).

(٢) الأنعام: الآية (٩٣).

ولما كانت الإذاقة من العذاب الأدنى في الدنيا، قد لا يتصل بها الموت، فأخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك لعلهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[1]»[2].

قال ابن القيم: «وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم عبد اللّه بن عباس على عذاب القبر، وفي الاحتجاج بها شيء؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعي به رجوعهم عن الكفر، ولم يكن هذا ما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن لكن من فقهه في القرآن ودقة فهمه فيه فهم منها عذاب القبر؛ فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين: أدنى وأكبر، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا، فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ ولم يقل: ولنذيقنهم العذاب الأدنى. فتأمله»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن أبي بن كعب رضي الله عنه في قوله عز وجل: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قال: «**مصائب الدنيا، والرُّوم، والبطشة، أو الدخان**». شعبة الشاكّ في البطشة أو الدخان[4].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «قول اللّه تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ فسرها أبي بالأربعة التي ذكر، مصائب الدنيا: رزاياها من الأمراض والآلام، وذهاب الأموال والأهلين، ونحو ذلك. والروم: يعني بها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾، والدخان يعني به قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾، وقد تقدم الخلاف فيه. والبطشة الكبرى: هي ما أوقع اللّه تعالى بقريش يوم بدر من الأسر والقتل، وقال مجاهد: الأدنى عذاب

---

(١) الروم: الآية (٤١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٨٦-١٨٧). (٣) الروح (١/ ٣٣٨).

(٤) عبد اللّه بن أحمد في 'زوائد المسند' (٥/ ١٢٨) ومسلم (٤/ ٢١٥٧-٢١٥٨/ ٢٧٩٩).

القبر، والأكبر عذاب الآخرة. وقال جعفر الصادق: الأدنى غلاء الأسعار، والأكبر خروج المهدي بالسيف. وقال أبو سليمان الداراني: الأدنى الهوان، والأكبر الخذلان. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لكي يرجعوا عن غيهم. قاله الفراء، وعلى مذهب سيبويه: ليصلوا إلى حال يرجى لهم ذلك»[١].

قال شيخ الإسلام: «يدخل فى العذاب الأدنى ما يكون بأيدي العباد كما قد فسر بوقعة بدر بعض ما وعد اللّه به المشركين من العذاب»[٢].

* * *

(١) المفهم (٧/ ٣٨٧-٣٨٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأي الناس أظلم لنفسه ممن وعظه اللَّه بحججه وآي كتابه ورسله ثم أعرض عن ذلك كله فلم يتعظ بمواعظه ولكنه استكبر عنها

وقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ يقول: إنا من الذين اكتسبوا الآثام، واجترحوا السيئات منتقمون»[١].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ أي: لا أظلم ممن ذكره اللَّه بآياته، وبينها له، ووضحها ثم بعد ذلك تركها، وجحدها، وأعرض عنها، وتناساها كأنه لا يعرفها قال قتادة: إياكم والإعراض عن ذكر اللَّه، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة وأعوز أشد العوز وعظم من أعظم الذنوب، ولهذا قال تعالى متهددا لمن فعل ذلك ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي: سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام»[٢].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ يعني لنذيقنهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكروا بآيات اللَّه من النعم أولا، والنقم ثانيا، ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد؛ لأن من يكفر باللَّه ظالم فإن اللَّه لذوي البصائر ظاهر، لا يحتاج المستنير الباطن إلى شاهد يشهد عليه، بل هو شهيد على كل شيء، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[٣] أي دليلك اللَّه لا يحتاج المستنير الباطن إلى دليل على اللَّه، ولهذا قال بعض العارفين رأيت اللَّه

(١) جامع البيان (٢١/ ١١١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٧١).

(٣) فصلت: الآية (٥٣).

قبل كل شيء، فمن لم يكفه اللَّه فسائر الموجودات سواء، كان فيها نفع أو ضر كاف في معرفة اللَّه كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[1] فإن لم يكفهم ذلك فبسبغه عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، فالأول الذي لا يحتاج إلى غير اللَّه هو عدل، والثاني الذي يحتاج إلى دليل فهو متوسط، والثالث الذي لم تكفه الآفاق ظالم، والرابع الذي لم تقنعه النعم أظلم من ذلك الظالم، وقد يكون أظلم منه آخر؛ وهو الذي إذا أذيق العذاب لا يرجع عن ضلالته، فإن الأكثر كان من صفتهم أنهم إذا مسهم ضر دعوا ربهم منيبين إليه، فهذا لما عذب ولم يرجع فلا أظلم منه أصلا، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي: لما لم ينفعهم العذاب الأدنى فأنا منتقم منهم بالعذاب الأكبر»[2].

قال الألوسي: «بيان إجمالي لمن قابل آيات اللَّه تعالى بالإعراض، بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد، وكلمة ثم لاستبعاد الإعراض عنها عقلا مع غاية وضوحها وإرشادها إلى سعادة الدارين، كما في قول جعفر بن علية الحارثي:

ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة   يرى غمرات الموت ثم يزورها

والمراد أن ذلك أظلم من كل ظالم ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قيل: أي من كل من اتصف بالإجرام، وكسب الأمور المذمومة وإن لم يكن بهذه المثابة ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ فكيف ممن هو أظلم من كل ظالم وأشد جرما من كل جارم؟ ففي الجملة إثبات الانتقام منه بطريق برهاني. وجوز أن يراد بالمجرم المعرض المذكور، وقد أقيم المظهر مقام المضمر الراجع إلى من باعتبار معناها، وكان الأصل إنا منهم منتقمون، ليؤذن بأن علة الانتقام ارتكاب هذا المعرض مثل هذا الجرم العظيم. وفسر البغوي المجرمين هنا بالمشركين. وقال الطيبي عليه الرحمة -بعد حكايته-: ولا ارتياب أن الكلام في ذم المعرضين، وهذا الأسلوب أذم؛ لأنه يقرر أن الكافر إذا وصف بالظلم والإجرام حمل على نهاية كفره وغاية تمرده، ولأن هذه الآية

---

(١) فصلت: الآية (٥٣).

(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ١٨٦).

كالخاتمة لأحوال المكذبين القائلين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، والتخلص إلى قصة الكليم مسلاة لقلب الحبيب عليهما الصلاة والسلام إلى آخر ما ذكره، فليراجع»[١].

قال السعدي: «أي: لا أحد أظلم، وأزيد تعديا، ممن ذكر بآيات ربه، التي أوصلها إليه ربه، الذي يريد تربيته، وتكميل نعمته على أيدي رسله، تأمره، وتذكره مصالحه الدينية والدنيوية، وتنهاه عن مضاره الدينية والدنيوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم، والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغي، فلم يؤمن بها، ولا اتبعها، بل أعرض عنها، وتركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين الذين يستحقون شديد النقمة، ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾»[٢].

قال تقي الدين الهلالي: «والمقلدون يدخلون في هؤلاء دخولا بينا، فكل من أعرض عن اتباع الكتاب والسنة داخل في هذا الوعيد دخولا أوليا، ويسمى مجرما شرعا، ويكون متعرضًا لانتقام اللَّه تعالى، كما ترى في أهل هذا الزمان نسأل اللَّه العافية»[٣].

* * *

---

(١) روح المعاني (٢١/ ١٣٦-١٣٧).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٨٨).
(٣) سبيل الرشاد (٣/ ٢٢٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

★ غريب الآية:

في مرية: قال السمين الحلبي: «قيل الشك. وقال آخرون: المرية: التردد في الأمر، وهو أخص من الشك، قاله الراغب، وفيه نظر فإن الشك تردد أيضًا مع تساوي الطرفين».

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد آتينا موسى التوراة كما آتيناك الفرقان يا محمد ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ يقول: فلا تكن في شك من لقائه فكان قتادة يقول: معنى ذلك: فلا تكن في شك من أنك لقيته، أو تلقاه ليلة أسري بك، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله ﷺ. . وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وجعلنا موسى هدى لبني إسرائيل، يعني: رشادا لهم يرشدون باتباعه ويصيبون الحق بالاقتداء به والائتمام بقوله. . وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ يقول -تعالى ذكره-: وجعلنا من بني إسرائيل أئمة، وهي جمع إمام، والإمام الذي يؤتم به في خير أو شر، وأريد بذلك في هذا الموضع أنه جعل منهم قادة في الخير يؤتم بهم ويهتدى بهديهم. . وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يقول -تعالى ذكره-: يهدون أتباعهم وأهل القبول منهم بإذننا لهم بذلك، وتقويتنا إياهم عليه. . وجعلنا منهم أئمة يهدون أتباعهم بإذننا إياهم وتقويتنا إياهم على الهداية إذ صبروا على طاعتنا، وعزفوا أنفسهم عن لذات الدنيا وشهواتها. . وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ يقول: وكانوا أهل يقين بما دلتهم عليه حججنا وأهل تصديق بما تبين لهم

من الحق، وإيمان برسلنا وآيات كتابنا وتنزيلنا»[١].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي لما كانوا صابرين على أوامر اللَّه، وترك زواجره، وتصديق رسله، واتباعهم فيما جاؤوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر اللَّه، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عملا صالحا ولا اعتقادا صحيحا، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ قال قتادة وسفيان: لما صبروا عن الدنيا، وكذلك قال الحسن بن صالح قال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماما يقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا. قال وكيع: قال سفيان: لا بد للدين من العلم كما لا بد للجسد من الخبز. وقال ابن بنت الشافعي: قرأ أبي على عمي أو عمي على أبي: سئل سفيان عن قول علي رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألم تسمع قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ قال: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤساء. قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين»[٢].

قال ابن القيم: «وأما جهاد الشيطان فمرتبتان:

إحداهما: جهاده على دفع ما يلقى إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات. فالجهاد الأول يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعده الصبر قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾، فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين؛ فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات»[٣].

قال السعدي: «لما ذكر تعالى آياته التي ذكر بها عباده، وهو: القرآن الذي أنزله

---

(١) جامع البيان (٢١/ ١١٢-١١٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٧٢).
(٣) زاد المعاد (٣/ ١٠).

على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس ببدع من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي هو التوراة المصدقة للقرآن، والتي قد صدقها القرآن، فتطابق حقهما، وثبت برهانهما، ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته فلم يبق للشك والمرية محل. ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتيناه موسى ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يهتدون به في أصول دينهم، وفروعه وشرائعه، موافقة لذلك الزمان في بني إسرائيل.

وأما هذا القرآن الكريم، فجعله اللَّه هداية للناس كلهم؛ لأنه هداية للخلق في أمر دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة، وذلك لكماله وعلوه ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾[1].

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: علماء بالشرع، وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر اللَّه، وأتباع مهتدون بهم.

والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى اللَّه، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن جماحها في المعاصي، واسترسالها في الشهوات.

﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي: وصلوا في الإيمان بآيات اللَّه إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين؛ لأنهم تعلموا تعلما صحيحا، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.

فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذاك، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين»[2].

قال ابن عاشور: «لما جرى ذكر إعراض المشركين عن آيات الله؛ وهي آيات القرآن في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾، استطرد إلى تسلية

(١) الزخرف: الآية (٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٨٨-١٩٠).

النبي ﷺ بأن ما لقي من قومه هو نظير ما لقيه موسى من قوم فرعون، الذين أرسل إليهم، فالخبر مستعمل في التسلية بالتنظير والتمثيل.

فهذه الجملة وما بعدها إلى قوله: ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ معترضات. وموقع التأكيد بلام القسم وحرف التحقيق هو ما استعمل فيه الخبر من التسلية لا لأصل الأخبار لأنه أمر لا يحتاج إلى التأكيد، وبه تظهر رشاقة الاعتراض بتفريع ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ على الخبر الذي قبله

وأريد بقوله: ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أرسلنا موسى، فذكر إيتائه الكتاب كناية عن إرساله، وإدماج ذكر (الكتاب) للتنويه بشأن موسى وليس داخلا في تنظير حال الرسول ﷺ بحال موسى عليه السلام في تكذيب قومه إياه؛ لأن موسى لم يكذبه قومه ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآيات، وليتأتى من وفرة المعاني في هذه الآية ما لا يتأتى بدون ذكر (الكتاب).

وجملة ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾[1] معترضة وهو اعتراض بالفاء، ومثله وارد كثيرا في الكلام كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾[2] الآية في سورة النساء. ويأتي عند قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ في سورة ص.

والمرية: الشك والتردد. وحرف الظرفية مجاز في شدة الملابسة أي لا يكن الشك محيطا بك ومتمكنا منك أي لا تكن ممتريا في أنك مثله سينالك ما ناله من قومه

والخطاب يجوز أن يكون للنبي ﷺ، فالنهي مستعمل في طلب الدوام على انتفاء الشك فهو نهي مقصود منه التثبيت كقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾ وليس لطلب إحداث انكفاف عن المرية؛ لأنها لم تقع من قبل.. ويجوز أن يكون الخطاب في قوله: ﴿فَلَا تَكُن﴾ لغير معين، وهو موجه للذين امتروا في أن القرآن أنزل من عند اللَّه، سواء كانوا المشركين، أو الذين يلقنونهم من أهل الكتاب، أي لا تمتروا في إنزال القرآن على بشر فقد أنزل الكتاب على موسى فلا تكونوا في مرية من إنزال القرآن على محمد. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾[3]. فالنهي مستعمل في حقيقته من طلب الكف عن المرية في إنزال القرآن..

(١) آل عمران: الآية (١٠٥). (٢) النساء: الآية (١٣٥). (٣) الأنعام: الآية (٩١).

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أشير إلى ما من اللَّه به على بني إسرائيل، إذ جعل منهم أئمة يهدون بأمر اللَّه، والأمر يشمل الوحي بالشريعة؛ لأنه أمر بها، ويشمل الانتصاب للإرشاد؛ فإن اللَّه أمر العلماء أن يبينوا الكتاب ويرشدوا إليه، فإذا هدوا فإنما هدوا بأمره وبالعلم الذي آتاهم به أنبياؤهم وأحبارهم فأنعم اللَّه عليهم بذلك لما صبروا، وأيقنوا لما جاءهم من كتاب اللَّه ومعجزات رسولهم، فإن كان المراد من قوله: ﴿بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ دلائل صدق موسى عليه السلام فالمعنى: أنهم صبروا على مشاق التكليف، والخروج بهم من أرض مصر، وما لقوه من فرعون وقومه من العذاب والاضطهاد، وتيههم في البرية أربعين سنة، وتدبروا في الآيات ونظروا حتى أيقنوا وإن كان المراد من الآيات ما في التوراة من الشرائع والمواعظ فإطلاق اسم الآيات عليها مشاكلة تقديرية لما هو شائع بين المسلمين من تسمية جمل القرآن آيات؛ لأنها معجزة في بلاغتها، خارجة عن طوق تعبير البشر. فكانت دلالات على صدق محمد ﷺ. وهذا نحو ما وقع في حديث رجم اليهوديين من قول الراوي فوضع اليهودي يده على آية الرجم أي الكلام الذي فيه حكم الرجم في التوراة، فسماه الراوي آية مشاكلة لكلام القرآن. وفي هذا تعريض بالبشارة لأصحاب رسول اللَّه ﷺ بأنهم يكونون أيمة لدين الإسلام، وهداة للمسلمين إذ صبروا على ما لحقهم في ذات اللَّه من أذى قومهم، وصبروا على مشاق التكليف ومعاداة أهلهم وقومهم، وظلمهم إياهم»[١].

قال الألوسي: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فيه إشارة إلى ما ينبغي أن يكون المرشد عليه من الأوصاف؛ وهو الصبر على مشاق العبادات وأنواع البليات، وحبس النفس عن ملاذ الشهوات، والإيقان بالآيات، فمن يدعي الإرشاد وهو غير متصف بما ذكر فهو ضال مضلل»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**رأيت ليلة أسري بي موسى رجلًا آدم**

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٣٤-٢٣٧).

(٢) روح المعاني (٢١/ ١٤٢).

طُوالًا جعدًا كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلًا مربوعًا، مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، ورأيت مالكًا خازن النار، والدجال في آيات أراهن اللَّه إياه، فلا تكن في مرية من لقائه». قال أنس وأبو بكرة عن النبي ﷺ: «**تحرس الملائكة المدينة من الدجال**»[1].

* عن ابن عباس عن النبي ﷺ ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ من لقاء موسى ربه ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال: جعل موسى هدى لبني إسرائيل[2].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤٥و٢٥٩) مختصرًا، والبخاري (٦/ ٣٨٦/ ٣٢٣٩) ومسلم (١/ ١٥١-١٥٢/ ١٦٥)(٢٦٧).

(٢) أخرجه: الطبراني في الكبير (١٢/ ١٦٠/ ١٢٧٥٨) وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٩٠) وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح». وصحح إسناده السيوطي في الدر (٥/ ٣٤٣) وزاد نسبته إلى ابن مردويه والضياء في المختارة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٢٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن ربك يا محمد هو يبين جميع خلقه يوم القيامة فيما كانوا فيه في الدنيا يختلفون من أمور الدين والبعث والثواب والعقاب، وغير ذلك من أسباب دينهم، فيفرق بينهم بقضاء فاصل بإيجابه لأهل الحق الجنة، ولأهل الباطل النار»(١).

قال الرازي: «قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٢٥﴾ هذا يصلح جوابا لسؤال: وهو أنه لما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ كان لقائل أن يقول كيف كانوا يهدون؟ وهم اختلفوا وصاروا فرقا، وسبيل الحق واحد، فقال فيهم هداة، واللَّه بين المبتدع من المتبع، كما يبين المؤمن من الكافر يوم القيامة، وفيه وجه آخر، وهو أن اللَّه تعالى بين أنه يفصل بين المختلفين من أمة واحدة كما يفصل بين المختلفين من الأمم، فينبغي أن لا يأمن من آمن وإن لم يجتهد، فإن المبتدع معذب كالكافر، غاية ما في الباب، أن عذاب الكافر أشد وآلم وأمد وأدوم»(٢).

قال السعدي. «وثم مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأه خطأ، أو عمدا، واللَّه تعالى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهذا القرآن يقص على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه، فكل خلاف وقع بينهم، ووجد في القرآن تصديق لأحد القولين، فهو الحق، وما عداه مما خالفه باطل»(٣).

---

(١) جامع البيان (٢١/ ١١٣).

(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ١٨٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٩٠).

قال ابن عاشور: «استئناف بياني لأن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يثير سؤالا في نفس السامع من المؤمنين الذين سمعوا ما في القرآن من وصف اختلاف بني إسرائيل، وانحرافهم عن دينهم، وشاهد كثير منهم بني إسرائيل في زمانه غير متحلين بما يناسب ما قامت به أئمتهم من الهداية، فيود أن يعلم سبب ذلك، فكان في هذه الآية جواب ذلك تعليما للنبي ﷺ وللمؤمنين والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته تحذيرا من ذلك وإيماء إلى وجوب تجنب الاختلاف الذي لا يدعو إليه داع في مصلحة الأمة وفهم الدين.

والفصل: القضاء والحكم، وهو يقتضي أن اختلافهم أوقعهم في إبطال ما جاءهم من الهدى، فهو اختلاف غير مستند إلى أدلة، ولا جار في مهيع أصل الشريعة؛ ولكنه متابعة للهوى، وميل لأعراض الدنيا كما وصفه القرآن في آيات كثيرة في سورة البقرة وغيرها كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾. وليس منه اختلاف أئمة الدين في تفاريع الأحكام وفي فهم الدين مما لا ينقض أصوله، ولا يخالف نصوصه، وإنما هو إعمال لأصوله ولأدلته في الأحوال المناسبة لها، وحمل متعارضها بعضه على بعض فإن ذلك كله محمود غير مذموم. وقد اختلف أصحاب النبي ﷺ في حياته فلم يعنف أحدا، واختلفوا بعد وفاته فلم يعنف بعضهم بعضًا. ويشمل ما كانوا فيه يختلفون ما كان اختلافا بين المهتدين والضالين منهم، وما كان اتفاقا من جميع أمتهم على الضلالة؛ فإن ذلك خلاف بين المجمعين وبين ما نطقت به شريعتهم وسنته أنبياؤهم، ومن أعظم ذلك الاختلاف كتمانهم الشهادة ببعثة محمد ﷺ، وجحدهم ما أخذ عليهم من الميثاق من أنبيائهم. وضمير (هو) في قوله: ﴿هُوَ يَفْصِلُ﴾ ضمير فصل لقصر الفصل عليه تعالى، إيماء إلى أن ما يذكر في القرآن من بيان بعض ما اختلفوا فيه على أنبيائهم ليس مطموعا منه أن يرتدعوا عن اختلافهم، وإنما هو للتسجيل عليهم وقطع معذرتهم؛ لأنهم لا يقبلون الحجة، فلا يفصل بينهم إلا يوم القيامة»[1].

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٣٨-٢٣٩).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر؟ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾(١) ولهذا قال: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي: وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحدا ممن كان يسكنها ويعمرها ذهبوا منها ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾(٢). كما قال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾(٣)، وقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾(٤) ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم، وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم لآيات وعبرا ومواعظ ودلائل متظاهرة ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أخبار من تقدم، كيف كان أمرهم؟»(٥).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن في خلاء مساكن القرون الذين أهلكناهم من قبل هؤلاء المكذبين بآيات الله من قريش من أهلها الذين كانوا سكانها وعمارها بإهلاكنا إياهم لما كذبوا رسلنا، وجحدوا بآياتنا، وعبدوا من دون الله آلهة غيره، التي يمرون بها فيعاينونها، لآيات لهم وعظات يتعظون بها، لو كانوا أولي حجا وعقول، يقول الله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾

---

(١) مريم: الآية (٩٨).
(٢) الأعراف: الآية (٩٢).
(٣) النمل: الآية (٥٢).
(٤) الحج: الآيتان (٤٥و٤٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٧٣).

عظات اللَّه وتذكيره إياهم آياته، وتعريفهم مواضع حججه؟»[١].

قال الرازي: «ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ قد ذكرنا أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ تقرير لرسالة محمد ﷺ، وإعادة لبيان ما سبق في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾، وقوله: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ زيادة إبانة، أي مساكن المهلكين دالة على حالهم وأنتم تمشون فيها وتبصرونها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ اعتبر فيه السمع؛ لأنهم ما كان لهم قوة الإدراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم، فقال أفلا يسمعون، يعني ليس لهم درجة المتعلم الذي يسمع الشيء ويفهمه»[٢].

قال السعدي: «يعني: أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول، ويهدهم إلى الصواب. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ الذين سلكوا مسلكهم، ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ فيشاهدونها عيانا، كقوم هود، وصالح، وقوم لوط.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أن من فعل مثل فعلهم فعل بهم، كما فعل بأشياعه من قبل.

وعلى أن اللَّه تعالى مجازي العباد، وباعثهم للحشر والتناد. ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ آيات اللَّه فيعونها فينتفعون بها، فلو كان لهم سمع صحيح، وعقل رجيح، لم يقيموا على حالة يجزم بها بالهلاك»[٣].

* * *

(١) جامع البيان (٢١/ ١١٤).
(٢) التفسير الكبير (٢٥/ ١٨٧-١٨٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٩٠-١٩١).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نسوق: السوق: الحث على السير.

الجرز: الأرض الجرداء التي لا نبات فيها. أصله من الجَرْزِ، وهو القَطْع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أو لم ير هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت والنشر بعد الفناء أنا بقدرتنا نسوق الماء إلى الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها.. فنخرج بذلك الماء، الذي نسوقه إليها على يبسها وغلظها وطول عهدها بالماء، زرعا خضرا تأكل منه مواشيهم وتغذى به أبدانهم وأجسامهم، فيعيشون به، ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: أفلا يرون ذلك بأعينهم فيعلموا برؤيتهموه أن القدرة التي بها فعلت ذلك لا يتعذر علي أن أحيي بها الأموات، وأنشرهم من قبورهم، وأعيدهم بهيئاتهم التي كانوا بها قبل وفاتهم»[1].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ يبين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء، إما من السماء، أو من السيح، وهو ما تحمله الأنهار، ويتحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾: وهي التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾[2] أي: يبسا لا تنبت شيئًا، وليس المراد من قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود، وإن مثل بها كثير من المفسرين، فليست المقصودة وحدها، ولكنها مرادة قطعا من هذه الآية؛

(١) جامع البيان (٢١/ ١١٤-١١٥).

(٢) الكهف: الآية (٨).

فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطرا لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، وفيه طين أحمر فيغشى أرض مصر، وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء وذلك الطين أيضًا، لينبت الزرع فيه، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء»[1].

قال السعدي: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بأبصارهم نعمتنا، وكمال حكمتنا ﴿أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر، الذي لم يكن قبل موجودا فيها، فيفرغه فيها من السحاب، أو من الأنهار. ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ أي: نباتا مختلف الأنواع ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ وهو نبات البهائم ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ وهو طعام الآدميين. ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ تلك المنة التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهتدون بذلك البصر وتلك البصيرة إلى الصراط المستقيم، ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يبصروا في ذلك بصر الرجال، وإنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة، ومجرد العادة، فلم يوفقوا للخير»[2].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٧٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٩١).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الفتح: الحكم. ويقال للقاضي: فاتح وفتَّاح؛ لأنه يفتح ما أغلق في القضايا ويفصل الحكم فيها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾ إلى آخر السورة، فصار ترتيب آخر السورة كترتيب أولها، حيث ذكر الرسالة في أولها بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ وفي آخرها بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، وذكر التوحيد بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾، وفي آخر السورة ذكره بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾، وذكر الحشر في أولها بقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وفي آخرها بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾. قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لا يقبل إيمانهم في تلك الحالة؛ لأن الإيمان المقبول هو الذي يكون في دار الدنيا، ولا ينظرون؛ أي: لا يمهلون بالإعادة إلى الدنيا ليؤمنوا فيقبل إيمانهم»(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن استعجال الكفار، ووقوع بأس اللَّه بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعادا وتكذيبا وعنادا ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي: متى تنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتا تدال علينا وينتقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين؛ قال اللَّه

---

(١) التفسير الكبير (٢٥/ ١٨٨-١٨٩).

تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ أي: إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الأخرى ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[١]، ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة، وأخطأ فأفحش؛ فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريبا من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾، وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل كقوله: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾[٢] وكقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾[٦]»[٧].

قال السعدي: «أي: يستعجل المجرمون بالعذاب، الذي وعدوا به على التكذيب، جهلًا منهم ومعاندة. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ الذي يفتح بيننا وبينكم، بتعذيبنا على زعمكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم.

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ الذي يحصل به عقابكم، لا تستفيدون به شيئًا، فلو كان إذا حصل، حصل إمهالكم، لتستدركوا ما فاتكم، حين صار الأمر عندكم يقينا، لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح انقضى الأمر، ولم يبق للمحنة والابتلاء محل إذ ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ لأنه صار إيمان ضرورة، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم»[٨].

قال ابن عاشور: «والمعنى إن كنتم صادقين في أنه واقع فبينوا لنا وقته فإنكم إذ

---

(١) غافر: الآيات (٨٣-٨٥).
(٢) الشعراء: الآية (١١٨).
(٣) سبأ: الآية (٢٦).
(٤) إبراهيم: الآية (١٥).
(٥) البقرة: الآية (٨٩).
(٦) الأنفال: الآية (١٩).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٧٤-٣٧٥).
(٨) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٩٢).

علمتم به دون غيركم فلتعلموا وقته. وهذا من السفسطة الباطلة؛ لأن العلم بالشيء إجمالا لا يقتضي العلم بتفصيل أحواله حتى ينسب الذي لا يعلم تفصيله إلى الكذب في إجماله.. فأمر اللَّه الرسول ﷺ بأن يجيبهم على طريقة الأسلوب الحكيم بأن يوم الفتح الحق هو يوم القيامة، وهو يوم الفصل، وحينئذ ينقطع أمل الكفار في النجاة والاستفادة من الندامة والتوبة، ولا يجدون إنظارا لتدارك ما فاتهم، أي إفادتهم هذه الموعظة خير لهم من تطلبهم معرفة وقت حلول يوم الفتح؛ لأنهم يقولون يومئذ: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[1] مع ما في هذا الجواب من الإيماء إلى أن زمن حلوله غير معلوم للناس، وأنه مما استأثر اللَّه به، فعلى من يحتاط لنجاة نفسه أن يعمل له من الآن فإنه لا يدري متى يحل به فـ ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾[2].

ففي هذا الجواب سلوك الأسلوب الحكيم من وجهين: من وجه العدول عن تعيين يوم الفتح، ومن وجه العدول بهم إلى يوم الفتح الحق، وهم إنما أرادوا بالفتح نصر المسلمين عليهم في الحياة الدنيا.

وإظهار وصف الذين كفروا في مقام الإضمار مع أنهم هم القائلون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ﴾ لقصد التسجيل عليهم بأن كفرهم هو سبب خيبتهم.

ثم فرع على جميع هذه المجادلات والدلالات توجيه اللَّه خطابه إلى رسول اللَّه ﷺ بأن يعرض عن هؤلاء القائلين المكذبين، وأن لا يزيد في الإلحاح عليهم، تأييسا من إيمان المجادلين منهم، المتصدين للتمويه على دهمائهم. وهذا إعراض متاركة عن الجدال وقتيا، لا إعراض مستمر، ولا عن الدعوة إلى اللَّه، ولا علاقة له بأحكام الجهاد المشروع في غير هذه الآية»[3].

* * *

---

(١) السجدة: الآية (١٢). (٢) الأنعام: الآية (١٥٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٤٢-٢٤٣).

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ثم قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾ أي: أعرض عن هؤلاء المشركين، وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝١٠٦﴾[(١)] وانتظر فإن اللَّه سينجز لك ما وعد، وسينصرك على من خالفك إنه لا يخلف الميعاد، وقوله: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي: أنت منتظر وهم منتظرون ويتربصون بكم الدوائر ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۝٣٠﴾[(٢)]، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم، وعلى أداء رسالة اللَّه في نصرتك وتأييدك، وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب اللَّه لهم، وحلول عذابه بهم، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل»[(٣)].

قال الألوسي: «فيه إشارة إلى أنه ينبغي الإعراض عن المنكرين المستهزئين بالعارفين والسالكين إذا لم ينجع فيهم الإرشاد والنصيحة، وإلى أنهم هالكون لا محالة؛ فإن الإنكار الذي لا يعذر صاحبه سم قاتل، وسهم هدفه المقاتل، نعوذ باللَّه تعالى من الحور بعد الكور»[(٤)].

قال الرازي: «ثم لما بين المسائل وأتقن الدلائل ولم ينفعهم. قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تناظرهم بعد ذلك، وإنما الطريق بعد هذا القتال. وقوله: ﴿وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ يحتمل وجوها:

أحدها: وانتظر هلاكهم فإنهم ينتظرون هلاكك، وعلى هذا فرق بين الانتظارين؛ لأن انتظار النبي ﷺ بأمر اللَّه تعالى بعد وعده، وانتظارهم بتسويل أنفسهم، والتعويل على الشيطان.

---

(١) الأنعام: الآية (١٠٦).
(٢) الطور: الآية (٣٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٧٥).
(٤) روح المعاني (٢١/ ١٤٢).

وثانيها: وانتظر النصر من اللَّه فإنهم ينتظرون النصر من آلهتهم، وفرق بين الانتظارين.

وثالثها: وانتظر عذابهم بنفسك فإنهم ينتظرونه بلفظهم استهزاء، كما قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾[١] وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٢] إلى غير ذلك، واللَّه أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين»[٣].

* * *

(١) الأعراف: الآية (٧٠).

(٢) النمل: الآية (٧١).

(٣) التفسير الكبير (٢٥/ ١٨٩).

فهرس الموضوعات

سورة العنكبوت

سورة الروم

سورة لقمان

سورة السجدة

* * *